الأوردة المتفجّرة

- فريد بغداد -

الأوردة المتفجّرة

1

للّيلة الثّالثة يسمع رنينا على الرّابعة فجرا بالقرب من رأسه الهامدة على وسادته الوثيرة، أخرج يده من تحت البطّانيّة بحركة آليّة وفظّة كي يُخرس الصّوت المزعج، كما هي عادته دائما حينما يجد نفسه في حاجة إلى مزيد من النّوم، فكّر وهو معلّق بين النّعاس واليقظة بأنّه كان عليه أن يعيد ضبط المنبّه ويعدّل توقيت الاستيقاظ بعد التّطوّرات الأخيرة، لم يعد ثمّة من مسوّغ لنهوضه الباكر فقد أضحى عاطلا. لم يصمت الرّنين رغم أنّه ضغط فوق المنبّه بقوّةِ غيظه، لم يتوقف مع ذلك، تفطّن أنّ مصدره ليس المنبّه بل الهاتف الموضوع إلى جانبه، ليس حدثا استثنائيّا أن يرنّ هاتفه في عمق اللّيل، أَلِف أن يزعجه ويضع حدّا للذّة أحلامه المخمليّة، لم يجبره أحد على وضعه بالقرب من سريره مهما يكن، لقد حرص بنفسه على أن يضعه عند رأسه، بحكم عمله في صحيفة مستقلّة، حتّى ولو أنّه غادرها قبل يومين بمحض إرادته، فإنّ مصادره الإخبارية لم تعلم بالتّغيّر الذي طرأ معه بعد، لا تزال مبرمجة على كونه ما يزال صحفيّا يستقي منها معلوماته الثّمينة وأخباره المستعجلة، لطالما ألحّ عليها أن توافيه بها طازجة حال وقوع الحدث، ولا بأس بأن تزعجه، ولو في أنصاف اللّيالي الوادعة.

انتظر أن ينتهي رنين الهاتف الطّويل والملحّ حتى يتمكّن من استعادة غفوته من جديد، فجأة تذكّر أنه في انتظار مكالمة مهمّة ستنتشله من القاع الذي سقط فيه، رفع سمّاعة الهاتف على عجل مستبقا نهاية الرّنين، وألقى بالغطاء بعيدا عنه، يبدو بعدما أشعل ضوء الأباجورة في الجهة المقابلة لمنضدة

الهاتف، وهو يرفع السّمّاعة ليردّ على المتّصل في هيئة مناوب ليليّ داخل إدارة حكوميّة.
تعرّف على المتّصل من أوّل كلمتين فاه بهما بصوت غليظ مصحوب بلهاث مكتوم، لم يستغرب اتّصاله به في ساعة متأخّرة، ردّ عليه بهدوء وانضباط، إنّه ملازم في الأمن العسكريّ، نادرا ما يتواصل معه، فانشغاله بالتّحقيقات الصّحفيّة حول الفساد في وقت تعيش فيه البلاد أحداثا دامية بسبب الإرهاب، جعل من علاقته بعناصر الأمن العسكريّ تقتصر بشكل شبه حصريّ على انتزاع بعض المعلومات الشّحيحة، يبخل أغلبهم عادة باستخراجها من تقاريرهم الأمنيّة المكدّسة في مكاتبهم المغبّرة والمظلمة، ويحجمون عن كشفها لصحافيّ فضوليّ مثله.
فكّر وهو ينتظر من المتّصل أن يكشف له عن الدّاعي من وراء مكالمته المستعجلة، بعدما أفاض في السّلام عليه والسّؤال عن أحواله والاعتذار عن الاتّصال به في وقت غير مناسب، أنّه سيزوده ببعض المعلومات عن تحقيقٍ حول مافيا العقار كان قد أنهاه قبل ثلاثة أيّام، ولم يكن يدرك بينما كان يسلّمه لرئيس التّحرير بيديه أنّه سيكون السّبب في استقالته من الصّحيفة. كان قد طلب من رجل الأمن قبل أسبوع حينما التقى به على سبيل المصادفة أن يفيده بتفاصيل مهمّة ينهي بها تحقيقه، لم يكن في حقيقة الأمر يودّ الاستعانة بخدماته لولا طبيعة رجال الأمن العسكريّ، يحشرون أنوفهم في أيّ شيء ويلحّون بسماجة على مدّ يد العون لمن يعتقدون أنّهم سيحتاجون إليه في يوم من الأيّام، حتّى دون أن يُطلب منهم فعله، جعله

إلحاح الضّابط على تقديم المساعدة يشعر أنه يضع كمّامة على فمه وأصفادا حول معصميه.
لم يجد وقتها من بدّ كي يتخلّص من حضرة الملازم النّزق في ذلك اللّقاء العابر، سوى أن يخبره بأنّه غارق لأذنيه في إجراء تحقيق حول الفساد، ويبدو أنّه طرح عليه موضوعا لا يحبّذه البتّة، لعلّه كان يأمل من صحافيّ يعيش حالة الإرهاب التي ابتلعت ما سواها من أحداث، أن يستفتيه في مواضيع تتعلّق بآخر المستجدّات حول الأوضاع الأمنيّة المتدهورة، مواضيع يحسن الإفتاء فيها جيّدا، عن الإرهابيّين الذين قضت عليهم مصالح الجيش والدّرك والأمن، حول تحرّكات جماعاتهم وانقساماتها والتّغيّرات الحاصلة على رأس القيادة فيها. كان خوضه في مواضيع الفساد كافيا لأن يقطع لقاءهما المقتضب ويُعجّل من افتراقهما.
قطع صياح المنبّه استغراقه العميق، فأخرسه بقبضة يده.
يفكّر وهو ينصت لسلام الملازم واعتذاراته، في أنّه حتّى وإن جمع له بعض المعلومات المفيدة التي كان يأمل في أن يزوّده بها، ولو كانت على قدر كبير من الأهميّة، فإنّه لم يعد لها الآن من فائدة ترجى، بعد أن قرّر قبل يومين فقط التّوقّف عن العمل بصحيفة السّبق، حين رفض مدير تحريرها التّأشير على نشر مقاله الأخير، كان بمثابة آخر خرزة في سبحة طويلة من المقالات، لم يكن رفضها يحمل في أحشائه مبرّرات إيقاف النّشر.
ثمّ إنّه من المحتمل جدّا أن يكون حضرة الضّابط يقضي مناوبته اللّيلية المملّة ولم يجد شيئا يملأ به فراغ ليله الممتدّ، فوقع اختياره بطريقة الحادي بادي على صحافيٍّ، فكّر في أنّه ربّما يكون متفرّغا بعض الشّيء لضجر مملّ

داهمه داخل مكتب الاستقبال الملاصق لبوّابة الثّكنة، ساعتان قبل انبلاج الفجر.
تلاشت تخميناته أمام حقيقة داعي الاتّصال، لم يطل الكلام بالملازم حتّى ألقاه على سمعه كحجر في بركة مياه راكدة:
- مسعود... هل سمعت بحادثة الاشتباك الذي وقع بين العسكر والإرهابيّين في غابة فنوان بالأمس؟
صمت برهة قبل أن يجيبه، كان سكوته بالقدر الذي هجس في نفسه مرادُ الملازم من خبر كهذا: "هل يعرف أيضا أنّني من فنوان؟"، كان يعتقد أنّ معلومات رجل الأمن العسكريّ حول عنوان إقامته تتوقّف عند اللّافتة التي تنتصب في مدخل مدينة سعيدة، لم يستغرب ذلك من رجل مخابرات، لا شك أنّ أمرا كهذا يدخل ضمن مهامّه المخوّل بها، مسألة الحصول على العنوان الدّقيق لأيّ شخص ليست بالأمر الشّاق على رجلٍ خُلق ليتجسس على تحركات النّاس ويتحسّس سكناتهم، حاول ألّا يكون ارتباكه أطول من اللاّزم فردّ سريعا على سؤال المتّصل:
- لا... حَضَرَاتْ.
تفطّن إلى كون جوابه المختصر يبدو فظّا وغير مهذّب، قد يكون غير مبالٍ بانشغال ضابط المخابرات بأمر الاشتباك رغم تجشّمه عناء الاتصال به في وقت متأخّر كي يبلغه الخبر، حاول أن يستدرك ما فاته ويبدي اهتماما بالموضوع، حتّى لا تظهر مبادرة الملازم الجادّة تافهةً ولا تستحقّ كلّ هذا الحرص لإجراء مكالمة هاتفية في هزيع اللّيل الأخير، استرسل مسعود في

طرح أسئلة متشعّبة، مبديا لهفةً متكلّفة إلى الاستزادة والسّعي للتّعرف على تفصيلات أكثر:

- هل هناك ضحايا من الجانبين؟ كم عددهم؟

- نعم، تسعة إرهابيّين... وا... وا... وعقيد بالجيش.

لم يكن مسعود يتوقع أن يقتل عساكر مفرزة فنوان كلّ هذا العدد من الإرهابيّين، هذه أوّل مرّة يقضي فيها الجيش على إرهابيّين في قرية فنوان بهذا القدر. شعر بأنّ السّرير يضطرب من تحت وركيه، لم يلتفت كثيرا لأمر العقيد المقتول، ولو أنّها أعلى رتبة تطيح بها جماعة عاصم الإرهابيّة. دار في خلده مصير أخيه مرزوق. معقول؟ هل يمكن أن يكون من بينهم؟ إنّهم تسعة. هذا وارد جدّا، احتمال مقتله معهم غير مستبعد.

اعتدل جالسا على طرف السّرير بالقرب من المنضدة التي يعتليها جهاز الهاتف، فقد أصبح لأخبار الملازم قدر من الأهميّة والوجاهة، يقتضي تعديل الوضعيّة لهضمها، سأله هذه المرّة بلهفة غير متصنّعة:

- هل بوسعك أن تبلغني عن أسمائهم؟

- إلى الآن لم ترِد معلومات بذلك، تعلمْ. الأخبار حول الموضوع شحيحة. لم يمضِ على الحادثة غير ساعات قليلة، كما أنّ مقتل ضابط برتبة عقيد سيجبر الجيش على التّكتّم والامتناع عن تسريب تفاصيل.

أنهى مسعود المكالمة سريعا بعدما شكر الملازم، غاص داخل تلافيف دماغه في تفكير عميق، بدأ القلق يلتهم شرايين قلبه، ماذا سيحدث لأمّه وأبيه لو قُتل مرزوق؟ ليته ما كان انضمّ إلى أولئك الأوباش. خطر بباله أن يتّصل بمن يساعده على التّأكّد من الأمر، الفجر لا يزال بعيدا، بينما

يسبح هو غارقا في عرض اللّيل الطّويل، سيكون من غير اللّائق الاتّصال بأحدهم في هذا الوقت المتأخّر، بدا له انتظار الصّباح مملّا ومطيلا للقلق، أطفأ النّور وسعى لأن ينام من جديد، لم تتركه الهواجس التي راحت تحوم فوق رأسه كغربان ناعقة فوق جيفة متعفّنة، حتّى وهو يدفنها مع رأسه تحت الوسادة، أخذت تهجم عليه بمخالبها وتجبره على أن يتعارك معها.

لم يردّ موسى بوزيد على مكالماته العديدة، امتدّت محاولاته لإجرائها من السّابعة إلى منتصف النّهار، ليس من عادة صديقه وابن بلده الذي يعرفه منذ صغره ألا يردّ على مكالماته، ما يعرفه عنه ويشهد له به حقّا وصدقا، أنّه وعلى الرّغم من الثّراء الفاحش الذي بلغه إلّا أنّه بقي متواضعا ودمثا معه، حتّى إنّه لم يغيّر من طريقة معاملته له وكلامه معه، ما يزال يتبادل معه النّكات التي تلامس حدود السّخرية منه، لا يبدي تجاهها أيّ امتعاض أو استنكار رغم أنّه يكبره سنّا، على العكس، ينفجر منها ضاحكا، موسى ليس من النّوع الذي يستثقل النّاس حتّى بعدما أصبح ملياردير، فجأة ومن العدم، لا يزال يحتفظ بطبعه، خدوم وطيّع إلى أقصى الحدود، لكن ما الذي حدث معه؟ ليس من عادته ألا يردّ على المكالمات، غير موجود في مكتبه، ولا في فيلّته الفخمة بالعاصمة، هاتف سيّارته المرسيدس لا يرنّ، لم يردّ سفيان أخوه الأصغر في منزله بسعيدة على اتّصاله، أخبرته السّكرتيرة أنّه لم يزر الشّركة منذ أربعة أيام، لقد كان برفقته قبلها بأسبوع فقط، أمر محيّر حقّا!

سيكون من المجدي الاتّصال بسالم مولاي، زوج أخته وأخو أحمد، أعزّ أصدقائه الذي قُتل قبل أربع سنوات، هكذا فكّر، ردّ سالم على مكالمته من

أوّل محاولة، كان في محلّ بيع قطع غيار العتاد الفلاحيّ، الذي يملكه بوسط مدينة سعيدة، أبلغه أنّه لا يحوز لحدّ السّاعة على تفاصيل عن الواقعة أكثر من تلك التي أفاده بها ضابط الأمن العسكريّ، وعده قبل أن ينهي المكالمة بأنّه سيبحث في الأمر. تذكّر مسعود وهو يقفل الخطّ أنّه كان ينبغي عليه أن يسأله عن موسى صهر أخيه، ربّما يكون على علم بما حدث له، أو يستفسر ميمونة شقيقة موسى وزوجة أخيه، من المؤكّد أنّها تكون على دراية بأمر اختفائه.

* * *

أصبح مسعود يتفادى الذّهاب إلى الجريدة لأي سبب كان في الآونة الأخيرة، تحديدا منذ أن صرّح لمدير التّحرير بقراره النّهائيّ بالتّوقّف عن العمل قبل أربعة أيّام، من غير اللّائق العودة إلى مكان كنت أنت من أصرّ على تركه، صحيح أنّ السّبب خارج عن إرادته، فلو كان الأمر بيده لظلّ في وظيفته، وحتّى مدير تحرير الصّحيفة جمال قاسمي لم يكن يودّ أن تصل الأمور إلى هذه النّهاية المحزنة والمؤسفة، وسواء أكان تركه للعمل بقصد منه أو من دونه، فإنّ رفض نشر مقالٍ يعتبر بمثابة المرحلة الأخيرة في تحقيقٍ استقصائيّ طويل، قد يمتدّ لأسابيع وربّما لأشهر بحالها من العمل المضني، بكلّ ما يصاحبه من جهد وتعب ومتاعب وعوائق، سيجعله حتما يشعر بالخيبة والكآبة حتّى وهو يقبض أتعابه مع نهاية الشّهر، ومهما تكن مبرّرات إيقاف النّشر واقعيّة وموضوعيّة، فإنّه لن يكون بوسعها تفسير إضاعة الوقت و إهدار الجهد وتبذير المال والتّعرّض للمخاطر من أجل تقارير صحفيّة لن تجد في النّهاية من يقرؤها.

كان يفكّر بكلّ ذلك وهو يراجع قراره الأخير بعدم العودة إلى صحيفة السّبق ودخول مكتب مدير تحريرها مجدّدا، ولو من باب الزّيارة الخاطفة أو المجاملة حتّى، على الأقلّ وهو في منتصف طريقه نحو إيجاد بديل أكيد قد يجعله أكثر وجاهة وهو يقابل به جمال قاسمي من جديد، لم يكمل بعد إجراءات السّفر الذي سيتأجّل لبعض الوقت، بعدما حصل على وعد بالعمل كمحرّر في القسم العربيّ لهيئة الإذاعة البريطانية، يومًا واحدا فقط عن توقّفه من صحيفة السّبق، ماذا سيقول لجمال وهو لم يضع أقدامه بعد في مبنى دار البثّ ولم يتخطَّ بقدميه بوابات مطار هيثرو، لا تزالان تذرعان العاصمة طولا وعرضا، ماذا لو أسرّ له بخبر حصوله على وظيفة وهو لم يشتغل بها بعد، كيف حدث كلّ هذا في أربعة أيّام؟! قد يحمل جمال كلامه على أنه مبالغة ترقى إلى الكذب، ومحاولة منه للتّغطية على ظروفه البائسة حتّى لا يثير شفقة أحد أو يمدّ يد الاحتياج إلى كائن من كان، أو ربّما فهم ذلك على أنّه ادّعاء كاذب، من طبعه أنّه يمقت أصحابه وينفر من تلك الأساليب الوضيعة.

الظّرف الضّاغط الذي يعيشه يُثقل على مداركه ويلحّ عليه أن يحثّ الخطى نحو صديقه مدير التّحرير، مهما يكن فهو لن يبخل عليه في مسألة التّأكّد من وضع أخيه، هل قُتل مع التّسعة، أم تراه لا يزال على قيد الحياة؟ لن تكون مهمّة صعبة بالنّسبة لجمال بالمقارنة مع ما يملكه من علاقات وثيقة ووطيدة وممتدّة مع قيادة جهاز الأمن العسكريّ.

جلس مسعود قبالة جمال في مكتبه يتأمّل انفعالاته التي يثيرها الكلام الصّادر من خلف سمّاعة الهاتف، عبر ذلك الخيط الرّماديّ الذي طفق

يعبث به فوق ركبته التي تعتلي فخذه، ورغم أنّه بوسعه أن يسمع نصف المكالمة بوضوح، فإنّه لا يكاد يتبيّن ذلك الخنين الخافت الذي يصدر من السّمّاعة كلّما توقّف جمال عن الكلام، غير أنّه أدرك أنّ رجل المخابرات لا يمكنه أن يزوّد جمال بأكثر من الحروف الأولى لأسماء القتلى التّسعة، كان ذلك على قلّته أحسن من لا شيء، فلربّما استدلّ على اسم أخيه مرزوق سلماوي من الحرفين الأوّلين لاسمه ولقبه، راح جمال يدوّن ما يمليه عليه ضابط الأمن من تلك الثّنائيّات الحَرفيّة، كانت أشبه بإحداثيّات غامضة بالكاد تكشف عن موقع هويّة القتيل، كان يردّدها بصوت مرتفع حتّى يسمعها مسعود:

- (س-د)، (م-ب)، (ق-ل)، (ه-ص)، (خ-ب)، (م-س).

فقَد مسعود تركيزه مع ترديد جمال لأسماء القتلى الثّلاثة المتبقّين، عندما سمع آخر حرفين؛ (م-س)، من المؤكّد أنّه مرزوق سلماوي ومن غيره؟ من المستحيل أن يكون في جماعة عاصم الإرهابيّة من يحمل اسمُه الحروف الأولى ذاتها. من الصّعب حدوث احتمال ضئيل كهذا. لكن لماذا يُستبعد الأمر؟ ربّما يكون مجرّد تشابه في الحرفين الأوّلين لاسم ولقب مرزوق مع عنصر أو حتّى عنصرين آخرين في جماعة عاصم، سأل جمال أن يخبره ببقيّة إحداثيّات الهويّة للقتلى الثّلاثة الآخرين، بينما كان يغتنم فرصة السّبق، فهو اسم جريدته على أيّ حال، ليحرّر خبرا صغيرا حول هويّة إرهابيّ فنوان التّسعة الذين قضى عليهم الجيش، لم يكن من بينهم ثنائيّة (م-س).

لم يشأ مسعود أن يخبر جمال بحقيقة الأمر، قرابتُه من أحد أولئك القتلى. ادّعى أنّ شخصا عزيزا عليه يقطن بفنوان كان قد ترجّاه، بحكم عمله في الصّحافة أن يستقصي له إذا ما كان أخوه من بين القتلى، كان ذلك بعدما سأله جمال عن شروده والتغيّر الذي طرأ فجأة على ملامحه، أوحى له حرص مسعود بأنّه تربطه صلةٌ وثيقة أو قرابةٌ ما بأحد القتلى، لم يجد مسعود ما يخفي به الأمر سوى أن يلفّق ادّعاءً بأنّه يسعى لتقديم خدمة لأحد المعارف، "فقط. هذا كلّ ما في الأمر".

من فوق الطّاولة المقابلة له، كان مسعود قد تناول جريدة السّبق الموضوعة عليها، بدأ يقرأ تفاصيل الخبر الرئيسي حول مقتل عقيد وتسعة إرهابيّين إثر انفجار لغم بقرية فنوان في ولاية سعيدة، أثناء ما كان جمال يجري اتّصاله برجل الأمن. كان الخبر جدّ مقتضب، لكن الصّحفيّ الذي كتبه غاص في تحليل معمّق حول نشاطات المسلّحين المتطرّفين في تلك المنطقة، وذكر أنّ جماعة فنوان أصبحت في وضعيّة صعبة جدّا، خصوصا بعد العمليّات العسكريّة الأخيرة والضّربات الموجعة التي تلقّتها خلاياها في الجبال والغابات المحيطة بالقرية، وأنّ تسليم أميرها المدعو (عاصم) لنفسه رفقة إرهابيٍّ آخر وامرأتين سيفاقم من أوضاع الجماعة الصّعبة أصلا، وسيؤدّي إلى اجتثاثها في المستقبل القريب.

كان مسعود وهو يشيح ببصره بعيدا عن الجريدة، بعدما لفّها وألقاها على المنضدة أمامه، قد لمح إلى اليسار من اسمها الظّاهر أمامه والمكتوب بخطّ غليظ: "السّبق"، في مربّع صغير خبرًا شدّ انتباهه لتضمّنه كلمة "فنوان"،

مسحتها عيناه بسرعة الومض، قبل أن تتراجعا للتّثبّت من كونها موجودة داخل المربّع.
تأكّد من تاريخ صدور الصّحيفة تحت اسمها، "الإثنين 22 أفريل 1996"، رفع الصّحيفة كما هي دون أن يفتحها، وبدأ يقرأ الخبر، كان يتعلّق بتسليم أمير جماعة فنوان (م-ل) المدعو عاصم، 40 سنة رفقة زوجته (ص-غ) 35 سنة وأبنائهما الثّلاثة لأنفسهم، مع إرهابيّ آخر أوردت الصّحيفة الحروف الأولى من اسمه إضافة إلى سنّه، إلى جانب امرأة تدعى (ر-ت) تبلغ من العمر 22 سنة مع طفلها حديث الولادة.
أعاد مسعود الصّحيفة إلى مكانها برفق هذه المرّة، وملامح الاستغراب التي كانت تؤشّر على غوصه في تفكير عميق لا تخفى على سحنته: هل هذا ممكن؟ هل هي رقيّة بنت الحاج الطاهر؟ لقب العائلة هو تهامي. (ر-ت) قد تكون رقيّة تهامي التي اختطفها أخوه مرزوق قبل سبعة أشهر تقريبا. ألهذا الحدّ تكون المصادفة؟! احتمال مقتل مرزوق الكبير وعودة رقيّة إلى أهلها في نفس الوقت! ربّما ليست رقيّة. مجرّد تشابه آخر في الحروف الأولى للأسماء ليس إلّا.
في الشّقّة التي يقطن بها عاود مسعود الاتّصال بصهره سالم، بعدما فقد الأمل في أن يردّ موسى بوزيد على مكالماته العديدة، هذه المرّة خطر بباله أنّ عليه أن يتذكّر ولا ينسى، كما حدث معه في الاتّصال السّابق، أن يطلب من سالم أن يسأل ميمونة عن سرّ اختفاء أخيها موسى. لم يكن مع سالم من جديد حول مقتل مرزوق من عدمه، غير ما أخبره به من وجود عنصر من المتطرّفين العبابسة في جماعة عاصم أصله من قرية تفاسور التي لا تبعد

كثيرا عن فنوان، قال إنّه يعرفه جيّدا ويعرف أباه وأعمامه، اسمه مروان سماحي، ومن الممكن جدّا أن يكون هو من قُتل ضمن التّسعة وليس مرزوق.

أشعر كلام سالم مسعود بارتياح داخليّ بدأ يدبّ في قلبه الذي راح نبضه يتسارع ويشتدّ، أخبره سالم، دون أن يطلب منه حتّى، أنّه سأل ميمونة عن موسى أخيها فأجابته بأنّها لا تملك أيّ معلومات عنه وأنّها هي الأخرى قد فقدت الاتّصال به منذ أسبوع، وأنّ زوجته بختة اتّصلت بها بعد يومين من اختفائه تسألها إن كان لديها أخبار عنه، يبدو أنّه لا أحد يعلم شيئا حول اختفائه الغامض، قال له سالم ربّما يكون قد سافر إلى الخارج لشُغل مستعجل يتعلّق بتجارته في الاستيراد التي بدأها قبل أشهر، ولم يشأ أن يخبر أحدا، ربّما ستكون سفرة قصيرة ومن المؤكّد أنّه سيرجع بعدها ويتجلّى غموض اختفائه.

* * *

حال وصوله إلى سعيدة لم يكن له من وجهة يولّيها سوى شطر بيت أخته رابحة وصهره سالم، مع منتصف النّهار وهو يتخطّى برجله عند الباب عتبةَ المنزل نحو أخته التي فتحته كي يسلّم عليها، كان لا يزال يأمل في أن يكون أخوه مرزوق على قيد الحياة، لولا نظرته إلى وجهها المليء بالدّموع وتكشيرة البكاء التي انبثقت من شفتيها وعينيها المحتقنتين وخدّيها المبتذلين كأنّهما ورقتين مكمّشتين مرميّتين في سلّة مهملات، ثمّ صوتها الباكي الحزين وارتماؤها في حضنه بشدّة، وعناقها الحارّ له بعد غياب لم تره خلاله لثلاثة أشهر، جعلته يفكر في أنّه كان مخطئا في حدسه، أكّدت له رابحة التي كانت

تعصب خمارا أسود على رأسها، أنّ سالم زوجها الذي ذهب ليحضر والديهما من فنوان، قد مرّ عليها قبل ساعة على غير عادته من محلّه، وأخبرها بأنّ جثّة مرزوق موجودة ضمن جثث التّسعة قتلى في ثكنة القطاع العسكريّ.

كان سالم قد تلقّى اتّصالا من مكتب المصالح الأمنيّة، أبلغوه أنّ صهره مرزوق سلماوي من بين القتلى، وأمهلوه مدّة أربع وعشرين ساعة حتّى يتمكّن أقاربه من الدّرجة الأولى فقط، والذين يجب أن يحضروا في وفد واحد فقط، ولمرّة واحدة فقط لإلقاء نظرة أخيرة عليه، وإلّا فإنّهم سيباشرون إجراءات دفنه مع القتلى الآخرين في مكان مجهول، لن يكون بوسع أحد بعد ذلك زيارة قبره الذي سيتحوّل إلى سرّ من أسرار الدّولة، لا يمكن الاطّلاع عليه، ولن يكون بمقدورهم بعدها معرفة مكان القبر فضلا عن زيارته.

كان مسعود أثناء انتظاره لسالم ووالديه يُصبّر أخته ويكفكف دمعها، فكّر بأنّه أحسن صنعا حينما قرّر أن يأتي إلى سعيدة كي يكون بالقرب من والديه وإخوته في ظلّ غموض مصير مرزوق، فاحتمال مقتله ظلّ يلازمه هناك ولم يستبعده، على الرّغم من أنّه كان لديه أمل كبير يكاد يصبح حقيقة، في أن يكون المقتول هو ذلك المدعو مروان سماحي الذي أخبره عنه سالم، وحتّى مع هذا الاحتمال المثير للتّفاؤل لم يشأ أن يصله نعي أخيه وهو في العاصمة، سيُحدث ذلك انقلابا مفاجئا في مواعيده وإرباكا في ارتباطاته، خصوصا أنّه اتّفق مع سمير بن دالي؛ ذلك الباحث الزّراعيّ زميل صديقه المُغتال أحمد مولاي، على تشييعه إلى المطار وتوديعه حينما

يقرّر السّفر إلى كندا، كان مسعود قد اتّصل بسمير وأكّد له بأنّه سيسافر بعد أسبوع.
كان سمير قبلها قد وافق على طلب مسعود له، بعد تحفّظ دام ستّة أشهر، ووعَده بأنّه سيتحمّل عن طيب خاطر أعباء بعث مشروع بحث صديق عمره أحمد، الذي اغتيل بينما كان في طريقه إلى المطار برفقته كي يشيّعه ويودّعه، فقد كان مسافرا إلى إنجلترا بغرض القيام بأبحاث حول القمح الجزائريّ، كان من شأنها، لو أنّ القدر أمهله حتّى يكملها، أن ترفع من مردوديّة إنتاجه بالقدر الذي يتيح اكتفاءً ذاتيّا للبلاد، بل وسيمكّنها من تصدير فائض كبير.
فضّل مسعود بعد أن اطمأنّ إلى أن سفر سمير لا يزال أمامه متّسع من الوقت، بالقدر الذي يتفرّغ معه لأمر أخيه مرزوق ويعود من ثمّ إلى العاصمة لمرافقته إلى المطار، أن يسافر قبل ذلك إلى سعيدة كي يخفّف عن والديه وقع الصّدمة في حال وقوعها ولو بعض الشّيء. شعر بفائدة قراره ذاك وهو بين والديه اللّذين راحا يعانقانه ويحضنانه بقوّة، فعلًا كما خمّن، فقد كان سلواهما وعزاءهما عن فقدهما لمرزوق.
في طريقهم إلى ثكنة القطاع العسكريّ، راح سالم يسرد على مسعود ما وقع لقائد المفرزة العسكريّة التي كانت تمشّط الغابة، يوم حادثة مقتل العقيد والمتطرّفين التّسعة، أخبره بأنّه سمع قبل قليل أنّ عناصر في مكتب المصالح الأمنيّة ألقوا القبض على النّقيب "بوعصا"، قائد تلك المفرزة، وأنّ كلاما كثيرا ومتضاربا يدور حول أسباب توقيفه؛ فمن قائل بأنّ ذلك كان نتيجة تهاونه في توفير الحماية للعقيد، إلى مصرٍّ على كون النّقيب متورّط في سرقة

عتاد كان موجودا بداخل حظيرة المفرزة قبل أن يسكنها الجنود، أخبره سالم بأنّ بعض القرويّين كانوا يشكّون في تصرّفاته، منذ طلب من أحدهم أن يستخدم شاحنته لنقل أغراض من مقرّ المفرزة القديم، الذي كان بالمتوسّطة قبل أن يتمّ إخلاؤها لتعاود استقبال التّلاميذ، إلى ثكنتهم الجديدة في مقرّ الدّيوان الوطنيّ للغابات، وأنّه زعم حاجته للشّاحنة لجلب عتاد لمفرزته من النّاحية العسكريّة بوهران، قال له سالم أنّ هناك من القرويّين من شاهدوها وهي تخرج محمّلةً قبيل الفجر باتجاه طريق سعيدة، وهو أمر أثار استغرابهم وشكوكهم.

لم يتمالك والدا مسعود نفسيهما وهما ينظران إلى مرزوق الممدّد أمامهما، وإلى رفاقه المكدّسين بجانبه، كان أحدهم ملفوفا في ملاية بيضاء تبرز منها رأسه المثقوبة برصاصتين. تنبعث رائحة الموت قتلاً من جثث المتطرّفين التّسعة، بقيت لأربعة أيّام داخل غرفة تبريد، صارت مخصّصة لاستقبال جثث الإرهابيّين في الحالات الاستثنائيّة، حيث إنّ ذلك يتمّ في العادة داخل ثلّاجة الموتى بمستشفى المدينة، تعلو الأوساخ والتّقرّحات جلودهم المخرّقة بالرّصاص، شعورهم الشّعثاء، الملتفّة والطّويلة كأنّها صوف غُزل قبل أن يُغسل، تمتدّ شقوق عميقة على أعقاب أرجلهم الممدّدة، كأنّها أخاديد أو خنادق حُفرت في جلدها الغليظ واليابس.

تمنّى مسعود لو أنّه تمكّن من الوصول إلى مكان موسى بوزيد أو العثور عليه، ليته ردّ على مكالماته، على الأقل كان سيستخدم وساطاته العديدة، من أجل والديه، ربّما كان بوسعه أن يساعدهم في استلام جثمان مرزوق، من المؤكد أنّ أمّه التي تقف على رأسه الآن منهارة تملؤها الحسرة ويقطّعها

الأسى، تودّ لو أنّه كان باستطاعتها أخذه معها إلى البيت لتنظّفه وتزيل عنه كومة الشّعر تلك، وتغسّله وتعطّر جسده، سيكون من الأحسن دفنه في مقبرة سيدى مبارك، أو في أيّ مقبرة أخرى معروفة، المهمّ أن يصبح بمقدور أمّه فاطمة أن تزوره وتقف على قبره.

حاول مسعود أن يفعل أيّ شيء ولو بدا رمزيّا وبسيطا من أجل جبر خاطر والديه وتطييبه، ترجّى من ضابط عسكريّ كان يرافقهم أن يسمح لهم بأداء صلاة الميّت عليه، تفهّم الأمر واستجاب بسرعة، خصوصا بعدما أخبره مسعود بأنّه يعمل في العاصمة بصحيفة السّبق ذائعة الصّيت، أدخل بذلك نوعا من الاحترام إلى قلب الضّابط، الذي سمح لوالديه بأن يتوضّآ في دورة مياه نظيفة مخصّصة للضّباط غير بعيد من المكان.

أَمَّ مسعود والديه وسالم، الذي مكّنه عسكريّ عند البوّابة من مرافقتهم رغم أنّه غير مسموح له، في الصّلاة على مرزوق، بدأ يرتجف وهو يقف أمامه، انهالت عليه الذّكريات التي جمعت بينهما، على قلّتها، خصوصا في السّنتين الأخيرتين اللّتين أمضاهما مرزوق في الجبل مع المتطرّفين، تذكّر الشّجار الذي نشب بينهما في بيتهم حينما تسلّل إليه مرزوق خلسة وهدّده، وتوعّده بالقتل إن هو لم يترك مهنة الصّحافة، كانت آخر مرّة يراه فيها، لم يعد إلى فنوان بعدها.

عاد بذاكرته إلى الوراء بعيدا، أيّام الطّفولة، حينما كانا طفلين صغيرين يتشاجران على كلّ شيء؛ على تلبية أوامر والدهما في أيّ شيء كان يطلبه في البيت أو يودّ شراءه من دكّان محمود البقّال، كانا يتنافسان عند باب البيت لحمل ما يُحضره معه حال عودته، حتّى على اعتلاء ظهره وتدليكه

بأرجلهما وهو مستلق على بطنه... لماذا يا مرزوق؟ لماذا اخترت تلك الطّريق المظلمة؟ ليتك عدت إلينا قبل أن يُكبّل حبّ الانتقام مداركك ويعمي بصيرتك.

عاد مسعود إلى ذلك اليوم، كما سردت عليه أمّه تفاصيل وقائعه التي حدثت قبل أن يلتقي بها بساعتين بعد عودته من العاصمة، وإلى ما كان قد عاينه بنفسه بعدها في يومِ خيبة مرزوق التي قلبت حياته، وحياتهم معه، وتسبّبت في صراعه مع الأمل ومصرعه بعد الألم، حتّى وهو يرحل عن عالمه بعد عامين من تلك الانتكاسة القاتلة ببطء. خيالاتٌ تلفّ داخل دماغه وتتبّع تلافيفه. تنخر تجاويفه مع الحسرة التي كانت تعتصر فؤاده، عاد إلى بداية قصّة مرزوق. بل تعاستهم.

* * *

I

فنوان

2

تغمر السّعادة قلبه إذ يقف في حوش منزلهم، يمسك بيدٍ لسان قفل الباب ويلوّح بسبّابة الأخرى محدّدا بدقّةِ حريصٍ شروطا ووصايا، يمليها على أمّه التي تتأهّب للخروج، تلقي بطرف حايكها الأبيض المصفرّ على رأسها، تتأفّف مستثقلة إلحاحه، وبرفقة أختها وابنتها وابنها الصّغير يتوجّه الوفد النّسوي إلى بيت الحاج الطّاهر تهامي لخطبة ابنتهم، لم تكن خطبة، كان جسّ نبض ومحاولة إبداء نية بالزّواج بالأحرى.

لم يتمالك نفسه المتفلّتة كماء يتملّص من بين الأصابع، في انتظار عودتهن بخبر يعيد لوجهه توازن قسماته المضعضعة التي أخفق ابتهاجه العارم في إخفائها، لا يزال كما هو بطبعه، عَجول يمقت تثاقل النّسوة وتأنّيهنّ المبالغ فيه وأحاديثهنّ المطنبة لساعات طوال، وكأنّهنّ التقين بعد غياب سنوات عديدة، يتململ من كثرة كلامهنّ في مواضيع تقتضي الاقتضاب والإيجاز والإنجاز معا، دأب منذ طفولته على أن يكون مختصرا لا يحبّ ثرثرتهنّ وفذلكتهنّ المسهبة، خصوصا في هذا اليوم الذي بدت دقائقه كدهور سرمديّة لا تنتهي.

يبتعد عن بيتهم والفرح بادٍ على محيّاه لا يمكنه بأيّ حال إخفاؤه مهما تصنّع الحزن، وهو عند مدخل مقهى القرية الوحيد في ظهر يومٍ سّرياليّ حالم، يرمق أقرانه المعتكفين حول طاولة مربّعة منغمسين في جولة دومينو، بعدما استفزه صياحهم وضجيجهم الممتدّ إلى أحواش فنوان المجاورة، تدحرج داخل ملابسه الصّيفية يبثّ خلفه رائحته المميّزة التي أحالت

زقاقهم إلى حقل خزامى، كلّما اقترب من المقهى كان يسمع صوتا إضافيّا جديدا؛ صراخ ميمون الحانق من طريقة شريكه المبتذلة والفاشلة في اللّعب، فنداء حسان طالبا من جلّول صاحب المقهى قهوة مضغوطة تسدّ رأسه المثقوبة من كثرة احتمال حسابات لعب خصميه المبهمة، وحيرته الملحّة من غموض ما تخبّئه أصابع يدي شريكه اللّتين لا تكفّان عن العبث بحجرين، إلى ضرب الأحجار على الطّاولة ثمّ قعقعتها بين الأيدي لحظة دخوله.

لم يسبق له أن زهد في مشاهدة جولة دومينو كما يحدث معه السّاعة، لم يغرِه إفساح حسان المجال له للّعب حينما التفت إليه، وهو خلفه جاثم فوق رأسه كجبل جيرة المشرف على فنوان، وقد كان من عادته أن يتصارع معه حتّى يخلي له المكان كي يبدأ هوايته المفضّلة في فراغ القرية القاتل، لا يملؤه بعد مكابدة يوم شاقّ من العمل في ورشة المتوسّطة الجديدة، سوى الجلوس إلى الخلّان على طاولة تحتفي بكؤوس القهوة المضغوطة وأحجار الدّومينو المبعثرة فوقها، كبلادٍ محرّرة تفخر بجنودها البواسل وهم يستردّون آخر ثغرٍ فيها.

عبثا يحاول قتل المزيد من الدّقائق الجامحة، تصرّ على أن ترفسه وتتمنّع من أن تضع رقابها على مذبح أمنيّاته المستعجلة والمتلهّفة لخبر سعيد، تزفّه له أمّه من بيت الحاج الطّاهر تهامي، تملّكه الملل واستبدّ به السّأم وامتزج بمشاعره الدّافقة وحنينه لرقيّة وشوقه الملتهب ضجرٌ ثقيل ببطء الوقت.

لم يجد من بدّ أمامه بينما يهمّ بمغادرة المقهى، لحظة وقوفه على بابها تائها ومتردّدا يتأمّل الغابة الشّاسعة على مدّ البصر، سوى أن يرحل إلى أعماقها

المتلاشية في ألق سحرها الأخّاذ، فلربّما أمكنه ذلك من أن يمحو بعض الدّقائق من سجلّ عمره المضطرب، ويضع حدّا لهذا التّوقّف الكونيّ المفاجئ.

تجذبه الغابة إليها كما تفعل بالوحوش والسّباع، كما لو أنّها تريد أن تسرقه من فنوان، وتختطفه بعبق أريجها الفاتن. يتجوّل داخلها غير آبه بخضرتها وطراوة نسائمها وعذوبة هوائها المشبع بروائح الرّياحين الفوّاحة والنّباتات العطريّة بعبيرها النّفّاذ من نابطة وفليّو.

أشرف على تلّة تنتهي بجرف صخريّ يطلّ على القرية، كأنّها في استوائها ركحُ مسرح مفتوح على جمهوره العريض، عيناه لا تبرحان دار الحاج الطّاهر وترمقانها بتلألؤ مشعّ وبرغبة جامحة أيضا، يتخيّل أمّه وخالته وأخته الصّغرى وهنّ جالسات إلى زهرة أمّ رقيّة، التي أبعدها حياؤها العذريّ عن مجلسهنّ الفاحش، يتسامرن بعدما أسعدهن جميعهنّ الالتقاء على هذا الحدث السّار والسّعيد، زواج مرزوق برقيّة، هكذا راح يغري نفسه المتوثّبة ويملأ مشاعره من كؤوس حبّ رقيّة المترعة.

تبدو فنوان له أكثر فتنةً وإغراءً من أيّ وقت مضى، كعروس ليلة زفافها في غاية الجمال والفرح، بينما يجيل بصره عن يمينه تلتصق عيناه البنيّتان بسيّارة قادمة من بعيد، تنساب بين أشجار السّرو والبلّوط والصّنوبر المصطفّة على جنبات الطّريق التي بدت كخيط أبيض دقيق، بهندسة إلهيّة غاية في الإبداع والإتقان، يلمع الزّجاج الأماميّ في السيّارة ويزداد وهجا كلّما اقتربت من القرية، حتّى إذا ما أصبحت في مقابل عينيه المقطّبتين تحت يده التي نصبها فوقهما حتّى يبعد عنهما أشعّة الشّمس فتتيح لهما رؤية

واضحة، أدرك أنها سيّارة النّقل الجماعيّ الوحيدة في فنوان، ومن البديهيّ أن تكون قادمة من سعيدة.
من الطّريق بين سعيدة وسيدي بلعباس، وبالاتجاه غربا وعلى بعد عشرين كيلومترا، يصبح الانعطاف نحو الجنوب ضروريّا لبلوغ فنوان، على طريق بلديّ ضيّق يصل إلى مولاي العربي ليشقّ مساره نحو الجنوب الجزائريّ، لا تلبث الطّريق بعدها أن تمتدّ لأكثر من عشرة كيلومترات حتّى تتّصل بطريق الصّحراء. وقبل بلوغ فنوان يزداد النّسيج الغابيّ والدّغليّ كثافة ومعه تبدأ الأرض في الارتفاع، لتكشف عن سلاسل جبليّة مختلفة الاتّجاهات تلتفّ وتتعانق فتخنق القرية أو تكاد، في وسطها يجد الواقف نفسه محاطا بغابات الصّنوبر في كلّ اتّجاه تقريبا.
القرية منقسمة إلى نصفين، كلّ جزء يشكّل نسيجا عمرانيّا بطابع خاص ونشأة تاريخيّة مغايرة. ينشر حيّ الباطيمات دُوره جنوبيّ القرية، الباطيمات كلمة فرنسيّة تعني البنايات، تمّ التّعدي على موسيقاها لتأخذ لحنا عربيّا خالصا، بنتها الإدارة الاستعماريّة في ذروة الثّورة الجزائريّة، ضمن مخطّط عمرانيّ كان يهدف إلى إجبار الأهالي على التّقوقع داخل محتشدات تحفّها الأسلاك الشّائكة من كلّ صوب، كان الغرض من تلك العزلة الإجباريّة قطع خطوط التّموين والإسناد عن الثّورة التّحريريّة وتفجير أوردتها.
تتشكّل كلّ بناية من بنايات الباطيمات من غرفتين متلاصقتين، حيطانها من ألواح الخرسانة خفيفة التّسليح يغطّيها قرميد أحمر. بعد الاستقلال بدأ سكّان الباطيمات يضفون بعض الهندسة المستحدثة على تلك البنايات

المتباعدة، والتي تفصلها عن بعضها مسافاتٌ ليست بالقليلة، أغرت المساحات الشّاسعة بينها سكان القرية على أن يقتطع كلّ واحد قطعة الأرض القريبة من بيته ليضمّها إلى ملكيّته الخاصة، مستخدما بالإضافة إلى مزاجه مخلّفات المحتشدات من سياج شائك وأوتاد وأسلاك. وبمرور الزّمن بدأ البناء يحتلّ مكان الأسلاك الشّائكة، لتتشكّل في محيط البنايات أسوارٌ حجريّة مكسوّة بالإسمنت غير المطليّ، منحت الباطيمات ملمحا رماديّا شاحبا وكئيبا، وحوّلت القرية الطّافحة بالحياة إلى مقبرة للبشر الأحياء.

سنوات ليست بالعديدة بعد بناء الباطيمات، بدأ في شمال القرية حيّ جديد في التّشكّل، منحته مواد البناء المستعملة فيه اسمه، الباربار، كلمةٌ من أصل فرنسيّ أيضا لبست لكنة محليّة، تعني اللّبنات الإسمنتيّة، التي كانت تستخدم في بناء ذلك الحيّ الجديد، أنشأه الفنوانيّون بتخطيط مستحدث جعل من بناياته أكثر تلاصقا والتحاما، فتكوّنت أزقّة ضيّقة، هي أشبه بالشّوارع القصيرة، ظلّت دروبها ترابيّة. أمّا الجزء الفاصل بين الباطيمات والباربار فقد بدأ يصل بينهما تدريجيّا ومع مرور الوقت، بعدما بني المسجد ومركز البريد والحمّام مع نهاية الثّمانينات ومطلع التّسعينات، ولم يعد لذلك الفصل اللّغويّ من معنى أو مبرّر لوجوده حينما صارت القرية نسيجا واحدا، فبدأت تختفي من قاموس الفنوانيّين كلمتي باطيمات وباربار.

لا يتذكّر مرزوق عن سكّان فنوان أشياء كثيرة، مع إطلالته العامّة على القرية، وهو يأخذ بعينيه صورة بانوراميّة عنها، يجول في خاطره أنّ أغلب سكّانها يحملون كُنيةً ساخرة تدلّ على موقف مميّز عايشه صاحبه أمام سليطي اللّسان من أهل القرية، الذين لا يفوّتون فرصة تأريخ ذلك الموقف المضحك

والسّاحر وتوثيقه، فيرسّخون تلك الكنية التي تعكس في الغالب سلوكا أهوجا أو فظّا أو قبيحا، أو عادة دميمة وخبيثة أو عيبا خلقيّا أو عاهة مستديمة.

ينتصب مرزوق واقفا بشموخ فوق الصّخرة العملاقة يستعيد ذكرياته مذ كان طفلا يلهو في أزقّة فنوان التي لم يعرف غيرها ولم يغب عنها، سوى ما كان من سنتين أمضاهما في الخدمة الوطنيّة متنقّلا بين وهران في الغرب على السّاحل، وتبسّة في أقصى الشّرق الجزائري، حتّى إنّه عاد مزهوا بلهجة أهلها القريبة حدّ التّطابق من اللّهجة التّونسيّة، وكان يبدو وهو يتكلّم بها بين أصحابه كأنّه غريب عن القرية، حتّى إنّهم صاروا ولمدّة ليست بالقصيرة ينادونه "الشّاوي".

تجاوز مرزوق الثّالثة والعشرين ببضعة أشهر، لم يُكتب له أن يكمل مساره التّعليمي فقد افترق معه في السّنة التّاسعة من المتوسّط، بعدها أرغمه والداه على كسب عيشه بيديه، فلم تكن حياتهما البسيطة تسمح لهما بالإنفاق عليه وعلى إخوته الأصغر منه.

قبل تلك الأيّام بأشهر، في صيف واحد وتسعين، كان مرزوق يعمل بالقرب من بيت الحاج الطّاهر، وكم كان قلبه يمتلئ بهجة إذ يدفع بكلّ ما أوتي من قوّة عربة الخرسانة، ليس فقط لأنّه سيحصل في نهاية يومه على مئتي دينار، فذلك المشهد وهو يضعها في جيبه وعلى أهمّيّته لن يفوق شعوره بأنّه أقرب ما يكون إلى رقيّة، كان مرزوق يمنّي نفسه ويسرّي عن آلامها بقربه من رقيّة كلّما اشتاق لرؤيتها، لم يبق الكثير وسيتمكّن بما يجمعه من مال، على قلّته، من أن يتقدّم لخطبتها، هكذا كانت تحدّثه نفسه ويمنّيه قلبه المعذّب بحبّها.

رقيّة، تلك الفتاة الفاتنة، لا يزال يتذكّر سحنتها الخمريّة المشربة ببياض رقراق، وابتسامتها وقهقهاتها التي كان قلبه المسكين يخلع جاذبيّة لموسيقاها السّحرية المتدفقة كساقية في يوم ربيعيّ، تملؤه الأطيار زقزقة وتغمره الفراشات حبورا وبهجة، كم يشتاق إلى ذلك الوجه القمريّ المستنير بصفاء الحياة الهانئة والبريئة، وقوامها العذريّ المتناسق، أيّام كانت تدرس في مدرسة القرية، ومنذ أن بلغت الثّانية عشر لم يرها، فلا مجال في فنوان لأن تكمل البنات دراستهنّ خارجها بعد اجتيازهنّ للمرحلة الابتدائيّة، أو أن تضطرّ الواحدة منهنّ إلى مقارعة يوميّات المبيت في داخليّات متوسّطات سعيدة وعين الحجر، غير مسموح بذلك بتاتا، ولعلّ هذا الهجران الاضطراريّ كان سببا وجيها في ذهول مرزوق عن دراسته ورسوبه فيها فيما بعد.

* * *

عاد الوفد الخاطب إلى الحوش، وكم كانت دهشة فاطمة كبيرة وهي ترى إلى جوار زوجها عبد القادر أعزّ ضيف يمكن له أن يفاجئها بقدوم استثنائيّ، تحفّه جلالة مشهد وجهه الذي لم يبرح الطّفولة في نظرها، رغم أنّ مسعود ابنها البكر الذي جاء من العاصمة ليزورها بعد غياب نصف عام قد جاوز السّادسة والعشرين بما يقارب السّنة، فأمّه لا تحسن عدّ أزمنة الفراق إلا بالسّنوات، طالما أنّ الأشهر لا تعبّر بصدق عن مقدار لهفتها على أبنائها حين ينقطعون عنها لأسباب قاهرة ووجيهة، وعمل مسعود في صحيفة بالعاصمة يجعلها تغفر له هذا الفراق السّمج.

لحظات احتضانه أشبه بمذاق الشّوكولاطة الذّائبة في لسانها، وهي تغمر مستشعرات التّذوّق خاصّتها بالسّعادة إلى حدّ الثّمالة، وكلّما حاول مسعود أن يتملّص من حضنها الأموميّ الدّافئ ليكحّل عينيه بوجه مشرق وضّاء، طالما أوحشه في الشّقة التي يتقاسمها مع صديقه أحمد مولاي بالعاصمة، تجذبه فاطمة إليها وتمنعه من أن يسحب حضنه من رأسها المستلقي عليه، فلِملمس حضن مسعود راحةٌ غامرة وكأنّه قطعة من الجنّة، لم تبرحه إلّا ومقلتاها تنهمران بالدّموع، هذه المرّة بدت دموع حزنها غير عاديّة، ليس الأمر مجرّد أسى ولوعة على فراق مسعود الذي أصبح لا يطاق، فسرعان ما تحوّل بكاؤها إلى عويل وآهات لا تنتهي، أمسك مسعود برأس أمّه بين يديه وهو يرمقها مستغربا هذه الزّيادة البكائيّة اللّازمة والمفاجئة، لم يعهدها منها طوال زياراته السّابقة التي كانت تعقب غيابه عنها. سألها متعجّبا من ذلك:

- أمّي، ما الذي يبكيك، ليس من عادتك أن تذرفي عليّ كلّ هذه الدّموع.
- دعني أفرغ ما في قلبي الطّافح.
- أمّي لا تخفي عنّي، ما الذي حدث؟
- دار الحاج الطّاهر. رفضوا تزويج ابنتهم لأخيك.
- المكتوب يا أمّي، وأنت لماذا تقتلين نفسك بكلّ هذا البكاء، أمن قلّة نساء يعني؟
- لقد أخبرته. لكنّه عنيد ومكابر، الحاج الطّاهر متعجرف ومرائي والزهرة امرأته مغرورة ومتبجّحة، ونحن على قدّ حالنا. ركب رأسه ولم يصغ إلى كلامي.

في هذا الموقف الرّثائي الحارّ لم ينتبه الجميع لمرزوق الواقف بالحوش والعائد من الغابة، لقد سمع كلّ كلمة قالتها أمّه فاطمة بإنصات شديد، كان وقع الصّدمة عنيفا عليه، لم يتحمّل قسوة الرّفض بطبعه الأنِف، خرج من البيت دون أن يعرف وجهة محدّدة ينتهجها، لا يدري أين يذهب، كالمجنون يسارع الخطى بجسمه المثقل حزنا على محبوبة عاشت بين أضلعه ردحا من الزّمن، فأنّى له أن يخرجها من قلبه الواهن بعد أن لاح له اللّقاء مستحيلا.
تذكّر أخته رابحة، يحتاجُ إلى امرأة تسمع أنينه وتفهم همومه وتقاسمه حزنه الهاجم، لعلّه بإلقائه شيئا من مآسيه عليها، تخفُت مشاعره الجانحة والملتهبة التي يذكيها وقود الحرقة والحسرة على فقده لأجمل إنسان في الوجود، كان بإمكانه أن يمنحه سعادة لا تزول ولا تضمحلّ.
الموقد مشتعلٌ في زاويةٍ بمطبخ بيت أخته كما قلبه، تتوهّج جمراته تماما كما تضطرم مشاعره الحزينة، يرمق النّار المستعرة في جذعٍ مشتعل يطلق دخانا أبيض تمتزج معه طقطقة الحطب النّديّ حوله. تسحب شفتاه المرتجفتان رشفات من قهوة الإبريق الموضوع على منصبٍ تحته جمرات شديدة الاحمرار، راحت أخته رابحة التي وُلدت قبله بعشر سنوات، فكانت بذلك مكمن أسراره وفضفضاته، تمزجُ له بلسانها السّاحر المعسول خلطةً من المواساة والعتاب واللّوم والتّهوين، حتّى تنسيه حزنا حطّ بين عينيه الواهنتين، بعدما بثّ لها نبأ الرّفض المؤلم المرير.
قالت له رابحة أنّ الحبّ ليس إلّا مجرّد أوهام وتلبيس من إبليس اللّعين، يجعل من الإنسان يتصوّر أنّه ليس بإمكانه العيش من دون محبوبه كامل الأوصاف، الحقيقة هي أنّ "العشرة فتّاشة" كما يقولون، حتما لو قدّر له

الزّواج بها فإنّه سيجد فيها عيوب الدّنيا كلّها مخبوءة خلف عينيها المخاتلتين، ومساوئ كانت تندسّ بين ثنايا مشيتها الكاذبة وسحر قوامها المخادع، ستفضح الأيام فتنتها الزّائفة حتما، قالت له وبكلّ ثقة وقناعة: ومن قال لك أنها جميلة أصلا؟ لم أسمع غيرك، لا رجلا ولا امرأة، يقول هذا، ألم تنظر إلى الزّغب الذي يعلو شفتيها كأنّه شارب أبي عبد القادر، الشّعر يغزو ذراعيها وساقيها، لولا جميل مزيل الشّعر على جلدها الخشن، لامتهُ كونه لم يستشرها في موضوع زواجه.

كشفت له عن حقيقة كانت غائبة عنه، "في فنوان لا يوجد أجمل من مليكة ابنة محمود البقّال"، إنّها فرصة نادرة لا تتكرّر إلّا مرّة في كلّ عشر سنوات، ظاهرة فلكيّة تحدث مع بنات القرية، "كيف لرقيّة البشعة البوّالة أن تذهلك عن حسناء فنوان. مليكة الفاتنة؟ عليك ومن الآن أن تسارع إلى بيت البقّال قبل فوات الأوان". نصحته باقتناع كبير.

بدأ مرزوق يهدأ بعض الشّيء، لم يخفِ عن أخته اشتياقه لقهوتها العطرة والحارّة رغم حزنه العميق، شكا لها تسمّم لهاه من المفعول المهيّج لقهوة جلّول المضغوطة، ليست القهوة وحدها من تجرّ مرزوق بعيدا عن همومه ومآسيه، إنّها واحدة من حيل أخته رابحة الحاذقة، حاولت دائما بذكائها الوقّاد أن تنسيه قسوة ظروفه التّعيسة، ولهذا السّبب بالذّات أصرّ على اللّجوء إلى عالمها السّحري القاتل للأحزان.

رابحة أوّل النّاس في بيت زوجها سالم نهوضا، قبل صياح الدّيك وأذان الفجر حتّى، في اللّيالي الشّاتية تلبس ثيابا غليظة وتنتعل جزمتها المطّاطيّة التي يعلوها شريط من الصّوف الدّافئ، وتعتمر طبقات من القماش، تغطّي

بها رأسها تعوّذا من برد شتاء فنوان الماحق، ثمّ تتّجه نحو الإسطبل بدلوها وتشرع في حلب بقرات زوجها الثّلاث، قبل الحلب تقدّم لها القليل من العلف والتّبن، وبعد فراغها منه تُرضع العجول ثمّ تربطها إلى مرابضها، ومع عودتها إلى المنزل بمحصول وافر من الحليب تضع الجزء الأكبر منه ليختمر ويروب، وتعبّئ ما تبقّى منه في سطل تضعه في الثّلاجة حتى يظلّ طازجا ولا يفسد.

غالبا ما يستيقظ زوجها سالم على وقع طرق مختار للبوّابة بعصاه؛ الفتى راعي الغنم، يأتي كلّ صباح ليأخذ النّعاج فيسرح بها في الغابة المحاذية للقرية بعدما يقدّم لها في حضور سالم بعض العلف والتّبن، تفعل رابحة ذلك استثناءً حينما يغيب زوجها في السّوق أو يسافر إلى المدينة لبعض شؤونه قبل مجيء الرّاعي، وما إن يجتاز آخر خروف البوّابة نحو الغابة، حتّى تدخل رابحة في شوط جديد من العمل.

في الوقت الذي يستيقظ فيه ابناها حميد ومهدي يجدان الفطور السّاخن جاهزا، قهوة بالحليب وخبز وزبدة، تهمّ بتنظيف البيت والفناء والإسطبل، المسكينة لم تُرزق ببنت إلّا قبل ثلاثة أشهر، لم تسعها الفرحة عندما أكّدت لها سِلفتها ميمونة ذلك، بينما كانت تلفّ الرضيعة الرّاغية كمُهر بخرق بيضاء بعدما دهنتها بزيت الزّيتون:

- بالبركة عليك، لقد رزقك الله بنتا كالقمر.

- سأسمّيها ثامرة، هذه رغبة سالم.

كانت رابحة قبل ولادة ثامرة تمنّى لو أنّها رزقت ببنت أو بنتين في مثل سنّ ابنيها مهدي أو حميد، تحملان معها قسطا من أشغالها المنزليّة، ولعلّها

كانت تعزّي نفسها بمن تدخل عليها من فتيات القرية اللّاتي ترسلهنّ أمّهاتهنّ لإحضار شيء من اللّبن من عندها، فكانت رابحة وهي منهمكة بإعداد الفطور لزوجها وابنيها تكلّفهنّ ببعض الأعمال الخفيفة؛ واحدة تمخض الحليب وأخرى تقطّع خضارا للفطور وثالثة تغسل المواعين، ريثما يصبح اللّبن جاهزا فتعبّئه لهنّ في قنّينات وأواني كنّ يجلبنها معهنّ.

* * *

في تلك الظّهيرة من شهر جانفي البارد استسلم مسعود لتعب ثماني ساعات من السّفر الشّاقّ والمتواصل، من العاصمة إلى سعيدة على حافلة تجاوزت صلاحيّة استخدامها بعقود، كانت تتوقّف أكثر ممّا تسير، حتّى إنّ المسافرين الذين كانوا على متنها، كانوا يعتقدون مع كل توقّف لها أنّها تعطّلت للأبد ولن تعاود السّير من جديد، ثمّ من سعيدة إلى فنوان في سيّارة النّقل الجماعيّ التي تشبه تابوتا متحرّكا على عجلات مطاطيّة فوق طريق إسفلتيّة تنشب حصاها كأضراس مسوّسة، لم يُعَد ترميمها منذ أن كانت المنطقة تعجّ بالمعمّرين في زمن الاستعمار.

أرخى مسعود جسده المتهالك على الفراش، سقطت رأسه هامدة على الوسادة، في تلك الأثناء ذهبت أمّه فاطمة لتعدّ له الطّعام، كان منهكا كجدار متداعٍ على وشك الانهيار، نام كما الميّت، لم يستيقظ إلّا على وقع هزّ أمّه له تحثّه على النّهوض للغداء الذي سيتناوله على أبواب وقت العصر.

تجذب نافذة الصّالة المشرعة على الزّقاق، مع نسمات البرد القارصة حديثا يدور بين شخصين، يخبر أحدهما الآخر باستقالة الرّئيس الشّاذلي بن جديد،

بدت من كلامه، بينما راح مسعود يحكّ عينيه استعدادا للنّهوض، أنّها لم تكن مفاجئة بالنّسبة إليه فقد كان يتوقّعها بحدسه المتفرّس.

هرع مسعود إلى التّلفاز فشغلّه، انبثقت الصّورة على مشهد الرّئيس الشّاذلي بن جديد وهو جالس على أريكة طويلة، شابكا يديه فوق حجره، ويضع رجله اليمنى على اليسرى، إلى يساره في الطّرف الآخر من الأريكة ذات البطانة الرّمادية بلون فاتح، وإطار معدنيّ متعرّج ومنقوش ومطليّ بلون ذهبيّ، يجلس عبد المالك بن حبيلس رئيس المجلس الدستوريّ، يقرأ بصمت خاشع رسالة استقالة الرّئيس التي قدّمها له، كان قد استقبله في مكتبه قبل ذلك بدقائق، تبادلا الكلمات والنّظرات بشكل مقتضب استباقا لمراسيم الاستقالة كما ينصّ عليه الدّستور. يندمج صوت المذيعة مع صور الاستقبال التي ظلّ التّلفزيون يعيد عرضها، تسرد في حيرة وارتباك ما يدور خلف الشّاشة دون أن يتسرّب شيء من كلامهم إلى مسعود. استقبل عدد من المسؤولين الرّئيس الشاذلي داخل مكتب رئيس المجلس الدّستوريّ، يبدو أنّهم أعضاء المجلس الدّستوريّ؛ خمّن مسعود.

كانت علامات الأسف بادية على وجه الرّئيس المستقيل، نظراته تائهة في المكتب، تفضحه تعابير الذّهول والحيرة على سحنته، تشتّت تركيزُه وتلعثم تفكيرُه، بدا كما لو أنّه يجهد نفسه في أن تستمدّ من اللّون الثّلجيّ لشعر رأسه الأشيب برودةً قارصة عساها تُشعره بلامبالاة جليديّة أمام كلّ من يراه، يحاول التّهرب من الكاميرا الوحيدة التي حاصرته عدستها في زاوية الأريكة، غير أنّ آخر بروتوكولات الرّئيس التي تَوجّب عليه تأديتها ألزمته التّشبّث بمسؤوليّات رئيس الجمهوريّة إلى آخر أنفاسه التي كانت رئتاه

تنفثانها داخل مكتب رئيس المجلس الدّستوريّ. لم يكن من بدّ رغم كلّ شيء.

كان ارتباك الشّاذلي بن جديد الواضح وهو يغادر منصبه يملأ ذهن مسعود حيرة في دواعي استقالته المفاجئة، ويراكم أسئلةً بداخله، هل استقال بمحض إرادته أم تراه أُقيل؟ طفق يفكّر مهموما في حال البلاد ومصيرها، لم نجتز بعد مشاكل الانتخابات التّشريعية حتى استقال الرّئيس، ومن جهة أخرى قد تفرض عليه هذه المستجدّات قطع عطلته واختصارها والعودة مبكّرا إلى الصّحيفة.

بدا مسعود لأمّه الواقفة على الباب وهي تحمل صينيّة قهوة شاحبا ومذهولا، لم ينتبه لخفق حذائها المطّاطيّ الخافت، أطرق رأسه واستغرق في تفكير عميق، وضعت أمامه إبريق القهوة، لم يشعر بوجودها حتّى وهي تصبّ له فنجانا راح ينثُّ بخاره السّاخن فوق الصّينية، سألته مستغربة عن سبب شروده وذهوله، الذي أذوى بهجتَه بلقياها على الرّغم من تعب السّفر المضني، أزاح يده عن ذقنه والتفت نحوها مجيبا حيرتها:

- الشّاذلي استقال والجيش تدخّل لإلغاء الانتخابات يا أمّي.

- يا ولدي. وماذا بأيدينا أن نفعله، لا تُقلق نفسك كثيرا، هكذا هم المسؤولون يرتكبون كلّ المشاكل ويتسبّبون في جميع أحزاننا ومآسينا، بينما هم يمضون أوقاتهم في فرح غير آبهين بما جرى حتّى ولو سقطت السّماء على الأرض.

ردّت فاطمة بكلام مرتجل وساذج معقّبة على خبر ابنها الذي أقلقه، حاولت أن تبدّد به انزعاجه، ثمّ استدركت عليه كأنّما تسرّب خوفٌ من المجهول إلى رئتيها فتسارع شهيقهما وزفيرهما:

- والآن ما الذي سيحدث للبلد؟

- لا أعتقد أنّ الأمور ستتحسّن قريبا، الأيّام القادمة ستكون صعبة جدّا، البلاد ربي يكون في عونها.

يضع مسعود فنجانه قبل أن يكمله، ويستأذن والدته للانصراف خارج المنزل:

- أمّي سأذهب لزيارة أختي رابحة، لقد أوحشوني كثيرا، هي وولداها وزوجها سالم، وبعدها سأمرّ على أصدقائي، انتظروني على العشاء.

- لقد صاروا ثلاثة أولاد، نسيت أن أخبرك، أنجبت بنتا مثل البدر.

- صحيح! ما شاء الله هذا خبر مفرح.

- مسعود ولدي ابحث عن أخيك وكلّمه، إنّي خائفة عليه كثيرا بعد ما حدث له.

- لا تقلقي يا أمّي سينسى الأمر، مرزوق مرّ بأوقات عصيبة كثيرة وهو متعوّد على تجاوز المحن والمصائب.

ظلّت علاقة مسعود بأخيه مرزوق منذ أن صارا بالغين رتيبة وفاترة يطبعها الكلام المقتضب، نادرا ما يلتقيان، خصوصا عقب انتقال مسعود للدّراسة بالجامعة في العاصمة، وحتّى بعد تخرّجه لم يطل به الحال ليستقرّ هناك للعمل في الصّحافة، كان حال عودته لفنوان من أجل تفقّد أحوال والديه وإخوته عندما يوحشونه، بين الفينة والأخرى، لا يمكث مطوّلا عندهم وسريعا ما

يرجع إلى العاصمة، كما أنّ مرزوق كان قد أمضى قبل سنتين خدمته العسكريّة التي أجبرته على ألا يلتقي بأخيه مسعود طوال سنتين سوى لمرّة واحدة، حيث تزامن لقاؤهما ذاك بعيد الأضحى، هذا عدا عن الفارق التّعليمي والثّقافي الشّاسع بين مرزوق الذي لم يتمكّن من بلوغ المرحلة الثّانويّة، في حين أنّ أخاه مسعود الأكبر منه جامعيّ، يمتهن الصّحافة التي كوّنت لديه رصيدا لا بأس به في شتى المعارف والفنون وأكسبته علاقات متعدّدة، أضحى ذلك كافيا لئلا يكون هناك موضوع أو حديث في أيّ مجال كانْ، يجمع بينهما أو يجبرهما على الجلوس معا أو المكوث في مكان واحد وجها لوجه لأكثر من دقائق معدودة، فبات السّلام والاحترام سمة تطبع العلاقة الصّارمة بين الأخوين.

* * *

3

يلتفّ الجميع في بيت سالم عصر يوم بدا ملتصقا بوقت الغروب، حول صينيّة الشّاي كفراخ تحتضنها أمّها في ليلة شتويّة شديدة البرد، عاد سالم لتوّه من مرعى أبقاره بعد أن خلّف عليها ابنه مهدي الذي رجع من المتوسّطة التي يدرس بها بنظام داخليّ بمناسبة عطلة الشّتاء، وصل سالم إلى بيته متّسخا ومغبرّا وكأنّ ريح الجنوب قد قذفت بكلّ حبات رملها على وجهه القمحيّ المربّع، الذي يتوسّطه شارب كثّ يعلو ذقنا حليقة كأنّها مرآة صقيلة، لم يزل سواد شاربه صامدا في وجه خيبات الدّهر المتوالية عليه كضربات منجل تسحق قبضاتِ سنابلَ مهترئة، تنهّد عندما أبلغته زوجته رابحة خبر وفاة شقيق جارهم الحاج بوخاتم الذي يقطن بمشريّة، بعدما نعتْه لها زوجته منصوريّة، أرسل زفرة لا تنتهي وغمغم كامرأة ثكلى تستقبل نعي وليدها:

- المسكين، لم يُتمّ ستّة أشهر بعد عملية الفتق التي أجراها في بطنه حتّى لاقى حتفه الغادر.

لم تتركه رابحة يكمل رشفة شاي كادت تخنق أنفاسه المتعثّرة من وقع الخبر عليه، فاجأته بنبأ مقدم أخيها مسعود، وبكيد امرأة متمرّسة أنسته في ثانيتين حزنا بدأ يتسرّب إلى قلبه المهتمّ لكلّ ما يتّصل بجيرانه، متفادية تعكير مزاجه المتقلّب راحت تصبّ له كأسا ثالثة وتسترسل في ذكر حاجيات البيت، خصوصا وأنّها أصرّت على مسعود أن يأتي غدا للعشاء، بعدما أقسمت له بجميع الأولياء والصّالحين وقطعت عليه أغلظ الأيمان

وأوثقها، وبقائمة طويلة من المستلزمات سردتها عليه،كأنّما تروي له قصّة عمره بمآسيه المتلاطمة، أنسته عدد نعاجه التي من المستحيل أن تفوته أوصافها، أو تغيب عنه سحناتها مهما بدت للغرباء أنّها على شاكلة واحدة.
التفتت رابحة إلى ابنها حميد الذي كان يتصبّب عرقا إذ يسحب رشفات ساخنة، تحاول شفاهه اللّاهثة في يأس تبريد حرارة رابع كأس شاي ملتهبة كحمم بركانيّة يشربها، يأبى أن يبرّدها بالكسرولة الموضوعة أمامه، ذلك للأطفال الصّغار حسب ظنّه، عيناه المنفجرتان لا تغادران شاشة التّلفاز المقابل له، وكأسُه تدرك لوحدها موقع شفتيه الواجمتين من وجهه بملامحه المتشنّجة، ينفعل مع مسلسله الكرتوني، وكأنّ وجهه أصبح انعكاسا للحالات النّفسية الصّادرة من خلف الشّاشة، أمرته أمّه في حزم لا يقبل الاعتراض، أفزع كتفيه الضّئيلتين فاضطربتا، التفت إلى صوتها الهادر:
- حميد! ولدي. أكمل عشويّتك سريعا واذهب إلى بيت عمّك، وخذ معك بعض الأغراض لميمونة.
- حسنا أمّي، أكمل الرّسوم المتحرّكة وأذهب من فوري، حتّى أنا أريد أن ألهو مع رشيد.
ردّ حميد على أوامر أمّه بنبرة انزعاج ختمها بتأفّف سحب من صدره فزعه من صراخها.
مساء كلّ خميس تدأب رابحة على أن تثقل ذراعي ابنها الصّغير حميد الرّخوتين بقفّة تحوي بعض الموادّ المنتجة في بيتها؛ زبدة بقرات زوجها الثّلاث، وبعض الكسكس أو الدّقيق وحليب ولبن، وبيض من دجاجاتها

المتناثرة في فناء بيتها، لا تكفّ عن النّقنقة سائر يومها، كانت تزعج سالم حتّى إنّه ليَوَدُّ ذبحها أو خنقها حينما توقظه من قيلولته الوادعة.
يجد حميد مشقّة كبيرة في إيصال هذا المدد الأسبوعي المتواضع، يحرص سالم على أن يصل إلى بيت ميمونة، إرضاء لوالدته، غالبا ما يستعين حميد بمن يصادفه من أقرانه على حمله من بيتهم إلى بيت ميمونة، زوجة عمّه بلقاسم مولاي المتوفّى في حادث سير مأساويّ.
كان بلقاسم يمتهن تجارة الماشية، يوم وفاته كان في طريقه إلى السّوق في الشّاحنة المحمّلة بالخرفان، كان يقودها شريكه بودالي، باغتهما على الطّريق إلى سيدي بلعباس هطول زخّات من المطر الغزير، كان حينها فصل الخريف قد حلّ، واصل بودالي السّير بسرعة كبيرة في ذلك الوقت الباكر من فجر يوم الأربعاء، وعند منعطف خطر لم يتمكّن من تقديره جيّدا، فقد كانت الرّؤية سيّئة للغاية، استعمل المكابح لخفض السّرعة غير أنّ الكارثة حلّت وانحرفت شاحنتهما نحو الوادي قبل غابة موكسي، توفّي بلقاسم وبودالي على الفور.
يجلس موسى بوزيد في المطبخ مع أخته ميمونة، وككلّ مساء خميس يزورها ويبيت عندها ليغادرها في الغد بعد صلاة الجمعة. عند دخول حميد وضع ما يحمله من أغراض في المطبخ، سلّم على ميمونة بسرعة متفاديا أسئلتها الكثيرة والمملّة، كان جلّها يدور حول أحوال أمّه وأبيه وجدّته الحاجّة ثامرة ومن زارهم اليوم، هرع مسرعا إلى الصّالة أين وجد رشيد وهو يتأمّل كلّ ما يصدر من حركات من رجل سمين، يرتدي مشملا نظيفا ويحمل في يدّه مفكّ براغي وفيشات، ويخاطب مساعده من النّافذة

طالبا منه أن يمرّر له كابل التّلفاز، ألصق الرّجل الفيشة بالكابل وأوصلها بالتّلفاز وطفق يضبط صورته إلى أن أصبحت واضحة، أسرع الطّفلان إلى شاشة التّلفاز فاغرين فاهيهما حينما رأيا رسوما متحرّكة على قناة بلُغة لم يتمكّنا من التّعرّف عليها، ادّعى حميد أنّها روسيّة، بينما أصرّ رشيد على كونها إسبانيّة، تدخّل الرّجل بشكل مستعجل مع ارتفاع أصواتهما، حتّى ينهي جدالهما الذي كاد أن يتحوّل إلى شجار، وأكّد لهما أنّهما الاثنان مخطئان واضعا حدّا للّبس:

- إنّها القناة الألمانيّة الثّانية، وهي تبثّ برامج الأطفال من الصّباح إلى المساء.

هكذا أوقف الرّجل البدين نقاشهما المحتدّ، لم يصدّق الطّفلان أعينهما ومسامعهما، وانغمسا في متابعة مشاهد ذلك المسلسل الكرتونيّ في دهشة عارمة، غيّر الرّجلُ القناة وراح يضبط الصّوت والصّورة من جديد، إلى أن استقرّت على مشهدٍ لمسلسل مصريّ، دخل موسى ووقف إلى جانب الرّجل يشكره على خدمته، أدخل يده في جيب الجاكيت وأخرج أوراقا نقديّة قدّمها له وقال:

- عدّ نقودك، لقد أتعبناكما معنا.

- خمسمائة ألف، أخلف الله عليك مالك يا سي موسى.

أجابه الرّجل بعدما ورّق المبلغ ووضعه في جيب مشمله الأماميّ، بدأ مساعده في الخارج بالصّياح مستفسرا عن الوضع:

- هل أتممت ضبط الصّورة يا سي كمال.

- إنّها صافية مثل دموعك يا ڨرطوع.

يُخرج موسى يديه من جيبي سرواله بعدما كان يعبث بقطع النّقود بداخلهما، يشبك ذراعيه على صدره. ويسأل "كمال بارابول" كما ينادونه:

- والآن أيّ بيت ستقصدونه؟

سمع حميد هذا السّؤال فقطع حديثهما دون أن يسمح لكمال بالردّ:

- ونحن متى تأتون عندنا لإدخال البارابول؟

ضحك كمال وأجابه:

- أنت بإمكانك مشاهدة الرّسوم المتحرّكة مع صديقك، اصبر قليلا، اليوم نشتغل عند جيرانكم وسنصل عندكم قريبا.

- شكرا عمّي كمال هذا خبر مبهج.

التفت موسى إلى كمال وسأله:

- متى ستنهون إيصال جميع بيوت القرية؟

تنهّد كمال وأجاب بنبرة متحسّرة:

- لا يبدو أن ذلك سيكون قريبا.

يعاني كمال من بعض المشاكل العويصة، لا يزال نزر يسير من سكّان القرية يزعجونهم بتحريمهم للبارابول الجماعيّة التي أدخلوها إلى أغلب بيوت فنوان، لا يكتفون بالامتناع عن استقبالها في بيوتهم فقط، إنّهم يؤلّبون البقيّة عليه، تعرّض هو وشريكه لشتائم الحاج بوخاتم، كاد أنّ يضربه لولا أنّ جاره البقّال الذي كان في دكّانه لحظة الشّجار تدخّل، وطلب منه أن يلعن الشّيطان، قال له عن كمال أنّه هو الشّيطان. كان كمال يظنّ في البداية أنّ المشكلة تكمن فقط في تباعد البيوت، وهو ما جعله يواجه تكاليف زائدة للكوابل، واضطرّ مع شركائه إلى تحمّل الأعباء الإضافيّة، خفّضوا من

هامش الرّبح ورفعوا مبلغ الاشتراك قليلا، حتّى يمكن لهم تقاسم الزّيادة مع الفنوانيّين والتّخفيف من التّكاليف المرتفعة.

* * *

يجتمع حشد كبير قبالة المسجد بعد صلاة العصر، عددٌ من سكّان القرية يحيطون بإمام المسجد سي ميلود، يعلو صوته ويرتفع في الخارج، وكأنّه يهيّئ نفسه فوق المنبر استعدادا لخطبة الجمعة:

- يا جماعة الخير. هذه البارابول التي أتى بها ابن الحاج النّاصر وصاحبه من سعيدة تلتقط قنوات تبثّ الفاحشة والأفلام الخليعة التي لا ترضي الله عز وجل، وطالما أنّها تجلب لنا أشياء محرّمة فهي حرام كلحم الخنزير.

التفت سي ميلود إلى رجل عن يمينه وقد علا الزّبد زاويتي فمه، ناداه وهو يخاطبه فبدأ يتقدّم تجاهه، كأنّما يسحبه بندائه إيّاه من ياقة قميصه:

- يا الحاج النّاصر. ولدك ميمون هو من أتى بهم من سعيدة، فنوان تختلف عنها كثيرا، نحن محافظون ونخاف الله عزّ وجل، عليك أن تجبره على نزع هذا المنكر اللّعين من فوق بيته.

- يا سي ميلود. موسى صهر سالم هو من جاء بهم، ومع ذلك فقد كلّمت ابني بشأن هذه القصعة الكبيرة التي يضعها فوق بيته، ولكنّك تعرف أولاد اليوم يركبون رؤوسهم ولا يبالون بنا، أنت تعرف أنّ البيت بيته، لو كانت فوق منزلي لما تركتها للحظة.

- يا الحاج النّاصر، عليك أن تهدّده أو أن تقسم عليه إن هو لم ينصع لمرادك بأنك ستتبرّأ منه.

- أتبرّأ من ولدي! هذا منكر وحرام لا يجوز يا سي ميلود، ألا تذكر أنّك في كلّ صلاة عيد تأمرنا بأن ننهي خصوماتنا ونصلح ذات بيننا طاعة لله ورسوله.

- لكنّك مضطرّ في هذه الحالة، طالما أنّه لا يطيعك في معروف من الدّين بالضّرورة فأنت في حِلّ منه، لا تدعه يفسد شبابنا بهذه القنوات الفاضحة.

يلتحق سالم بالحشد متأخّرا، يتقدّم جهة سي ميلود، يخرج بإصبعه كالة الشّمة المغروسة فوق نابه، يقذفها خفية عن إمام قريتهم، وينبري متدخّلا في الرّدّ على طرف كلامه الذي سمعه مع وصوله بعد أن فهم ما يرمي إليه:

- يا سي ميلود، لقد شاهدت بنفسي هذه القنوات في بيتي ولم أجد هذه المشاهد الفاضحة التي تتكلّم عنها، يبدو أنّ من نقل لك الخبر لم يكن دقيقا وأنّه كان يبالغ، هذه البارابول تعرض قناتين، واحدة بالعربيّة تبث القرآن وخطبة الجمعة ونشرات الأخبار وبعض المسلسلات العربيّة كالتي نشاهدها في تلفزيوننا، وقناة ألمانية تبثّ الرّسوم المتحرّكة طوال النّهار، ولا يوجد فيها ما يخلّ بالحياء ويمكنك أن تأتي معي وتشاهد بأمّ عينك.

- أنا أشاهد هذه الفواحش؟! أعوذ بالله... هل تريدني أن أغضب الله عزّ وجلّ يا سالم. يلتفت سي ميلود إلى الحاج النّاصر مهدّدا:

- إمّا أن تنزع أنت وابنك هذا المنكر أو أنا الذي سأقاطعكما طوال حياتي.

غير بعيد عن تجمّع القرويّين، يقف ڤرطوع وصديقه طْراڤو على رأس صانع خناجر متجوّل بعد أن جذبهما إليه ترقيم لوحة سيارته بوجو 504

عائلية تحمل رقم ولاية المسيلة (28) كانت مركونة بالقرب منه، كان مفترشا بسطته بمحاذاة جدار حمّام القرية، شدّ انتباههما طريقته في تسخين أنصال حديديّة كان يضعها بجواره، راح يمرّر واحدا منها على لهب الشّاليمو ويقلّبها داخله، ثمّ ما يلبث أن يضعه على سندان صغير كان أمامه عندما يصير محمرّا، ويهوي عليه بمطرقة ضخمه ذات مقبض قصير، ثمّ ينقش في أعلاه ويمرّره على مشحذ كان حجرُه لا يكفّ عن الدّوران، ثمّ يضع النّصل في مقبض خشبيّ ويثبّته عليه بمسامير، ثمّ يزيّنه بأسلاك نحاسيّة ذات ألوان زاهيّة يلفّها عليه. مدّ طْراگُو يده إلى الصّانع فناوله الخنجر، راح يقلّبه بين يديه وينظر إليه بعينين تبرقان سرورا، كأنّه طفل حصل على لعبة جديدة، التفت إليه وسأله:

- بكم هذا الـ.... الـ... الخدُمي؟

- البوسعادي. صوّب الصّانع كلام طراگو، وأضاف: بمائة دينار مع الغمد، ثمّ ناوله غمدا جلديّا ذا لون بنّيّ.

أدخل طراگو الخنجر في الغمد ونقد الصّانع كما طلب دون أن يفاوضه على الثّمن، على غير عادته عندما يشتري شيئا ما، وكأنّه يحاول المحافظة على قيمته الثّمينة من أن يخدشها تخفيض سعره. لفت انتباهه ضجيج وأصوات الحشد الملتفّ حول سي ميلود، جذب إليه گرطوع من كتفه، كان لا يزال مشدوها من خفّة يد الصّانع الذي سرعان ما ألقى بالورقة النّقدية في جيبه واختطف نصلا آخر أخذ يعالجه بالطّريقة نفسها.

راح الصّديقان يشاهدان ما يدور هناك أمام المسجد، أوقفا شخصا كان قد شهد ما دار بين القرويّين، بعد أن شدّهما ارتفاع الأصوات وزعيق الإمام،

الذي بدا لهما من كلامه المتضمّن لكلمة بارابول التي كرّرها كثيرا أنّه غاضب من خطب ما، ولو أنّهما يعرفان أنّ سي ميلود غير راض عن وجودها في فنوان أصلا، خصوصا بعد السّرقات التي وقعت في القرية مؤخّرا واتّهمهم بها غير واحد من السّكّان، غير أنّ رغبة فضوليّة جعلت ڨرطوع يوقف ذلك الشّخص المارّ بجنبه حتّى يستوضح منه الأمر بالتّفصيل المملّ، فرجلٌ مثله لا يجسر على أن يغشى تجمّعاتٍ قرب المسجد، بعد أن ترك الصّلاة وعاد هو وصديقه الحميم إلى معاقرة الخمر.

* * *

على العشاء في بيت سالم مولاي يجتمع بعض أقاربه وجيرانه إلى أربع موائد في الصّالة احتفاء بقدوم مسعود، الذي أحضر معه لسالم بعض الأغراض كان أخوه أحمد قد بعث له بها من العاصمة، كان موسى بوزيد على غير عادته في مغادرة فنوان بعد صلاة الجمعة، قد بقي للعشاء بعدما أصرّ عليه سالم، جلس إلى جانب مسعود يستعيدان ذكريات وأيّام الصّبا العنفوانيّة في مرابع فنوان.

في الصّباح الباكر كان سالم قد ذبح رخلةً ووضّبها وهيّأها للشّواء، نوى أن يكون ذلك الطّعام صدقة عن أبيه الذي توفّي قبل ثلاث سنوات، أشهرا بعد عودته من الحجّ، أراد أن يكون قدوم صهره مسعود سببا وجيها لنيّة مزدوجة، وبعد صلاة العصر أشعل نارا في فناء بيته الواسع وأنضج الذبيحة عليها، قبل بكوره ذاك، كانت رابحة وميمونة قد بدأتا في تحضير وليمة العشاء أبكر منه.

يزدحم المدعوّون في زاوية من زوايا صالة سالم الفسيحة إلى مدفأتين غازيّتين، تشتعل صفيحتان حجريّتان في كلّ مدفأة من صفائحها الثّلاث، وفي جلستهم العربيّة على لحوف تحيط بزرابيّ صوفيّة تُخفي أرضيّة الصّالة، يلتفّ بعضهم بجلاّباتهم ويشتمل آخرون ببطانيّات على حجورهم، برد فنوان قارص ويزداد اشتداد زمهريره مع هبوط اللّيل الشّتوي الطّويل.

يحمل سالم مائدة ويضعها وسط أربعة ضيوف ويتبعه مسعود بأخرى ويجلس، أراد مسعود أن يتخلّص من صفة الضّيف ليتشبّث بِسِمَة صاحب الدّار الذي يقف على خدمة الضّيوف، يرى أنّ هذا نوع من الامتنان لسالم على تقديره له ورفعه من مقامه بين أهله وجيرانه.

يشكّل حميد ورشيد خطّ إمداد من المطبخ إلى الصّالة، يطوفان على الضّيوف بما ينقصهم من خبز وماء، طعام العشاء متنوّع وشهيّ؛ شوربة وشواء وسلطات، ثمّ لا يلبث أن تُختتم الوليمة بكسكس باللّبن والعسل والبرتقال. قرفص موسى بوزيد الذي يجيد تحضير الشّاي أمام صينيّة تتراصّ فوقها كؤوس زجاجيّة شفّافة، وبدأ يصبّ الشّاي، يرفع الإبريق عاليا فوق الكأس فتعلو داخله رغوة صفراء تكتسح السّائل الحلو المذاق.

بدأت الأحاديث ثنائيّةً داخل الصّالة، تجتذب إليها من بوسعه الاستماع إلى ما يقوله المتحاوران إلى جواره، فجأة طغى على الجميع حديث محمود البقّال بصوته الجهوريّ الحادّ والخشن، يجلب الانتباه بكلامه الطّريف والظّريف، استرسل في سرد مُلحه ونوادره، تفاعل معه الجالسون بضحك وقهقهات متواصلة، يمسك سالم ببطنه من شدّة ارتداد عضلاته التي فقد التّحكّم في حركتها تحت مفعول نكتة محمود المدغدغة، حينما يجثو البقّال على ركبتيه

وينتقل من القصّ إلى تمثيل قصصه، ومحاكاة أحداثها التي تأخذ طابعا دراميّا وسينمائيّا ممزوجا بكوميديا هزليّة تفوق مشاهد الأفلام والمسرحيّات.

يمدّ جيلالي هانُوي، صديق والد سالم، المستند إلى وسادة تلتصق بالحائط، عنقه ويلتفت إلى مسعود المتربّع في الطّرف الآخر من الجلسة:

- كيف هي أحوالك في العاصمة مع الأحداث الأخيرة يا مسعود.
- الحمد لله بخير. سي الحاج.

تفطّن مسعود إلى مقصود هانُوي من إضافته لعبارة "مع الأحداث الأخيرة" إلى سؤاله عن أحواله ففهم مراده وواصل كلامه:

- سمعت أنّ شيوخ الجبهة الإسلاميّة سيصعّدون من احتجاجاتهم وسيطالبون بمقاعدهم في البرلمان، بعدما حلّه المجلس الأعلى للأمن، يقولون أنّ الجنرالات هم من أرغموا الشّاذلي على الاستقالة.

ينتفض محمود على ركبتيه، معلّقا على كلام مسعود:

- يريد أصحاب اللّحى مواجهة الجيش؟! هممم! هذا جنون وهبل، وماذا في وسعهم أن يفعلوا وهم لا يملكون شيئا، عليهم أن يستسلموا ويذعنوا للأمر الواقع، أم تراهم يخطّطون لمغامرة جديدة بعد تلك التي ارتكبوها في ثكنة الجيش في قمّار.

يضع جيلالي هانُوي كأسه الفارغة فوق المائدة أمامه، ويتدخّل معترضا على كلام البقّال:

- يا سي محمود والله لا تدري، فرنسا بجيشها طردناها ونحن لا نملك سوى بعض بنادق الصيد، كانت نتوقّف بعد إطلاق أربع أو خمس

طلقات، ومسدّسات كانت تخفق في إطلاق أعيرتها في كثير من الأحيان، وبعض المناجل والسّكاكين الصّدئة.
يضع سالم كأس الشّاي بعد أن استخلص منها آخر رشفة فيها، تاركا حثالةً تضطرب في قاعها المستدير، يتنحنح ويقول:
- في زمن الثّورة كان هناك رجال مخلصون ووطنيّون ضحّوا بكلّ شيء من أجل استرداد الحرّيّة وطرد المستعمرين، فهل حال أصحاب اللّحى كحال الشّهداء والمجاهدين؟ لا أعتقد يا سي الحاج.
- يا سي سالم كلّ شيء ممكن، ربما يؤيّدهم الشّعب ويكتسبون دعما قويا من بعض قيادات الجيش.
يلتفت مسعود الذي كان يستمع لكلام موسى بوزيد الهامس، إلى جيلالي هانوي بعدما التقط آخر حديثه قائلا:
- معك حق سي الحاج، الأمور بدأت تتعقّد خصوصا مع استقالة الرّئيس بالأمس، واللهُ أعلم إن كان استقال أم أُقيل، وماذا يريد الجنرالات فعله بعدما أصبحت السّلطة بأيديهم، في الصّباح كلّمت زميلا لي من هاتف مركز البريد، أبلغني عن إطلاق أجهزة الأمن لحملة اعتقالات ستطال قيادات في الجبهة الإسلاميّة.
يخيّم صمت مترقِّب الصّالة، تعلوه كآبة تحتلّ السِّحن التي أرهقتها البرودة الطّافحة وغضّنها غموض الأوضاع السّياسيّة الرّاهنة، تتملّك حميد سآمة اغتالت ابتهاجه بحركات جارهم البقّال بعد أن قمعها حوار مسعود وهانُوي، حاول أن يتجسّس على أحاديثهم السّياسيّة ليفكّك الكثير من الغموض الذي كان يعتريه، عندما يشاهد نشرات الأخبار التي يفرضها

عليه والده حين يغيّر القناة الألمانيّة الثّانية ويستبدلها بالقناة المحليّة، لكنّه ملّ من كلامهم الأكثر غموضا من كلام مقدّمي نشرات الأخبار، أوهم أباه سالم بحمل بعض الأواني إلى المطبخ وانسحب نحو غرفة النّساء، علّه يجد في كلامهنّ بعض ما يبثّ الصّفاء في روحه المتشوّقة للمستجدّات والشّغوفة لاكتشاف طبائع من يعرفهم.

يسيطر الحديث حول قرب اكتمال بناء الحمّام الجديد على قعدة المجتمع النّسويّ الصّغير داخل غرفة متوسّطة المساحة، تستخدمها الحاجّة ثامرة والدة سالم لاستقبال ضيفاتها عندما تكون الصّالة مشغولة، المكان أقلّ برودة من الصّالة التي تمتصّ شساعتُها كلّ دفء قد يتسرّب إليها من المدفأة الغازيّة، لا يكفي لهب حجراتها المليئة بالثّقوب مع ما تبعثه من حسيس خافت طوال اشتعالها لبثّ الحرارة، سوى لبضعة أمتار في محيطها.

يسود تفاؤل عارم بين الجالسات إذ يتحدّثن عن تمكّنهنّ أخيرا من حزم حقائب الحمّام خاصّتهنّ، والزّحف نحو حمّام فنوان الجديد نهاية كلّ أسبوع، بعدما كنّ لا تحفلن بالاسترخاء في حمّام مولاي العربي أو حمّامات سعيدة إلّا من دهر إلى حقبة زمنيّة سحيقة، تتطاير ابتسامات من بين كلمات زينب زوجة محمود البقّال وهي تهيم بوصف شعورها الغامر، تتخيّل نفسها في بهو تبديل الملابس تجفّف شعرها وتتجاذب مع المستحمّات أطراف الحديث، تزعم أنّها لن تدفع ثمن استحمامها لكون أمّ الحاج بوخاتم صاحب الحمّام لن تقبله منها للقرابة التي تربطهما، فهي ابنة خالة أمّها من الرّضاعة، تبدي النّسوة الجالسات في غرفة زوجة سالم استغرابا من مبالغة زينب في تمنّي أشياء صعبة التّحقّق، تعترض ميمونة محتجّة بكون أمّ الحاج

بوخاتم عجوز طاعنة في السّنّ ولن تستطيع الوقوف خلف مصرف الحمّام لساعات طويلة، ولن يكون بمقدورها تحمّل صراخ النّساء وضجيجهن ومشاجراتهنّ التي تميّز جلسات الاستحمام، من المستحيل عليها أن تضبط المواقف المعقّدة التي تطبع شؤون حمّام تطغى عليها أمزجة النّساء المتقلّبة وتكلّفهنّ وتماديهنّ في الإسراف في استعمال المياه، واستطابتهنّ المكوث داخله لوقت أطول، إنّ أمر إدارة حمّام يتطلّب امرأة حازمة، لا تهادن ولا تلين في أكثر المواقف استفزازا؛ تقرع أرضيّة الحمّام بمرجلها الحديديّ كلما تلكّأت نسوةٌ داخله، وتصرخ مستحثّة إيّاهن الخروج فورا ودون تأخير، وخاصّةً لا تخجل أبدا حينما تطلب منها إحداهنّ أن تُنظرها لبعض الوقت حتى تتمكّن من جمع ثمن حمّامها، أو إرجائها للأسبوع القادم بحجج من قبيل أنّ زوجها لا تحضره نقود، ينبغي أن تكون مولاة الحمّام حازمةً مع نساء فنوان الماكرات، هكذا قرّرت ميمونة بحاجبيها المعقودين.

تُبدّد ميمونة بمزاحها المميّز تشنّج مواقف النّسوة المعتدّات بآرائهنّ، وتكسر إيقاع الحديث بعد أن غشيته سحابة من الكآبة والملل:

- أهمّ ما يشدّني لافتتاح الحمّام أبوابَه أمام بشراتنا المتّسخة ليس التّخلّص من رائحة العرق البشعة، بقدر حاجتي لإيجاد عروس لأخي يوسف، يبدو أنّه سيتعبني كثيرا كما تعبتُ مع أخيه موسى، بعدما لففت من أجله الدّنيا حتّى أجد له بختة مختبئة خلف حمّام أبيها في فيلاج بوديّة.

تضع زينب سبّابتها فوق شفتيها المزمومتين، وبحركة دائرية ماكرة ومستنكرة برأسها المستدير تقاطع ميمونة، وقد علا جبينها استهجان منكِرٌ لكلامها وساخر منه:

- يبدو أنّ خلف الحمّامات عرائس مجديات ونحن لا نعلم، سأخطب لابني بشير من خلف حمّام الحاج لخضر في عمروس إذا.

تضحك النّسوة وتبدي ميمونة لامبالاتها بردّ زينب المتهكّم، مضفية برودة ثلجيّة على أعصابها المتصلّبة:

- في الحمّام أختي زينب يمكنك أن تتمعّني جيّدا فيما يرغبه ابنك بشير، ستكون العرائس أكثر قربا، سوف تكتشفين هفوات امرأة لا تعرفك، قد تخفيها عنك قبل أن تصبح كنّة لك، حينما تتأكّد أنّها تحت أنظار خاطِبة، ويصبح من العسير عليك بعد ذلك استبدالها بامرأة أخرى أكثر رزانة وتعقّلا.

4

يبسط أمام الحمّام المبنيّ حديثا بائعان متجوّلان سلعهما الملتصقة بالظلّ، وقد أسندا ظهريهما إلى حائطه الشّماليّ الذي يعلوه طابق مسقوف غير مكتمل البناء، تبدو من الأسفل بعض أعمدته الخراسنيّة التي تسنده، ركنا سيّارتيهما النّفعيّتين على هيئة زاوية قائمة فتشكّلت ساحة عرض بدأت تجذب إليها زُرافات من القرويّين وفرادى حال خروجهم من المسجد بعد صلاة العصر.

بمقدم بائع السّمك على درّاجته النّاريّة يجرّ عربة صغيرة يكتمل مشهد السّوق، كما يطلق عليه أهل فنوان، أطفالٌ يتحلّقون حول بسطات البائعيْن، لا يمانعان في السّماح لصبيّاتٍ صغيرات بأخذ بعض الأواني والثّياب إلى دورهنّ، حتى تتمكّن أمّهاتهنّ من اكتشاف إبداع جديد في صناعة الأواني المعدنيّة والفخاريّة، أو تقليعة في حياكة الملبوسات أو صيحة حديثة في خياطة الأحذية والصّنادل وتفصيلها.

يكافح بائع السّمك في طرد الذّباب المنتشر فوق صندوقين من السّردين بأعينه المحمرّة ورائحته الزّنخة، راحت تنبعث في المكان وتستفزّ أنوف قطط البيوت المجاورة وتستنفرها، أخذت تجذبها كمغناطيس فتتدحرج نحو بائع السّمك، وتحوم حوله غير مبالية بتطفّلها الثّقيل.

يحار معمّر حشمان وسط خمسة من القرويّين النّزقين في شراء حذاء نسائيّ، يقلّبه بين يديه للمرّة التّاسعة والعشرين، ويكرّر النّظر إليه من جوانبه وزواياه اللّامتناهية، بعد أن تردّد في رفعه وإعادته إلى مكانه مرارا.

تأبى نقود القرويّين أن تستقرّ في أيدي الباعة من السّاعة الأولى، لم يكن سالم من شاكلتهم، يدفع ثمن أيّ سلعة يقع عليها بصره وتلبّي ذوق زوجته الذي حفظه كاسمها، تتهلّل وجوه الباعة لمقدمه وتنفرج أساريرهم بمجرّد شرائه لسلعة من عند أحدهم، تتخاطف أيدي القرويّين البضاعةَ بعد ذلك وتتزاحم أفواههم على آذان الباعة، ويتصارعون من أجل الظّفر بآخر طقم أو قطعة من ثياب أو آنية، حتّى لا يستأثر بها أحد دون غيره، تسيطر الغيرة والحسد على النّفوس فتتنافس على كلّ ما هو معروض بين أيديهم، ترتفع الأصوات ويكثر اللّغط وتحتدّ النّقاشات، ويحمى وطيس التّفاوض من أجل تخفيض ثمن حذاء أو ثيابِ رضيعٍ أو إبريق شاي أو برّاد قهوة أو طقم كؤوس أو صحون أو ملاعق.

يتدافع حميد مع بعض الفتيات الصّغيرات في مثل سنّه عند بائع الثّياب والقماش، ينجح في اختراق حشدهنّ المزدحم ويتقدّم نحو البائع، بعد أن انخلع زوج صندله داخل الزّحمة، غير مبالٍ لفقده، طلب منه أن يناوله كلّ أنواع العباءات التي لم تشاهدها والدته من قبل، لتجرّبها وتختار من بينها واحدة أو اثنتين، يُحمّل البائع حميد على كتفيه وفوق ذراعيه ورأسه بكلّ ما جلبه معه من جديد، يمشي مدجّجا بالعباءات، يختفي في وسطها جسدُه الصّغير الضّامر ولا يكاد يظهر منه سوى عينيه المعتصرتين، كأنّهما من تحملان الثّياب، وبجهد مضنٍ يصل إلى بيتهم بعد أن يطرق بابه بقدمه الحافية، تساعده أمّه على أن يلقي بحمله على حصيرة تتوسّط الصّالة، ويقفل عائدا إلى السّوق ليستعيد صندله قبل فوات الأوان.

لا يفوّت حميد فرصة حضور الباعة المتجوّلين إلى القرية، كي يحصل على قطعة حلوى أو دينار من زوجة جارهم محمود البقّال، إكراما له على مجهوداته التي يبذلها في إيصال بعض الأغراض من السّوق إلى بيت الجار المنشغل ببقالته، كي تطّلِع عليها زينب زوجته، ليس لديهما أطفال في مثل سنّه. أنهى بشير أكبر أبنائهما دراسته في الجامعة بوهران وهو لا يزال في رحلة البحث المستمرّ عن وظيفة، لا يمكنه اجتياز أبواب مسابقاتها حتّى ينهي خدمته العسكريّة، ويدرس إسماعيل في ثانويّة عبد المومن بسعيدة بنظام داخليّ ويعود إلى البيت مع نهاية الأسبوع، بينما لا تتمكّن ابنتهما مليكة في الثّامنة عشرة من عمرها من الخروج في مجتمع قرويّ ذكوريّ، ستجد أيّ فتاة تجاوزت الرّابعة عشر نفسها في موقف معقّد وسط أسراب من الأعين المتفحّصة، وقطعان من الألسن الزّاجرة والمنكرة لتصرّفٍ لا ينبغي له أن يحدث في قريتهم مهما يكن.

تجرّب زينب بدعيّةً على جسدها الذي لم يفقد جاذبيّته رغم انتصاف عقدها الرّابع، فردتها على قوامها المتناسق والجذّاب دون أن تلبسها، ثمّ راحت تهزّها بساقيها لتتأمّل مدى انسجامها مع جسمها وموافقة مقاييسها له، تستفسر من حميد الذي بدا وهي تسأله متذكّرا لكلّ ما مسحته عيناه المتفحّصتان من مشاهد للبضائع المعروضة لدى البائعين المتجوّلين، حول ما قد يشدّ انتباهها من أغراض منزليّة ربّما تكون في حاجة لها.

يحمل حميد بيده إبريقا نخّاريا، يطغى عليه اللّون الأزرق، تحتلّ صورة طاووس يتقدّم خلفيّةً بيضاء، نافشا ريشه ويختال بوقفته النّرجسيّة وسط حقل من الأزهار الزّاهية، أغلبَ مساحة سطح الإبريق، لفت انتباه

زينب، مدّت يدها لتلتقطه من بين أصابع حميد المرتعشة، بينما كان فاغرا فاهه أمام شاشة التّلفاز يشاهد مطاردة فهد لغزال بسرعة كبّلت كلّ مداركه وحواسّه، لم تكد يدها تصل إليه، حتّى سحب يده من عروة الآنية ظنّا منه أنّها أمسكت بها، لكنّها سقطت على الأرض، تهشّمت مقدّمة الإبريق وانكسر غطاؤه.

ساد صمت خاطف صالة محمود البقّال، لم يدم طويلا، كان بطول وقوع الآنية على الأرض، ارتطمت يد زينب الغادرة بخدّ حميد السّاهي، فارتسمت أصابعها الرّقيقة محمّرّةً على وجنته الطّرية شديدة البياض، طفق الصّبي يبكي وينفي عن نفسه مسؤوليّة الحادث، ويتّهم زينب بأنّها هي من لم تحسن إمساك الإبريق جيّدا. تسرّبت الحيرة إلى الأنفس المذهولة وسط هذا الموقف المحرج، ودبّ تفكير عميق في العقول حول معالجة الحدث الطّارئ، خطرت ببال مليكة فكرة إلصاق الأجزاء المهشّمة، كان ذلك حلّا وحيدا لمعضلة لا يقبل علاجها الكثير من التّأخير أو التّفكير العقيم.

لا يبدو مشهد الإبريق المشوّه بعد صبّ الغراء على شظاياه مقنعا، تمرّغت نخوة الطّاووس المزهو في الأرض وتشقّق حقل الزّهور حوله، وتحتّم الأمر اللّجوء إلى خطّة بديلة لطمس معالم جريمة كسر إبريق بائع الآنية قبل وصول محمود.

يطغى عامل الوقت على الموقف الملتهب باحتمالات زينب الرّخوة والمتخاذلة، لم يعد هنالك من بدّ بعد تصاعد التّوتّر وتأزّم الموقف، أضحى اللّجوء إلى صرّة النّقود في الخزانة ضروريّا ومحتّما، كانت لزينب بمثابة مخزون استراتيجيّ، وهي مخبّأة بين ثنايا الملابس بطريقة تجاري صرامة

الأرقام السّريّة لخزنة بنك. يضطرب نبض زينب بينما يغمغم فمها كلاما لا يخلو من التّسخّط بكلمات نابية، وتختلج يداها المحشورتان بين الملابس لاستخراج ادّخار أشهر من مداخيل بيع بيض دجاجاتها لزوجها محمود، كان يعرضه في بقالته، يبدو أنّ الاتّفاق التّاريخيّ طويل الأمد الذي أبرمته معه لتزويد محلّه ببيض دجاجاتها، التي أُنهكت مؤخّراتها من بزقه على مدار شهور طويلة لم يكن مثمرا، تماما كحظّ إبريق الفخّار المكسور بزهره الذّابل وطيره المنحوس.

تسود رائحة السّمك الموقف، وتنبعث في أرجاء البيت وزوايا غرفه، تلتفت زينب ويضطرب أنفها وسطَ وجهها الخمريّ الجميل، دون أن تسحب يديها الغارقتين في بحثٍ عميق عن الصّرّة الضّائعة بين ثنايا الملابس، تشتمّ رائحة السّمك المميّزة والنّفّاذة، تتلفّت يمنة ويسرة متتبّعة مصدرها وتمطّ حاجبيها مستفهمة عن مكانها، أخبرها حميد بعد أن رفع رأسه المغروسة بين كتفيه الضّئيلتين أنّ القطّ مينوش دخل البيت بعد وجبة سمك دسمة عند بائع السّمك، الذي يكون قد ألقى بكلّ حبّة فاسدة في صندوقه إلى القطط الضّاجّة من حوله، ومن الواضح أنّ مينوش قد أخذ نصيبا وافرا بعد أن بسط سيطرته عليها وحسم معاركه الملحميّة معها، حول ما تبقّى في صندوقي البائع من سمك عفن.

رجع حميد إلى بائع الأواني بصندليه المخذولين خائب الرّجاء، سلّمه ثمن الإبريق، دون أن يظفر بشيء وقد تبخّرت حيلته الماكرة في إعادة بيع الآنية الفخّاريّة لزوجة جارهم البقّال، بهامش ربح يرتفع ولو قليلا عن دينارها الزّهيد أو قطعة الحلوى التي لم تعد تغريه، لم يعد ذلك يبدو له كإكراميّة

بقدر ما أصبح يشبه الصّدقة. كان يبتعد مشيحا بذراعه النّحيلة ويغمغم بكلام غير مفهوم يمتزج بسخط عارم، حين سأله البائع مبتسما إن كان إبريقه ذو الطّاووس المغرور قد أعجب بيت جارهم البقّال.

* * *

تحت شجرة صنوبر يستقرّ بئرٌ في أرض الحاج الطّاهر، مرّت الحاصدة بجانبه ملقية بكيس قمح مكتنز جثم على صخرة حادّة، فأحدثت في طرفه الأسفل ثقبا تسرّبت منه حبّات قمح تناثرت على الأرض، سرعان ما التفّت حولها أرتال من النّمل الأحمر برؤوس سوداء، راحت تحتفي بمؤونة سنويّة مجزية، بينما كانت تُدخلها مسرعة في فوهةٍ تراكم حولها ترابُ حفرِها لقرية نملٍ تحت الأرض.

لا يفتر الحزّامون خلف سائق الآلّية ويلهثون من العطش قبيل العصر، وجوههم وثيابهم يكسوها غبار أسود بدوا معه كغربان تعتلي الحاصدة، عينٌ على الخيط وأخرى تتردّد بين المنقار الذي يتسرّب منه القمح، وفوهة الكيس الذي لا يلبث أن يطفح حبوباً، بمجرّد امتلائه تلفّ يد أحدهم الخيط حول عنقه لتخنق أنفاسه وتحزمه بإحكام فيخرّ على أرضيّة الحاصدة هامدا، ثمّ تدفعه رجلٌ ليتدحرج من أعلى المزلاج إلى أسفله فيقبع على الحصيدة.

تطلق الآلّية أكوام التّبن خلفها لتصنع أشرطة ذهبيّة عريضة، كان عكّاشة راعي غنم الحاج الطّاهر مستلقيا على ظهره غافيا تحت الظّلّ عند البئر، فجأة انتفض واقفا، أطلق صوتا عاليا غير مفهوم يشبه نداءَ متسخِّط، أعقبه بصفير خرج ما بين شفتيه ولسانه وأرسل حجرا كان قد التقطه لحظة

نهوضه، حطّ أمام مجموعة من النّعاج كانت على وشك أن تتخطّى الحدّ الذي يفصل أرض الحاج الطّاهر عن أرض سالم، أرعب صوت سقوط الحجر المدوّي النّعاج فولّت هاربة وشرّدت بمن خلفها، ليرجع قطيع الغنم إلى عمق أرض الحاج الطّاهر، تاركا مسافة أمان كافية أتاحت لعكّاشة أن يغفو قليلا ويتابع نومه من جديد.

خلْفه يحمل موفّق ابن الحاج الطّاهر أمامه وبكلتا يديه قفّة ثقيلة وممتلئة، يبدو بمشيته الغريبة وهو يحاول المحافظة على توازنها كهيئة إنسان آليّ، يسارع خطاه الرّوبوتيّة للوصول إلى أشجار الصّنوبر عند البئر ليتخلّص من عبئها المنهِك، نادى عكّاشة الذي رمقه وهو يهتزّ أمامه ويرجّ الأرض، بكثير من الامتعاض:

- اذهب إلى السّيارة وأحضر بقيّة العشويّة، هل ندفع لك لترعى الغنم أم لتنام أيّها الكسول.

تلفّت موفّق الذي كان يعتمر مظلّه المصنوع من سعف الدّوم إلى السّائق، إذ يلفّ بمشقّة مقود الحاصدة الكبير مستديرا، وأشار إليه بذراعه وسط هدير المحرّك الذي كان يحدث صخبا مدويّا، من المستحيل أن يفهم أحد وسطَه كلامَ شخص بجانبه، حتّى ولو أطلقت حبالُه الصّوتيّة رصاصا بدل الكلمات، صرخ جاهدا ليضاهي ذلك الضّجيج المزعج لعلّ السّائق والحزّامين يسمعونه، جاعلا فمه الرّاغي بين يديه المنتصبتين حوله كقُمع مكبّر صوت:

- اهبطوا! تعالوا لتناول العشوية!

لحظة انعطاف السّائق انخفضت سرعة الحاصدة فتدحرج الحزّامون على المزلاج، الواحد تلو الآخر، بعدما استيقنوا أنّ السّائق لن يوقف الآليّة حتّى

ينهي شريطا من السّنابل على الحافّة، واستبقوا إلى الظّلّ طمعا في الظّفر بالنّصيب الأكبر من تلك القفّة المغرية، بدت من انتفاخها أنّها تحمل وليمة شهيّة داخل أحشائها، صرخ موفّق مستهجنا جشعهم ولامبالاتهم وإهمالهم لمن أُعدّت القفّة من أجله في الأصل:

- أحضروا معكم العبّاسي... أم تراكم أهملتموه بعدما رأيتم الأكل أيّها الأنذال.

* * *

عزم الحاج الطّاهر على تزويج ابنه موفّق، رقيّة هي أكبر بناته وقد خطبها الحاج بوخاتم لابنه حسان قبل شهر، وبقدر فرحه بهذه المصاهرة المباركة التي ستجعله أكثر قربا من صديقٍ حميم، هو عين من أعيان القرية ووجهائها وأكثرها ثراء، بقدر ما صار مجبرا على تعويض مكان رقيّة بعد الآن، تتقاسم رقيّة مع والدتها حمل أعباء المنزل وأشغال البيت الذي لا يكاد يخلو من الضّيوف وزيارات الأقارب والمعارف، بما يتطلّبه كلّ ذلك من إعداد طعام وتنظيف وترتيب وتحضير وتجهيز داخل دار الحاج الطاهر المترامية الأطراف، وهي كلّها أعباء ستنوء بحملها زوجته زهرة التي ستبقى وحيدة من دون مساعدة رقيّة.

في العادة يتشارك جيران صاحب العرس ومعارفه في إقامة الولائم واستقبال ضيوفه، وإكرامهم على الغداء والعشاء، يفتح من يسكن في القرية من الجيران المعاونين صالة بيته للمدعوّين، ويسهر على راحتهم وتوفير الطّعام والشّراب لهم، وقد يستمرّ العرس بهذه الوتيرة أسبوعا كاملا.

في الغالب تبدأ طقوس العرس هذه من يوم السّبت وتستمرّ إلى منتصف النّهار من يوم الجمعة، تخصَّص أيّامٌ لاستقبال الكبار من كهول وشيوخ على وجبة الغداء التي يكون طبقها الرّئيسي كسكسا باللّحم، وربّما خصّ صاحب العرس أو من يقوم بمساعدته أكابرَ الضّيوف بوجبة تليق بمقاماتهم الرّفيعة، فيحتلّ الشّواء الموائد وتفوح رائحته الشّهيّة في أرجاء صالات فنوان العامرة.

ترتفع رايةٌ فوق سطح دار الحاج الطّاهر، كانت قبل أسبوع تغطّي رأس زهرة أمّ رقية، يتشبّث الآن فولارُها الأخضر بوروده الحمراء والبيضاء التي تتناثر في وسطه بعمودٍ يرتفع على السّقف أخذ دور ساريةٍ لخمار زهرة، راح يرفرف خفّاقا بينما كانت نسمات من الرّيح تصفعه يمينا وشمالا، كان ذلك دليلا واضحا وأكيدا على بداية العرس ومكان إقامته.

تبلغ مراسيم العرس وطقوسه ذروتها مع حلول ليلة الأربعاء، إنّها ليلة الشّباب بامتياز، أصدقاء العريس وخلّانه وأحبابه وجيرانه. يجتمع بعد العشاء حشد من شباب فنوان وحتّى بعض كهولها ممّن لا يزال يحنّ لأيّام الصّبا ويتشبّث بفلتاتها ورعونتها داخل خيمة، نُصبت في ركن بعيد في فناء دار الحاج الطّاهر الفسيح، وشُرعت واجهتها على باب صغير في سور الفناء يطلّ على الزّقاق، كان الجميع يدخلون منه ويخرجون. في هذه اللّيلة لا يهمّ كثيرا أن تكون مدعوّا بقدر ما يجب أن يكون وجهك مألوفا لأصحاب العرس، حتّى تحظى بجلسة في تلك الخيمة.

تنتصب على يمين الباب عند الدّخول مصطبة عريضة ومرتفعة بعض الشّيء، يبرز للحاضرين منها موقّق يتوسّط نفرا من الشّباب المحتفي به، راحوا

يتداولون على التقاط الصّور معه، تتجاوب الابتسامات والضّحكات مع فلاش آلة التّصوير في تفاعل غير عاديّ، لا تقلّ ألقا وتوهّجا عن تلك الأضواء الملوّنة التي تمتدّ متدليّة من خيط كهربائيّ يقطع الفناء من رأس الخيمة إلى مدخل المنزل.

يتداول الجميع داخل الخيمة وخارجها نبأ قدوم الشّيخة زلاميت للغناء في العرس، خفّفت عنهم تلك الأقاويل وطأة الانتظار وثقله، تلك المغنيّة. إنّها كوكب شرقهم لوحدهم، لا يحفل الواحد منهم بالاستماع إلى صوتها الذي يشبه صرير الباب الحديديّ، إلّا من تلك الأشرطة التي تتلوّى أمعاؤها الدّقيقة البنّيّة في بكرتين متقابلتين، مسجونتين داخل إطار بلاستيكيّ تبتلعه مسجّلة تصدر صوتا أخنّ لا يكاد يروي الغليل أو يشفي العليل، ما يجعلهم يحسّون بنشوة الانتعاش حقّا هو رؤيتهم لها صورةً وصوتًا، جاثمةً أمامهم بعجارها ذي اللّون المذهّب الذي تفضح فتحاته العريضة وجهها أكثر ممّا تستره، بينما يهتزّ هو يمنة ويسرة، جيئة وذهابا بكأسه المترعة خمرا أحمر، تمايل لميلانه وترقص بمشروبها بين ذراعيه كغانية لعوب، يبادلها قبلاتها المسكرة على ضفافها الزّجاجيّة.

يمتعض ڰرطوع عند دخول الشّيخ كريمو مع جوقه المرافق، كان ذلك بمثابة إعلان عن تغيّر مفاجئ طرأ على برنامج الحفل، ساد لغط الخيمةَ وجلب معه اكفهرارا ملأ الوجوه وأنساها تلك الضّحكات والبسمات في وجه "مولاي السّلطان"، كما يُنادَى العريس الذي يتحوّل خلال أسبوع إلى ملك فنوان المتوّج، حامت الشّكوك ودارت الظّنون حتّى لهجت بها الألسن وباحت بها الأفواه وصاحت، فراحت تجهر بكون أصحاب العرس

قد دلّسوا عليهم في أمر المغنّي الذي سيحيي الحفل، وأنّهم واروا بالشّيخة زلاميت حتّى يجتمع في الخيمة حضور غفير يباهون به العروش والعوائل المناوئة، فاعتبروا ذلك استخفافا بعقولهم التي لا يمكنها بأيّ حال أن تتحمّل خديعةً وسكرةً في ليلة واحدة.

لن يكون الانسحاب مجديا في مثل هكذا ظرف، الأعراس لا تقام كلّ يوم، ومكانك إن تركته فلن تجد من يسحبك من قميصك مترجيّا إيّاك أن تظلّ فيه لبعض الوقت، والاستمتاعُ بالاستماع إلى شيوخ الغناء البدويّ الماجن ليس متاحا للجميع دائما وفي كلّ مكان، قد يكون الشّيخ كريمو جديدا على ساحة هذا الطّابع الغنائيّ ولا يملك خبرة الشّيخة زلاميت ولا بحّتها أو تجربتها الحافلة بالقصائد المفعمة بالغزليّات التي تكاد تستحيل إلى مرثيّات، كتلك التي تتحسّر فيها بحنق مرير على ذلك الزّوج المخادع الذي خاتلها حتى نهب طقمها الذّهبيّ المشكّل من ستّ قطع، فراحت تطلب العوض فيه من الله وقد سرق جميع مجوهراتها ومصوغاتها الثّمينة، وهي أغنية مشهورة تقول في مطلعها الحزين الذي لا يدانيه إلّا وقوف امرئ القيس على أنقاض أطلاله باكيا من ذكرى حبيب ومنزل: "خليفتي على ربّي وعلى اللّي ادّالي حدايدي...".

كانت قصيدتها هذه قد أحدثت ضجّة في أوساط عشّاق الغناء الرّيفي الكلاسيكيّ، فلا مجال لأن يجاريها هذا المراهق الغرّ بحنجرته الأنثويّة، التي لا تتناسب مع متطلّبات المجون والضّياع بين رشفات الخمر وتأوّهات شيخة ماهرة أو شيخٍ حاذق، صوته يشبه خوار ثور شبِق. ولكن ما العمل؟ لا

يصحّ أن يشترط المتطفّلون. هذا هو الحاضر، "أدي ولا خلّي" كما يقولون، ليس هناك من خيار أو سبيل.

فرح ڤرطوع كثيرا حينما رأى سليمان العقبي يدخل الخيمة وعلامات الحبور تتقافز من بشرته الحمراء، لقد أوصاه أن يجلب له في طريقه دزّينة جعة وزجاجتي خمر أحمر، من المؤكّد أن تكون طلبيّته الآن في الصّندوق الخلفيّ لسيّارته البوجو 404، كاد أن يصهل على عادته في سماع الأخبار المبهجة عندما اقترب منه سليمان، وهمس في أذنه بأنّه تمكّن من مواعدة تينِك المومسين اللّتين صادف وأن سهرا معهما في غابة البرّاح قبل سنتين، من المؤكّد أنّ تلك السّمراء قد صارت أكثر مقدرة على الإيفاء برغبته الجامحة والجانحة أحيانا، طلب ڤرطوع من سليمان أن يجلس لبعض الوقت ريثما يبدأ الحفل وينتشي قليلا بزجاجة روج وقنّينتي بيرة، ثمّ يغادران بعدها إلى غابة عون بصحبة المومسين ويكملا سهرتهما هناك. استحالت قهقهات حصانه الصّاهل إلى نهيق حمار، عندما أخبره سليمان بأنّه أحضر معه عشاءً فيه الكثير من المخلّلات والمقبّلات التي يفضّل قطع شربه بها، ووضع فواصل للاستراحة يستأنف بعدها شرباته التي تكاد الواحدة منها أن تخنق أنفاسه.

تلفّت ڤرطوع ناحية الشّيخ كريمو بعدما دلق زجاجة الرّوج في فمه الأشبه بفوهة أنبوب مضخّة مياه، كرع محتواها في شربتين، كان أعضاء جوقة الشيخ كريمو الماسيّة قد أخذوا أماكنهم، واستبق عازف النّاي صاحبَ القلّوز فالتقم قصبته، وطفق يعذّبها بأنفاسه التي راحت تدخُلها متنهّدة وتخرج منها في هيئة نحيب ثكلى يوم فقدها لولدها، وما إن سقطت تلك

الأصوات الأشبه إلى النّشاز منها إلى إيقاع موزون في آذان القوم، حتّى راحوا يترنّحون ويتماوجون، ويصبّون الخمر ويمرّرون كؤوسها.

بعد صولة خفيفة من الشّيخ كريمو، راح مع توقّفه التّقني والمؤقّت للاستراحة صاحبُ القصبة يلتقط أنفاسه المنقطعة ويلهث بحدّة، أدار ݣرطوع رأسه إلى النّاحية الأخرى فرأى صديقه طراݣو مقرفصا عند نفر من القروييّن في أقصى الخيمة، لا يلبث أن يسرق من كأس الواحد منهم رشفة حتّى يفارقهم إلى ثلّة بجانبهم، فيفعل معها كما فعل مع السّابقة، بدا كما لو أنّه يشتري تلك الشّربات المقتضبة من كلّ مجلس يتوقّف عنده بنكته التي كان يحرص على أن يختمها بقهقهاته الضّاجّة المميّزة، راقبه ݣرطوع حتّى رآه بعدما لفّ على جميع الحاضرين وقد خامره السّكر عند آخرهم، وقف وارتجّ قليلا كعمود تطاوحه ريح عاتية، تماسك بمشقّة ثمّ غادر المكان.

5

ترتفع أمام ورشة بوريق الحدّاد أصوات مطرقته المتساقطة على طرف قطعة حديديّة مقطوعة إلى نصفين، كانت قبل انقطاعها تشكّل جزءاً منزوعا من حاصدة معطّلة في حقل سالم الواقف على رأسه بحرص شديد، يستحثه إتمام مهمّته في إلصاق طرفيها، حتّى يعيد تركيبها على الآلة المتوقّفة في أرضه أعلى التّلة.

في عصر هذا اليوم القائظ يرفع بوريق رأسه ناحية بيت لعرج الدّرّاز، كان يودّ أن يزيح العرق المتصبّب على وجهه كشلّال منهمر يتدفّق من جرف سحيق، لمح العلم الوطنيّ مرتفعا فوق بيت الدّرّاز، لا يحفل في هذا الطّقس الجافّ بأقلّ نسمة تحرّك سكونه الجاثم على نجمته وهلاله كقبضة خانقة. لا بدّ من أن يكون اليومَ يومُ عيدٍ وطنيّ طالما أنّ العلم يرتفع فوق بيت الدّرّاز، وبما أنّ شهر جويلية يلهب بقيظه الحارق جلود سكّان فنوان، فإنّه من الضّروري أن يكونوا على موعد مع خامس أيّامه.

لا يفوّت لعرج الدّرّاز فرصة عيدي الثّورة والاستقلال وذكرياتهما بمحطّاتهما البارزة دون أن يحتفي بهما بعلمه مرتفعا فوق منزله، رغم انشغاله بتلوين خيوط الصّوف المغزول، ولفّ الملوّنة منه، كان قد جفّفها في فناء منزله، يتأمّله بوريق بينما يضعها على بكرات حديديّة عريضة منتصبة بشكل أفقيّ، راح الدّراز يهيّئها للبدء في حياكة بورابح جديد، في الغالب عندما يصنع الدّرّاز بورابح في فصل الصّيف فإنّ ذلك دليل كاف على أنّه سيكون قطعة

في جهاز إحدى عرائس فنوان، كان مذياع الدّراز يصدح بالأناشيد الوطنيّة، في اللّحظة التي لمح فيها بوريق العلم منتصبا فوق قرميد منزله:

من أجلك عشنا ياوطني ... نفدي بالرّوح أراضــينا.

قد كنّا أمسِ عمـــــالقةً ... في الحرب نذلّ أعادينا.

وإنّا اليــوم عمـــــالقةٌ ... في السّلم حمـاة مبـادينا.

من أجلك يا ... من أجلك يا ... يا وطني.

تعلّم لعرج ابنُ الشّهيد طقوس الوطنيّة وتشرّب بمعانيها منذ أن كان فتى يافعا، لا يزال بوريق يذكره أيّام كان شبلا في كشّافة القرية، حينها كان لعرج قائدا لفوج الشّهيد ديدوش مراد.

يتذكّر بوريق جيّدا انضباط لعرج مبروك وصرامته في تنظيم الأفراد وإعطاء التّعليمات وتوجيه الإيعاز لفتيانه الكشفيين والقيام بالأنشطة المختلفة، يكفي أن يُصدر صوتا من بوقه أو صفّارته حتى تتغيّر الوضعيّة من حركة أو سكون إلى ضدّهما، كانت رحلات لعرج الاستكشافيّة إلى غابات وجبال المنطقة ملتصقة بجمجمته لا يسعه نسيانها، يتذكّر بوريق الواقف كي يستريح من عناء طرق القطعة الحديديّة التي أصبح على وشك إنهائها، الشِّجارَ الذي نشب بين لعرج حينما كان يقود الحملة الانتخابيّة لحزب جبهة التّحرير الوطنيّ في التّشريعيّات الأخيرة، وبين لخضر عبدلّي ممثّل الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ التي كانت تحظى بتأييد منقطع النّظير في القرية ولا تزال، رغم أنّ السلطة الجديدة في البلد عملت على حلّها، تحفّظ لعرج حينها على أسلوب بعض الشّباب المتحمّس والمؤيّد للجبهة الإسلاميّة عندما همّوا بإخراج قريباتهم للانتخاب، وهنّ المتعوّدات على البقاء في بيوتهنّ على الحياد في مسألة

الانتخابات في بيئة قرويّة ذكوريّة يحتكر فيها الرّجال التّصويت، كان ذلك بالنّسبة إليه تلاعبا سافرا بوجهة الاقتراع لا ينبغي له أن يحدث على مقربة من إغلاق مكاتب الانتخابات، ومحاولة مفضوحة للاستيلاء على النّتائج، تبادل الرّجلان الشّتائم وتطوّر الأمر إلى عراك بالأيدي وتهديد بالقتل.
كان لعرج وطنيّا محافظا متطرّفا لجبهة التّحرير الوطنيّ التي ظلّت تعني له التّاريخ المناهض للاستعمار، والكيان السّياسيّ الذي رافق جيش التّحرير في انتزاع الاستقلال، وأهمّ من كلّ هذا فهي بالنّسبة إليه الحاضر الذي سيبني الجزائر، فمن الجحود تجاوزه أو استبداله بكيانات غريبة وأفكار مريبة من شاكلة الجبهة الإسلاميّة حديثة النّشأة.
- الحاصدة تنتظر يا قويدر وأنت واقف تتفرّج على علم الدّرّاز.
قطع صوت سالم الهادر ذكريات بوريق الجانحة، ذكّره باسمه الحقيقيّ الذي قلّما يناديه به النّاس، ونادرا ما يسمعه في فنوان من غير أبيه أو أمّه، اجتاحت جسده برودة امتزجت بعرَقه فسرت فوق جلده قشعريرة عارمة اهتزّت لها كتفاه، فبدا لمن حوله أنّه يرقص انتشاء بقرب انتهاء عمله.
أشار رجل وقف خلف سالم، الذي كان مطأطئا رأسه يقلّب القطعة الحديديّة المكتملة، إلى بوريق بأن يصمت، أمسك الرّجل برأس سالم بقوّة وأغمض عينيه.
- هذه ألاعيبك الخبيثة يا إبراهيم، أطلقني أيّها الثّعبان البغيض.
ردّ سالم على حركة الرّجل الغامض الثّقيلة، محاولا تكهّن من يكون هذا الذي يختفي خلف ظهره ويغمض عينيه.

طفق الرّجل يضحك بعدما ترك رأس سالم، استدار الأخير ليتعرّف على الفاعل، سرت في وجهه دهشة عارمة وانقضّ على الرّجل يقبّله ويعانقه.

- أحمد! متى عدت من العاصمة؟! هذا أنت لا تتغيّر حتّى بعد أن صرت مهندسا، لا تكفّ عن مزاحك الثّقيل.

- عدت لتوّي، كيف حالك وأبناؤك؟ أوحشتموني جميعكم، هذه المرّة أحسست بفراقكم حقّا.

أجابه أحمد بعد أن توقّف عن الضّحك بصعوبة كبيرة وسلّم على بوريق.

- كلّ شيء على خير ما يرام، في هذا الوقت نعاني من ندرة السّلك لحزم التّبن، كما ترى، لم يجد صاحب الحاصدة هذه القطعة بعدما جاب محلّات وهران ومعسكر وسيدي بلعباس دون جدوى، فاضطررت إلى تعديلها عند قويدر حتّى أستأنف سريعا حصاد القطعة المتبقّية. لكن قل لي! أين كنت طوال هذه المدّة؟ أربعة أشهر أيّها الجلف الجافّ، وكأنّ قلبك توقّف عن الإحساس بأهلك!

- والله أنتم في ذهني في كلّ لحظة وحين، غير أنّ المشاغل تطلّبت منّي أن أمكث في العاصمة كلّ هذا الوقت. ابتداءً من الآن عليكم الاستعداد لغياب أطول هذه المرّة.

استفزّت هذه النّبرةُ المتوعّدة بكلماتها المبهمة مشاعرَ سالم المشتاقة لأصغر إخوته.

- أووه! وما الدّاعي إلى هذا الغياب أيضا؟!

- سنتكلم فيما بعد، الحكاية تحتاج إلى تفصيل طويل، أريد رؤية أمّي أوّلا، سنلتقي فيما بعد.

- على كلّ حال سآخذ القطعة لتركيبها على الحاصدة كي أستأنف الحصاد، سأمكث هناك إلى وقت متأخّر من اللّيل، انتظرني لديّ الكثير من الكلام لأقوله لك، كما أنّني لم أشبع منك بعد يا ابن أمّي.

* * *

يبحث حميد بجدّ ومثابرة غير عاديّين داخل گاراج الجرّار عن نزّاعة مسامير أو كمّاشة ليقتلع بها قطبي بطاريّة مهترئة، كانت قابعة في زاوية من زواياه، عثر على عتلة بين كومة من الأعمدة الخشبيّة كان سالم قد وضعها هناك، عقب انتهائه من نزع مسامير غليظة معوّجة كانت متناثرة إلى الجوار منها. يضع حميد القطبين الرّصاصيّين بعد جهد شاقّ في جيبه ويتدحرج منتشيا بانتصاره البطوليّ، وهزيمته التي ألحقها ببطاريّة أمضت سنوات في شرب الأحماض حتّى الثّمالة، ولم تعد تجدي لإشعال محرّك الجرّار حتّى استغنى عنها سالم، فقد صار يركنه في أعلى منحدر يسلكه صباح كلّ يوم مندفعا بتأثير الجاذبيّة الأرضيّة ليشخر في أسفله، بعدما يزيح رجله من دوّاسة الفاصل ويضغط بالأخرى على دوّاسة الوقود، فيطلق الجرّار سحابة من الدّخان الأسود ويغصّ في هدير يزلزل الأرض ويرجّ الحيطان، لا ينتهي حتّى يذهب به إلى شؤونه وأشغاله.

على الجدار المقابل للتّلفاز في غرفة الحاجّة ثامرة والدة سالم تسترخي جداريّة من القماش، تحمل صورة الحجيج وهم يطوفون بالكعبة، فوقها إلى اليسار تتجاور صورة بالأبيض والأسود لسالم معتمرا قبّعة عسكريّة، مع صورة لموسى بوزيد في إطار معدنيّ منقوش، إلى الجانب الأيسر من

الجداريّة المقدّسة يمدّ ضبّ مجوّف وملمّعٌ ذيلَه المدبّب والخشن إلى الأسفل، وينصب رأسه إلى الأعلى متسلّقا الجدار بأقدام سحليّة.
يتوسّط الغرفة كانون أسود يحوي جمرات تلهبها أنفاس خامسة المشعوذة، راحت تزفر حتّى ظنّ حميد الواقف حذوها بعد أن قدّم الرّصاص لجدّته أنّ رئتيها قد نفدتا من الهواء حتّى التصقت أغشيتهما ببعضها، كما يحدث لبالونه المنتفخ بعدما يرخي قبضة أصابعه المحكمة من فوهته، فيندفع الهواء إلى خارجه محدثا ضراطا بشعا، يستحيل البالون مع ختامه إلى خرقة بلاستيكيّة مبتذلة.
تضع رابحة إناء ماء على أرضيّة الغرفة وتعود من فورها إلى مشاغلها الأبديّة، لا تلبث المشعوذة أن تستلم قطعتيّ الرّصاص من يد الحاجّة ثامرة، حتّى تلقي بهما في مغرفة كبيرة تضعها فوق نار الموقد المستعرة أمامها، فيتدرّج قوام الرّصاص الذّائب ليأخذ شكل المُهل بحركته الزّئبقيّة، تدلقه سريعا في إناء الماء البارد، فيصدر نشيشا ترتعد له فرائص الأطفال القابعين بالغرفة، تأمرهم الحاجّة ثامرة بالانصراف حالا.
يصرّ حميد على البقاء ومتابعة ما يجري، بعدما ألحّ عليه فضوله وطمأنه انتصاره على البطاريّة وخدمته الجليلة التي قدّمها لجدّته، فلا أقلّ من أن يحظى بمتابعة أحداث مثيرة لم يألفها من قبل كمكافأة بسيطة على مجهوده الجبّار، لم تلحّ عليه جدّته كثيرا ليغادر كما فعلت مع ابني عمّته حدّة، لعلّ قرب موعد اجتيازه لشهادة التّعليم الابتدائيّ صنع له مكانة اجتماعيّة وسط عائلته، فجعلت جدّته تستحي من أن تنهره أو تزجره وتعامله كطفل صغير، هكذا توهّم حميد.

تسحب خامسة المشعوذة قطعا من الرّصاص المتصلّب بعدما أبرده الماء، تأخذ القطعُ أشكالا غريبة، تمدّ خامسة قطعة منها باتجاه الضّوء وتتفحّصها بعينيها المنقبضتين وتمعّن في نتوءاتها وثقوبها، يتمعّر وجهها وتتمتم كأنّها تقرأ كلاما منقوشا على الرّصاص. يندهش حميد من شعوذة خامسة، حركاتها، كلامها، طلاسمها، طريقة قراءتها للرّصاص، راحت تخاطب أشخاصا لا يراهم وتلعن آخرين لا يجدهم أمامه، تأمرهم بأن يدَعوا حدّة وشأنها، لا يجد علاقة بين صوتِ شعور الرّصاص المذاب بالارتياح وتخلّصه بعد أن غطس في الماء من حرارة قاتلة جثمت عليه حين كان في المغرفة على الموقد، وبين خروجه من الماء بثقوب ونتوءات بعد أن غادره دخانه. دون أن يعثر على تفسير لذلك، راح يصنّف ما تقوم به المشعوذة مع عالمه الذي يعايشه عند مشاهدته لمسلسل السّاحرة التي تمتطي مكنسة، وتحمل عصا دقيقة تنتهي بنجمة على رأسها، تُغيّر ما يحيط بها من كائنات وتحيلهم إلى أشكال مضحكة. يستحضر حميد لحظة لسعته عقربٍ غادرة، أخذه والده على إثرها إلى خلدون الرّاقي، لم يأخذ معه الموضوع أكثر من أن لفّ أعلى ساعده بخرقة قماش حزمها جيّدا، وشرط موضع اللّسعة وبدأ يمصّ الدّم ويتفله، مع بضع نفثات محمّلة برضاب فمه قذفها فوق موضع اللّسعة ودعكٍ خفيف لها، يتذكّر حميد مدى خيبته وشعوره بخذلان حارق، حينما لم يعثر على تلك الأفاعي العملاقة التي كان يتداول مع أقرانه في المدرسة مزاعم تواجدها في بيت الرّاقي داخل قفص كبير، كانوا حسبما يمليه عليهم خيالهم وتهيّآتهم متأكّدين من أنّ خلدون ذو مقدرة عجيبة على ترويضها وإخضاعها. منذ أن خرج سالما من تلك اللّسعة لم يعد يعامل شكيب ابن

خلدون الرّاقي على عادته بتلك الرّهبة والهيبة، اللّتين كان يحتّمهما خوفٌ مفترضٌ من أفاعي خرافيّة لم يعد لها من وجود في خياله الخائب.

يُقعي حميد أمام الكانون كجرو، مرفقاه على ركبتيه ويداه على وجنتيه، يتأمّل مشدوها وجهَ خامسة المليء بالتّجاعيد العميقة، أطبقت شقوقها على أوشمتها الخضراء في وجنتيها وفوق جبهتها، كانت أشبه في خياله بالرّسوم السّوداء التي نسجتها أمّه رابحة مع ميمونة على زربيّتهم الحمراء المبثوثة في الصّالة، يتأمّل أبناءَ حدّة بعدما دخلوا الغرفة خلسة كقطط صغيرة على حين غفلة من جدّتهم، التي انجذبت إلى تمتمات خامسة واندمجت مع تشخيصها لحالة ابنتها ووصفتها العلاجيّة، كان الأطفال يحدجون أمّهم حدّة بأعينٍ تغرق أشفارها في دموع تأبى أن تجتاز أجفانها، وهي تتخطّى جيئة وذهابا لسبع مرّات متتالية بقدميها الواهنتين كانوناً، تضطرم داخله جمرات لا تفتأ خامسة الكزّانة أن تؤجّجها بأنفاسها العاتية، كانت تهزمها أدخنة الكانون فتغصّ في سعال حارق، يتمنّى حميد لو كان الأمر بيده لأزاح عن عمّته كلّ همومها وأحزانها، ولأعاد البهجة لابنيها المكتئبين والـمُسندين ظهريهما إلى الحائط بأيدٍ مشبوكة خلف خاصرتيهما، تكاد الدّموع تسقط من أعينهما حزنا على ما أصاب أمّهما من غمّ ماحق.

التفت حميد إلى صورة موسى بوزيد، يبدو أكثر شبابا ممّا هو عليه الآن، يلتهم وجهُه الكبير معظم الإطار، وتنجلي شفتاه الباسمتان عن أسنان ناصعة ومتراصّة، لا تغريه كثيرا تلك الصّورة العتيقة بلونيها الأبيض والأسود اللّذين طردا عنها بهجة ألوان الطّيف، لولا ياقة قميصه العريضة والمستطيلة والمدبّبة في طرفيها بشكلها السّبعيناتي، كلّما كان مع رشيد أمامها ينطلق في

سخرية من خاله المراهق في الصّورة، يبدو له غضّا وطريّا كعزباء، يفتقد إلى رجولة والده إلى جانبه. يرتدي سالم جاكيت عسكريّا رماديّا ويخفي شعر رأسه الأشعث والمسترسل في الطّول بقبّعة الخرجة العسكريّة، يختفي شاربه المعتاد من فوق شفتيه، وهذا ما كان يخذله ويجعله يشعر بالخيبة، كان رشيد يتمسّك برأيه في عمّه سالم ويزعم أنّه كانت تنقصه هو الآخر بعض الرّجولة في ذلك الزّمن الغابر، يسود معتقد صارم بين فتية فنوان يقضي بأنّ الشّاربين من مقتضيات الرّجولة وحلقهما يخرمها حتما، غير أنّ حميد لم يكن ليستسلم لانتقادات رشيد، كان يلقي بمبرّرات تفيد بأنّ والده ساعتها توجّب عليه حلقهما بأمر انضباطيّ من قيادة الثّكنة التي قضى بها خدمته العسكريّة، كان يشعر بالرّاحة حينما يجد رشيد قد صمت مقتنعا بحججه الدّامغة.

* * *

تفوح رائحة قويّة في البهو المشرف على الحوش والمفضي إلى غرفة الحاجّة ثامرة، في دار زوجها الرّاحل الحاج بن عثمان، صار النّاس ينسبون ملكيّتها إلى ابنها سالم بعد وفاته. تمتزج أدخنة الرّصاص المذاب وفحم الكانون وأبخرة أعشاب احترقت بداخله، لم تكن الخطوتان اللّتان ألقاهما أحمد باتّجاه دار التّيلي؛ كما يطلقون على غرفة أمّه التي تحتضن في زاوية منها جهاز التّلفاز، تكفيان ليدرك ما يحصل، ملمح سميّة ابنة أخته وهي منكّسة رأسها في كآبة لا تفارق محيّاها، وتسحق بهجتها الطّفولية المفتقدة جعل أحمد يرتاب في الأمر، ليس من عادة والدته أن تبخّر الدّار إلّا لأحد سببين؛ في ليلة السّابع والعشرين من رمضان، أو إذا استدعت خامسة

المشعوذة خفية عنه لبعض شؤونها المستعجلة، حينما تُسدّ أمامها آفاق الحلول الودّيّة مع مشكلات الحياة الأكثر تعقيدا، ولطالما عانت أخته من مشاكلها الزّوجية مع عجوزها وسلائفها وأخوات زوجها، وزوجٍ تضبطه أولئك النّسوة المتآمرات كساعة يد على مزاج مكهرب ضدّ حدّةٍ، فينهال عليها ضربا مبرحا دون سبب وجيه.

رفع أحمد ستارة باب غرفة والدته المو‌ارب، كانت فرحتها غامرة وهي تحضنه وتلقي برأسها على صدره الواسع وتشبك بقوّةٍ يديها خلف ظهره الصّلب كسور قلعة، تغالب دمعها ولا تتمكّن من وقفه، فتنفتح مدامعها كصنبور مياه، لم يلبث طويلا بعد أن استسلم للإجابة على أسئلتها التي تدافعت من فيِها مثل رصاصات من فوهة رشّاش، عن أحواله وصحّته، وسيل منهمر من المعاتبات عن طول غيابه هذه المرّة أكثر من المألوف واللّازم، أن سألها عن سبب رائحة الفحم والأبخرة التي تغزو المنزل، ردّت الحاجّة ثامرة باقتضاب، أنّها هي من قامت بتبخير البيت لدى مجيء أخته من بيت زوجها، بعد أن رمى عليها يمين الطّلاق، لتطرد الشّياطين التي تلاحقها ولا تتركها تعيش بسلام، لم يشأ أحمد معاتبة والدته على صنيعها كعادته، لحساسيّة ظروف سفره القادم، واكتفى بتوجيه بعض اللّوم الموجز والملفوف باقتراح عرضِها للكشف على الطّبيب بدلا من الإنصات إلى دجّالة أفّاقة.

كانت الحاجة ثامرة قد خبّأت خامسة الكزّانة داخل غرفة صغيرة ملتصقة بغرفتها، بعدما أخبرها حميد بمجيء عمّه أحمد، أخفت معها الموقد والكانون وفتحت نافذة الغرفة المطلّة على الحوش حتّى تخفّف من وطأة تلك الرّائحة

النفّاذة. لم تخرج خامسة من بيت سالم إلّا بعد مرور ساعتين، قضاهما أحمد مع أمّه يتجاذبان أطراف الحديث حول صينيّة شاي أحضرتها رابحة. كادت مثانة المشعوذة الممتلئة أن تنفجر في مخبئها الاضطراريّ.

* * *

ورث سالم مع إخوته الأرض عن أبيهم الحاج بن عثمان، كان يعمل بمزرعة ياحي قادة العمومية قبل أن تعمد الدّولة سنة سبع وثمانين، حينما بدأت تنتقل بالتّدريج من النّهج الاشتراكي نحو السّوق المفتوح، إلى تقسيم أرض المزرعة على خمس وثلاثين مجموعة من عمّالها، أصبحت كلّ تعاونيّة تشترك في أرضٍ مساحتها مائة وعشرون هكتارا وجرارٍ ومائة وعشرون رأسا من الغنم. عمليّاً لم يعد لنظام المجموعات هذا أيّ معنى، فهو لم يعدُ كونَه صيغة اشتراكيّة أكثر انفتاحا عن نظام المزارع الكبرى المملوكة للدّولة، الذي يجعل من المزرعة أشبه بشركة زراعيّة عموميّة تشغّل مئات العمّال، أضحت بعدها الأفكار الرّأسماليّة توسوس لأفراد التعاونيّات كما الشّيطان، لجأت كلّ مجموعة إلى اقتسام الأرض والأغنام، أمّا الجرّار فقد توصّل الشّركاء إلى استخدامه بالتّناوب بينهم، غير أنّ سعي كلّ فرد لأن يكون سبّاقا لاستعماله خصوصا مع بداية موسم الحرث، جعلهم يختلفون حول أيّ اتّفاق يتوصّلون إليه بعد عراك طويل، وحتّى فكرة القرعة لتحديد ترتيب من ينتفع بالجرّار قبل الآخرين لم تُجدِ نفعا، كما أخفقت محاولة تدوير استعماله على أعضاء المجموعة في أوّل سنة لهم، فكان أن باعت أغلب المجموعات الزّراعية جرّاراتها واقتسمت أثمانها، في حين لجأ بعضها إلى التّنازل عن الجرّار لأحد الأعضاء لقاء تسديده حقوق العضوين

الآخرين وفق الثّمن المحدّد له، وهكذا قوّض الشّركاء تعاونيّاتهم الزّراعيّة واستقلّ كلّ فرد بملكيّة خاصّة، ولو أنّ حبر عقود الأراضي يصرّ على أن يفرض منطق بقاء كلّ ثلاثة ضمن تعاونيّة واحدة، ويمنع بصرامةِ سوادِه الشّديد بيع الأرض والأملاك المنقولة، ويشدّد على بقائها ضمن ملكيّة الدّولة.

كان والد سالم من هؤلاء، انضمّ إلى تعاونيّة فلاحيّة مع الحاج الطّاهر والحاج النّاصر، وبعد وفاته أصبح سالم ابنه يتولّى إدارة شؤون نصيبه ونصيب أخيه أحمد الذي كان مشغولا بعمله في العاصمة، حتّى إنه اضطرّ لبيع قطيع من الخرفان والاقتراض من أجل السّداد لأخويه غياث وعمر، ولشريكي والده أيضا، لم يسلم منهما حتّى بعد أن دفع لهما وحصل على الجرّار، فمع أوّل موسم احتاجا فيه إليه لحرث أرضيهما، تسابقا على سالم الذي كان منهمكا في الحرث والبذر، وتشاجرا أمام باب داره حول أيّهما يستعمل الجرّار قبل الآخر، وكان أن خرج سالم إليهما حينما علا ضجيجهما بعد فجر أحد الأيّام، ولم ينفكّ منهما حتّى فصل بينهما بالقرعة، غير أنّه لم يكد يفهم قصد الحاج النّاصر ظانّا منه أنّه يريد استخدام الجرّار مجّانا، كان سالم وعلى عادته الرّاسخة في التّعامل واضحا وصريحا:

- سي الحاج. خذ الجرّار وادفع أجرة الكراء.

يرفع السّائق مقدّمة الحاصدة في أرض سالم وأخيه أحمد، يبدو منتشيا بعد راحة نصف يوم على إثر بطالةٍ تقنيّة إجباريّة ومؤقّتة بعد تعطّل الحاصدة، تطلق الشّمس أحزمة شعاعيّة بيضاء منكسرة إذ تقترب رويدا من قمّة الجبل غرب القرية، بدت نعاج الحاج الطّاهر غير مبالية بهذا المشهد

السّحريّ الخلاّب، كانت السّنابل المفتّتة وحبّات القمح المتناثرة التي أفلتت من الحاصدة على الحصيدة أكثر إغراء لها.

يصمت كلب راعي الحاج الطّاهر المستلقي أرضا وهو يمدّ ذراعيه أمامه، يطلق أنينا توسّليًّا مع تثاؤبه الطّويل المنتهي بتلمّض يشي بشعوره بجوع شديد، ويطيل نظره في تلك النّعاج التي التصقت أفواهها بالأرض، يُصدر نباحا متقطّعا عند الغروب بينما تتوارى الشّمس خلف الجبل.

يتململ سالم مادًّا ذراعيه وراء ظهره، كأنّما يحاول أن يتخلّص من تعب يوم كامل في إصلاح تلك القطعة العنيدة، لقد سكن الإعياء جميع مفاصل جسده المربوع، تغمره البهجة بمحصول هذه السّنة المبارك والوافر، عند الرّبوة يقف مشبكا أصابع يديه خلف خاصرته ويتقافز كأنّما يتيح للألم أن يخرج من أصابع قدميه، يتأمّل الآليّة وهي تدفع بأكياس القمح وتذرو خلفها أكوام التّبن وغبارا أسود كثيفا، يقطع استغراقَه المفعم بمشاعر الغبطة وقوفُ أخيه أحمد إلى جانبه، يلتفت إليه برأسه دون أن يعدّل من وضعيّة جسده الأنيق داخل مشملٍ رماديّ، يزيده رونقا رغم امتلائه ببقع سوداء صنعها على مدار سنوات طوال تراكُمُ شحم وزيوت آليّات كثيرة، عند محاولاته المضنية لإصلاحها بعد تعطّلها. سأله بتودّد:

- اكتحلت عيناك برؤية أمّك، لقد جئت باكرا، يبدو أنّ السّأم قد عاجلك.

- بالعكس، اشتقت لأمّي الثّانية.

يبتسم سالم، يطلق يديه ويفتل ذراعيه على صدره ملتفتا بكلّيته إلى أحمد:

- يدهشني حبّك الغامر للأرض، تعشقها أكثر منّا ونحن أبناؤها أكثر منك.

يحني أحمد ليلتقط سنبلة أفلتها درّاس الحاصدة، يضعها بين كفّيه ويسحقها، ثمّ ينفخ في حطامها ليذروه فلا يتبقّى منها غير حبّات قمح ذهبيّة تلمع تحت آخر شعاع لشمس هذا اليوم، يلقيها في فمه ويسحقها بأضراسه، يسري في عينيه لمعان برّاق كأنّما يلملم كلمات ليحمّلها لسانَه:

- مجرّد رؤيتها كلّ يوم أو حتّى العمل فيها قد لا يعني أنّك تحبّها أكثر من غيرك، حبّ الأرض الحقيقيّ أن تهتمّ بها، أن تخفّف عنها بعض معاناتها، وأنت تفكّر فيها دائما يجعلك ذلك تشعر باهتمامك بها.

- منذ وجدنا مطمورة القمح تلك وأنت تزداد انجذابا لها. يومها كنت قد تخرّجت لتوّك من المعهد الوطني للعلوم الفلاحيّة، أتذكّر حينما ساخ بك الجرّار في تلك النّاحية عندما كنّا نحرث الأرض هناك، منذ أن اكتشفنا القمح الكنز وأنت تُجري أبحاثك عليه لا تكلّ ولا تملّ.

- يومها كنتَ تأمل لو أنّنا كنّا قد عثرنا على كنز حقيقيّ، ذهبٍ وياقوت لا مجرّد حبّات قمح.

يضحك أحمد ويهزّ جسده الذي يضاهي أناقة أخيه بجانبه، يعقّب سالم بابتسامة عريضة تتفلّت منها ضحكات مستترة:

- تذكّرتُ ساعتها قصّة ذلك الشّيخ الذي توفّي بعد أن ترك لأبنائه الكسالى رسالة أبلغهم فيها أنّه خبّأ كنزا في مكان مجهول في الأرض، طفقوا يقلّبونها بالمحراث طولا وعرضا ولم يعثروا في الأخير على شيء، نصحهم أحد إخوتهم أن يزرعوها طالما أنّهم تعبوا في قلبها، لعلّ الحصاد

يخفّف عنهم بعض ما بذلوه من جهد، وعندما حصدوا زرعهم فهموا رسالة أبيهم، أراد أن يحثّهم على العمل والكدّ ويحذّرهم من الكسل والخمول.

- إذن الكنز ليس ذهباً ومجوهرات كما ترى يا سي سالم، هل تعرف أنّني عثرت على ما هو أكثر قيمة من أموال الدّنيا كلّها؟ لقد أخفيت عنك هذا السّرّ منذ ذلك الوقت.

يُضيّق سالم عينيه تحت حاجبيه المقطّبين، فتُشعّ من بصره ذاكرةٌ تعيده سنوات إلى الخلف، يحاول جاهدا أن يكتشف ما قد تكون تلك المطمورة خبّأته بين حبّات قمح عاديّ. لقد ظلّ ذلك القمح الذي وجدوه سليما لمدّة طويلة، لا يمكن معرفة طولها على وجه التّحديد، ولم يفسد رغم كلّ شيء، وبعدما زرع أحمد بذوره في قطعة أرضيّة خصّصها له، اندهش كثيرا من نموّه ومقاومته لعوامل المناخ وحتّى للأمراض التي أصابت في تلك السّنة مساحات مزروعة شاسعة بالجوار، أخذ معه كمّيّة منه واستنبتها في المعهد الوطني للبحث الزراعي وبدأ بإجراء تجارب عليها، فكانت النّتائج التي حصل عليها مذهلة، قام بمحاولة لتهجين جزء من البذور مع سلالات قمحيّة أخرى، فحقّقت تلك التّجارب مردودا منقطع النّظير، لقد اكتشف أحمد أنّ ذلك القمح يحوي بداخله طاقّة متفجّرة ستمكّن من حصد أضعاف ما هو معتاد ومألوف.

- بإمكان المحصول أن يزيد إلى ثلاثة أضعاف، أو أكثر لو استطعنا أن ننتج بذورا كتلك البذور بكميّات مناسبة وبشكل مستمرّ.

استطرد أحمد على أسراره التي كشفها لأخيه لأوّل مرّة، ورغم أنّ سالم لم يستوعب تفاصيلها، غير أنّ خروجه من الثّانويّة بعدما أخفق في نيل البكالوريا في الشّعبة العلميّة، جعله يفهم ما يرمي إليه، فردّ على كلامه متعجّبا:

- حقّا! وكم يكون مردود الهكتار ساعتها؟

- في حدود الخمسين قنطارا.

- أوووه... هذا مذهل! يعني ذلك أنّنا سنتمكن بنفس التّكاليف التي نتحمّلها والمجهود عينه الذي نبذله، من أن نحقّق كلّ هذا المردود الهائل؟!

- وربّما أكثر.

كان أكثر ما يبعث على حيرة الأخوين، هو مصدر تلك المطمورة، فمنذ أن تحوّلت الأرض إلى ملكيّة أبيهما، أضحى من عادته أن يرصّ أكياس الحبوب في المخزن، وحتّى في زمن المزرعة العموميّة لا يذكر والدهما، الذي اندهش من وجود مطمورة في أرضه، أنّ أحدا من العمّال يكون قد طمر بها قمحا، وعندما استفسره أحمد حول الأمر تعجّب واستغرب كثيرا، قال له أنّ المعمّر الفرنسيّ گاريگ عندما كان يملك الأرض في زمن الاستعمار، لم يكن من عادته طمر المحصول أو حتّى جزء منه مهما كان يسيرا، كان لا يتأخّر وقتها في بيعه لتعاونيّة الحبوب في سعيدة، قال له أنّ المحصول كان وافرا في تلك السّنوات وحتّى بعد الاستقلال، تذكّر أحمد أنّ أباه أخبره باحتمال محاولة بعض عمّال گاريگ الجشع من الفقراء، إخفاء بعض المؤونة بعدما أخذوها من محصوله، لوقت الشّدّة، ربّما كان الموسم ساعتها مجدبا أو أنّهم حاولوا الانتقام منه لأنّه غمطهم حقّهم.

ظلّ أحمد يعتقد جازما أنّ عُمر القمح المطمور لا يتجاوز خمسة عشر سنة في أقصى الحدود، تبيّن له من خلال أبحاثه أنّ تلك البذور لديها ميّزات وراثيّة هائلة، تُمكّنها من مقاومة ظروف المناخ القاسية وطرح مردود جيد، مهما كان الموسم جافّا والأمطار شحيحة. وعلى عكس سالم الذي لم يدرك كيف اختفت تلك النّوعية الجيّدة من القمح، طالما أنّها كانت موجودة في زمن ما في البلاد، فإنّ أحمد فسّر له ذلك على أنّها استُهلكت مع الزّمن وخصوصا في المواسم المجدبة، وبسبب سوء التّخطيط والإهمال في المحافظة على ما يسدّ الحاجة من البذور، فقد كان يتّم استيرادها من الخارج وبنوعيّات لا تتأقلم مع المناخ، فكان مردودها قليلا ومقاومتها لعوامل المناخ والأوبئة ضعيفة، وهكذا مع مرور الوقت بدأ ذلك القمح الجيّد يختفي شيئا فشيئا إلى أن انقرض تقريبا.

- لكن كيف لنا يا حضرة المهندس أن نسترجع تلك النّوعيّة الجيّدة؟

سأل سالم أخاه متلمّسا حلاّ لمعضلة استعادة القمح الجيّد.

- هذا ما أشتغل عليه منذ سنوات، وهو ما أسعى للتّوصّل إليه خلال سفري إلى إنجلترا بمواصلة الدّراسة والبحث، هناك أشياء تنقص أبحاثي ستزيل الكثير من الإبهام والغموض.

كانت المدّة الطّويلة التي مكثها القمح في المطمورة قد خفّضت من قدرة البذور النّاتجة عنه على النّمو، وحتّى يتمكّن أحمد من التّوصّل إلى نتائج لاستعادة محاصيل تلك البذور قدرتَها على النّمو بشكل مثاليّ، يتوجّب عليه تحصيل بعض المعارف المتقدّمة خصوصا في علم الوراثة النّباتيّة وبعض تقنيات التّحسين الجيني والتعديل الوراثي. لقد بلغ مرحلة بحثيّة متقدّمة

تتطلّب إمكانات ووسائل وتقنيّات وعلوما ليست متاحة أمامه في المعهد الوطني للبحث الزّراعيّ، من أجل القيام بتجارب أكثر تطوّرا تتيح له الحصول على نتائج أفضل.

- تقول إنّك مسافر إلى إنجلترا، لقد فاجأتني بهذا الخبر غير المتوقّع! ومتى ستغادرنا؟

سأل سالم أخاه مندهشا من الخبر المفاجئ.

- في هذه الزّيارة جئت لتوديعكم، وقبل ذلك أعتمد عليك في إقناع أمّي بضرورة سفري وأهميّته، أنت تعرف قلقها عليّ، لا تتحمّل مكوثي بعيدا عنها في العاصمة، في بلادنا، فكيف ستتقبّل فكرة سفري إلى الخارج.

- فعلا الأمر ليس بالسّهل، خصوصا مع أمّي، ستعترض وستعاند، لكن عليك أن تثابر وألا تستسلم حتّى تأخذ معك رضاها عنك.

* * *

6

في الشّقّة التي يقطن بها مسعود وصديق عمره أحمد، كان مسعود قد عاد باكرا من الصّحيفة في ذلك المساء، في العادة تعمّ الفوضى المكان إذا كان آخر من غادر الشّقّة قد أغفل تنظيفها، وخرج مسرعا ومتنصّلا من واجب ترتيب البيت، إلى عمله أو كان مرتبطا بموعد هامّ وضروريّ لا يتطلّب التّأجيل، إلى درجة يصبح معها استمرار حياة طبيعيّة بداخلها أمرا مستحيلا.

تفاجأ أحمد بعد رجوعه متأخّرا نوعا ما من مدى نظافة المكان والتّنظيم الذي أحدثه مسعود العائد أبكر منه، في العادة لا يترك أحمد مجالا لتراكم الفوضى في الشّقّة، غسيل الأواني بعد كلّ وجبة هو طقسٌ أشبه بالواجب العسكريّ، على من يحين دوره للقيام به ألا ينتظر حتى تجفّ الأطباق بعد الأكل، فيصبح غسيلها متعسّرا وشاقّا بعض الشّيء، يتحايل مسعود أحيانا على هذا البند، فيضع الأطباق المتّسخة داخل إناء بلاستيكيّ كبير مملوء بالماء السّاخن، حتّى لا تيبس الشّحوم والدّهون عليها، ريثما يفرغ لغسلها بسهولة في وقت لاحق، تناولُ الأكل أضحى لزاما في المطبخ تفاديا لاتّساخ الصّالة، اضطرّ أحمد لفرض هذا القرار أن يضع مذياعا فوق الثّلاجة يُشغّله على الغداء والعشاء، حتّى لا يتحجّج مسعود بحاجته لمعرفة المستجدّات من التّلفاز، خصوصا في أوقات الأحداث المتسارعة والتي تأخذ مسارا حلزونيّا أشبه بحلقة مفرغة، أو تلك التي تتدحرج وتكبر مثل كرة ثلج أو يتلو بعضها

بعضا كتساقط أحجار الدّومينو، يتحسّس مسعود من هذه النّقطة بالذّات إلى حدّ لا يوصف، ويتفهّم أحمد الأمر إلى أبعد الحدود.

كثّف أحمد خلال الأسبوع الأخير من تواجده خارج البيت، حتّى يتسنّى له وضع آخر الرّوتوشات على سفره إلى إنجلترا، وهي مدّة كانت كافية لأن تقلب أرض الشّقّة سافلها على عاليها، وتجعلها أشبه بمفرغة عشوائيّة نمت فجأة في حيّ صفيح. برنامج أحمد المهندس في المعهد الوطني للبحث الزّراعيّ كان منضبطا، بعكس مسعود الذي أرغمته مهنة الصّحافة على أن يبقى دوما على أهبة الاستعداد، متجهّزا كرجل إطفاء لمواجهة أيّ طارئ قد يوقظه من فراشه في عمق اللّيل، في كثير من الأحيان يغيب ليومين متواصلين من العمل الميدانيّ في أماكن بعيدة عن العاصمة، ما جعل في الأخير مسؤوليّة الشّقّة بمتطلبات حياة طبيعيّة بداخلها تقع على عاتق أحمد.

جلس الصّديقان إلى التّلفاز، كان التأثّر باديا على مسعود، لم يتمكّن بعد من تقبّل فكرة أنّه سيعيش بدون رفيق دربه لمدّة قد لا تقلّ عن ثلاث سنوات سيقضيها أحمد في دراسته وأبحاثه، غيابه عنه سيكون نوعا من الموت النّسبيّ الذي لا يختلف كثيرا عن الهجران الأبديّ، فكِلا الموتتين تعبّران عن الفقد المؤلم. لقد تفتّحت أعينهما على رؤية بعضهما بعضا وهما يلهوان في زقاق يطلّ عليه منزلاهما القريبان في فنوان، دخلا المدرسة الابتدائيّة معا وتدرّجا في المراحل التّعليميّة ذاتها، إلى أن بلغا المرحلة الثّانويّة، ساعتها تخصّص مسعود في الشّعبة الأدبيّة وأكمل أحمد في الشّعبة العلميّة، وحتّى في الجامعة تقاسما الغرفة نفسها في الحيّ الجامعيّ عينه بالعاصمة، درس أحمد في معهد الزراعة، واختار مسعود الدّراسة في كلّيّة

العلوم السّياسيّة والإعلام، لم يطل بهما الحال كثيرا بعد التّخرج ليجد كلّ منهما وظيفة في مجال تخصّصه، عمل مسعود في صحيفة الشّعب العموميّة، وتدرّج أحمد في الماجستير لينغمس بعدها إلى أذنيه في البحث العلميّ، كباحث يشتغل في المعهد الوطني للبحث الزّراعيّ.

يتنهّد مسعود إذ يسحب رشفة مرتجفة من فنجانه بشفتين متردّدتين، وبنفَس طويل أحال الصّوت المصاحب لها إلى كتلة من إزعاج، حطّمت الصّمت السّائد وبدا معها الأمر مفتعلا، ثمّ ما لبث أن انفجر مسترسلا في عتاب لاذع لصاحبه:

- ليتك اخترت السّفر إلى فرنسا، على الأقلّ لن تشعر بالغربة هناك، ستجد أمامك جزائريّين أينما اتّجهت، حتّى وأنت تحزم حقيبتك لا أفهم لماذا تصرّ على إنجلترا؟!

- ما بك يا مسعود... إلى متى تعيد طرح هذا السّؤال؟! لقد أجبتك مرارا، ثمّ لم يعد أوان له، لقد استكملت جميع وثائق السّفر، اليوم عدت بالجواز والفيزا، وبالأمس استلمت من البريد بعض الأوراق، بعثها المعهد الزّراعيّ البريطانيّ الذي سأزاول دراساتي وأبحاثي به.

- هذه كلّها أسباب غير كافية، لم تقنعني يا أحمد، كلّ من رغب في إتمام دراسته ممّن نعرفهم ذهبوا إلى فرنسا، ضف إلى ذلك مشكلة اللّغة الإنجليزيّة التي ستواجهها، ما أعرفه عنك وأستغربه حقّا هو مقتك المتطرّف لكلّ ما يمتّ لفرنسا بصلة، أفهم أن يكره أيّ جزائري فرنسا الاستعماريّة التي اضطهدت آباءنا ومارست القمع والقتل والتّخريب على

الأرض الجزائرية لقرن واثنين وثلاثين سنة، لكن ليس بالطّريقة العجيبة التي تبغضها أنت بها ونحن ننعم بالاستقلال ونستنشق نسائم الحرّيّة.

- الحرية! تتكلّم بجدّ أم تراك تمزح؟

- وماذا بقي من المستعمر؟ لقد دحره الشّهداء والمجاهدون إلى غير رجعة.

- لم يرحل من المستعمر سوى خيالاته وأشباحه، ولكن بقي أكثر شيء تأثيرا فيه، بقيت لغته وثقافته تكبّلاننا من الأيدي والأرجل، ما زالت هذه البنايات بالطّراز المعماريّ "نابليون الثّالث" تأسرنا، لقد صرت أشعر بسعادة غامرة كلّما انهارت إحداها وبنيت على أنقاضها بناية جديدة، أحسّ وكأنّ ذلك المكان المقامة عليه قد تحرّر لتوّه، لو كان الأمر بيدي لمحوت كلّ حرف ولهدمت كلّ حائط ولقطعت كلّ حبل يربطنا بفرنسا، ثمّ لا تنس هؤلاء الخونة والعملاء ممن يحتلّون مناصب سياسيّة وإداريّة رفيعة يبيعون ويشترون فينا عند المستعمر صباح مساء، فعن أيّ استقلال تتحدّث وعن أيّ حريّة تتكلّم؟

- بخصوص الكلام، لماذا تتكلّم الفرنسيّة، إذا كنت تسبّح بلعن فرنسا طوال الوقت؟

- صحيح أنّني لا أخفي عدائي للثّقافة الفرنسيّة، وللغتها أيضا، بحكم أنّها حامل لهذه الثّقافة، غير أنّني اضطررت لدراستها في منظومة سياسيّة وتعليميّة تفرض ذلك، وحتّى أكون صريحا معك، فإنّ هذه العداوة توطدّت منذ أن تمّ تسريب مواضيع البكالوريا في شهر ماي الماضي، هل لديك فكرة يا صديقي الصّحفي عن الفاعل الذي يقف وراء ذلك؟

- فهمت قصدك، تريد أن تذكّرني بالمقابلة التي كنت قد أجريتها مع وزير التّربية الوطنية علي بن محمد. سبق وأن أخبرتك عنها. صحيح هناك في السّلطة من يريدون للبلد أن تبقى تابعة ثقافيّا لفرنسا، الوزير كان يسعى لتحطيم هذه الحتميّة التي ورثناها عن الاستعمار ووو...

قاطعه أحمد وقد سحب خيط كلامه منه كأنّما يساعده على إتمام حديثه:

- وسعى لأن يُدخل اللّغة الإنجليزيّة في برامج التّلاميذ للسّنة القادمة إلى جانب الفرنسيّة، ويعطي لأوليائهم حقّ الاختيار بينهما، لكن بعض المتربّصين تفطّنوا لحيلة الوزير الذي كان يهدف إلى تنحية الفرنسيّة كلّيةً من البرامج التّعليميّة، واستبدالها مرحليا وبشكل متدرّج بالإنجليزيّة التي تمثّل لغة العصر والعلم والعالم، في حين أنّ مبرّر تدريس الفرنسيّة لا يعدو عن كونها لغة المستعمر الذي يحنّ إليه أولئك الذين سرّبوا مواضيع امتحانات البكالوريا الأصليّة والاحتياطيّة معًا، بل وحتّى حلولها النّموذجيّة، بشكل جنونيّ ورهيب، لدرجة أن أصبح بائعو المكسّرات يستخدمونها في لفّ قراطيس الكاوكاو واللّوز المحمّص كما كنّا نتندّر به حينها.

- هذا صحيح، وهذا ما وقفت عليه وشاهدته بأمّ عينيّ حينما كنت أهمّ بالخروج من الصّحيفة وقتها، وجدت بعض الشّباب يمسكون بأيديهم مواضيع امتحانات الشّعبة العلميّة ويبيعونها للممتحنين في الشّارع.

- كلّ هذه أدلّة وبراهين تؤكّد نية هؤلاء الفرنكوفيليين في تكسير الدّولة وضرب مقوّماتها، من أجل أن يفرضوا علينا ثقافة أسيادهم المستعمرين، الذين فشلوا في تجهيل الشّعب الجزائريّ وطمس هويته وسلخه عن حضارته لقرن واثنين وثلاثين سنة.

- حسنا ما دمت ذاهبا إلى إنجلترا فأنت ستستعين أيضا بعدوّ طالما استباح هو الآخر بلدانا عربيّة، واستعمرها واضطهد شعوبها واغتصب خيراتها وتسبّب في مآسيها التي لا تزال ترزح تحتها، تماما كما فعلت فرنسا بالشّعب الجزائريّ.

- لقد قلتها بعظمة لسانك، وأنا أوافقك، تلك القوى العالميّة التي استعمرت بلداننا وقهرت شعوبنا واستنزفت ثرواتها هي مسؤولة عن تخلّفنا ومعاناتنا، ويقع عليها واجب إعادة الحقوق لأصحابها، واستفادتي أنا وغيري من بني جلدتي ممّا توصّلوا إليه هم من تقدّم لهو جزء بسيط من هذا الواجب.

راح أحمد يذكّر مسعود بكمّيات القمح، بما أنّه تخصّصه، والتي أخذتها فرنسا من الجزائر طيلة استعمارها لها، بل إنّ سبب استعمارها للجزائر، كما قال له، كان عدم سدادها لما أخذته من قمح، وافتعلت الاحتلال بحادثة المروحة الشّهيرة بعد أن طالب الدّاي حسين قنصلها دوفال بديون الجزائر المستحقّة على بلاده، وهي تريد اليوم وفي إطار استعمارها الجديد للبلاد أن تملي عليها شروطها، بعد تعثّر حكومة سيد احمد غزالي في سداد ديونها باعتبارها أكبر دائن للجزائر في نادي باريس، ذكر له كيف أنّ حكومات قبلها سدّدت أقساطا في آجالها المحدّدة وعندما تهاوت أسعار النّفط وعجزت البلاد عن السّداد، ها هم يريدون احتلالها من جديد لكن هذه المرّة بأساليب مختلفة، تنهّد عندما ساق له المصير الذي يتهدّد الجزائر بما ستتحمّله من دفع فوائد التّأخير على أقساط الدّيون المؤجّلة، ما دامت الدّولة قد رفضت إعادة جدولتها، وستكون فوائد التّأخير أكبر من أسعار الفوائد الرّسميّة على القروض التي لم يتمّ إعادة جدولتها، قال له أنّ الأدهى والأمّر من كلّ هذه

المرارة الطّافحة، أنّنا سنكون ملزمين بالتّعهد بإجراء العديد من التّغييرات الاقتصاديّة وفق النّموذج الرّأسماليّ المتوحّش كما أوصى به الدّائنون، ولم يُخفِ تخوّفه وهو يضرب بقبضة يده على المنضدة أمامه ويزمّ شفتيه فيَبرُز رأسا خدّيه المتورّدين، من أنّ مؤسّسات وشركات اقتصاديّة تابعة للدّولة ستصبح مهدّدة بالإفلاس والغلق، بالإضافة إلى كلّ ما ينجرّ عن ذلك من تسريح لمئات الآلاف من العمّال وإحالتهم على البطالة الإجباريّة، وما يتبعه من مشاكل ستواجهها عائلاتٌ انقطع عن أربابها مصدر رزقهم.

وقف مسعود رافعا حاجبيه وضاغطا على شفتيه، يصفّق في دعابة لا تخفي استحسانه لكلام أحمد، ثمّ أضاف مثنيا:

- أحيانا تبهرني بتحليلاتك الاقتصاديّة، حتى إنّني أعتقد أنّك متخصّص في الاقتصاد وليس في الزّراعة.

تبسّم أحمد وردّ على إطراء صديقه:

- أتمنّى ألا يحدث شيء ممّا خمّنتُه، لكن في ظلّ هذه الظّروف الصّعبة التي تعيشها البلاد، بعد مقتل الرّئيس محمد بوضياف قبل أسبوعين لن يكون المستقبل ورديّا كما كنّا نأمل.

- صحيح سي أحمد، تردنا في الجريدة أخبار وتقارير من جهات أمنيّة مطّلعة حول قيام بعض العناصر العائدة من أفغانستان بتشكيل خلايا مسلّحة هنا في العاصمة، ومخيّمات للتّجنيد والتّدريب على الأعمال القتاليّة بالعديد من المناطق الغابيّة والجبليّة في البلاد.

- نتمنى أن يسود التّعقل والحكمة، البلد على صفيح ساخن كما تقولون في لغتكم الصحافيّة.

* * *

ينوء حيّ الحرّاش في العاصمة بآلام ساكنيه وأوجاعهم المهووسة بمستقبلٍ يغدق عليهم بفيض نعيمه المأمول، وهم يحدجون بأعينهم المليئة بغبش الحيرة أيّاما تفغر أفواهها كضباع تنتظر هلاك الأسد المحتضر لتنقضّ عليه، وتنتقم من أزمنة لازمتها كأنفاسها، وأجبرتها على أن تظلّ منتظرة انتهاء الوحش من وليمته، حتّى تتمكّن من قضم طرف عظمة، أنِف السّبع أن يدفعها إليها، وقد طارت أعينها إليها وسال الرّيق بحارا.

تتسارع خطى الآفات عجلى، لتبطش بآخر فرحة راحت تخبو أمام رياح البؤس المتخندقة عند مداخل العاصمة تروم إخمادها. لن توفّر الشّقاوات المتسلسلة كحبّات الخرز في خيط مسبحة طويل جهدها، حتّى تضني أسعد صبيّة تمرح أمام باب بيتهم، تدفع بقدم حجرا فوق خطوط سطّرتها ببقايا طبشورها المدرسيّ، وترفع أخرى كي لا تلمس الأرضَ المضطربة، وهي تروم سرقة نبضات قلبها المتفتّقة كضحكات عروس ليلة زفافها، تغدو الصّبايا خلفها وترحن، تشجّعنها تارة وتتمنّى صاحبة الدّور التّالي إخفاقها حتّى تبدأ جولة من اللّعب المفعم بالزّهو والنّشوة العارمة. وعند المغيب يبقى الحجر وحيدا وسط الخطوط البيضاء وفزع اللّيل الأسود، وتندفع الصّبايا إلى بيوتهنّ كأسراب من العصافير العائدة إلى أعشاشها، لتهجع بعد يومٍ نهش تعبهُ أجنحتها المرتجفة.

تنساب امرأة بين زقاق الحيّ المتلثّم بوشاح اللّيل الكئيب المحمّل بحرارته الرّطبة والخانقة، تعتمر خمارها الأسود بعدما شقّته من طرف اللّيل الجاثم على فؤادها المتفطّر، وقد باتت المعاناة تترصّدها خلف مكبّ نفايات

تقصده في كلّ قطعة حالكة منه، تذر صغارها صرعى يتضوّرون جوعا، تتسلّل بعيدا عن أعمدة الإنارة العموميّة بعد أن هجع النّاس في أحضان بيوتهم الوثيرة، مثقلة تنحني على المكبّ، تقلّب بيديها ما أنفت قدور الأغنياء احتواءه، تُشيح بأنفها المخنوق بعيدا عن روائح تسدّ الأفق الرّحب بعفنها، تقف إلى جنب كلاب وقطط وجرذان تتصارع حول أكياس قمامة اندلقت أحشاؤها، تتحسّس ما يبس من خضروات فاسدة رماها باعة سوق الخضار الملاصق للمكبّ، حبّة بطاطا أو بصل أو جزر فقدت كرامتها عند أصحاب القفف الممتلئة، لا تعاف قاذورات المرفّهين، كان بإمكان الواحد منهم بدل أن يُلقى بها في حاويات القمامة، أن يَلقى بها أبناءها ويقدّمها لهم نظيفة نقيّة فيقاسمهم سلّته، أو مطبوخة ناضجة فيُشركهم قِدره، أن يمرّر يده على شعورهم حتّى تصفو مشاعرهم، أن يرسم قبلات على جباههم فيخفّف عنهم ما يجابهونه في أيّامهم القاسية، تلك سعادة ولذّة هم محرومون منها ولا يحتاجون لأموالهم لتحصيلها، إنّها بهجة تقع خلف أبواب الأشقياء والتّعساء.

تحمل المرأة ما أمكنها في كيس خبّأته بإحكام بين ثنايا أسمالها الممزّقة، تعود إلى قبرها المملوء أسى لتسدّ أفواهاً عانت يومها، بل دهرها الأبدي، تحتفظ ببقايا عزّة تصون عفّتها رغم الفاقة المنهِكة، تتكالب على شرفها المتأرجح عيون الضّباع وأنياب الذّئاب، تأبى أن تأكل بثديها المنهكين بعدما سقط عمود بيتها وغادر الدّنيا إلى غير رجعة.

يستطيل ليل قائظ، يبعث ظلامه الدّاكن، يطفئ به كلَّ نور ينتظرُ في شوقٍ انبلاجَ الفجر المضيء، يأبى الدّجى إلّا أن يُغرق الكون بسرابيل حالكة تزيح

كلّ قبس يتشوّف إلى شمس الغد المرتبك، فجأة ينكمش اللّيل ويتراجع أمام مدّ النّهار وزحفه.
بعد صلاة الفجر يتسلّل المصلّون إلى بيوتهم متدثّرين بثياب رقيقة مطرقي رؤوسهم، ينسابون كنسائم تطفو على سُحب تمرّ بين جبال أثقلتها قممها الخاشعة، يتمسّك بعضهم بين فكّيه بأدعية تغمغمها شفاه لاهجة ملحّة، تستمدّ مدد الإله وتستمطر مستغيثةً رحمات ربّ السّماء. يتدحرج مسعود وأحمد في طريق عودتهما إلى الشّقّة نحو مخبز لا يبعد كثيرا عن المسجد، يفتح أبوابه مع انصراف المصلّين منه، يرتاده في صباحات الصّيف بعض الشباب المتديّن بعد نهوضهم المحتوم، يرسلهم أولياؤهم لجلب أرغفة الخبز والبريوش للإفطار في طريق عودتهم من المسجد.
يغصّ المخبز على غير عادته في السّنوات السّابقة بالزّبائن. "الخبز قليل"، يستبق صاحبه تذمّر زبائنه واستهجانهم، دافعا عن نفسه شبهة افتعال النّدرة. "الحكومة حدّدت حصص كلّ مخبز من الدّقيق"، يضيف مبرّرا الأسباب. "كلّ واحد ليس من حقّه أخذ أكثر من خمسة أرغفة، والرّغيف من الآن فصاعدا بدينارين، لقد رفعت الحكومة سعر طحين القمح"، يطلق الخبّاز تصريحاته كأوامر عسكريّة لا ينبغي لأحد مخالفتها بأيّ حال من الأحوال، يستطرد قائلا: "الحكومة في أزمة بسبب الأوضاع الأمنيّة والماليّة الصّعبة، وعلينا أن نتحّمل ونتكيّف مع الوضع الجديد".
يراقب أحمد مشاهد كان يتوقّع حدوثها، دون أن يتفاجأ إذ يستمع لكلام الخبّاز، التفت إلى مسعود فوجد وجهه قد سبقه إلى لسانه:

- ليس غريبا أن يحدث هذا الأمر، الآن تكتمل صورة الأزمة التي تعيشها البلاد لتأخذ بعض الألوان الكئيبة من تعاسة الفقراء.
يبادر أحمد واصفا المشهد لصديقه.
- ديناران! ارتفعت أسعار الخبز الذي تدعمه الدّولة بدينار بحاله! ماذا سيكون عليه الحال مع المواد والسّلع والخدمات الأخرى غير المدعّمة؟!
- وستزداد الأمور شدّة وتعقيدا حينما يضاف إليها طوابير العمّال المسرّحين، سيحالون على البطالة الإجباريّة بسبب إقفال الشّركات والمصانع العموميّة بعد أن تفلس.

* * *

لم يشأ مسعود أن يترك أحمد يغادر إلى المطار لوحده دون أن يرافقه، صحيح أنّ أمتعته لا تشكّل عبئا كبيرا عليه، من الواضح أنّه بمقدوره نقلها وحده إلى المطار دون أن يساعده أحد، غير أنّ عِشرة السّنين الماضية كانت تدفعه لئلا يدعه يرحل وحيدا دون أن يشيّعه، واضطرّ لفعل ذلك إلى تأجيل مهمّة استقصائيّة كلّفه بها رئيس التّحرير.
تكتظّ الطّريق إلى المطار بالمغادرين، أضحت ظروف البلاد الأمنيّة الطّارئة ومجهولة المصير لا تساعد الكثيرين على البقاء لوقت أطول. ينتشرُ رجال الشّرطة بعيدا أمامهم كالنّمل وتطلق سيّاراتهم أصواتا تحذيريّة تتزامن معها ألوان ضوئيّة تُصدرها أضواؤها الدّوّارة على أسطحها، تعليمات الأمن مشدّدة ولا تسمح بالاقتراب من المطار أكثر، بدأ الزّحام في التّشكّل على إثر حاجز أمنيّ نصبته الشّرطة قريبا من بوّابته، طلب مسعود من سائق

التّاكسي أن يتوقّف قبل بلوغ الزّحام. يبدو أنّ عليهما أن يترجّلا قبل بلوغ المكان المخصّص للتوقّف عند المطار.
لم يكد أحمد يضع رجله على الأرض إذ ينزل من التّاكسي، حتّى باغته طلق ناريّ في صدره حينما فتح الباب على آخره وبدأ يستوي واقفا، تبعه طلقان آخران قبل أن يرتطم على الأرض، كان مصدر الطّلقات غير بعيد عنهم، ووسط تلك المفاجأة بذهولها المرعب وقف أمام السّائق رجلٌ متوّسط القامة، بلحية كثيفة ونظّارات سوداء، يلبس السّواد، قميص نصف كمّ وسروال جينز، اقترب من السّائق وأشهر في وجه مسدّسا كان يقبض عليه بكلتا يديه، عيناه تضطربان وترتعدان بخفّة حذرة وتتقاسم النّظر بين مسعود والسّائق وبعض المارّة القليلين في المكان.
أمر المسلّح السّائق أن يفتح صندوق السّيارة الخلفي، هرع مسعود إلى أحمد، أقعى وأمسك برأسه محاولا إسناده على باب السّيارة بعدما أغلقه. يوجد بداخل صندوق السّيارة الخلفي حقيبتان، أمر المسلّح السّائق أن يفتح أصغرهما ويقلب محتوياتها داخل الصّندوق، لم يغفل عن مسعود وعن المارّة، راح يصوّب مسدّسه نحوهم كلّما سمع حركة مريبة، مسعود ذاهل عنه وكلّ تركيزه متّجه نحو صديقه الذي بدأت قواه تذوب بسبب الرّصاصات التي اخترقت صدره، لكنّه رغم ذلك ظلّ يستمع لما يقوله، أخذ الملتحي المسلّح من أغراض أحمد جميع الملفّات والوثائق وأكياسا من البلاستيك الشفّاف تحوي عيّنات من القمح كانت مغلقة بإحكام، ما إن أغلق السّائق غطاء صندوق التّاكسي حتّى توقّفت سيّارة، أقبلت عليهم بسرعة جنونيّة، إلى جانب التّاكسي في الاتّجاه المعاكس، أومأ المسلّح

بمسدّسه لسائق التّاكسي أن يضع الملفّات وعيّنات القمح داخل سيّارتهما المتوقّفة بعد أن فتح له سائقها بابها الخلفيّ، لمحه مسعود بينما كان ينقلها، ركب الرّجل المسلّح إلى جانب سائق السّيارة التي انطلقت بنفس السّرعة التي جاءت بها.

سارع مسعود وسائق التّاكسي لنجدة صديقه، احتملاه إلى مستشفى زميرلي. يستلقي أحمد في الخلف، تنهمر دماؤه وتسيل من جسده وتُغرق ملابسه لتنساب على غطاء الكرسيّ الجلديّ وتتقاطر من فوقه على موكيت السّيارة، حاول مسعود الذي دخل في هستيريا جنونية وصراخ مرعب أن يفتح أزرار قميص أحمد ليُبرز جلد صدره الأشعر ويتفحّص عمق إصابته، تتفجّر الدّماء في وسط صدره قريبا من قلبه، تخاذلت جهود مسعود لإيقاف النّزيف بعد ضغط شديد على مكان الإصابة. حركة المرور بطيئة جدّا بسبب التّواجد الأمنيّ الكثيف، وحواجز الشّرطة المبثوثة في المنطقة على طول الطّرق الثّانويّة المؤدّية إلى المطار، وتزاحمِ المارّة الفضوليّين المترقّبين لما يحدث بعد انفجار وقع بداخله.

أشعل سائق التّاكسي غمّازات الطّوارئ وحاول تفادي الطّرق الرّئيسية المزدحمة، والمرور في شوارع ثانوّية تقلّ بها الحركة، بدأ أحمد يطلق زفرات متقطّعة تشبه شخير الخروف المذبوح، وفجأة سقط رأسه ولامس ذقنُه رقبته، فارق أحمد الحياة. صمت مسعود لبرهة ثمّ أطلق صراخا حادّا وانهار في بكاء حارق، كانت رصاصةٌ قد استقرّت قريبا من قلبه ولم تمهله أكثر من تلك الدّقائق المعدودة.

مكثت جثة أحمد في المشرحة لحين عرضها على الطّبيب الشّرعي، تأخّر كثيرا بعد مجيء مفتّش الشّرطة برفقة مساعديه، طلبوا من مسعود استكمال إفادته في التّحقيق داخل محافظة الشّرطة، كان المفتّش قد طرح عليه قبلها أسئلة تتعلّق بهويّته وعلاقته بالقتيل.

في مكتب المفتّش، بدا مسعود أكثر تحسّسا من انفعال مفتّش الشّرطة الذي أصرّ على أنّ القاتل على علاقة بالجماعات المسلّحة، التي بدأت أنشطتها تتصاعد في العديد من أحياء العاصمة في الآونة الأخيرة، وهي من يقف خلف حادث تفجير المطار كما تردّد، بدا المفتّش متشنّجا ومرتبكا بعض الشّيء كلّما أصرّ مسعود على موقفه الرّافض لقناعته، حاول أن يرغمه على القبول بفكرة أنّ القاتل ينتمي إلى تلك الجماعات، كانت حجّة مسعود في تمسّكه برأيه تتأسّس على كون القاتل أصرّ على أخذ بعض متعلّقات أحمد، الذي لم تكن لديه أيّ عداوة ضد تلك الجماعات، ازدادت عند ذلك حدّة المفتّش وفظاظته، ما جعله يوقف التّحقيق ويقرّر إبقاء مسعود في الحجز الانفراديّ داخل محافظة الشّرطة.

كان مسعود متأكّدا من أنّ القاتل استهدف البحث الذي كان بحوزة أحمد، غير أنّه ولجهله بغرضه من الحصول عليه، غاص في مستنقع موحل من الاحتمالات التي كانت تضطرب في مؤخرة رأسه، فتضطرّه لحك جلدتها بينما كان يمشي جيئة وذهابا داخل محبسه.

لم ينتظر مسعود عند عودته من فنوان بعد انتهاء المراسم الجنائزيّة المهيبة في مقبرة سيدي مبارك، حتّى يذهب إلى الشّقّة ليرتاح من عناء سفر ستّ ساعات كاملة في التّاكسي، كان قد خطّط للتّوجه صوب محافظة الشّرطة

ليقف على ما توصّل إليه التّحقيق من أدلّة جديدة حول مقتل أحمد، ظلّ مسعود متيقّنا من كون قاتل أحمد لا ينتمي إلى تلك الجماعات المتطرّفة التي بدأت تنتشر في البلاد منذ مدّة قصيرة، يصبح هذا اليقين حاسما وراسخا كلّما تمثّلت صور القاتل أمام عينيه وهو يصرّ على أخذ الوثائق والعيّنات، تأكّد لمسعود من أنّ نية القاتل وخطّته كانتا تلحّان عليه في أن يقبر البحث مع أحمد، فلا يوجد ما يربط بين جماعات متشدّدة وبحث في الهندسة الزّراعيّة، وحتّى أحمد لم يكن له ماضٍ عدائيّ يدفع أولئك الدّمويّين لقتله، صحيح أنّه كانت له مواقفه السّياسيّة، لكنّه لم يكن بالشّخص المجادل حتّى تظهر قناعاته للعيان، كان كتوما مع الآخرين لا يظهر ميله إلى أيّ اتجاه ولا يلجّ في جدال من أجل الانتصار إلى فكرة معيّنة مهما كانت مقدّسة بالنّسبة إليه، لم يحمل عداءً أو حتّى مجرّد خلاف مهما كان صغيرا مع أيّ تيّار أو تنظيم سياسيّ في تلك الأزمنة، التي اتّسمت بالتّشنّج تارة وبالشّجار مرّات عديدة بين الإسلاميّين والعلمانيّين، والتي طبعت الحياة الجامعيّة مع مطلع الثّمانينات، لم يخز لأيّ طرف ولم ينكر أيّ تيّار، كان متسامحا وودودا مع الجميع.

ينكس مسعود رأسه إذ يجلس على طرف سريره في غرفة نومه بالشّقّة، قد غطّى الشّعر ذقنه وشاربيه، مرفقاه على فخذيه المنفرجين ويداه تخلّلان شعره المنفوش، وتجذبان خصلاته بين أصابعه بشدّة تنمّ عن حنق يمتزج بندم مرير، تكاد الأفكار تذهب بعقله إذ يرصّ بداخله كلّ تلك الهواجس والوساوس، وحتّى الحقائق التي عايشها مع أحمد عن قرب، وهو يستبعد أشياء كثيرة ويضمّن تفكيره أمور عديدة. تختلط بداخله وتضطرم

أحاسيس بالذّنب وشعور بوخز الضّمير كونه تسبّب بشكل أو بآخر في وفاة الحاجّة ثامرة، لم تتحمّل مقتل ابنها بعدما نعاه لهم بالهاتف، كانت صدمة كبيرة سقطت كالصّاعقة على رأسها إذ تشيح الكفن عن وجه ابنها، كانت رائحة الكافور النّفّاذة تغمر جسده الذّابل، أصرّ مسعود حال انتهاء الأطباء في المستشفى من إجراءات التّشريح ونزع الأعيرة من جسده على أن يغمره بها، حتّى يقمع الرّائحة الكريهة التي بدأت تنبعث منه في أجواء شديدة الحرارة والرّطوبة.

لم يكد مرزوق وبعض أصدقائه ينهون حفر قبر لجثمان أحمد، حتّى فاجأهم سالم بطلبه أن يحفروا قبرا آخر لأمّه، أمهلتها منيّتها حتّى توصي بدفنها إلى جانب ابنها.

ورغم أن مسعود لم يجد في متعلّقات أحمد، التي سلّمها لسالم ما يدلّ على وجود أثر يوصله إلى هويّة القاتل، غير سحنته التي حفر غيظُه وحنقه الشّديد بين تجاويف مخّه ونتوءاته تفاصيلَها وتقاسيمها، غير أنّه عثر على معلومات في أجندة لأحمد، كانت في حقيبة صغيرة مع أوراق سفره تحوي عناوين وأرقام هواتف وبعض المواعيد، طلب من سالم أن يسمح له بإبقائها معه والاحتفاظ بها، على أمل العثور على خيط قد يدلّ على قاتل أحمد.

* * *

قرّر مسعود أن يكتب كلّ فكرة أو شعور ممّا يراوده من هواجس بخصوص حادثة الاغتيال، شروده الطّويل في افتراضات متشعّبة جعله ينسى تفاصيل معقّدة كان قد استند عليها في بداية تحليلاته التي تلت مقتل أحمد مباشرة، والتي مكّنته من بلوغ استنتاجات بدت له مهمّة، فاختلطت عليه

الأمور، عزم على أن يمسك من جديد برأس الخيط الملتفّ حول البكرة ويحترس من أن يتلخبط ثانية، فلا ثقة إلا في الوثيقة.

منذ أن خرج من محافظة الشّرطة في المرّة الأخيرة، شعر بأنّ قضيّة الاغتيال قد انتهت بالنّسبة للجهات الرّسمية، وتوقّفت عند أوّل محطّة لها، فلم يتمّ إطلاق تحقيق فيها قد يقود إلى الحقيقة التي توقفت حسب الشّرطة عند ارتباط مقتل أحمد بحادثة تفجير المطار. بالنّسبة إليه لم تنته قضيّة صديقه، قرّر أن يكون هو الشّرطيّ والنّائب العامّ والقاضي وأن يباشر التّحقيق بنفسه، لم يكن لديه من خيار آخر، ليس الخيار وحده هو ما يعوزه، حتى الأدلّة كانت شحيحة، مجرّد أرقام هواتف صمّاء وعناوين بكماء في أجندة مهملة غفل عنها القاتل الذي كان دليلا هو الآخر، بل أهمّ دليل على الإطلاق، لكنّه دليل سائب لا يمكن الإمساك به أو العثور عليه، سرعان ما تلاشى، بقيت ملامحه وكلماته ونبرة صوته ورائحة ملابسه تجول بداخل ذاكرته المرهقة. كان هناك شعور يراود مسعود، شبيه بالامتهان المختلط بالانتهاك من ذلك القاتل الوغد، يشتدّ حنقه عليه فيحكم قبضة يده كأنّما يريد توجيه لكمة لشبحه المستفزّ الذي يتراقص أمامه، بل يرسلها في الهواء فتضمحلّ صورته، يعضّ عليها بشدة حتى ترتسم أسنانه فوقها، يطلق آهات هستيريّة ويغرق في بكاء مرعب سرعان ما يستحيل إلى عويل ونشيج ونحيب، تستبدّ به الهواجس والحسرات المريرة، لم يكن وضع القاتل حدّا لحياة أغلى صديق له في الوجود وحده ما أدخله في أزمة نفسيّة، لا يزال يشعر بإحباط كبير وبأسف شديد على نهاية مشروع بحثيّ كان بمقدوره أن يخرج البلاد من التّبعيّة الغذائية للخارج، يؤجّج هذا التّفكير

شعوره بالمرارة والخيبة. يلقي مسعود بالأجندة على الأرض حين يعجز عن الاتّصال بأيّ رقم فيها، خمّن أنّ ذلك لن يكون مجديا، ماذا سيقول لمن يردّ عليه؟ تردّد كثيرا في ذلك قبل أن يتراجع، خرج ذات يوم هائما على وجهه يلفّ الشّوارع، يطارد شبح وجه القاتل في دروبها وفي وجوه السّابلة، أخذ يتفحّص كلّ من يمرّ عليه أو بجانبه بتمعّن شديد، يخلّف لدى المارّ به شكّا بكونه معتوها أو مصابا بالخرف.

أصبح يخشى على نفسه من الجنون، منذ أن بدأت تسيطر عليه أعراض نفسيّة لا يتمكن من تحديد بداياتها كلّما دخل في نوبة من السّرحان، يهذي معها أحيانا، لاحظ زملاؤه في العمل ذلك، لكن في الغالب لم يكن أحد منهم ليجرأ على مصارحته بها، تفاديا لتعكير مزاجه أو لإشعاره بفقدان الثّقة بنفسه وباهتزاز قدراته الذّهنيّة، تجعله الملاحظات القليلة التي يوجّهها إليه رضا طاهيري أقربُ زملائه إليه، كان على دراية بالأزمة النّفسيّة الحادّة التي يمرّ بها عقب مقتل أعزّ أصدقائه، يكظمُ لبعض الوقت انفعالاته ويهدأ لبرهة، غير أنّه ما يلبث أن يهرب من الأمكنة التي يخيّل إليه فيها أن جلاّسه قد اكتشفوا التّغيّر الشّاسع الذي حصل معه، وبعدما أصبح إخفاؤه لكلّ ذلك صعبا، فقد صار يفضحه صمته وذهوله وشروده وتلفّظه بما يجول في رأسه فجأة ودون أن يسيطر على نفسه، بات يجد في العزلة ترياقا لأزمته النّفسيّة، في العمل أضحى يغلق باب مكتبه على نفسه، يدير المفتاح لفّتين من الدّاخل، لا يفتح لمن يطرق الباب حتى يسمع صوته، إن كان من الذين يسألون عن حالته الصّحية وهل تحسّن عن ذي قبل فلا يفتح له، يستعجل إتمام مهامه التّحريريّة بأسرع وقت ممكن، يسلّمها

للسّكرتارية، ثمّ يغادر من فوره إلى شقّته لينطوي على نفسه، ولا يجد حرجا في الكلام معها والتّفكير بصوت مرتفع.

جلّ كلامه كان مليئا بالتّحسر الذي يصاحبه الكمد، فيجعله يعضّ على شفتيه ويقضم أطراف أصابعه، كان يدورُ حول إغلاق ملفّ التّحقيق بخصوص اغتيال أحمد، يستحضر في الغالب خاتمة حديثه مع مفتّش الشّرطة أثناء التّحقيق، حين رفض أن يمضي على محضره، كان المفتّش يسترسل في كلامه رافعا صوته، وهو يضرب بقبضة يده على منضدة المكتب قائلا:

- صاحبك قتله الإرهابيّون وما نزيدش نسمع كلام آخر.

تزداد آلام مسعود حدّة حينما لا يجد في موقف المفتّش ما يضع الأغلال في يدي القاتل، الذي أصبح -حسب مزاعم الشّرطة- متخفيّا داخل جماعة متطرّفة لا يمكن الوصول إليها، ومن الصّعب القبض عليه خصوصا مع تزايد أعداد الملتحقين بها وتكثيفها لعمليّاتها وأنشطتها الدّمويّة. أصبح يشعر بالخوف والقلق وبالغثيان والدّوار وصار ينضح عرقا رغم برودة الطّقس.

زار طبيبا نفسانيّا، استقبله مع نهاية دوامه، فتح له باب عيادته بغليونه في فمه، استغرب مسعود ذلك، لم يكن اعتراضا على التّدخين أو حتى اندهاشا من أن يفعله طبيب عند ردهة عيادته، بعد مغادرة موظّفة الاستقبال التي انتهى دوامها فأجبرته على أن يفتح بنفسه الباب للمرضى، كان مشهد الغليون نادرا لم يره منذ أمد، هذه المدخنة الفمويّة باتت شيئا من التّاريخ الغابر لا يمكن مصادفته حتّى في أفلام الأبيض والأسود، فكيف لها أن

تنبعث فجأة وتحشر بين شفتي طبيب نفسانيّ أمام مدخل عيادته ومع نهاية دوامه، تنحنح الطّبيب كما لو أنّه يكحّ بينما كان يقرأ علامات الاستغراب على وجه مريضه المذهول أمامه، جحظت عيناه وبرز بياضهما وقد علته شعيرات دمويّة محتقنة، رفع الأنبوب المصّاص من فمه واعتذر، بعدما كتمت أنفاسَه سحابةٌ من الدّخان أرغمها على البقاء داخل صدره تفاديا لمزيد من الإيذاء.

في مكتبه وبعد أن استمع إلى مسعود الذي سرد عليه معاناته مع حالته النّفسية، قال له الطبيب متكلّما بفرنسيّة متخمة بالألفاظ النّادرة، فهمها جيّدا رغم احتوائها على الكثير من المصطلحات الطبيّة، أنّه يعاني من أعراض فوبيا الموت التي تعرف أيضا بفوبيا الفقد، وأنّ ذلك أمر طبيعيّ بعد مقتل أعزّ أصدقائه وخصوصا أنّ الحادث قد وقع أمامه، وصف له دواءً مهدّئا يسمّى "هالدول" على شكل قطرات، داوم على أخذ قطرتين منه، كان يمزجهما في كأس ماء ويشربه دفعة واحدة في اللّيل قبل النّوم، منذ أن بدأ يواظب على العلاج بدأت وساوسه وهواجسه تزول، وما عاد ليرى كوابيس في منامه، تخلّى عن انطوائه وأصبح يجالس زملاءه وأصدقاءه ويصغي لأحاديثهم دون أن تنتابه حالات الشّرود والسّرحان المعهودة تلك، بل إنّه تعوّد على سماع أخبار الاغتيالات والتّفجيرات، التي تحدث في العاصمة وفي العديد من المدن الكبرى في أنحاء البلاد بين الفينة والأخرى، ولم تعد تترك في نفسه ذلك الإحساس بالاختناق والعجز عن القيام بردّ فعل إزاءها رغم أنّها تذكّره بمقتل أحمد.

بدأ يستعيد نوعا من الرّوية والاتّزان في التّفكير، يكرّر النّظر في الأجندة، ويُعمل فكره في العناوين التي تحويها، في الجزائر وإنجلترا، والأرقام التي يبتدئ بعضها بالرّمز الدّولي لبريطانيا، أيقن أنّ الاتّصال بها سوف لن يأتي بجديد يذكر بخصوص قضيّة الاغتيال، بات يخشى إن هو اتّصل على أحد تلك الأرقام فإنّ ذلك سيكون بمثابة كشف لنفسه أمام القتلة، وربّما تمكّنوا من الوصول إليه والتّخلص منه.

وضع الأجندة بهدوء بجانبه فوق المنضدة المحاذية للسّرير الذي كان مستلقيا فوقه، أشبك يديه خلف رأسه وأغمض عينيه، أطرق قليلا ثم عاود فتحهما وطفق يفكّر بصوت مرتفع:

- قضيّة اغتيال أحمد أُقفلت رسميّا، ولن يحقّق فيها القضاء أو الشّرطة، من شهد مقتل أحمد أنا وسائق التّاكسي فقط، لا أملك ما يوصلني إلى القاتل وليست لديّ أدلة لإدانته حتّى ولو أمسكت به، وحتّى الأرقام التي في الأجندة لن تقدّم ولن تؤخّر. لكن رغم كل ذلك يمكنني الاستعانة بخبرتي وما درسته في الصّحافة الاستقصائيّة، لأبني تحليلا قد يساعدني على تشكيل صورة حول من يقف خلف اغتيال أحمد.

كثيرا ما كان مسعود يقارن بين حادثتي اغتيال الرّئيس محمد بوضياف ومقتل أحمد، فقد رسّخ قربهما الزّمني الذي لم يتجاوز الشّهر ذلك في مخيّلته جيّدا، غير أنّه وبعد تعافيه بدأ يستبعد هذه المقارنة، نظرا للفارق الكبير في أوجه الشّبه بين الحادثتين، فكّر أن مقتل بوضياف مبرَّر بغضّ النّظر عن هويّة قاتله، فهو هدف للمتطرّفين بسبب إجراءات الاعتقال التي اتّخذها في حقّ الإسلاميّين، الذين حُشروا بالآلاف في معتقلات رقّان وعين امقلّ،

كما أنّ جهات رفيعة في مؤسّسات الدّولة الأمنيّة والعسكريّة تحديدا، تفاوضت معه حتّى يعود إلى الجزائر من المغرب الذي كان يستقرّ به لإدارة مرحلة انتقاليّة، قد يكون لها يد طويلة في اغتياله، خصوصا بعدما بدأ يحيد عن الخطّ الذي رسمته له، وقام بفتح ملفّات كان يهدف من ورائها إلى محاسبة متورّطين في قضايا فساد، تربطهم صلات وثيقة بتلك الجهات، خمّن مبدئيّا أنّه لا يمكن لأحمد الباحث البسيط والمغمور أن يكون هدفا لأيّ من الطّرفين، فلا أحد منهما له مصلحة في ذلك ولا يوجد دافع منطقيّ لقتله. فجأة توقّف عن التّفكير وبدأ يردد:

- مصلحة. دافع. أو ربّما تهديد، لم لا؟ كيف فاتني هذا؟ لن يقتل أحمد إلّا من كان له مصلحة في ذلك، أو كان هناك دافع يبرّر قتله.

ما هي المصلحة من قتل باحث والتّخلص من بحثه؟ وما هي الدوافع وراءه؟ من المؤكّد أن القاتل كان على اطّلاع بمضمون البحث، ربّما أراد أن ينزع اسم أحمد ويضع اسمه بدلا عنه، قد يكون القاتل مهندسا زراعيّا أراد أن يحقّق النّجاح الذي كان يطمح أحمد إلى بلوغه. وربّما كان القاتل مأجورا لدى جهة ما، مركز أبحاث محليّ أو أجنبيّ مثلا، ولمَ لا يكون مركز الأبحاث البريطانيّ الذي كان يرغب في مواصلة أبحاثه به، خصوصا بعدما أدرك محتواها وأصبح على علم بمواعيد قدومه إلى إنجلترا وإلى المركز؟ قد يكون أحد تلك المراكز البحثيّة عرض على أحمد شراء بحثه وأفكاره، غير أنّه رفض، فلجأ إلى تصفيته والاستيلاء على بحثه لتطوير إنتاج القمح والحصول على أرباح أكثر. كانت كلّ تلك التّساؤلات المستعصية تهجس

في دماغ مسعود، لم يجد لها جوابا شافيا طوال تفكيره المستبطن العميق والمضني.

كانت أفكار مسعود تتوقّد في رأسه، وتتفتّق أخرى جديدة تتولّد عنها، فكّر في الرّبط بين هدف أحمد من أبحاثه وفي دوافع قاتليه في التّخلص منه ومن بحثه، استعاد بذاكرته الواهنة حواراته معه، وكيف أنّه أخبره عن النّتائج الإيجابيّة التي كان يهدف إليها في الوصول إلى إنتاج وفير من القمح يحقّق الاكتفاء الذاتيّ للبلاد، قطع صوتُه اللّاإراديّ حبل أفكاره:

- ربّما كانت الجهة التي اغتالت أحمد تريد إجهاض تحقيق الجزائر لاكتفاء ذاتيّ في إنتاج القمح، أو قد تكون إحدى شركات تصدير القمح الأجنبيّة هي من دبّر مقتله حتّى تبقي على احتكارها في تزويد السّوق المحليّة، أو أيّ جهة دوليّة مصلحتها بقاء البلاد متخلّفة وتابعة لها، أو ربّما واحدة من شركات الاستيراد المحليّة الخاصّة من هذه الشّركات الجديدة التي سمحت لها الحكومة مؤخّرا بالاستيراد، بعدما كان ذلك حكرا على الشّركات العموميّة، أو ربّما كان الاغتيال من الجهتين وبتنسيق بينهما، فأبحاث أحمد قد تهدّد مصالحهما مجتمعة.

قام مسعود من سريره وتوجّه صوب طاولة تقبع في زاوية داخل غرفة نومه، أزاح الكرسيّ من تحتها، جلس وفتح كرّاسا صغيرا بداخله قلم، وبدأ في تدوين ما كان يفكّر به.

* * *

II

سُلالة قابيل

7

يحتضن الفجر سنابل الحقل الخضراء وينثر نسماته الغضّة فوقها فتثيرها يمنة ويسرة، وتُصدر حفيفا يعانق الأقحوان ويستفزّ شقائق النّعمان، فيرتجّ رحيقها داخل تيجانها كأنّه ألسنةٌ تقرع أجراسها، فتنبعث وسط الحقول الثّملة موسيقى تجتذب إليها أسرابا من النّحل وفراشاتٍ راحت تتراقص على نغمها الطّروب، وتنسلّ سنونوات من بين أغصان الأشجار، لتلتحق بحفل الحقل المنتشي بزخم الرّبيع المتفجّر حياةً بعد شتاء قاس.

يتهيّأ القرويّون للاحتفاء بوعدة عين المانعة، مع اعتدال طقس الرّبيع وامتزاجه بحرارة ييبس لها القمح متنازلا عن اخضراره المغري، لتختلط خضرته الطّريّة بصفرة قاسية، مزيجٌ فرضه منطق شمس تتشبّث طويلاً في موقعها وسط السّماء مع انتصاف النّهار، لتضخّ أشعةً تُلهب أبشار الكائنات فتسفعها بلفحة تفقدها نضارتها وإشراقها.

معظم سكّان فنوان من قبيلة الوهايبة، ورغم أنّ اليوم يومهم، وعين المانعة عاصمتهم، فهي مسقط أجدادهم الذين نزحوا إليها في القرن الرّابع عشر ميلاديّ قادمين من وجدة المغربيّة، أين يرقد جدّهم الأكبر عبد الوهّاب، لا يتوانى جيرانهم من العروش الأخرى في مؤازرتهم وشدّ عضدهم، في وقت يتطلّب دعما لوجستيّا لا يمكن لأيّ وهيبيّ يشعر فيه بجديّة الموقف الاستغناء عنه، حتّى لا يأخذ عنهم الموعّدون خصوصا من غير الوهايبة نظرة غير مرغوب فيها، قد يكلّف نقص الطّعام أو عدم نضجه على الهيئة

المطلوبة والمرغوبة، أو نكهة غير مناسبة شرفَ الوهيبيّ وهيبته بين الزائرين والغرباء.

تتضافر الجهود لتأتي على آخر التّفاصيل الدّقيقة تأهّبا لمهرجانهم الحافل، انتهت معضلة استيعاب كبار الضّيوف داخل خيمة فسيحة تدفع عن الفنوانيّين شبهة سوء التّنظيم، حرارة الأجواء أو هطل مفاجئ أو عاصفة رمليّة غير متوقّعة لحظة تناول الطّعام في الهواء الطّلق بالقرب من قباب عين المانعة وأضرحتها، أين يرقد أجداد القبيلة الأربعة من أبناء عبد الوهّاب النّازحين إلى المغرب الأوسط، قد يثير ذلك حفيظة أحد الضّيوف المتكلّفين والنّزقين، ويدفعه لأن يبدي برأي تُطرق له رؤوس بني عبد الوهّاب خجلا لدهور قادمة.

تمكّن الحاج بوخاتم بحسّه الاستشرافيّ المفرط، وهو يحاول جاهدا جعل وجوه جيرانه تحتفظ ببريقها الذي تشوبه حمرة تنضح فخرا وعزّا، وتأبى أن ترجع خائبة مخذولة وتصرّ على أن تزهو أمام وجهاء العروش الأخرى، مِن أن يؤمّن خيمة ضخمة مقابل مبلغ متواضع مع هبوب رياح الخريف، أجبر بني عمومته على أنّ يتحمّل كلّ واحد منهم قسطا من الثّمن الذي دفعه من خالص ماله.

ستخصَّص الخيمة حصريّا للوعدات أو لإقامة جنائز كبار عرش الوهايبة في أقصى الظّروف تطلّبا، لا مجال لأن يستلفها أحد لإقامة عرس ولدٍ من أبنائه. كان الحاج بوخاتم حاسما في فرض هذا البند حتّى يحافظ على سلامة الخيمة لأطول وقت ممكن، الكلّ حرّك رأسه إلى الأعلى والأسفل إذعانا لهذا الشّرط الصّارم الذي لم يكن ليقبل النّقاش على أيّ وجه.

في أفنية دُور فنوان المشرعةِ بوّاباتُها تتدافع الأذرع لتشحن مقطورات الجرّارات الزّراعيّة والسّيّارات المغطّاة والشّاحنات، بكلّ ما قد يتطلّبه حدث احتفائيّ عظيم وهامّ من ضروريّات على مدار ثلاثة أيّام، قدورٌ وكساكسُ وأوانٍ ومواقد وقارورات غاز، خضارٌ وفواكه وموادّ غذائيّة، في هذا المهرجان الحافل سيكون من العار على أيّ بيتٍ وهيبيّ ينسى جلب الكسكس المفتول بسواعد نسوته الحاذقات، والخراف السّمينة، طبق الكسكس بلحم الضّأن يحتكر وجبات الوعدة.

حمّل الحاج بوخاتم شاحنته بأغراض بيت سالم وجارهما محمود معه، وأقلَّ سالم على مقطورة جرّاره زوجتَه رابحة وميمونة وأطفالهما، وزينب زوجة جاره البقّال وابنتها مليكة ونساء بيت الحاج بوخاتم وأحفاده. تربض شاحنته المعطّلة في كاراج الميكانيكيّ، لم يكن متحمّسا للوعدة بقدر لهفته على رؤية خالته الحاجّة عامرة التي تقطن بعين المانعة، يأبى أن يأخذ معه حصانه وبندقيّته إلى هناك، لا يرغب في أن يركب حصانا بسرج موشّى بالمجبود، يتهادى به ويتراقص متراجعا إلى الوراء ويطرق بسنابكه على الأرض ويثير من حوله غبارا ونشوة مفعمة بالزّهو بداخله، سيُحدث ذلك في نفسه ابتهاجا عارما هو في غنى عنه، لم تندمل جروحه بعد من فقد أخيه أحمد وأمّه الحاجّة ثامرة، سماعه لصوت البارود واشتمامه لرائحته بينما يطلقه من بندقيّته هناك في عين المانعة، سيجعله يشعر بالعقوق والنّكران.

ثمّة جاذبيّة سحريّة تجعل سالم لا يصبر على رؤية خالته الحاجّة عامرة لأكثر من شهر، خصوصا بعد وفاة والدته الحاجّة ثامرة، توأمها الحقيقيّ الذي وُلدَ قبلها، بلحظات قليلة كما سمعه من خالته شريفة القابلة الطّاعنة في السنّ

وقتها، عندما كان صبيّا في العاشرة، ولعلّ تطابق صورتيهما وصوتيهما وحتّى وجودُ شبه كبير في تصرّفاتهما وسلوكهما، هو ما يجعل سالم يشعر بأنّه سيلتقي بأمّه الحاجّة ثامرة في عين المانعة.

يجلس حميد فوق المقطورة، يندسّ مع رشيد وطفلين آخرين من أحفاد الحاج بوخاتم بين النّسوة المنطلقات في ثرثرة لا تنتهي، تشتمل البالغات والعجائز بالحايك، قطعة قماش أبيض ناصع غير مخيط تستر جسد المرأة من رأسها إلى أسفل ساقيها، كلّ شيء يختفي ولا تبدو منه سوى عين واحدة، تفضّل اليافعات ارتداء الجلّابة التي اكتسبت زخما في أوساطهنّ مع رواج أفكار التّيار الإسلاميّ قبل أن توقف مدّهم دبّابات الجيش، تلك الأفكار التي تحبّذ الجلّابة الفضفاضة، وتجد في الحايك تعارضا مع مفاهيم أصحابها للشّريعة فيما يتعلّق بلباس المرأة وسط البيئة الشّعبيّة، لم يكن ذلك وحده مبرّرا كافيا كي يزددن شغفا بالجلّابة المغربية التي يقتنيها تجّار سعيدة من سوق الزّويّة الحدوديّة بتلمسان، يبدو لهنّ الحايك موضة بالية وجب تجاوزها وعدم الالتفات إليها، وقد أهلّ زمان الجلّابة المرّاكشية المزركشة التي ترسم ماركات منها جسد المرأة وتنحته نحتا، لتمنحه جاذبيّة السّاعة الرّملية وشكلها المثير لغرائز الرّجال، وهذا لوحده سبب وجيه وكافٍ كي يمنع أغلب الفنوانيّين نساءهم من ارتدائها، ويرغمونهنّ على أن تبقى أيديهنّ متشّبثة بطرفي الحايك عند عينٍ تختفي تحته، لتبقى الأخرى وحدها سافرة تحرس مسار الواحدة منهنّ حذرا من المطبّات واحتياطا للعثرات والمزالق.

فوق المقطورة يستعرض حميد ثيابه الجديدة أمام قريناته البنات الجالسات بجنب أمهاتهنّ المنغمسات في أحاديث لا تأبه بأزيز محرّك الجرّار، كانت

الصبيّات غير عابئات بحركاته الغزليّة الفظّة والمستدرجة، يحسب أنّ قوّته وخشونته المزعومة قد توقظ رجولة لم يحن وقتها بعد، لا تزال مدفونة تحت أنقاض طفولته الطّافحة والفجّة، تسترسل الصّغيرات في ثرثرة لا تنتهي، يجارين أمّهاتهنّ المطنبات.
يحاول حميد جاهدا كسر إهمالهنّ له، يفتعل شجارا مع رشيد وصديقيهما حتّى يؤكّد على صدق مزاعمه في امتلاكه لبنية جسديّة رجوليّة، تصمّ ضوضاؤهم آذان النّسوة. تطيل رابحة القابعة في زاوية من المقطورة يدها وتلطم ابنها على قفاه فيسقط على حجرها راغيا كمهر جمل، ترتفع قهقهات الأطفال وتعلو حمرة الخذلان جبين حميد، وتجثم خيبة على وجنتيه المتورّدتين والمختلجتين.
مع اقتراب الجرّار المحتفي ببياض أحيكة النّسوة من قباب عين المانعة، تضطرب المقطورة على الطّريق التّرابيّة المليئة بالحفر فتهتزّ أبدان النّسوة ويتراقصن وهنّ جالسات، يحلو للأطفال مدّ حناجرهم، تهزّ المقطورة المتأرجحة حبالهم الصّوتية، فينطلق من أفواههم المترعة بالهواء المتدفّق صوتٌ متقطّع يزعج النّسوة فيتداعين لإخماد ثورة أبنائهنّ.
تنهمك عوائل الوهايبة في حطّ رحالها وشدّ حبال خيامها على أوتادٍ دقّتها سواعد أبنائها المفتولة. تحت ظلّ شجرة طاگّة وسط حقول من سعف الدّوم الأشبه بنخيل التصقت رؤوسه بالتّراب، يستريح بوريق المنهك من التّعب مع ثلاثة شبّان يقطنون بعين المانعة، كانوا قد أعانوه على نصب خيمتهم، يحاصرون صينيّة شاي ومسمّن ساخن، يقطر عسله من بين أصابع خيداس الذي جاء متأخّرا بدقائق قبل يحيى مجاهد ثالث شلّةٍ جمعها

رعي الغنم في زمن المراهقة المفعمة بالانفلات حدّ الهذيان، ويصيب عثنونَ لحيته التي استفزّت بوريق فجعلته يبادره بسؤال محرج، ولا يخفي استغرابه عن صديق صباه وزميله في مهنة رعي الغنم في غابة بوعتروس بين فنوان وعين المانعة:

- يبدو أنّك تهمل نفسك كثيرا هذه الأيّام يا خيداس، لحيتك غطّت وجهك وشعرك اندلق فوق كتفيك، ولا أراك تجد غضاضة في الاختناق داخل هذه الأسمال الرّثّة.

يبدي خيداس امتعاضا شديدا ويتمّعر وجهه المربّع المختفي في كومة شعر، يضع كأس الشّاي وقطعة المسمّن في الصّينية منزعجا من كلام صديقه القديم، في الأثناء يبدو بعض الانزعاج على سحنة يحيى مجاهد الذي يستأذن من صديقيه للانصراف، متذرّعا بأنّه تذكّر أمرا مهمّا عليه إنجازه، فعل ذلك وهو يتكلّف ابتسامة متصنّعة في وجه خيداس.

ينزع خيداس بندقيّة الصّيد من فوق كتفه ويضع أخمصها على الأرض ويستند بفوهتها، ويرسل استياء في ثنايا كلماته التي خرجت من بين فكّيه حاسمة كالرّصاص:

- من اليوم اسمي أبو دجانة، وهذه هي الهيئة الشّرعيّة للمسلم التي ترضي الله عز وجل، ناديني باسمي إن شئت، "مبروك"، كما أناديك أنا باسمك، يجب أن تفهم أمورا كثيرة عنّي يا قويدر، لقد تبت من كلّ تلك المعاصي وقد عفا الله عنها، وأنا الآن على الطّريق المستقيم، جئت لأنصحكم لوجه الله، هذه الوعدة حرام شرعا وهي شرك بالله، لقد بعثني أميرنا عاصم لأخبركم بهذا الأمر، عليك أن تُقنع عمّي بن عودة بالمغادرة حالا.

كان خيداس قد خمّن أنّ بوريق سيكون حاضرا في عين المانعة، لم يشأ أن يفاجئ الأميرُ عاصم بقدومه الصّارم كنصل السّيف جموع الموعّدين، سيكون كلامه وتصرّفه معهم قاسيا لا يحابي أحدا، أفصح له أنّهما أبناء عمومة لكن الانتماء إلى الإسلام والمنهج الصّحيح، الذي عليه جماعته التي انضمّ إليها مؤخّرا، يحتّم عليه أن يقف في صفّ إخوانه، ولن يذعن لأيّ اعتبار آخر في تنفيذ كلّ ما يأمر به الأمير في حقّهم إن هم خالفوا تعليماته.

تتردّد العبارتان الأخيرتان من كلام خيداس وتتكرّران في مسامع بوريق المندهش من التغيّر الجذريّ الذي أصاب رفيق شبابه المنفلت، استطعمهما فوجد مذاق الوعيد فيهما محشوّا بينهما ويفيض بالسّلطة المغرية، فأرسل خطاب استجابة مشوب بالحذر:

- سترافقني يا مبروك لنبلّغ الجميع بالأمر، هكذا سيكون أفضل، لكن قبل ذلك أريد أن أخبرك بأمر هامّ يخصّني، لقد وصلني استدعاء تجنيدي في الجيش من فرقة الدّرك قبل أسبوعين، وأنا متردّد في أمر تلبيته، سمعت أنّكم لا تتسامحون مع العساكر حتّى ولو كانوا مجرّد مجنّدين.

- لا تلبّي هذا الاستدعاء يا قويدر، لقد جاءتنا تعليمات بهذا الخصوص، ووفقا لفتاوى علمائنا في قيادة الإمارة، سنقتل كلّ عسكريّ، حتّى ولو لم يكن عاملا في الجيش، ولو كان يؤدّي الخدمة العسكريّة فقط، أنصحك ألا تنضمّ إلى الطّواغيت، سوف يقضي عليك الخاوة في أيّ كمين لهم.

يطرق بوريق برأسه سابحا في تفكير عميق، ويطلق كلمات تزفُر تحسّرا:

- لقد سُدّت الآفاق في وجهي يا مبروك، لن أتمكّن من فتح ورشتي بعد الآن.

أدرك بوريق أنّ رجال الدّرك سيكونون له بالمرصاد إن هو خالف القانون ولم يلتحق بالثّكنة، ستقف دوريتهم عند باب ورشته فجأة وهو غافل عنها ومنهمك في عمله، وستقتاده لا محالة مرغما من طرف ياقته الملتصق بقفاه إلى حيث سيقضي خدمة عسكريّة غير اعتياديّة، وسيعاقَب على عصيانه وعدم استجابته لاستدعائهم، ولو التحق بالثّكنة فسيصبح هدفا سهلا لجماعة عاصم. ما العمل إذن؟ شعر بأنّه أصبح داخل المعصرة.

- لا تقلق يا قويدر فأرض الله واسعة، نحن إخوة وقد قضينا سنوات معا ولن أتخلّى عنك، يمكنك الانضمام إلى صفوفنا، ستجد رفقة صالحة، نحن نسعى إلى تحكيم شرع الله ومحاربة هؤلاء الكّفار الطّواغيت، يبدو أنّ الله يحبّك وقد وفّقك إلى الرّأي السّديد، وسينجيك حتما من عقابه ويجنّبك الوقوع في فخّ عصابة الفسّاق الملاعين.

حاول خيداس طمأنة بوريق، انشقّت شفتاه المبتسمتان عما يشبه الصّفين من الأسنان المغروسة شذر مذر في لثته، بدت كحبّات تين شوكيّ مبعثرة على ألواح الصّبّار.

- أشكرك على مساعدتك يا مبروك، لكن أمر الانضمام لكم يحتاج إلى تفكير واستعداد.

شكر بوريق صديقه على صدر نصيحته غير أنّه تحفّظ على عجُزها، طلب منه خيداس أن يفكّر براحته وعلى مهله، وأكّد له أنّ يديه ستظلّان ممدودتين له طالما كان في الوجهة الصّحيحة.

* * *

يُخرج مسعود من درج مكتبه بجريدة الشّعب العموميّة سجلّا كبيرا مليئا بقصاصات الجرائد كانت ملصقة على صفحاته، أضحى السّجلّ معها أشبه بألبوم صور، يضع قصاصة بعدما كتب فوقها على السّجل تاريخ صدور خبرها "28 ديسمبر 1993"، كان قد قصّها واقتطفها من جريدة الخبر المستقلّة، يستعرض الخبر حادثة اغتيال الكاتب الصّحفي يوسف سبتي، وُجد مشنوقا في غرفته بالمزرعة النّموذجيّة التّابعة للمعهد الوطنيّ للبحث الزّراعيّ.

يعرف مسعود جيّدا المهندس يوسف سبتي، كان أستاذا لأحمد في المعهد الوطني للعلوم الزراعية وقد أشرف على مذكّرته للماجستير، كان كثيرا ما يحدّثه عنه، بل إنّه كان ملهمه في بحثه العلميّ، أخبره أنّه استفاد من نصائح هامّة كان يقدّمها للباحثين الشّباب في الجمعية الوطنيّة للثّروات الجينيّة التي كان سبتي أحد مؤسّسيها، وقد أخذ أحمد بنصيحة أستاذه الذي دعمه لإكمال أبحاثه بخصوص إجراء تجارب في الهندسة الوراثيّة على عيّنة من القمح، كان بصدد تطوير خصائصه الإنتاجيّة.

بدأ مسعود يورّق سجلّه المليء بالقصاصات الصّحفية، كانت سنة ثلاث وتسعين تعجّ بحوادث اغتيال طالت المثقّفين بشكل أساسيّ وكبير، وعلى وجه التّحديد، حتّى إنّ تلك السّنة أصبحت مرتبطة بمن اغتالهم المتطرّفون من أكاديميّين ونخب علميّة.

كانت البداية في شهر مارس الذي شهد اغتيال عالم الاجتماع جيلالي ليابس، في اليوم الذي يليه قُتل المفكّر الهادي فليسي، وفي شهر ماي اغتيل

الكاتب الصّحافيّ الطّاهر جاووت، لفظ أنفاسه بالمستشفى أسبوعا بعد الحادث، ثمّ أيّاما بعدها، لقي الطّبيب النّفساني محفوظ بوسبسي الذي كان قد أسّس لجنة "الحقيقة حول مقتل الطّاهر جاووت" مصرعه على يد مجموعة دمويّة، يتذكّر مسعود بحسرة وألم حجم الفاجعة والصّدمة الكبيرة التي تركها اغتيال عالم الاجتماع ومدير معهد الدّراسات الاستراتيجيّة الشّاملة الدّكتور امحمّد بوخبزة، بينما كان ممسكا بصفحةٍ بين إبهامه وسبّابته تحمل خبر اغتياله، لقد قام الهمجيّون بتقييده وذبحه على مرأى ومسمع من ابنته.

كانت صور المغتالين وأخبارهم تتوالى على ذاكرة مسعود إذ يقلّب صفحات سجلّه، علماء وكتّاب وصحافيّون وفنّانون ومحامون وأئمّة مساجد وأساتذة ونقابيّون، كانوا من نخب الجزائر وزبدتها، وحتّى أناسٌ عاديّون، لقد عايش أغلب وقائع الاغتيالات تلك في مكتبه بصحيفة الشّعب، وعلم ببعضها عن طريق المذياع والتّلفاز في شقّته.

منذ بدأت عمليّات الاغتيال في البلاد، والتي كان صديقه أحمد من بين ضحاياها الأوائل، كان مسعود لا يتوانى عن توثيقها وأرشفتها، يلصق قصاصات أخبارها المؤرّخة على سجلّه، كان دائم التّفكير في ملابسات وظروف وأسباب مقتل أحمد، وغالبا ما يقارنها بما حصل مع من اغتالهم المتطرّفون خلال تلك السّنة، وقد زاد حرصه ذاك والمقترن بالتّعمّق في البحث والتّحقيق، مع سلسلة الاغتيالات التي طالت الباحثين والمثقّفين ممّن هم في مستوى أحمد فكريّا وعلميّا، كان أحمد يجمعه الكثير من الأشياء المشتركة بهم، غير أنّه لم يكن مثلهم في حملهم لخلفيّة فكريّة أو إيديولوجيّة، كان أغلبهم من اليسار كما كان الحال عليه مع المهندس يوسف سبتي

والمفكّر الفيلسوف جيلالي اليابس والكاتب الصحافيّ الطّاهر جاووت، بعضهم كان متحزّبا وآخرون كانوا فقط ملتزمين بفكر معيّن، بل حتّى إنّ بعض المحسوبين على تيّار الإسلام السّياسيّ نالهم قسط من ذلك، وقد كان آخرهم الدّاعية ورئيس جمعيّة الإرشاد والإصلاح محمد بوسليماني الذي اختطِف قبل شهر، ولم يظهر أيّ خبر حول ظروف اختفائه ومصيره، ولا حتّى حول أسباب اختطافه.

يسمع مسعود المنشغل بتصفّح ألبومه طرقا على الباب، لم يعد يقفله بالمفتاح منذ تعافيه، يدخل رجل متوسّط القامة، ببذلة سوداء، يزيح نظّارته الشّمسيّة عن عينيه البنّيّتين الفاتحتين ويرجعهما إلى الخلف على رأسه، فتنتفش مقدّمة فروة شعره الكستنائيّ وتنسدل منها بعض خصلاتها يمينا وشمالا، بدأ وجه مسعود ينبسط حينما اكتشف العينين اللّتين كانتا تختبئان خلف النّظّارتين، أطلق تأوّها ممتدّا بطول مدّة غياب صاحب النّظّارتين:

- أووووه، هاذي مدّة، جمال قاسمي، وين راك يا راجل؟!

طفق مسعود يسلّم على صديقه المختفي عن ناظريه منذ زمن، كان العتاب بقدر السّلام، واعتذار الرّجل مبرّرا لأسباب الغياب، طلب منه أن يتفضّل للجلوس على كرسيٍّ أخبره متأسفا من كونه ليس على قدّ مقام زميل دراسته، الذي سمع من بعض الوشاة أنّه قد صار مدير تحرير لصحيفة من تلك الصّحف التي أصبحت تصف نفسها بالحرّة والمستقلّة، منذ أن بدأت السّحب مع صدور قانون الإعلام لسنة تسع وثمانين، بعدما سمحت السّلطة للخواصّ بامتلاك جرائدهم على غرار الجرائد العموميّة:

- تفضّل سي جمال.

بسط مسعود راحة يده مترجيًا من صديقه أن يجلس.

- يبدو أنّك منهمك بعض الشّيء؟

دبّج جمال زيارته بعبارة أظهر من بين كلماتها اعتذاره عن إزعاجٍ، قد يكون طرأ عن مجيئه في وقت شكّ في كونه غير مناسب.

- لا... أبدا، تفضّل سي جمال، كنت أستعيد بعض الذّكريات الأليمة التي مرّت علينا خلال هذه السّنة، تذكّرت الإطارات المثقّفة التي اغتالها الهمجيّون، ولعلّ أثر تلك المآسي لا يزال باديا على وجهي، أرجو ألا تحمل الأمر على أنّه انزعاج من زيارتك السّعيدة صديقي جمال.

- صحيح ما ذكرته. كان ذلك عملا ممنهجا، لقد تمّ استهدافهم بشكل مقصود ومخطّط له، لا يكاد يمرّ أسبوع حتى يغتال أحدهم أمام بيته أو قريبا من مكان عمله، كنتُ قد كتبت أخبار الاغتيالات تلك كلّها تقريبا وما زلت أتذكّر الكثير من تفاصيلها.

- لقد رحل عنّا علماء ومفكّرون وباحثون، ومضت معهم أفكارهم، كان بإمكانها تغيير أوضاعنا، ومن المفروض أنّها كانت لتبني حاضرنا ومستقبلنا، قبل قليل كنت أفكّر في أحمد مولاي، كان هدفه من سفره إلى إنجلترا أن يستعيد بذور قمحنا التي انقرضت حتى نتمكّن من تأمين غذائنا، راودني هاجس فناء علمائنا ومثقّفينا ونفاد أفكارهم حول أزماتنا وحلول مشاكلنا، أخشى ألا نجد من كلّ تلك الأفكار النّيّرة التي طمسها الإرهاب الأعمى ما نؤمّن به مستقبلنا.

- ليس هؤلاء فقط يا سي مسعود، حالة الهلع التي انتشرت في الأوساط الأكاديميّة والمثقّفة دفعت بأغلب العقول والأدمغة للهجرة إلى الخارج،

لست أدري كيف سيكون عليه حال المجتمع من دونهم، ما مصير جامعاتنا التي سيتخلّى عن التّدريس فيها خيرة ما أنجبت البلاد؟

- كم تعب هؤلاء حتّى يحصّلوا تلك العلوم وكم أنفقت الدّولة عليهم لتعليمهم، وفي الأخير يُغتال بعضهم بتلك الوحشيّة، ويفرّ البقيّة خوفا من ملاقاة المصير نفسه.

صمت جمال لبرهة، بدا على وجهه تفكير في إيجاد طريقة لتحوير حوارهما بعد أن أخذ منحى رثائيّا، صار عليه أن يتحدّث عن الأمر الذي كان سببا لزيارته، باح بمكنونه:

- مسعود. أريد أن أطرح عليك اقتراحا لعلّه يناسبك. تعرف أنّ صحيفتنا في بدايتها، وقد أدّت الأحداث الأخيرة بعد مقتل بعض الصّحافيّين وتهديد آخرين إلى هجرة أربعة زملاء من خيرة أقلامها، في الحقيقة أنا في رحلة البحث عن صحافيّين حتى أملأ الفراغ الذي تركوه، أخشى أنّنا سنضطر لغلق الجريدة إذا لم نتمكّن من سدّه.

- مبدئيّا ليس لدي أيّ مشكلة أن أعمل معك سي جمال، ولا أخفيك أنّني أرغب بالعمل في صحيفة مستقلّة، ولعلّك سمعت منّي ذلك من قبل، فقط أودّ في البداية أن أثبّت قدميّ معك داخل الصّحيفة، لا أريد أن أفقد عملي هنا مباشرة، إن وجدت نفسي مرتاحا معك فسأتفرّغ بالكليّة للعمل في صحيفتكم.

- لا مانع لديّ، هذا من حقّك، أتفهّم احترازك هذا.

- يمكنني أن أعمل ابتداءً من السّادسة مساء إلى غاية العاشرة.

- أربع ساعات من العمل... هذا مناسب، أستطيع القول بأنّنا متّفقان.

- وهو كذلك، وأنا أستطيع البدء من الغد.

* * *

عاد مسعود إلى ملاقاة مفتّش الشّرطة من جديد، كان قد بنى معه علاقة طيّبة عقب الأحداث الأخيرة، بعدما عرّفه عليه صديقه محافظ الشّرطة الذي يعمل المفتّش تحت إمرته، يوم أن قدّمه له أثناء لقاء جمع ثلاثتهم مصادفة، أبلغه مسعود بأنّهما يعرفان بعضيهما من قبل، غير أنّ وجوده سيذيب جبلا من الجليد كان يجثم على تلك المعرفة، كان مسعود وقتها بصدد إجراء مقابلة مع محافظ الشّرطة بخصوص عمليّة اقتحام نفّذها عناصره على منزل بحيّ باش جراح كان يختبئ به إرهابيّان، قضوا على أحدهما بينما فرّ الآخر دون أن يُعثر له على أثر.

سمحت الأحداث الأمنيّة السّاخنة الأخيرة لمسعود أن يربط صلات عمل مع ضبّاط في الشّرطة والجيش والدّرك، وقضاة ووكلاء جمهوريّة، ومسؤولين بوزارة الدّاخليّة والدّفاع وقيادة الأركان، ومع انضمام مفتّش الشّرطة إلى قائمة علاقاته صار يتجنّب الخشونة والفظاظة في الحديث معه، وأصبح حريصا على معاملته بلباقة ولطف.

في مكتبه بمحافظة الشّرطة الذي زاره فيه مسعود بعد نهاية دوامه بالصّحيفة، أصرّ المفتّش على أنّ المتطرّفين وحدهم هم من يقفون وراء عمليّة اغتيال صديقه أحمد مولاي، وحتّى عمليّات اغتيال المثقّفين الذين تمّت تصفيتهم مؤخّرا، وعلى عكس ما يظنّه مسعود، من أنّهم قُتلوا من قبل جهة غير الجماعات المتطرّفة، ولنفس الأسباب التي قُتل من أجلها صديقه أحمد والمرتبطة بأبحاثهم وأفكارهم العلميّة.

لم يوافق المفتّش وجهة نظر مسعود، راح يعرض بين يديه مجموعة من الصّور لمتطرّفين مبحوث عنهم، ويخبره بمعلومات عن بعضهم، وخلفيّاتهم التّاريخيّة والعلميّة والسّياسيّة، أطلعه على حقيقة تشكيل بعضهم لجماعة تسمّي نفسها الجماعة الإسلاميّة للجهاد المسلّح، تقوم بتخطيط وتنفيذ عمليّات اغتيالٍ في حقّ مثقّفين وصحافيّين وسياسيّين، سبق لهم وأن ندّدوا بأعمال القتل التي يقوم بها المتطرّفون. كان قادة هذه الجماعة التي تعرف اختصارا بجماعة "الفيدا" مجموعة من الإطارات الجامعيّة، أصبحت تحمل أفكارا متشدّدة خصوصا ضد اليساريّين والعلمانيّين.

حسب محافظ الشّرطة العميد خالد عمراني فإنّهم أصبحوا يكفرون حتّى بفكر مالك بن نبي الذي كان الواحد منهم في السّابق يلتهم كتبه كدودة مكتبة، بعدما اقتنعوا وتشبّعوا بالأفكار الجهاديّة، كان قد أسرّ له بأنّ مالك بن نبي لو كان حيّا لخطّطوا لقتله هو الآخر، مثل غيره من المفكّرين والفلاسفة الذين اغتالوهم.

أكّد المفتّش لمسعود بأنّه لا توجد جهة أخرى تنفّذ اغتيالات سوى الإرهابيّين المتطرّفين أو اللّصوص، الذين من المستبعد جدّا أن تغريهم عيّنات قمح ووثائق أكاديميّة وتجعلهم يتخلّصون من باحث زراعيّ، وحتّى افتراض مقتله من قبل جهة في الدّولة بداعي تصفيته يعدّ غير وجيه، فأحمد ليس مستهدفا من قبل دوائر في السّلطة كونه غير متحزّب ولا ينتمي لأيّ خلفيّة سياسيّة أو إيديولوجيّة، همس قريبا من أذنه بعد أن جال ببصره في أرجاء غرفة المكتب ليتأكّد من أنه لا أحد يسمعهما بالجوار، أنّ مقتل الرّئيس بوضياف أو اغتيال رئيس المخابرات السّابق قاصدي

مرباح قبل أربعة أشهر أو حتّى مقتل الوزير الأسبق عبد الحفيظ سنحضري قد يجد له ما يفسّره، ويمكن افتراضه من قبيل الاغتيالات السّياسيّة، على الرّغم من أنّ من يزعمون ذلك لا يستندون لأيّ دليل ملموس، إنّما هي مجرّد تخمينات ورجم بالغيب، كما أنّه لا أحد يعرف ما توصّلت إليه التّحقيقات الجنائيّة بالخصوص.

استند المفتّش في مبرّره لإقدام المتطرّفين على قتل أحمد، أنّهم ربّما كانوا يودّون نشر الرّعب والهلع في الأوساط المثقّفة والنّخبويّة واستفزاز الدّولة، فقد حدث اغتياله مع بدايات النّشاط الإرهابيّ الذي كان متّسما بالارتجال وعدم انتقاء الضّحايا، وكان يتزعّمه عائدون من الجهاد في أفغانستان بعدما انسحب الرّوس من هناك، فشل كثير منهم في الوصول إلى الشّيشان والبوسنة لمواصلة نشاطهم الذي لا يحسنون غيره، فمن الصّعب أن يترك الإنسان مهنة تشغل أغلب وقته وهو يعلم أنّ العثور على بديل عنها في غاية الصّعوبة، هذا عدا عن أنّ أسماءهم صارت بيد أجهزة الأمن التي لن تقصّر في القبض عليهم، وقد كان لقلّة الخبرة لدى الشّباب الذين قاموا بتجنيدهم، وافتقادهم للأسلحة النّوعية التي تحدث تفجيرات واسعة وإصابات بليغة وعديدة في الأوساط المستهدفة بالغُ الأثر، في طريقة إدارة المتطرّفين لعمليّاتهم وقتها.

لم يستبعد المفتّش أن يكون اغتيالهم لأحمد بناء على خطأ في التّقدير، فقد ارتكز على أقوال مسعود في حدّ ذاته، والتي وردت في التّحقيق الذي أعقب الاغتيال، بكون أحمد تربطه صلات وثيقة بمثقّفين مستهدَفين يحملون خلفيّات فكريّة وسياسيّة، ولعلّ المتطرّفين أثناء مراقبتهم لهم لمحوه برفقة

بعضهم في أماكن متعدّدة، فاعتقدوا أنّه يقاسمهم الانتماء ذاته، وهذا ما جعل المفتّش ينبّه مسعود بأنّ كون أحمد لم تكن لديه خلفية فكريّة، فإنّ ذلك لم يكن ليجنّبه استهداف الإرهابيّين له، فمخالطته لمثقّفين مؤدلجين تجعله محلّ شبهة، وسيأخذها المتطرّفون على محمل الانتماء وليس مجرّد الرّفقة والصّحبة.

* * *

يتطابق عقربا السّاعة الحائطيّة فوق رأس مسعود بينما كان مستلقيا على سريره، يغوص في تفكير عميق، تُصدر السّاعة نوتات موسيقيّة متتابعة بعدد السّاعات الاثني عشر، التي رسمها تطابقُ العقربين، كان يتابع صوت نوتات السّاعة ويعدّها، غير أنّ تفكيره الذي شرد به بعيدا عن الغرفة أخلط عليه عددها، فرفع صلبه ملتفتا ناحيتها ليتأكّد من الوقت.

كان قبلها بثلاث ساعات قضاها مستلقيا على سريره، يُعمل فكره في قضيّة اغتيال أحمد، إذ أنّه خطر بباله خاطر جعله يشعر بوجود تناقض بين حادث المطار ومقتل أحمد، كان قد استبعد فكرة ألا تكون هناك علاقة بينهما، خصوصا وأنّهما متزامنان وقد وقعا في المنطقة ذاتها، ووصل به استنتاجه إلى حدّ اليقين بأنّ الفاعل في الحادثين واحد، وهي نفس الجهة في كليهما، غير أنّ الفرق الشّاسع في أسلوب تنفيذ العمليّتين جعله يتراجع بيقينه خطوات إلى الوراء ليحتلّ الشّكّ والحيرة هواجسه من جديد، إذ كيف لنفس الفاعل أن يقتل بطريقة عشوائيّة مرتادي المطار دون أيّ اعتبار أو حساب لمن سيقتله، فيقوم بوضع قنبلة في زاوية من زواياه كيفما اتّفق، لتنفجر بعد ذلك بدقائق تاركة ضحايا لا يمكنه التّمييز بينهم أو تحديد

هويّاتهم، فلا يكون بذلك قد استهدف أشخاصا بعينهم وإنّما كان القتل هدفه الوحيد، في الوقت الذي أصرّ قاتل أحمد على قتله وحدَه، دون أن يسبّب أذى له أو لسائق التّاكسي، ما يعني أنّ أحمد كان هو المستهدف دون غيره، وهذا ما جعله يميل إلى فرضية وجود جهتين كانتا وراء العمليّتين، لكن بتنسيق بينهما حول استخدام فاعل واحد لتنفيذ الجريمتين وفي نفس التوقيت تقريبا، لكن بأسلوبين مختلفين.

لم يستبعد احتمال أن يكون مرتكب تفجير المطار لم يتلقّ الأوامر من أيّ جهة أخرى في ذلك، وأنّه قام بتنفيذ العمليّة بتخطيط منه دون أن يأخذ إيعازا من أحد، وربّما يكون قاتل أحمد على صلة بالجهة التي فجّرت المطار غير أنّه ليس شريكا لهم في جريمتهم تلك، لكن تلك الجهة تكون قدّمت له خدمة التّغطية على جريمته، وأنّه علم بتوقيت سفر أحمد فأبلغهم بذلك حتّى تكون الحادثتان متزامنتين فيغطّي على جريمته من خلال التّفجير.

افترض أنّ المتطرّفين فجّروا المطار بناء على عقيدتهم القتاليّة في استهداف المؤسّسات والمصالح الحكوميّة، ولو أنّ تفجير منشأة بحجم مطار يعدّ سابقة لم تحدث من قبل، غير أنّ قيامهم قبله باغتيال عناصر في الأمن والجيش والدّرك وتفجيرهم لمراكز شرطة ومقرّات فرق الدّرك وثكنات عسكريّة، قد يفسّر حادثة المطار، وما تفجيره سوى تطوّر نوعي في تكتيك هؤلاء المتطرّفين.

من الممكن جدّا أن تكون جهة أجنبيّة أرادت الحصول على بحث أحمد والتّخلص منه، فكّرت في الوقت نفسه بتفجير المطار، حتّى يكون ذلك ذريعة لها للتّدخل في شؤون البلاد، فالمطار يستقبل طائرات وزوّار أجانب

هم رعايا لدول أجنبيّة، وهو مبرّر كاف يجعلهم يحشرون أنفسهم فيما يحدث في الجزائر من مشاكل قد تؤثّر على مصالحهم، فيكون تدخّلهم عندها غطاءً على جريمتهم.

ربما يكون هناك أطراف متنفّذون في دواليب الحكم، أرادوا أن يجهضوا بحث أحمد حتّى يُبقوا على مصالحهم في احتكار استيراد القمح من الخارج، وفي الوقت ذاته افتعلوا حادثة تفجير المطار لتبرير الاعتقالات التي طالت الإسلاميّين، وحتّى توقيفهم للمسار الانتخابيّ والحيلولة دون وصولهم للحكم، بذريعة أنّهم متطرّفون، وما تفجير المطار إلا مبرّر قدّموه للدّول الغربيّة التي تبدي قلقها ممّا يحدث في الجزائر، فتكسب تلك الأطراف الدّاخلية تعاطف ودعم العالم لها في حربها ضدّ الإرهاب، وتتخلّص بالمرّة من باحث يسعى لحرمانها من تجارة استيراد القمح التي يحتكرونها.

* * *

8

يقطن موسى بوزيد في حيّ فيلاج بوديّة، داخل حوش صغير جدّا، مكوّن من شبه مطبخ يبرز سقفُه القصديريّ الموضوع على هيكل من أعمدة صنوبر أيبسها طول الزّمن، حتّى نشأت على امتدادها تشقّقات عميقة. كان قبل زواجه مجرّد فجوة في الحوش تمتدّ بين الصّالة والغرفة التي بالكاد يستطيع أن يمدّ فيها رجليه إلى جانب زوجته بختة وابنتيه الصّغيرتين فوزية وفايزة، إضافة إلى الصّالة التي تحتلّ مساحة ضئيلة جدّا، ومع بعض التّكييفات اليوميّة والإجراءات الرّوتينيّة الصّارمة، تصلح لأن تتحوّل ليلًا إلى غرفة نوم لأخيه الأصغر سفيان، عند عودته متأخّرا من رحلات تسكّع مع شلّته العاطلة التي تجوب أحياء سعيدة طولا وعرضا، ولا تنتهي جولاتها إلّا بعد أنصاف اللّيالي.

عند المدخل على اليسار، بمقابل الصّالة توجد مساحة مسقوفة، من الواضح جدّا أنّها مقتطعة من الحوش الذي لولا حاجة موسى لمكان ينشر فيه ملابسه لكان القرميد قد التهمه هو الآخر، يستعملها موسى مع عائلته كحمّام، بوسعهم أيضا أن يقضوا بداخله حاجاتهم البيولوجيّة الملحّة، ففي أحد أركان ذلك الوجار الآدميّ يوجد في الأرضيّة ثقب عريض بالقدر الذي يمكن معه رفع الحرج، وإن حدث وأن كان أحد أفراد العائلة يغتسل أو يستحمّ، فعلى الجميع أن يكظموا غيظ أمعائهم الغليظة ويحكموا إغلاق مثاناتهم لبعض الوقت، ريثما يستحي من بداخل الحمّام على دمه ويخرج من فوره، بعد نداءات طويلة مصحوبة بتهديد ووعيد شديد بالويل

والثّبور وخراب الدّور، ودعاء عريض بالإسهال تارة وبالإمساك تارات أخرى، ليواجه عند خروجه سيلا من الشّتائم، ليس فقط لأنّه تسبّب في الألم للآخرين، بل لأنّه أيضا خالف تعليمات البيت الصّارمة، إذ لا يجوز الاستحمام إلّا بعد منتصف اللّيل وينتهي الوقت المسموح به قبيل الفجر بقليل، وإلّا فعلى من أراد أن يستحمّ خارج هذا التّوقيت أن يبحث له عن مكان آخر غير بيت موسى.

يستثني موسى نفسه من حكاية خرق دستور الدّار هذه، خصوصا ما تعلّق بجانب الحقوق والحريّات الفرديّة داخل حمّامه، يحاكي صولة القيادة الجديدة للبلاد التي فعلت بدستور تسع وثمانين ما يفعله هو عادة بقطعة ورق جرائد يُدخلها معه إلى مرحاضه، هكذا يفكّر كلّما حاول أحدٌ استعجال خروجه منه، ليخلفه على عرشه المثقوب، على الأقل فإنّ التّداولّ على كنيف موسى مكفول ولو بعد حين، يشعر بديمقراطيته العادلة كلّما خطر ذلك بباله وهو مقعٍ على المقعد التركيّ.

يحمل موسى مع كلّ صباح، عدا الجمعة، حقيبته الجلديّة بنيّة اللّون في طريقه إلى عمله في شركة الجسور والطّرقات التي لا تبعد كثيرا عن منزله، الكثير من المشاغل تملأ رأسه المثقلة بالهموم المختلطة، بوسعه أن يفرغ بعضها في مكتب مدير الشّركة، يملك الكثير من الطّموح السّيد دحّو كعباني، خصوصا بعدما بدأ الوضع الاقتصاديّ للبلد يتأزّم ومعه الحالة الأمنيّة التي أخذت هي الأخرى تتعقّد، بات الجبل موئلا لكلّ حانق على سياسة النّظام، بعدما رفض نتائج الانتخابات وفرض منطق الدّبّابة على الجميع، ينتظر دحّو كعباني فرصة تنقله إلى عالمه الحالم، لا يخفي ذلك عن

موسى لحديثه إليه يتضمنّها في الغالب الأعمّ، لديه اليوم أخبار سارّة يخبّؤها لأمين سرّه موسى محاسب الشرّكة، ألقاها عليه من بين شفاهه المبتسمة:

- بلغتني أنباء تفيد بأنّ الحكومة تعتزم التّخلي عن أغلب الشّركات التّابعة للدّولة.

يضع موسى يده على جبهته ويمرّرها على شقّ وجهه الأيمن، كأنّما يزيح قطرات من العرق، مستقبِلا خبر مديره بتساؤل متحيّر:

- والعمّال ماذا سيكون مصيرهم؟

تكمن المشكلة دائما، حسب دحّو، في المصير، مصير الشّركات، مصير عتادها، آليّاتها، عمّالها، غير أنّه لا شيء قطعيّ إلى الآن بشأن هذه المسائل، أبلغ دحّو موسى بأنّ هناك العديد من التّأويلات لهذا القرار الذي يبقى وحده هو الصحيح، أمّا غيره فمجرد شائعات وإرهاصات، الأكيد أنّ الحكومة قد مدّت عنقها لصندوق النّقد الدّوليّ، وقبلت بإملاءاته لإعادة جدولة ديونها، من الممكن جدّا أن تعمد لبيع شركاتها إلى القطاع الخاصّ، الخوصصة هي دواء تصفه صيدليّة الصّندوق لكلّ البلدان الاشتراكيّة التي أصابها زكام الرأسماليّة، وهذا يعني أنّ الدّولة ستبيع ما تحت يديها لمستثمرين محليّين أو أجانب.

- ولكن ماذا عن العمّال يا سي دحّو؟! كرّر موسى سؤاله الملحّ.

- الحكومة عليها ضغط كبير بخصوص هذه المسألة، صحيح أنّ الخوصصة تعني تسريحا للعمّال، لكن تأكّد يا سي موسى أنّ الحكومة لن يكون بوسعها المجازفة بإحالة مئات الآلاف منهم على البطالة، لتجد نفسها في مأزق توظيفهم من جديد.

فهم دحّو من اضطراب ملامح موسى وتغيّرها، حتّى إنّها صارت ذاوية كعرف الدّيك، ومن سؤاله الملحّ والمكرور عن مصير العمّال أنّ خوفه جعل قلبه يسقط في سرواله كما يقولون، حاول الرّفع من معنويّاته بعض الشّيء، وقوع موسى ذراعه الأيمن في شراك الهواجس السّامّة ليس في صالحه، طرح عليه ما أسماه بمخارج الحكومة من الأزمة العماليّة التي سيكون لها ارتدادات على النّسيج الاجتماعيّ، وبلسانٍ نقابيٍّ مصقع ومحترف فتح على مسامعه قاموس السّانديكا بمصطلحاته الماكرة والمراوغة، أخبره أنّ هناك العديد من الحلول لتجاوز النّفق؛ من الممكن أن تفرض الحكومة في دفتر الشّروط، على كلّ مستثمر يريد شراء مصنع أن يحتفظ بعمّاله وألا يسرّح أيّ أحد منهم، هناك احتمال آخر وهو أن تُمكّن الدّولة العمّال من التّقاعد مع الحصول على المستحقّات، أو أن يتقاسم العمّال أسهم الشّركة وفق طرق معيّنة، تأخذ بعين الاعتبار الدّرجة والأقدميّة، وبهذا من الممكن جدّا أن يحصل عامل بسيط على حصّة هامّة في الشّركة.

- هذا الحلّ الأخير ملائم يا سي دحّو، لو يتمّ تطبيقه من الممكن جدّا أن نصبح أثرياء.

قال موسى ذلك وقد التصق آخر كلام دحّو بطبلتي أذنيه، فتحوّل عرف الدّيك لديه إلى ذنب ذكر طاووس حينما ينتفش مبرزا ألوانه الزّاهية ابتهاجا بطيب الحياة.

يفتح دحّو كعباني درج مكتبه ويخرج منه ظرفا، يقدّمه لموسى مصرّحا:

- سي موسى هذا مبلغ ماليّ بسيط يمكنك التّصرف به، أرى أنّك في حاجة إلى المال في هذه الأيّام الصّعبة.

يمدّ موسى يده إلى الظّرف، يختلسه من بين أصابع دحّو، ويحكم وضعه بعدما طواه في جيب معطفه الدّاخلي، ويثني عليه ممتنّا بصنيعه معه:
- معك حق يا سي دحّو، أشكرك كثيرا على طيبتك أنت وحدك من يحسّ بي، لا يخفى عليك... كما تعلم... المرتّب لا يصمد لمنتصف الشّهر والأسعار تلتهب، ونحن نعيش هذه الأزمات المتكالبة التي باتت تنهش لحومنا.
- أعرف هذا الشّيء جيّدا يا سي موسى، وأسعى جاهدا لتحسين أوضاعنا، المسؤولون الفوقْ فرّطوا في شركات الدّولة، لكن علينا ألا نسمح لهم أن يبيعوا عرقنا للغرباء دون أن نأخذ حقوقنا.
- أكيد يا سي دحّو، أنا معك في هذا الكلام، يجب أن نناضل من أجل ضمان حقوقنا كاملة.
شعر دحّو بالارتياح لتجاوب موسى مع صنيعه، كان باديا على وجهه المنبسط أنّ الظّرف القريب من قلبه قد أدخل عليه بعض الدّفء، المشفوع بمودّة متجدّدة لدحّو مديره المتعاطف معه دائما، رأى بأنّه من المناسب أن يستأنف الموضوع الذي افتتحه واستبق تمّته بتقديم ظرف ماليّ، تنحنح وانطلق مسترسلا في طلبه، أخبره أنّه في الأسبوع القادم ستزورهم في الشّركة لجنة وزاريّة، يرغب منه أن يحتاط لدوريّات التّفتيش هذه، لا يريد لهم أن يمسكوا عليهم أيّ شيء قد يستخدمونه ضدّهم وهم يحاولون التّخلّص منهم لصالح المستثمرين، في ظروف مثل هذه لا مناص من اليقظة والحيطة والحذر، قال له أنّه قد أعلم بومدين مسؤول الحظيرة وكريمو مسؤول المشتريات قبيل مجيئه بالأمر، وأنّه نبّههم إلى أن يتفطّنوا لكلّ شاردة وواردة.

كان موسى يتلقّى تعليمات مديره باهتمام كبير لكلّ كلمة يقولها، وبين الفينة والأخرى يغتنم صمتا وجيزا في ثنايا حديثه، ويكرّر عليه نصحه بعدم القلق من هذا الأمر التّافه، سوف لن تتمكّن هذه اللّجنة من اكتشاف أدنى خلل، كلّ شيء على ما يرام، ذكّره بأنّ الحسابات التي بحوزته مطابقة تماما لما هو موجود في الواقع، فلِم الخوف والقلق إذن؟ ذكر له بأنّه اطلّع وهو في طريقه إليه على حساب الشّركة في البنك، وأنّه قد حصل منهم على كشف حركة الرّصيد، بما في ذلك الفاتورة الأخيرة التي دخلت الحساب، أبدى دحّو ارتياحه لتطمينات موسى بإعجاب وامتنان، حتّى إنّه وهو ينصت مصغيا لحديثه كان يرسم على شفتيه ابتسامات تحوّل كثير منها إلى ضحكات مجلجلة، كرّر عليه بأنّ كريمو وبومدين طمأناه قبل أن يحضر عنده في المكتب، وأكّدا له أنّ كلّ شيء على ما يرام.

يغادر موسى الشّركة قبل الغداء برفقة بومدين في سيّارة العمل، يمرّان على مخبز العوفي بعمروس، ليأخذا حاجتهما من أرغفة الخبز، يستأنفان مشوارهما نحو فيلاج بوديّة، يوصل بومدين موسى كلّ منتصف نهار عملٍ إلى منزله، في هذا اليوم انصرفا من الشّركة أبكر من المعتاد بنصف ساعة، وصلا إلى مقهى شريفي أسفل ثانويّة البنات «lycée jeune fille»، أضحت مختلطة مع بداية العام الدّراسي الجديد، تمتدّ يدٌ ملوّحة إليهما من طاولة خارج المقهى ويتبعها صوت متوسّط الخشونة مناديا:

- موسى... موسى...

يترل موسى ويغلق باب السّيارة بعدما رضي بمحطّته الاستثنائيّة التي أجبره على التّوقّف عندها صاحبُ اليدّ الملوّحة، أمتاراً قبل بلوغ وجهته

الاعتياديّة، يخنق بين ساعده وعضده ثلاثة أرغفة، ويهجم على مسعود بعدما عرفه بعناق حارّ وقُبل لانهائيّة. في الدّاخل كانت أغنية للشّاب حسني تهدهد قلّة من الشّباب الجالس إلى طاولتين، يصطفّ أغلب مرتادي المقهى في الخارج متّكئين على جدرانها والبيوت المحاذية، يراقبون خروج طالبات ثانويّة البنات التي ما تزال متمسّكة بتسميتها في الجهة المقابلة من الطّريق، كان صوت الشّاب حسني يصل إلى مسامعهم:

كي نتفكر نهار اللّي شفتك... يااااآآه

كنتي بعيدة... آه، أنا وما حسيتش.

وعلى عقليتي أنا ربّيتك.

تعيي ما ديري... آه، ما تنسيني.

مغبون عليها... كي نتفكّرها يتلف لي الرّاي.

وراني خايف لا ليّام دور...

حاول موسى أن يبدو غير مبالٍ بأجواء العشق الشّبابيّ التي تخيّم على المقهى المقابل للثّانويّة لحظة خروج الفتيات، كان ذلك يستثير نجله من مسعود ويجعله يشعر ببعض الإحراج. تعجّ الطّريق بالسّيارات التي يقودها شبّان لا يفوّتون تلك اللّحظة، كي يتيحوا لأعينهم الاكتحال بمشهد جميلات الثّانويّة وفاتناتها، وهنّ تقطعن الطّريق المنحدرة من بوّابة الثّانويّة إلى الأسفل عند الإشارة الضّوئيّة في مفترق الطّرق، المكان يغصّ بمزامير السّيّارات الصّادحة والمزدحمة، وبمسجّلاتها التي تبثّ في المكان بأصواتٍ صاخبة أغانيَ من طبوع مختلفة، عدد كبير منها أتى أصحابها لتوصيل أبنائهم. في أعلى

الطّريق، قريبا من بوّابة الثّانويّة وغير بعيد عن المقهى يتوقّف الباص ليقلّ الطّلبة.
سأل موسى مسعود عن أحواله:
- كيف هي أمورك في العاصمة مع تردّي الوضع الأمنيّ هناك، نشاهد هذه الأيّام على التّلفاز أولئك المتطرّفين الذين تقبض عليهم الشّرطة وتحتجز أسلحتهم.
- الحمد لله أنا بخير سي موسى. الأوضاع الأمنيّة تزداد سوءا، يصرّ المتطرّفون على بثّ الرّعب في أجهزة الدّولة ومؤسّساتها، بالأمس فقط فكّك رجال الأمن قنبلة موقوتة داخل علبة كانت بجوار حاوية قمامة، بالقرب من مركز شرطة الحرّاش، غير بعيد من شقّتي بمئة متر تقريبا، اشتبه شرطيّ كان يقف بالخارج بوجودها هناك، اقترب منها، سمع دقّاتها فنبّه زملاءه على الفور، الحمد لله تدخّل مختصّ في تفكيك القنابل في الوقت المناسب، وإلّا لكانت كارثة حقيقيّة في حيّ شعبيّ يكتظّ بالسّكان.
- سترك يا رب! ردّ موسى وعلامات التّأثر لا تفارق عينيه اللّتين كان يغمضهما ويزمّ شفتيه متحسّرا، سأله وكأنّه تذكّر بأنّ عليه أن يفعل إذا ما التقى به مستقبلا:
- إيه... كدت أنسى! هل من جديد بخصوص قضيّة أحمد؟
- لا جديد يذكر، تصرّ الشّرطة دوما على أنّ مقتله كان ضمن عمليّة تفجير المطار، ومنذ إعدام حسين عبد الرّحيم المتّهم مع رفاقه بقتله، بعد أن قضوا قرابة السّنة في سجن لومبيز، يحاول المسلّحون الانتقام لهم ويصعّدون من عمليّاتهم.

- ألم تعثر للآن على أدلّة تدعم فرضيّتك التي أخبرتني عنها؟
لا يزال مسعود متمسّكا بموقفه، وفقا لقناعته فإنّه من المستحيل أن يكون أحمد قد قُتل من قبل المتطرّفين، وبغضّ النّظر عمّا إذا كان حسين عبد الرّحيم ورفاقه من جماعة جبهة الإنقاذ متورّطين في تفجير المطار من عدمه، فإنّه لا يوجد في أحمد الذي يعرفه جيّدا ما يدفعهم لقتله، أطلع مسعود موسى على حواره مع مفتّش الشّرطة الذي أجرى معه التّحقيق، كان قد أبلغه بأنّ أحمد قُتل قبل أن يشكّل المتطرّفون جماعة الفيدا التي خطّطت لاغتيال إطارات علميّة ومثقّفة، كان ذلك ردّا منه على زعم المفتّش أنّ أحمد قتله الإرهابيّون لقربه من الأكاديميّين ذوي الخلفيّات السّياسيّة.
لم يُخفِ موسى حيرته من تزامن الحادثين، سأل مسعود إن كان فكّر في وجود علاقة بينهما، قال له أنّ المشكلة تكمن في هذه النّقطة بالذّات، ذكر له أنّه غالبا ما يجد بعد تفكير مضنٍ استنتاجا بوجود رابط بينهما، غير أنّه لا يقف على شيء، إذ من المستحيل أن تحدث الواقعتان في التّوقيت والمكان ذاته دون أن يكون الفاعل من جهة واحدة، قال له أنّه من المنطقيّ فهم عمليّة تفجير المطار رغم كونه يدين ارتكابها، لكن من الصّعب تفهّم مقتل باحث زراعيّ يريد أن يكمل بحثه في الخارج من قبل المتطرّفين، ما مصلحتهم في ذلك؟
- صحيح، أمر يجنّن ويدوّخ، إذا كان سبب مقتل أحمد هو غيرة أحدهم منه ومن نجاحه في حياته العمليّة والعلميّة وحقده عليه، فما علاقة ذلك بتفجير مطار؟ سأل موسى مسعود وقد ازداد غوصا في حيرته حيال سبب مقتل أحمد.

- لا أعتقد أنّ الغيرة والحقد من أجل بحث علميّ يدفعان بصاحبهما للانتقام بقتل باحث لم يحالفه الحظّ للحظة، وكلّ ما حقّقه في حياته من دنيا النّاس هو أنّه كان يحاول مغادرة بلاده إلى إنجلترا، وما يؤرّقني ليالي بحالها، هو أنّني لا أجد علاقة بين بحث علميّ وتفجير مطار.

- تصرّ على أن دافع قتلة أحمد هو بحثه وتنفي عنهم الغيرة والحقد؟!

- لو رأيت كيف همَّهم الاستيلاء على البحث الذي كان في حقيبته، بالطّريقة نفسها التي حرصوا بها على التّخلص منه، لفهمت أن المستهدف كان البحث وليس أحمد لشخصه.

- دعنا الآن من هذه الأحجية، رحمة الله على أحمد، فلنذهب إلى البيت لنتغدّى ونستريح قليلا ثمّ نكمل حديثنا.

ينظر مسعود في ساعته، ويردّ على اقتراح موسى:

- آسف، ربّي يبارك في رزقك، أعذرني عليّ المغادرة إلى العاصمة، هذا وقت التّاكسي، كنت على وشك الذّهاب إلى حيّ السّرسور لانتظار إقلاعه.

* * *

يراقب ڤرطوع المتمترس خلف طاولة خارج مقهى جلّول دخول مدير المدرسة الابتدائيّة الجديد، الذي خلف مديرها السّابق بعدما تأكّد انضمامه للمسلّحين، فقد شوهد مرّات عديدة يركب سيارتهم رباعيّة الدّفع التي يسمّونها "المجاهدة" إلى جانب الأمير عاصم في تفاسور، وبلغ مديريةَ التّربية خبرٌ بهذا الأمر فانتدبت على الفور أحد المعلّمين القاطنين بسعيدة لإدارة المدرسة.

يقف المدير المنتدب طويلا أمام عبارات على سور المدرسة، تمجّد الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ المحلّة ونهجها السّياسيّ، فعلى طول الحائط الأبيض ترتسم بلون أزرق شعارات تكاد تتلاشى صبغتها المتشقّقة: "عليها نحيا وعليها نموت"، "لا ميثاق لا دستور قال الله والرّسول" "لا عمر لا حميداني. عباس المدني".

يدور حديث بين المدير وحارس المدرسة يتحرّق ڤرطوع المتكوّم فوق كرسيّ حديديّ لمعرفة مضمونه، يسحبه صديقه طراڤو المارّ من خلفه من ياقة قميصه فتختلج جوانحه، وينتفض واقفا كأنّما دلق فوق عنقه دلوا من الماء البارد، ثمّ يسأله:

- فيم شرودك يا ڤرطوع، هل تفكّر في تدبير مكيدة جديدة؟

- أفزعتني بحركتك المباغتة يا طراڤو، ألا تكفّ عن تصابيك السّمج.

أبدى ڤرطوع استياءه من مقدم صديقه الفظّ، ثمّ عاد إلى جلسته محتضنا ظهر الكرسيّ بذراعيه، ردّ طراڤو على حركته بأن جرّ كرسيّا كان بالجوار، وضعه إزاءه على الهيئة نفسها التي يجلس بها ڤرطوع على كرسيّه، وراح يستفزّه حتّى يفصح له عمّا يدور وراء سكونه غير المألوف:

- لا تتهرّب من الإجابة، أعرف ما يدور في رأسك حتّى وأنت ساكن وصامت.

- وما دمت تعرف فلم تسأل إذا؟

- أريد أن أتأكّد فقط من صدق حدسي، كما أحتاج إلى بعض التّفاصيل التي لا تدركها حاسّتي القاصرة.

- لا شيء يستحقّ الاهتمام، أفكّر في حلّ لمعضلاتي المستعصية.

- تقصد أنّك في مفترق طرق ولا تملك معطيات واضحة تحدّد قرارك حول أيّ اتّجاه ستسلكه.

- لقد ازدادت الأمور تعقيدا منذ أن نجونا من معتقلات رقّان حين بدأت الدّولة تبسط نفوذها على الوضع، غير أنّ هذه التّحركات الأخيرة تتلف حساباتي ولا أتمكّن معها من إيجاد مخرج لمآزقي، ظننت أنّني بحلقي للحيتي وخلع عباءة معلّم القرآن و...

يرتبك ڤرطوع فيقاطعه طراڤو ضاحكا منه ومخمّنا تتمّة كلامه:

- وعودتك إلى التّدخين وشرب الخمر ومطاردة العاهرات، أكمل يا رفيق دربي ونضالي... أكمل.

يمتعض ڤرطوع من سخريّة طراڤو، فيردّ عليه بصاع أكبر من صاعه:

- المعزة الجرباء المذبوحة تهزأ بالشّاة المسلوخة! نحن في الهوا سوا يا حبيبي، قل لي بربّك ما العمل وأنت ترى هذه الحركة المريبة في القرية؟

- ماذا تقصد؟! عن أيّ حركة تتحدث؟

- تتكلّم وكأنّك مثل الأطرش في الزّفة يا ابن بلدي، المعلّم آخر من يعلم.

- تقصد صعود بعض شباب القرية إلى الجبل ولحاقهم بالرّفاق، بعدما نجح خيداس في تجنيدهم؟

- ما دمت تعلم بكلّ هذا فأين عقلك؟ أرني أفكارك النّيّرة وحلولك الحاسمة في وقت العسرة يا جهبذ.

- وهل نحن في أزمة حتّى نفكّر في حلول لها يا فيلسوف الغبراء؟!

لاحظ ڤرطوع خروج حارس المدرسة الذي لم ينتبه لدخوله مع المدير الجديد، كان يحمل دلو طلاء وفرشاة، طفق يمحو بهما الكتابات على السّور، التفت إلى صاحبه، ورفع حاجبيه مشيرا إلى الحارس:

- انظر لقد حلّت سلطة الدّولة وبدأت تنفّذ قراراتها، ومع مغيب الشّمس ستخرج سلطة الجماعة من جحورها، وسنبقى محتارين في أيّ الفريقين نكون.

- ولماذا كل هذا التّخوف؟ دعنا ننضمّ إلى الدّولة ليلا ونحاز إلى المسلّحين نهارا.

فهم ڤرطوع أنّ صديقه طراڤو يريد منه أن يلعبا على الحبل ريثما ينجلي غبار معركة الجيش والمسلّحين الذين استقرّوا بالجبال المجاورة، حينها يمكنهما معرفة الغالب فيذعنان لأوامره، كان ذلك يبدو غير ممكن بالنّسبة له، لن يستطيع أن يفيق من سُكر اللّيل مع الشّروق، سوف ينكشف سريعا، ولن يحتفظ إلى غروب شمس هذه الأيام الشّاتية القصيرة بسمته الزّاهد الذي سيتصنّعه أمام المسلّحين، الموقف معقّد ويحتّم اختيار جهة واحدة فقط للتّحالف معها، لا مناص من معاداة الطّرف الآخر، فكّر أنّ هذا وحده هو المعقول. رأى طراڤو أنّ كلام صديقه يبدو منطقيّا، لكن بوسعهما تأجيل الاختيار قليلا ريثما تتّضح الأمور أكثر، فليس من السّهل أن تقرّر في أمر تكون فيه أنت القاتل أو المقتول. قال له ڤرطوع أنّه إن قُتل فالموت واحد، ولن يقتُل أحدٌ إلّا من أجل تحقيق المكاسب أو اعتلاء المناصب، وهذا كاف لتبرير القتل حسبه، وأنّ الأمور لن تكون أوضح ممّا هي عليه الآن، فالأوضاع تزداد تعقيدا بعد تردّد الأمن العسكريّ على فنوان. ذكر له كيف أنّهم أوقفوا مجموعة من شباب القرية عند الشّريعة أمس بعد العصر،

طلبوا منهم هويّاتهم وأجروا تحقيقا مع بعضهم، حدث كلّ ذلك بعد صعود خمسة شبّان من القرية ولحاقهم بالجبل. برّر له بأنّ ذلك ما يدفعه إلى الإسراع في اتّخاذ القرار، لا ينبغي أن يكون آخر من يصل إلى الوليمة، ويترك الحصص الكبيرة من الغنائم والرّتب السّامقة يظفر بها السّابقون، فغالبا لا يحفل المتخلّفون والمتأخّرون إلا بالفتات.

تأكّد لطراگو أنّ خليله قد اتخذ قراره. كانت الأحداث أمام ناظري گرطوع تجري كقطار بدا معه واقفا عند المحطّة، لن ينتظره كثيرا ليعاود إقلاعه، عليه أن يركب وإلّا فإنّه سيتعفّن في هذه القرية الكئيبة ويُطحن بين الدّولة والجماعة المسلّحة، أبلغ طراگو أنّه لن يذهب إلى خيداس كي يدلّه على طريق الغابة والجبل، سيجعله ذلك يبدو غرًّا وابن اليوم أمام تجربة خيداس الواسعة والثّريّة مع جماعة عاصم، وسيجبره على الرّضا بالموجود، بدلا من ذلك فإنّه سيذهب إلى تفاسور عند عاصم أمير الجماعة حتى ينضمّ إليهم، فقد بلغه من أصهاره هناك أنّهم أكثر عددا وتسلّحا، لا يريد أن يكون بين جماعة فنوان حتّى لا يبدو في هيئة المتخلّف عن الثّورة المظفّرة على دولة الكفر.

تتبع منطقة سعيدة في التّقسيم الإداري الخاصّ بالمسلّحين تنظيميّا إلى سيدي بلعباس التي تستحوذ على إمارة الجهة، يعتقد گرطوع أنّه يجب عليه أن ينطلق من القمّة ويعانق السّحاب من أوّل لحظة حتّى يفرض منطقه على جماعة فنوان مستقبلا.

تنحنح گرطوع بعدما تأكّد له أنّه عاد من أحلامه الوثيرة إلى فراش واقعه الخشن، استأنف كلامه مستفهما طراگو عما يكون قد قرّره في الموضوع:

- ما رأيك يا طراگو؟

- وماذا عساي أقرّر؟ من تعوّد طوال حياته على أن يرتوي من ثُمالة گرطوع لا يسعه إلّا أن يتّبع خطاه، حتّى وإن انتهت به إلى حتف أنفه.

أدار طراگو رأسه حذو منكبه الأيمن متتبّعا نظر گرطوع، الذي راح يتأمّل حارس المدرسة يعود أدراجه، بعدما أنهى المهمّة التي كلّفه بها المدير الجديد، وطمس جميع الشّعارات التي كانت على سور المدرسة.

9

ينشغل محمود البقّال داخل دكّانه في نقاش حادّ وصاخب مع احميدة الباندي، ترتفع أصواتهما لتملأ المكان ضجيجا وتبعث في نفوس المارّين به تحسّبا لعراك وشيك ومحتدم، يتجمهرون عند الباب بدافع الفضول ولتمضية وقت مملّ في ضجر قرية لا يستجدّ فيها جديد ولا تبعث على المرح فيها أحداثها الرّاكدة، أو تجهّزا لفضّ شجار مرتقب وبثّ التّعقّل بين المتخاصمين.
يحتدّ النّقاش بين محمود واحميدة الباندي المحتجّ على مبلغ الدّين الذي عليه، زعم أنّه مبالغ فيه، صرّح لمحمود بكونه يتعمّد سرقة ماله وأنّه يختلق من وحي رأسه أشياء لا أصل لها، ينكر الباندي بصرامة ويقين يتفجّران من عينيه الحازمتين كحبلين يودّان خنق البقّال، أخْذَه لبعض الأغراض التي قال له البقّال أنّ حفيده الصّغير كان قد اقتناها من دكّانه قبل أسبوعين، يتعنّت الباندي بينما راح يطلب من البقّال أن يجمع له حسابه ممّا استدانه منه من سلع طيلة شهر، متوعّدا إيّاه ومقسما بأنّه لن يتموّن من دكّانه من السّاعة مهما حصل، حتّى وإن اضطرّ أن يبيت هو وعائلته للجوع.
كان الباندي قد مرّ على دكّان محمود بعدما قبض معاش تقاعده في الصّباح من مركز البريد. لكنّ محمود ذكّره بأنّ حفيده جاءه في يوم كان هو غائبا فيه عن فنوان، وكانت طلبات بيته مستعجلة، فلم يشأ أن يردّه وفضّل أن يزوّده بحاجات منزليّة بعثت بطلبها منه زوجته خيرة، التي يخجل محمود منها كثيرا بحكم أنّها أخته من الرّضاعة، وقد أوصته والدته بها خيرا قبل وفاتها فهي بنت أعزّ صديقاتها، ولا يمكنه ردّ طلبها بأيّ حال، أكّد له البقّال أنّه

سجّل ما أخذه حفيده في كنّاشة دينه التي كانت معه، بعدما رصّ المشتريات المستدانة داخل قفّة مصنوعة من الحلفاء كانت بيده، وقيّد الدّين بعد ذلك في سجلّ الزّبائن المدانين لديه.

بدأ الخلاف يشتدّ إذ لم يتّفق الطّرفان وأصرّ كلّ واحد منهما على موقفه، وتشبّث بحججه كعلقة تلتصق ببلعوم الآخر وتمتصّ دمه. راح الباندي يشتم محمود ويسبّه بأقذع الألفاظ وأقبح الشّتائم، عند هذه اللّحظة دخل رجلان بلباس أفغانيّ تنسدل من رأسيهما وذقنيهما جداول من الشّعر، يحتمل كلّ واحد منهما رشّاشا على كتفه، خيّم الصّمت فجأة على الدّكّان، ألقى أحد المسلّحيْن السّلام على من بالبقالة، وحاول تهدئة الأمور بين المتنازعين، التفت الجميع إلى المسلّح الآخر، بدا لهم مألوفا، تمعّنوا في وجهه جيّدا ثمّ بدؤوا بالابتسام تباعا حينما تأكّدوا من هويّته، وأخذوا يوشوشون في آذان بعضهم بعضا، فيخبر من كان قد عرفه من لا يزال محتارا في أمره، لم يكن سوى ݣرطوع العائد إلى فنوان بعد غياب ليس بالطّويل، تمكّنت أربعة أشهر قضاها بعيدا عن القرية من تعديل سحنته وتغيير هيئته، استفسر رفيقُ ݣرطوع عن سبب الشّجار الذي كان يدور بين البقّال وخصمه كحرب أهليّة، اشتكى له محمود من نكران الباندي لفضله في إدانة حفيده أثناء غيابه، وإنكاره لدينه المستحقّ والواجب الدّفع، "ثلاثمائة دينار كانت عليه وهو يرفض سدادها"، أكّد البقّال دعواه، أدخل المسلّح يده في الجيب الأمامي لسترته الأفغانيّة وأخرج ورقتين من فئة مائتي دينار وضعهما فوق المصرف، طلب منهما أن يصطلحا ويتسامحا، وراح يطنب في إلقاء موعظة

على أسماعهما، مذكّرا إيّاهما بخلق رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في حسن الاقتضاء والإجمال في المطالبة بالدّين.

حمل ڤرطوع بعض السّلع التي اشتراها أميره عاصم من دكّان محمود وهمّ بالخروج. عند الباب إذ كانا يغادران، أوصى الأميرُ البقّالَ ببعض الأغراض التي لم يجدها عنده ليجلبها له في وقت لاحق، فرح محمود بزبائنه الجدد الذين لا يدقّقون كثيرا في ثمن السّلع ويدفعون بسخاء.

ينتظر طراڤو عودة صديقه مع الأمير تحت شجرة صنوبر، غير بعيد عن منزل حارس الغابة الذي فرّ بجلده هو وعائلته مع غزو المسلّحين للمكان، لم ينتظر حتّى يطرده عاصم، فعل ذلك بحاسّة مستشرفة تشتمّ الأحداث المرعبة من بعيد. يقترب خيداس من طراڤو المستلقي على ظهره، ينفض يديه المتّسختين بالتّراب بهدوء ويغسلهما في ساقية أسفل الشّجرة، كما لو أنّه كان قد ردم شيئا في حفرة وسط الغابة خفية عن البقيّة.

يلهو أبناء عاصم بالقرب من المنزل المبنيّ منذ العهد الاستعماريّ بحجارة جبليّة مستطيلة، تأخذ بشكلها البارز والخشن مساحة ثلث الحائط السّفليّ ويعلوها سقف من القرميد الأحمر، ترك الحارس ثلّاجة تشتغل بأنبوبة غاز ومدفأة تشتعل بالمازوت، لم يكن وقت نفاذه بجلده يسمح له بالتّفكير في كيف له أن يحمل كلّ هذه الأشياء الثّقيلة.

البيت بثلاث غرف، قام عاصم بسدّ أبواب الغرف المطلّة على الممرّ بالطّوب والإسمنت، وفتح باب غرفة من غرفها على الخارج ووصلها بباب مع غرفة مجاورة، تمكّن بمعية جنوده العشرين من الاستقرار داخلها، أغلبهم شباب عزّب، بينما استحوذت زوجته إلى جانب نسوة أربعة

مسلّحين وأبنائهم الصّغار على مخزن صغير، وصله عاصم بمساعدة أفراد جماعته بممرّ المنزل الواسع وهيّأه لمعيشتهن. كان المكان، قبل احتلالهم له حينما كان يحتضن الحارس وزوجته وأبناءه الأربعة، يبدو كقصر وادع يشرف على غابات فنوان الممتدّة، لقد أصبح الآن مع تحويرات عاصم أشبه بثكنة صغيرة بمنظر صارم ومتجهّم.

وضع بوريق المنضمّ حديثا إلى جماعة عاصم أمام طراگو أرنبين مقتولين وثلاث حجلات في النزع الأخير، كان قد بدأ في اصطيادها منذ خروجه باكرا بعد الفجر، حملها طراگو ووقف على مسافة من منزل حارس الغابة، وطفق ينادي على زوجته التي كانت منهمكة في إعداد الغداء مع نسوة الجماعة، كان بوريق قد توارى عن الزّوجين حتّى لا يشهد حديثهما الخاصّ، تقدّم طراگو وزوجته ناحية المطبخ ووضع الأرنبين والحجلات المقتولة ببندقيّة الصّيد ذات الماسورتين المتعامدتين من عيار اثنتي عشر ميليمترا، على حافّة نافذة المطبخ المطلّة على شِعبٍ تتكاثر في مجراه المائيّ شجيرات الدّفلة، طلب منها أن تتعاون مع الأخريات على تجهيز تلك الطّرائد وطبخها على العشاء مع دشيشة الشّعير، كان النّسوة في الشِّعب عند بركة مائيّة جهزها گرطوع وطراگو وخيداس، بعد أن سدّوا مجرى السّاقية التي تتوسّط الشّعب ببعض الأغصان والحجارة فأبطأت تدفّق المياه، وأجبروها على الانحسار والتّجمع في بركة كانوا قد حفروها ووسّعوا حوافّها، أصبحت مكانا ملائما لغسيل الملابس والأواني، وتنظيف الخضار والذّبائح من حيوانات داجنة أو مصطادة.

تقتحم الجماعة المسلّحة الوافدة فنوان في أيّ وقت تشاء، ساعدها غياب الأجهزة الأمنيّة على أن تملأ الفراغ الذي يشبه مجالا حيويّا سائبا يمكن التّوسع بداخله، وأن تفرض نفسها كسلطة أمر واقع، بات ضروريّا على القرويّين تحمّلها وتقبّلها من الآن فصاعدا، يبدي القرويّون بعض التّبجيل والاحترام المشوب بالإجلال لعاصم وجماعته، كان ذلك استمرارا طبيعيّا لميولهم السّياسيّة الغالبة والوفيّة للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وتعاطفا منهم مع ما حدث لها من حلّ لحزبها السّياسيّ واعتقال لشيوخها، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من مناضليها، وحتّى آخرين لا ينتمون إليها أصلا، غير أنّهم اتُّهموا بالتواطؤ معها وزجّت بهم الحكومة في معتقلات رقّان وعين امقل ووادي النّاموس، لدرجة أنّ القرويّين كانوا إذا أتوا على سيرة الجماعة الوافدة فإنّهم يطلقون عليهم تسمية "الخاوة" (الإخوة).

ومن المنطقيّ لكي تكون سلطةُ حكّام فنوان الجدد حقيقة ملموسة، فإنّه من غير اللّائق بأمير الجماعة عاصم ورجاله أن يستمرّوا في مظاهر المودّة تلك، والتي كانوا يتعفّفون معها عن مخاطبة أيّ شخص يمرّ من أمامهم بلغة حازمة وقاسية تناسب حالهم ومظهرهم المسلّح، الذي يغري بالسّلطة والنّفوذ والسّيطرة، فبدأ نوع من الخشونة والفظاظة يرافق تصرفّاتهم كلّما حلّوا بالقرية، وكثر تدخّلهم في حياة النّاس وأصبحوا لا يفوّتون موقفا إلّا وحشروا أنفسهم فيه.

لم يكن إبراهيم ابن جيلالي هانوي يدري بهذه التّرتيبات الارتجاليّة الجديدة والمفاجئة، التي بدأت تدريجيّا تطبع تصرّفات ملوك فنوان الجدد، فراحوا يتخلّون عن بعض تواضعهم ولينهم. ثارت ثائرته الفظّة ضدّ زوجته، بعد أن

نسيت أن تضع بجنب غرفيّة الحريرة علبة الشّمّة لحظة أذان المغرب، في يوم رمضانيّ مربك قضت أغلبه في مطبخها الممضّ، وبعد وصلة من السّباب اللّاذع انتهى المطاف بالمرأة في بيت أبيها، لم يطق إبراهيم بقاءها معه وقد ارتكبت حسب أعراف مزاجه المكهرب خطأ لا ينبغي التّغاضي عنه أو تجاوزه بأيّ حال، ولـمّا سمع عاصم بالخبر بينما كان يمرّ بمحاذاة بئر بالقرب من مزرعة ستاني، استنجد به صهر إبراهيم، والدُ زوجته، شاكيا له ما حدث لابنته، لم يترك عاصم هذا الموقف غير المقدِّر لسلطته المنتهكة يمرّ دون تبعات، كيف لإبراهيم أن يفقد فجأة رشده ولا يفكّر في الرّجوع إلى حكمة عاصم البالغة؟! دون أن يستفتيه في أمر طلاق زوجته حتّى أو يستشيره فيه على الأقلّ، فعاصم مهما يكن ليس قنطرة يعبر من فوقها إبراهيم ابن هانُوي، ومن غير المقبول أن يتجاوز سلطته الدّينيّة ويحتكم لمزاجه وهوى نفسه.

لم تكد تمضي ربع ساعة حتّى توقفت سيّارة عاصم "المجاهدة"، كما دأب هو وغلمانه على تسميتها تيمّنا بنشاطهم المقدّس، وصار مزمارها المدوّي يصدح أمام بيت إبراهيم وبالقرب من أذنيه أثناء استرخائه في قيلولة وادعة، لم يتردّد كثيرا في الاستيقاظ حينما تأكّد له أنّ المسلّحين خلف سور بيته، فلا أحد غيرهم في القرية المعزولة يملك سيّارة تويوتا رباعيّة الدّفع تصدر مثل ذلك الصّوت الحازم، الذي يستدعي إطلاقُه استجابةً لندائه وإلّا فإنّ عواقب التلكّؤ أو الامتناع سوف لن تكون على الوجه الذي يأمله صاحبه، وسرعان ما لبّى إبراهيم طلبهم بالحضور، لحسن حظّه، كان أحسن ما فعل، هكذا خمّن أمام نافذة السّيّارة التي كان يقف عندها محاولا بمشقّة لجم

تثاؤبه الجامح، طرح عليه عاصم سؤالا مشوبا بالاستنكار ولا تخلو منه نبرة التّنديد:
- بلغني أنّك طردت زوجتك البارحة.
- صحيح يا سي عاصم، لقد أمرتها أن تصلّي بعدما أمعنَت في تركها للصّلاة، وتعنّتت في الامتثال لأوامري، فكانت في كلّ مرّة تهمل صلاة أو صلاتين في اليوم، وربّما مرّ عليها يوم بأكمله دون أن تركع ركعة واحدة، وقد غضبت البارحة غضبا شديدا حينما عصت أوامري.
- إذا كان الأمر كما تقول... فالحقّ يقال إنّها هي المخطئة.
علّق عاصم على جواب إبراهيم بنوع من التّعاطف والإعجاب ببطولته في تأديب زوجة عاصية.
لكنّ عاصم رغم أنّه لم يراوده شكّ في قول إبراهيم، الذي نجح في تمرير تبرير يخترق الحديد لم يكن بيده غير اختلاقه ليهرب من غضب عاصم، كان في حاجة لئلا يفوّت هذه الفرصة دون أن يبسط سلطته على إبراهيم وزوجته، التي تحوّل خطؤها المطبخيّ إلى موبقة من الموبقات السّبع بزعم زوجها، ولعلّ عاصم استعمل هذه المرّة أسلوبا أقلّ فظاظة وأكثر ليونة، لا يتخلّى به عن صلاحيّاته في إعطاء الإرشادات والتّعليمات، راح يعظ إبراهيم بأن يراجع زوجته بعدما علم منه أنّه رمى عليها يمين الطّلاق. وفي كل مرّة كان إبراهيم ينظر فيها إلى الرّجلين المسلّحين المستلقيين في المقعد الخلفيّ، كان يحافظ على مسافة كافية من الهدوء ومساحة مليئة بالانصياع، فلم يقدر على رفض طلبه المحشوّ بأوامر صارمة أو حتّى يستعين بعقله المرهق والمختطف من فراش وثير من أجل منحه فرصة للتّفكير، سعى لأن يتخلّص

من ثرثرة عاصم حتّى يرجع إلى هدهداته اللّذيذة، أمره عاصم حينما رآه منسجما مع مواعظه ومتّفقا مع نصائحه أن يركب معهم ويذهبا إلى بيت صهره، ليقيم جلسة صلح بين الزّوجين المنفصلين.

لم يكن صهر إبراهيم أكثر فظاظة من زوج ابنته في تلبيته لطلب عاصم بالصلح، فلم يمكنه بأيّ حال أن يحتفظ بكبرياء متملّصٍ راوده لبرهة، ويشترط شيئا مقابل عودتها إلى بيت زوجها، إذ يعجّ بيته بأبنائه وأحفاده. دفعه قدوم ابنته المطلّقة مع ثلاثة أفواه، بدت له أنّها ستمكث عنده مطوّلا وستستنزف ميزانيّة ضخمة، إلى الاستغاثة بعاصم صباحا بالقرب من بئر مزرعة ستاني، لم يجد من خيار للتخلّص من ابنته وأبنائها المكلفين غير المجازفة والاصطدام بسلطة المتطرفّين.

* * *

عند مفترق الطّرق بين فنوان وسعيدة والقلايعة قبالة عين زدّيم يترصّد كمين "الخاوة" كلّ ذبابة قد تجتازه، تمرّ سيارة بوجو 404 قادمة من سعيدة، يقودها سليمان العقبي صديق طفولة حسان ابن الحاج بوخاتم، تجشّم مصاعب الطّريق في هذه الظّروف الأمنيّة، بعد أن طبعتها قبضة حديديّة، بين الأمن العسكريّ الذي بدأ يتردّد كثيرا على فنوان دون أن يستقرّ فيها، وبين الجماعة المسلّحة.

يتّجه سليمان إلى فنوان لحضور عرس حسان الذي تزوّج برقيّة بنت الحاج الطّاهر، غير أنّ المصادفة لم تكن على ما كان يودّ ويأمل، وإلّا فإنّه ساعتها سيكون على يقين من أنّ وجود كمين للمسلّحين في طريقه إلى فنوان لا يقلّ عن احتمال ملاقاة حمار يحمل براميل ماء في منطقة ريفيّة يشعّ القيظ

في أرجائها المتوهّجة، ويبدو أنّ سليمان لم يكن ليعير أدنى اهتمام للمفاجآت غير المتوقّعة التي تبثّها الأقدار أمامه، ورغم أنّه نجا من تَكْنِيَةِ أهل القرية له وهو المشهور بفلتاته وغلطاته، إلّا أنّ ذلك لم يمنعهم من أن ينعتوه بصاحب تِرس الرّجوعِ إلى الخلف المكسور، كناية له عن تهوّره واندفاعه وعدم حسابه للمغبّات والعواقب. ما كان منه إلّا أن توقّف عن الدّندنة التي كان مزاجه الثّمل يدفعه للتّرنّم بها دفعا، حينما رأى رجالا مسلّحين، يخرجون من خلف شجيرات بلّوط ويدنون منه، فقد أجبرته بعض الخشبات الملقاة كانت تستعرض الطّريق، كانوا قد وضعوها أمام القادمين باتّجاههم، على التّمهّل وخفض السّرعة.

فتح ڤرطوع الباب المحاذي لسليمان، وجلس قبالة ركام من أشرطة الكاسيت المبعثرة فوق التابلو، فاغرا فاه إلى حذو أذنيه، ومتسائلا في دهشة مستهترة:

- وهذه الأشرطة يا سي سليمان؟! أهي للشّيخ عبد الحميد كشك يا ترى؟!

وفي ثانيتين فتح سليمان صندوق التّابلو بيدٍ، دون أن يترك لنفسه مجالا للاندهاش من تغيّر صديقه الحميم تجاهه وعدم إعارته اهتماما لوجوده داخل سيّارته، التي شهدت مغامرات غراميّة كانا بطلاها بصحبة مومسات بعدد أصابع أيديهما وأرجلهما مجتمعة، ورمى بداخل التابلو جميع الأشرطة بمسحة واحدة بيده الأخرى، كلّ ذلك في حركة سريعة وهو يقول:

- هذه ليست سوى كاسيتات أغاني مغربيّة يا سي سنوسي، لا داعي لأن تشغل بالك بها كثيرا.

كما لو أنّ سليمان، وهو ينادي صديقه القديم باسمه الحقيقيّ، وبفهمه لمعتقدات الجماعة وفقهها الشّرعي، توصّل إلى أنّ الطّابع المغربيّ مستثنى من تحريمهم للموسيقى والغناء.

- والمغربي حلال.. وإلّا كيف؟

تسمّر سليمان في كرسيّه، وتجمّدت يداه على مقود السّيارة وارتسمت على وجهه علامة الاستغراب المختلطة باحمرار غير طبيعيّ، تكاد أن تغرقه قطرات من العرق البارد في سيارته المهترئة، ولم تفلح همزاته ولمزاته وغمزاته وازرقاق بشرته واحمرارها ثمّ اخضرارها في أن تعيد لگرطوع ذاكرته المفقودة، فيتذكّر صديقه الحميم الحاضر في مواقف كثيرة مرّت من أمام حياته بحلوها ومرّها.

حشا گرطوع يده داخل الصّندوق واستخرج منه كاسيت، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع ويتهجّى بصعوبة بعض الكلمات عليه، كانت مكتوبة بالفرنسيّة:

« *Edition Boualam Disco Maghreb* » "تسجيلات بوعلام ديسكو مغرب".

بدأ گرطوع ينقر بالكاسيت على أطراف أصابعه بعصبيّة داخلها الافتعال، ثم التفت إلى سليمان متهكّما:

- وهذا الشّيخ بوعلام على أيّ مذهب هو، ويا ترى هل يبيح الغناء أم يحرّمه؟

ضغط گرطوع بإبهامه بقوّة خارقة على زرّ المسجّلة ليستخرج كاسيت كان بداخلها، كادت أحشاؤها أن تخرج معه، قذف به في الصّندوق بعدما

لفظته المسجّلة ووضع بداخلها الكاسيت الذي كان بيده، وانتظر صدور الصّوت المرتقب، لم يندهش گرطوع كثيرا عندما سمع صوت القصبة والقلّوز ينبعثان منها، ليتبعه غناء الشّيخة الجنيّة بخامتها الذّكورية وصياحها المفعم بتنهّداتٍ وآهات تهيّج أكثر رجال فنوان تعفّفا، وبأسلوب أبلغ في الصّرامة والفظاظة من مثيله الذي استخرج به الكاسيت الأوّل، ضرب المسجّلة بلكمة كانت تكفي لأن تخرس الجنّية وجوقها المرافق لبقيّة حياتهم المجونيّة.

أمر گرطوع سليمانَ بفتح صندوق السّيّارة، كان ضحكه هستيريّا إذ يضع يديه على طرف غطائه المشرع أمامه، متأمّلا منظر زجاجات الخمر الأحمر والجعة الصّهباء وهي تلمع تحت أشعّة الشّمس، كانت مخبّأة ومموّهة تحت قارورات بلاستيكيّة فارغة. تساءل متهتّكا بعد أن تغيّرت سحنته واعتراها السّخط فجأة فأصبحت كهيئة صخرة صمّاء:

- تريد أن تُسكر فنوان بأسرها يا حلّوف!

أوعز گرطوع إلى بوريق بحرق الأشرطة، وإلى خيداس بأن يجلد سليمان أربعين سوطا دون أن يتنهّد أو يلتقط أنفاسه. همس في أذن طراگو أن يخبّئ زجاجات الخمر في مكان آمن، حتّى يحين وقت الحاجة إلى الانتعاش بها، خنق منخري أنفه بتصنّع ثمّ رفع صوته آمرا برياء:

- طراگو... خذ هذه الزّجاجات اللّعينة وكسّرها بعيدا عنّا، لا أريد أن أشمّ رائحتها النّجسة.

* * *

يقرفص مرزوق مادّا ذراعيه على ركبتيه فوق صخرة سميكة وضخمة، تحت أقرب شجرة صنوبر من القرية، يشرب بنهم كإسفنجة. قاروراتُ الجعة الفارغة متناثرة حوله، تعكس أشعةُ البدر لونَها البنيّ على مقلتيه الدّامعتين، في صمت تحترق أنفاسه المختنقة كجذع شجرة مضطرم يثمر جمرا متّقدا، تنسكب دموعه على خدّيه وتسيل من أنفه لا تشهد نهاية لها، يحاصرها عند تكاثرها خنينٌ يمتصّ عبراته المنسابة من عينيه الذّابلتين كأنّهما شمعتان ذائبتان. إلى جانبه ترتعد فرائص ميمون من الخوف على الرّغم من أنّ الزّمن زمن صيف، بدا له مرزوق كحرقة بالية، يتمنّى لو أنّه يتكلّم ولا يستمرّ في غليانه كقدر الضّغط التي يرعب صفيرها وينذر بانفجار محتمل ووشيك.

مرّت ثلاث ساعات منذ أن بدأ مرزوق جلسة الشّرب، فجأة وقف مترنّحا لا ينصاع لمحاولة ميمون اليائسة للإمساك به، أطلق صرخة دوّت في عمق الغابة وانعكس صداها في الآفاق، وقف مرزوق بصعوبة، بدأ يتأرجح ويتمايل بجسمه المضطرب، رمى بخطوات متثاقلة. يتراجع جسده إلى الوراء أحيانا كأنّما يجرّ خلفه أثقالا، ويتهادى كقارب متهالك يضيع وسط أمواج بحر هائج، بدأ يلوّح بيديه في الهواء، تارة يقبضهما ويرخيهما تارة أخرى، كمن يطارد أشباحا راحت تستفزّه بحضورها المفاجئ غير المرغوب فيه فأراد تأديبها وطردها، يفعل ذلك وهو يرطن بكلام غير مفهوم تتسرّب مع نهاياتِ مقاطعه بذاءاتٌ وفحشٌ كأنّه يسبّ تلك الأشباح، تداركه ميمون وأمسك بكتفه، ثمّ زجره بحزم:

- كفى يا مرزوق!... ليس من عادتك أن تعالج أمورك بالشّرب، فلتذهب إلى الجحيم، يمكنك أن تبدأ أحلاما جديدة مع غيرها، فنوان تعجّ بالعذراوات، من الغد فكّر في امرأة أخرى وانس الماضي التّعيس.

طفق ميمون يلومه على عدم إخباره بأمر رغبته في خطبة رقيّة منذ البداية، لو أنّه وصله خبر بذلك ما كان ليدعه يضطرّ خالته فاطمة لأن تمرّغ أنفها على عتبة بيت الحاج الطّاهر، ذكّره بحقده الدّفين عليه وبغضه له منذ الصّغر واستغرب كيف له أن ينسى الأمر، حين ضرب ابنَه موفّق حتّى أدماه، حدث ذلك يوم كانوا يسبحون في القطّارة، فمن غير المعقول أن يصاهر الحاج الطّاهر مرزوق ويزوّجه ابنته التي يظنّ أنّها حوريّة فنوان وشمسها التي لا تغيب.

بصعوبة يغمغم مرزوق كلمات لا تبين من تحت لسانه الثّقيل، الذي بدا مشلولا كقطعة لحم ملقاة فوق خشبة تقطيع، يرمي قارورة جعة نصف ممتلئة كانت بيده على الصّخرة العملاقة فتتحطّم، تتناثر شظاياها عاليا في الهواء ثمّ تتهاوى لتنبسط في المكان، وتتلألأ قطع زجاجها المتكسّر أمام ناظريهما، كأنّ السّماء بنجومها وقعت على الأرض. يمطّ مرزوق شفتيه ويهدر كصاعقة مزمجرة:

- لن تمرّ اللّيلة على خير... سوف لن يكملوا عرسهم... سأفسد عليهم كلّ شيء... لن ينعم حسان الخائن برقيّة.

- مرزوق لقد شربت كثيرا وأنت ثمل في حالة سكر متقدّمة، علينا أن نذهب إلى البيت عندي، سوف يقتلك عمّي عبد القادر إن عدت إلى بيتكم على هذه الحال.

- لن أذهب إلى أيّ مكان حتى أنتقم، لست سكرانا، أنا صاحي... يجب أن يدفع الحاج الطّاهر الكلب ثمن تجاهله وعدم تقديره لي، أنا رجل... هل تفهم؟ أنا رجل... سوف يدفعون الثّمن...

مرّر ميمون يده تحت إبط مرزوق الذي خمد فجأة وكأنّه أخذ حقنة مهدّئة، وأسند ذراعه الخائرة إلى كتفه، وسارا باتجاه بيته الواقع في الطّرف الشّرقي من فنوان.

* * *

تختلط حناجر الصِّبية في الشّريعة، المدرسة القرآنيّة كما درج أهل منطقة سعيدة على تسميتها، وتمتزج أصواتهم حادّة ومرتفعة، تعلو تارة وتنخفض أخرى. كسرب نحل يتحلّق فتيةٌ متربّعين على حصير حول معلّمهم، قلمٌ من قصب في يد كلّ واحد منهم، وعن يمينه دواةٌ مدادها من فحم صوف الغنم المحترق والممزوج بالماء المغليّ، يحتضن لوحه الممحوّ وينتظر دوره، يستفتي سي عيسى الطّالب عن بقيّة آية من القرآن، ليُملي عليه تتمّتها. تمتلئ الألواح المسَوّدة بحبر الدّواة، ويعود الفتية إلى أماكنهم يذاكرون ما كتبوه من قرآن.

يمسك سي عيسى الطّالب سوطه، يطيله ليجلد ظهر كلّ من تقاعس أو تناعس عن الحفظ، تجذب الخفقةُ الواحدةُ منه الطّفلَ الملسوع بطرفه من سهوه، كدلو غطس في ماء بئر رفعه ذراع ساقٍ، يتألّم ويمدّ يده ليدخلها بين قميصه وظهره، يحكّ باكيا لهيبا حارقا التصق بجلده الرّقيق. يرتجّ الصّبية في أماكنهم وتتجانس حركات أصلابهم جيئة وذهابا مع نبرة تلاوتهم، كأنّما

ريح تعبث بأجسادهم الغضّة، فرقاً من أن يحدث بأحدهم ما حدث للطفل المجلود بسوط معلّمه، وهو غارق بينهم في نحيب لا ينتهي.
تنزوي الصّبايا في ركن إلى الخلف بعيدا عن الفتية الذين يحاصرون شيخهم ويحيط صفّهم الأول به كخاتم يخنق إصبعا، تتخاذل أصواتهنّ الرّقيقة، تهزمها خشونة حناجر الذّكور المفتعلة.
في الخارج تنتصب في الأرض على حائط الشّريعة الشّرقي ألواح مبلّلة تقابل أشعّة الشّمس السّاطعة، بماء وقطعة صلصال يمحو كلّ صبيّ لوحته، بعدما استذكر وحفظ ما حوته من قرآن أمام سي عيسى الطّالب، ينتظر حميد لوحة نورة حفيدة جيلالي هانُوي التي قاربت أن تجفّ، يرفعها عند الباب ويبرزها في وجوه التّلاميذ حتّى يتعرّف عليها صاحبُها، أو كما يتصنّعه، وهو الذي يحفظ تفاصيل شكل اللّوحة كما يهيم بتقاسيم وجه صاحبتها، التي تقف أمام أنفاسه اللّاهثة المنقطعة لتتلقّفها من بين يديه المرتعشتين، فتتيه عيناه في سحر جمالها الطّفولي الذي ينضح براءة وطهرا. يا لأطفال فنوان يهيم الواحد منهم، وهو لا يزال صغيرا بعد، بين الشّريعة والمدرسة ببناتها الصّبوحات، لكأنّ أهله يرسلونه إليهما ليتعلّم دروس العشق والغرام.
ينبعث صوت موحّد من نوافذ الشّريعة ويتسّرب في محيطها كأزيز سرب نحل، يصدمه زئير محرّكات سيّارات موكب المتطرّفين، فيولّي مكبوت الأنفاس إلى حناجر الأطفال الضّئيلة، تتقدّم المجاهدة الموكب، يقودها عاصم بجانبه كَرطوع، في الخلف يضيق المكان بخيداس وطراكَو وبوريق، تتألّم لوحات الفرامل إذ تُحكِم قبضتها على عجلات السّيارة الأربع، يدوّي صوتها الحاسم عند باب الشّريعة لدى خروج الصِّبية، ويرتفع منها دخان

أسود ساخن برائحة الاحتراق. لم يكد سي عيسى الطّالب يحكم غلق الباب، وتلاميذه الرّاكضون يتبعثرون متلاشين من حوله، مغادرين ومبتهجين بصحبة صياحهم وضجيجهم المبتعد، حتّى فاجأه عاصم بصوت مرتفع غير متوقّع في سكون فنوان الغامر:

- سي عيسى... أرى أنّكم لا تزالون في ضلالكم القديم.

- ماذا تقصد بكلامك يا سي عاصم، أنتم أم نحن؟ لقد هدمتم أضرحة أجدادنا في عين المانعة ونقبتم قبابها، طردتمونا بعد أن حرمتمونا من حقّنا في إقامة وعدتنا.

يقاطعه خيداس بينما ينزل من السّيارة بحركة استعراضيّة:

- الوعدة شرك بالله يا... يا... يا عيسى.

- اسمي سي عيسى يا مبروك يا ولدي، هل أنستك بدلتك الأفغانيّة أن تحترم من علّمك القرآن.

يتدخّل عاصم لإخماد جذوة صراع محتمل كانت على وشك النّشوب، أخذت تذكو خلف كلمات خيداس:

- اصبر يا أبا دجانة، هذا الكلام بيني وبين سي عيسى.

يلتفت عاصم إلى معلّم القرآن، وبصوته الذي يصرّ على أن يكون محتدّا على غير عادته في الحديث إلى القرويّين:

- ما فات فقد مات، ولا داعي لأن نثير جدالا حوله، وليكن في علمك، من الآن فصاعدا، ممنوع الاختلاط بين الجنسين داخل الشّريعة، هل هذا مفهوم؟

يمطّ سي عيسى حاجبيه مستفهما باستغراب شديد، فتتّسع عيناه الزّرقاوان وتبرزان من محجريهما، تعجّبا من التّعليمات المستجدّة:

- وأين نعلّم البنات إذا؟!

- لا شأن لنا، فليقرن في بيوتهنّ، أليست هذه أحكام القرآن الذي تلقنّه تلاميذك؟ كما يجب عليك أن تُبلّغ المصلّين في درس الجمعة المقبل أنّ عليهم إلزام نسائهم وبناتهم اللّباسَ الشّرعيّ، ولا يخرجن إلّا لأمر غاية في الضّرورة وهنّ منتقبات وفي منتهى الحشمة.

- لكن هذا غير معقول، نحن لم نتعوّد على طريقة العيش هذه، هذا يخالف أعرافنا وتقاليدنا.

- تقصد أساطيرك وتخاريفك البالية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأنا آمرك بتنفيذ حكم الله وسنّة نبيه.

- يا سي عاصم حتّى ولو كنّا مخطئين في أسلوب حياتنا، ومناقضين لصريح الدّين، هل من الدّين أن تكرهنا على أن نلبس ما لا نرغب به، وهل زيّ نسائنا يخالف الشّرع؟

- نعم. الحايك لا يجوز شرعا، وحتّى الجلابة تظهر مفاتن المرأة، اللّباس الشّرعي يجب أن يكون فضفاضا، هذا هو الدّين، ولا داعي لأن تناقشني بترهّاتك وجهلك لشرع الله، انتهى كلامي وبدأ تنفيذه من الآن.

راح عاصم يسرد على مسامع سي عيسى الطّالب قائمة من المحظورات، قال إنّه علّقها قبل قليل في أماكن عدّة من القرية؛ عند مدخل المسجد، وعلى حائط مركز البريد، وأمام دار البلديّة، أبلغه أنّه سيجمع شباب القرية ويحذّرهم من تجاوزها أو عصيان أوامره ونواهيه التي تتضمّنها. كانت

لائحة المحظورات تلك تنبّه على وجوب تجنّب السّرقة والزّنا وشرب الخمور أو ما يقع في حكمها من كحول أو غيره، وتعاطي الدّخان والشّمة والمخدّرات، والاستماع إلى الغناء والموسيقى، وأمام كل محظور توجد عقوبته المخصّصة له؛ عدد الجلدات بسوط خيداس الأسود، أو التّعزير بحلق الرّأس وإهانة صاحب الخطيئة في ملأ من النّاس، أو الرّجم في حال كان الزّاني مُحصنا.

يتّجه عاصم نحو سيّارته، يفتح الباب ثمّ ما يلبث أن يلتفت نحو سي عيسى، يرجع إليه بخطوتين، يضمّ شفتيه ويرجّ سبّابته اليمنى مستذكرا:

- أمم.. تذكّرت أمرا مهمّا، قبل توقّفنا سمعتك تقرأ القرآن جماعةً مع تلاميذك، وهذا أيضا غير جائز شرعا ولا يصحّ، من السّنة قراءة القرآن بشكل منفرد.

يهزّ عاصم سبّابته الآمرة نحو سي عيسى ويشير بها إليه وكأنه يتوعّده ويهدّده، ثمّ يركب المجاهدة وتغادر السّيّارات المكان.

* * *

10

أنهى لعرج الدّرّاز لتوّه حياكة بورابح لمنصوريّة زوجة الحاج بوخاتم، بعد أسبوع من العمل المتواصل والشّاق. قبيل أذان المغرب كان التّعب قد أنهكه ونال منه، أغلق باب المحلّ من الدّاخل بالمزلاج وعاد إلى بيته من الباب الذي يفصل بينه وبين محلّه، يلهو أبناؤه الصّغار في فناء المنزل، نظر إليهم بكثير من العطف والحنان، لم يستطع أن يظلّ واقفا دون أن يلمسهم، أقبل عليهم وهم مذهولون لنظراته المتلألئة والمليئة بالمودّة على غير عادته حين يغلق المحلّ بذلك الإرهاق، أمسك مخلوف أكبر أبنائه وقبّله فأتت ابنته عومرية تركض، وبعدما استبدّت بها الغيرة وأخذت منها كلّ مأخذ، ضحك لعرج واستلم ذراعيها في الوقت الذي راحت تعاتبه بكلام غير مفهوم، حاول إرضاءها بأن أبعد مخلوف عنه واعدا إيّاها بمعاقبته، ومتوعّدا إياه بضرب مبرح بعد أن غمزه وعضّ على شفته السّفلى خلسة عنها، ضمّها إلى صدره واشتمّ رأسها وقبّل جبينها ومسح بيده على شعرها الأسود النّاعم المنسدل على كتفين رقيقين.

يرتفع صوت الأذان فينادي لعرج زوجته رحمة التي فهمت ما يريده، أحضرت له إناء الوضوء، توضّأ في الفناء وصلّى المغرب في الصّالة واستلقى على ظهره ليرتاح من تعبه الذي كان يسحق عظامه بشدّة، كان الجوّ يزداد برودة والرّيح تعصف في الخارج، وأصواتها تصدر صفيرا من نوافذ البيت، كأنّها أشباح تعلن فرحها بحلول الظّلام، دخلت رحمة على زوجها المرهق كان قد غطّ في نومه، تكمّش وانقبض جسده فأسرعت إلى الفراش

المصفوف فوق منضدة في ركن من أركان الصّالة، وجلبت بطانيّة فردتها على جسده النّحيف الذي يشبه هيكلا عظميّا يرتدي خرقة من جلد، فجأة وهي تطفئ الضّوء وتحكم إغلاق باب الصّالة عليه حتى لا يزعجه ضجيج أبنائه، سمعت قرعا مفزعا على باب المنزل ورجلا يصرخ بشدّة وينادي على زوجها:

- لعرج... لعرج...

أطلّت رحمة من ثقب الباب الملتحم بوسط البوّابة الحديديّة، كان كلبهم ينبح بشدّة، وكان نور عمود الإضاءة العموميّة المحاذي للبوّابة في الخارج ساطعا بالقدر الذي أتاح لها مشاهدة خمسة مسلّحين، لم تتعرّف منهم سوى على بوريق، رجعت فزعة إلى لعرج، أيقظته وأخبرته بما رأت وسمعت، نهض فزعا واتّجه إلى الحائط الذي يفصل بين بيته وبيت جاره محمود، تسلّقه وألقى بنفسه في الحوش.

كانت زينب في المطبخ تحضّر العشاء، هرعت إلى الحوش لمّا سمعت دويّ أرجل تسقط على الأرض، لم يمنعها ليل فنوان الذي ازداد حلكة في حوش البقّال غير المضاء من أن تتعرّف على صوت جارها لعرج المألوف، على الرّغم من كونها المرة الأولى التي يقف فيها أمامها ويخاطبها، استغاث بها:

- يا بنت عبد الله درقيني، بوريق باغي يقتلني.

لم يكن لعرج ليدرك أنّ بوريق كان قد لمحه حين تسوّر الحائط، فقد تسلّق قبله جدار فناء منزله الخارجيّ ودفع باب الدّار ولحق به، ولم تكد زينب توجّه لعرج نحو عليّة توجد بين القرميد وسقف حمّام البيت حتّى فاجأهم

بوريق بارتمائه داخل الحوش، أمسك لعرج من ذراعه وبدأ يجرّه كحَمَلٍ وديع، احتمله مع رفاقه في السّيارة وساروا به إلى شِعب بالقرب من مقبرة سيدي مبارك. استلّ طراگو من غمد جلد ماعز بنّيّ تنسدل من فوهته خيوط جلديّة، خنجرا بمقبض خشبيّ أسطوانيّ كان قد اشتراه من صانع خناجر متجوّل قدم من المسيلة إلى فنوان، ذاك الذي كان واقفا على رأسه مع گرطوع حينما كان يشحذه قبل عامين، أمسك طراگو برأس لعرج المستلقي على شقّه الأيمن بعدما وجّهه ناحية الشّرق، وأهوى على جلد رقبته خنجرَه الذي حرص دوما على أن تكون شفرته مسنونة وحادّة، انفجرت أوداج لعرج كينابيع فوّارة، وتدافعت سيول دمائه الحارّة في جوف الأرض.

بات كلب لعرج الذي تبع سيّارة المتطرّفين حين أخذوه في المساء، جاثيا عند جثّته يحرسها طوال اللّيل، خرجت الذّئاب والثّعالب والضّباع من أوكارها وجحورها، كان يطلق حينما يشعر بقدومها نحوه نباحا تهديديّا يرعب به الوحوش فتبتعد فزعة.

مع انسدال ستار اللّيل وانبلاج الصّبح، كان القرويّون قد تمكّنوا من اكتشاف مكان جثّة لعرج، وجدوها ممدّدة بالقرب من نباتات الحلفاء المتكاثرة في المكان، الرّأس مسنودة إلى صخرة ويبرز جرح عميق، عريض ومستطيل من رقبته البيضاء والرّقيقة، أطرافه متصلّبة وقاسية كأنّها من خشب، أزاح الحاج النّاصر مخلوف الذي استلقى على جسد والده وأخذ يقبّل وجهه ويبكي وينتحب، كان ينادي عليه ويحرّك رأسه، لعلّه يفيق من موته ويعود إليهم، شعر مخلوف وكأنّه يعتلي أنقاض بيت مهدّم، فالجدار

الذي كان يستند إليه قد انهار إلى الأبد، مخلّفا له عبئا ثقيلا سيحمله على ظهره الواهن ما حيي.

* * *

تضطرّ جماعة المتطرّفين بعدما كثّف عناصر أمن الجيش تردّدهم على القرية في النّهار، إلى أن تضبط اقتحامها الفظّ مع اكتحال شمس المغيب بظلام اللّيل الحالك، كي لا تثير انتباه أحد، يحرص عناصرها على تجنّب كمائن الأمن العسكريّ المباغتة ويتفادون مواجهتهم أو الاشتباك معهم، غير أن نباح الكلاب عند كل دخول لهم إلى القرية قوّض هذه الخطّة، وأصبح يعمل كصفّارات إنذار صاخبة، فلم يعد تحوّطهم المفضوح يجدي نفعا.

أصبح لزاما على عاصم أن يتخلّص من هذه الأصوات الكاشفة، وليس أمر التخلّص من كلاب عاوية بالعمل الشّاقّ الذي يتطلّب مجهودا كبيرا، فهو يندرج ضمن أبجديّات مهنة القتل التي أصبح القوم يتقنونها ويتطوّرون في أدائها يوما بعد يوم.

مع بزوغ فجر يوم الخميس، حين كان أغلب القرويّين في الطريق إلى سوق المواشي بمولاي العربي، بدأ عاصم حملته الممنهجة لاصطياد الكلاب، بداية من أعلى القرية على مشارف مدخلها الجنوبيّ إلى شمالها، ومن غربها إلى شرقها، مسح فنوان ومشّط أزقّتها طولا وعرضا، لم يشفق عناصر جماعته حتّى على جراء صغيرة لكلبة سالم كانت قد ولدتها قبل أسبوعين، بل حتّى إنّ بوريق حينما رأى قطّا يختبئ داخل عجلة جرّار كبيرة مستعملة، كانت ملقاةً بجانب بوّابة منزل سالم، لم يفلته من الطّلقة الأولى، فقد صار قنّاصا محترفا، ارتفعت ضحكاته الممتزجة بصوت الرّصاص لتبلغ آذان رابحة، كانت

تختلس النّظر وتسترق السّمع عند نافذة المطبخ المشرف على فناء البيت، رغم أنّها لم تتمكّن من رؤية أيّ شيء، إلّا ما كان من مرور بوريق من أمام البوّابة المفتوحة، يحمل سلاحه على كتفه مزهوّا ومنتشيا برميته السّديدة التي خنقت أنفاس القطّ، شعر بقيمة نفسه وهو يثبت لرفاقه عدم صحّة النّظريّة المتواترة التي تزعم بأنّ القطط بسبعة أرواح.

مع عودة المتسوّقين كان الرّفاق قد أنهوا القسط الأكبر من عمليّة الكلاب المقتنَصة، ذُهل سالم لمرأى كلابه الممدّدة فوق دمائها المتجمّدة، كاد ينهار حينما شاهد كلبه الطّاروس البنّيّ الأبتر يلفظ أنفاسه، يعوي كذئب في نزعه الأخير، إنّه أغلى ما يملك من كلاب، كلبٌ فطن بذكاء حادّ ووقّاد ووفاء منقطع النّظير، خصوصا أثناء جولاته في الصّيد والقنص، لم يسبق أن أهانه أحد من قبل في كلابه، وأمام بوريق انتفض وانتفخت أوداجه واحمرّ وجهه وعلا صراخه كأمّ أمام قتلة صغارها، لم يستطع بوريق أن يردّ على غضب سالم، وكأنّ حسّه المرهف ثار من جديد من بين ركام حياته العبثيّة، متفهّما استياء سالم وسخطه، شريطٌ خاطف مرّ من أمام مخيّلة بوريق جعله يستعيد ذكرياته الجميلة مع كلبه السّلوقيّ الرّمادي الأرقط والأبتر، حينها كان لا يزال فتًى يافعا يمارس الصّيد بالمقلاع، كان يصطحبه معه في مغامراته المدهشة. استلّ لسانه الحادّ الذي لم تفارقه فتاوى عاصم في تبرير قتله لكلاب الفنوانيّين، وردّ على سالم بصوت يشي باقتناعه بها:

- وجود الكلاب في البيت حرام شرعا يا سالم، فهي تجلب الشّياطين وتطرد الملائكة من البيوت.

- وما شأنك أنت بذلك يا بوريق؟! فلتدخل الملائكة إلى الصّالة ولترافق الكلاب الشّياطين إلى المطبخ، وليختر كلّ واحد في أيّ مكان يجلس، ولتذهبوا أنتم إلى الجحيم، أمّا أن يخلقهم الله لتقتلهم أنت فهذا هو غير المعقول.

لم يتجرّأ بوريق على تصعيد الموقف فانسحب بأقلّ الخسائر، يعرف جيّدا صلف سالم وعناده، وقد جرّبه قبل ذلك لمرّات عديدة أثبتتها عِشرة سنوات في أزقّة فنوان، قد يخسر سالم روحه في مقابل أن يكسب كرامته وهيبته، هما أغلى من جميع أملاكه، هكذا فكّر بوريق متظاهرا بعدم المبالاة بسخط سالم، وفي حقيقة الأمر كان قد كظم حنقا ابتلعه بمرارة إلى آخر قطرة كدّرت صفاءه الباطنيّ، أشاح عنه سريعا لئلاّ يكتشف تغيّر ملامح وجهه الذي بدأ غيظه ينتشر فوقه كبُثور محتقنة، عضّ على شفته العليا ثمّ السّفلى وزفر زفرة خافتة ارتجّت لها أحشاؤه.

يتوثّب بوريق على مقعده في السّيّارة كالصّريع طوال الطّريق، يكابد مرارة تجرّؤ سالم على نهره وتقريعه له، ويتحسّر على تكبّل لسانه وكيف له أن صمت ولم يردّ عليه بما يستحقّ، كاد أن يقضم أسفل سبّابته التي كانت على شفتيه بينما كان غارقا في تفكير عميق بالحادثة، على مشارف العطاطرة لمح قبّة مولاي عبد القادر، طلب من عاصم التّوقّف، انسحب من مقعده كثعبان زاحف تنتفخ رقبته ويهتزّ لسانه، فتح باب صندوق السّيّارة، سحب قارورة غاز معدّة للتّفجير، وضعها داخل القبّة وربط مفجّرا يلتصق بفوهتها بحبل طويل، أمسكه بيده التي أخرجها من نافذة السّيّارة، لم يلبث عاصم أن أزاح دوّاسة الفاصل ودعس على دوّاسة الوقود مغادرا المكان، حتّى

انفجرت القارورة بعدما انشدّ الحبل وانسحب المفجّر، تحوّلت القبّة إلى أنقاض وركام من الحجارة تعلوه سحابة غبار كثيف. كان سالم لحظتها مقرفصا أمام مِعلفٍ يريد أن ينشر بيده علف تسمين لخرافه، بعدما أفرغه فيه، وقع الانفجار على سمعه كمطرقة كادت تهشّم دماغه، وقف مذعورا يدعو باللّطف والسّتر.

* * *

ينتظر مرزوق قبيل مغيب الشّمس عند منبع مياه مرورَ حاصدتين لمحهما في الأفق بينما كان يستطلع فوق تلّة ما قد تجلبه الطّريق نحوه، رآهما قادمتين ببطء سلحفاتين من جهة عين زدّيم، في يوم صيفيّ حارّ يترقّبه فلاحو القرية بقلب أحرّ من شمسه الحارقة ليباشروا جني محاصيلهم.

منذ أن وضع مرزوق قبل خمسة أشهر رأسه بين صدغيه وهزّها ليطرد صداعا خفيفا على فراشه في بيت صديقه ميمون صبيحة زواج حسان ورقيّة، غادر الفرح طرفي فمه العابس والمتكمّش، التحق بمعسكر المتطرّفين في منزل حارس الغابة، لم تجذبه الغابة هذه المرّة ليتخلّص من بطء الوقت كما حدث معه حينما كان يستعجل عودة أمّه بخبر مفرح، بل كان هو من ذهب إليها برجليه ملقيا عليها أحزانه الغائرة، حتّى يصفّي حساباته المتراكمة مع من اغتالوا بهجة قلبه، يبدو أنّ مفعول كلام أخته رابحة السّاحر والقاتل للأحزان كان قد انتهى ليلة باتت رقيّة في فراش حسان.

أصبح الآن بشكل معدّل ومختلف عمّا كان عليه في السّابق، تتدلّى لحية كثيفة السّواد لتغطّي صفحة رقبته البيضاء، وتتلوّى فوق رأسه المستدير عمامة صفراء مزركشة كأنّها أفعى رقطاء تلتف حول فريستها لتخنقها

وتكّسر عظامها، وتسقط على كتفيه ضفيرتان قصيرتان، أحالتاه إلى ناسك يتبتّل في جبل البرّاح ويتلو زبرا من حقده الدّفين دون انقطاع.

لم يلتفت مرزوق الذي كان برفقة ثلاثة مسلّحين لتوسّلات سائقي الحاصدتين، وتركهما يشاهدان في غيظ مرير ألسنة اللّهب التي راحت تحاصرهما من كلّ جانب وتتراقص كالأشباح على صفيحهما، تسدّ الأدخنة السّوداء المنسابة من لهبٍ يلتهم بنهم عجلات الحاصدتين الأفق، وتنبعث منها رائحة خانقة، صار المكان معها أشبه بحقل نفط.

أخبر مرزوق السّائقين أنّ عليهما أن يحمدا الله على بقائهما حيّين، ثمّ طردهما من المكان وهدّدهما بمعاملة أشدّ قسوة إن هما عادا إلى المنطقة ثانية.

مع حلول الظّلام تمايل سنابل القمح الذّهبيّة الممتلئة لأدنى نسمة، وتتراقص مع أخفت همسة ريح محدثة حفيفا خفيفا. يدسّ ثعلبٌ فرو ذيله بين فخذيه ويتسلّل متخفيّا، ينساب بين أمواج السّنابل المتمايلة، مبتعدا عن متربّصين محتملين يترقّبون قدومه الذي سيفضحه ذيله إن انتصب في أيّ لحظة قد تكون متوقّعة، وعند بئر الحاج الطّاهر يجتمع مرزوق بعد أن قضى على الحاصدتين وأرداهما كومة من الصّفيح المتفحّم، إلى رفاقه المسلّحين بجانبه، يحمل كلّ واحد منهم مشعلا في يده، يسود بينهم صمت جاثم وتطغى الإيحاءات والإيماءات على حوارهم الكيديّ والمتآمر.

تتبع غنم الحاج الطّاهر مسارات من السّنابل المتساقطة خلّفتها الحاصدة التي تربض على أرضه، كان مرزوق يهمّ بتحويلها هي الأخرى إلى خردة. يحفّز صوت النّعاج المتطرّفينَ على حبك خطّتهم الجنونيّة، وهي تقضم بأفواه جامحة لا تملّ ما ألقته الحاصدة من سنابل متساقطة وتبن مهترئ، انبثّوا

متفرّقين على أطراف غابات القمح الزّاهية بسنابلها المتراصّة وقمحها الممعن في نضجه، كانت تنتظر دورها للحصاد، اخترقها ثلاثة منهم بعدما انتشروا في أرجائها بخفّة أشباح، أضرم كلّ واحد منهم النّار بمشعله في المكان المحدّد له والمتّفق عليه.

توجّه مرزوق وحمزة نحو عكّاشة الرّاعي، كان يهمّ بالمغادرة، لم يكن بعيدا عن مكان تجمّعهم، ضربةٌ في أسفل قدميه من مرزوق، كانت أشبه بحشّة منجل، جعلته يفارق الأرض ويحلّق مرتفعا ليسقط على ظهره، لم يكد يستجمع عضلاته المتخاذلة للوقوف مجدّدا حتى باغته الرّجلان وأحكما قبضتيهما على ذراعيه المنهارتين ورجليه الرّخوتين والذّابلتين، شُلّت حركته تماما وفي النّهاية صار الحبل كفيلا بأن يشيع السّكون في أطراف جسده الهزيل، جاهد مستجمعا أنفاسه الواهنة ليصرخ غير أنّ الكمّامة التي وضعها مرزوق على فمه كتمت صوته ولم تتح له مرور سوى القليل من الهواء، وغرق الصّغير في لهاث مسعور كادت معه عيناه المنفجرتان أن تنفلتا من محجريهما.

تنتشر النّيران في الحقول وتضيء ليل فنوان الدّامس لتحيله إلى نهار فاضح، يقف عناصر مفرزة الجيش الذين استقرّوا بالمتوسّطة قبل أشهر يشاهدون من ثكنتهم الجديدة ما يدور في الحقول، يتجمّع القرويّون بين الباطيمات والباربار في الجهة الغربيّة المشرفة على حقلي الحاج الطّاهر وسالم، يراقبون النّيران وهي تلتهم المحاصيل، ويرمقون بهدوء مرزوق ورفاقه يتراقصون كالأشباح خلفها، بلحاهم الطّويلة وضفائرهم المجدولة وشعورهم الشّعثاء وأزيائهم الأفغانيّة.

سقط الحاج الطّاهر فجأة وسط جمع من القرويّين على الأرض جاثيا على ركبتيه ويديه، تحرقه لوعة الأسى، يتوسّل بعينيه الممتلئتين دموعا تدخّلا مباغتا ومرتقبا للعساكر، كانت لديهم تعليمات صارمة بألا يغادروا مفرزتهم في مثل هذه الحالات الاستفزازيّة، خشية حدوث ما هو أسوأ أو ما لا تحمد عقباه، ظلّ الحاج الطّاهر يستغيث ويردّد كلاما غير مفهوم، لم يسمع سالم الذي كان إلى جانبه رابط الجأش رغم ضياع محصوله هو الآخر، فقد اختفى بين دخان ورماد، سوى غمغمة تتردّد في حنجرته التي كانت تضطرب داخل رقبته كخذروف، بدا له يتفوّه بكلمات بالكاد يفهمها، أصاخ لها، كما لو أنّه يقول: "مرزوق الكلب... لقد قضيت عليّ"، ثمّ أطلق حشرجة تبعتها شهقات مختنقة، وانطلق في نحيب متواصل لا ينتهي عندما ظهرت غنمه على الطّريق في الأفق المضاء بنيران الحقول، يسوقها مرزوق وجماعته ناحية الجبل مبتعدين بها، صرخ الحاج الطّاهر: "يا لكارثتي... لقد انتهى كلّ شيء، ضاع تعب عمري".

غصّ حلق سالم وازدادت مرارته حينما واصلت ألسنة اللّهب مسارها إلى طرف أرضه، وكأنّها تتتبّع تخومها بإمعان لتحرق آخر سعفة من سنابلها الملتهبة، من حسن حظّه أن راعيه مختار عاد باكرا بالغنم في هذا اليوم بعدما ألمّت به وعكة مفاجئة.

يستحثّ مرزوق الغنم على السّير في مضمار لم تألفه، تلتفت النّعاج خلفها محاولة الرّجوع إذ تحنّ إلى خرافها التي تركتها في الصّباح، علا صياحها واشتد عنادها وحزنها، توقّفت رغم جهودهم في إرغامها على التّقدّم وضربهم لها بحراب أسلحتهم وأعقابها، أفرغ مرزوق ما تبقى من خزّان

رشاشه في بطون ثلاث نعاج كانت بالقرب منه في مقدّمة القطيع، فتمدّدت صريعة فوق دمائها، وكما ذئب مسعور طعن جعفر خمس نعاج في رقابها فتفجرت أوداجها وانهمرت دماؤها من أعناقها وبطونها، تابعه البقيّة في فعله، هرب قسم من الغنم، حاول المسلّحون توفير رصاصهم خشية من أن يعرف العساكر مكانهم فيتعقّبوهم، وبغية الاحتفاظ بالذّخيرة لمواقف أكثر صعوبة، تمكّنوا بعد عناء شديد من اختطاف نصف الغنم، ومات قسم كبير منها طعنا وبرشقات رشّاش مرزوق، ولم تعد إلى زريبة الحاج الطّاهر غير ستّ نعاج جسورات أفلتت من قبضتهم المحكمة.

تضامن القرويّون مع الحاج الطّاهر، كان سالم أوّلهم رغم ما أصاب محصوله، منحه أفضل ثلاث نعاج في قطيعه وأكثر فحوله خصوبة، كان ذلك في نظره نوعا من الامتنان إلى الله على نجاة قطيعه، وحتّى أبخل أهل القرية لم يتخلّف عن مراسيم المواساة وطقوس التّضامن التي عمّت فنوان.

تجمّع في زريبة الحاج الطّاهر أكثر من خمسين رأسا، كانت عزاءً وسلوى خفّفت كثيرا من شدّة مأساته بعد فقده لأكثر من مائة وخمسين شاة من أجود سلالات الغنم في المنطقة بأسرها، كانت جميعها تنجب توائم لمرّتين في السّنة، قلّما تخالف ذلك.

لم يتمكّن موفّق من ترويم حملان غنمهم التي فقدوها، مع النّعاج التي واساهم بها القرويّون، كان ثغاؤها يشتدّ ساعة اختطف مرزوق أمّهاتها. دأب موفّق على شراء الحليب المجفّف من عند البيطريّ ليرضع به الخراف الصّغيرة، قدّم له محمود البقّال بعض المصّاصات التي كانت في بقالته، ألصقها بقارورات بلاستيكيّة فتحوّلت إلى قنّينات للإرضاع، لا تصبر

الخراف على موفّق وإخوته الأصغر منه حين يأتون بها ممتلئة بالحليب المحضّر إلى الزّريبة، يرتفع ثغاؤها وتزدحم عندهم. يلتقم خروف مصّاصة قنّينة يحملها أصغر أبناء الحاج الطّاهر، يحرّك ذنَبه بسرعة ويمصّ الحليب بنهم، يحنو عليه الطّفل الصّغير ويحمله من بطنه فوق ساعديه الضّئيلين، بعد أن أكمل قنّينته ويضعه في حظيرة الخراف الصّغيرة داخل زريبة الغنم.

لم تمض ليلة واحدة عن الفاجعة التي حلّت بالحاج الطّاهر، حتّى نهض كالمجنون يغزو الأسواق المجاورة، يقتفي طرقا ودروبا قد تكون نعاجه المختطفة سلكتها نحو زبائن محتملين لسارقيها المتطرّفين، يمشّط السّوق ويمسحها بعينيه الفاحصتين الممتلئتين حقدا على مرزوق، وبعد أن جاب أسواق الجهة كلّها لم يعثر على أذن واحدة قد تدله على مرور نعاجه بها.

* * *

أنهى مسعود عشاءه في بيتهم بفنوان في الوقت الذي دخلت عليه أمّه بصينيّة القهوة، جاء من العاصمة خصّيصا لمواساة سالم لمّا سمع من موسى بوزيد بأمر محصوله الذي أحاله أخوه مرزوق إلى رماد، اتّصل به بعد أن قرأ الخبر قبل نشره في مكتب جمال، كان الهاتف في بيت سالم لا يعمل منذ أن قطع المتطرّفون خطوطه، كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى عزل القرية عن المصالح العسكريّة والأمنيّة. أحسّ مسعود بخجل شديد من سالم، لم يراع مرزوق حتّى شعور أخته رابحة، اندهش من هذا التّحول الغريب الذي طرأ على أخيه الذي لم يُلق بالا لأحد، لقد صار بمشاعر قاسية ومتوحّشة، ردّ سالم على تأسّف مسعود بأن قال له أنّه لا يد له في الأمر، فلِم عليه الاعتذار من شيء لم يبدر منه، وحتّى مرزوق لم يكن

يتعمّد حرق محصوله هو، وإنّما كان يستهدف قمح الحاج الطّاهر، والجميع يعلم بذلك.

لم يكن مسعود يدري بأنّ مرزوق قد اقتحم البيت خلسة، حتّى تفاجأ بوقوفه في الصّالة أمامه كعفريت هاجِم، ينظر في وجهه المذهول مليّا كأنّما يغرس مخالب عينيه فيه، يمطّ شفتيه ويعضّهما ويقول له مستهترا:

- أتيت في غير موعدك يا حضرة الصّحفيّ.

- ما هذا الأسلوب الفظّ الذي تكلِّم به أخاك الكبير، أهذا ما علّمه إيّاك أميرك عاصم.

- لست أخي حتّى تترك هذه المهنة القذرة، ثمّ إنّ ثلاث سنوات بين مولدينا ليست بالشّأن الكبير الذي يتطلّب منّي أن أسبغ عليك احترام المذلّة الذي تريده، لقد اختلف الأمر الآن ونحن من يصدر الأوامر، وأنتم تنفّذون وتطيعون وتحترمون.

- يبدو أنّك تحظى بمكانة كبيرة في دولتكم الجديدة، وأنّنا أصبحنا مجبرين على أن نكون شعبا لسلطتكم الحاكمة دون أن ندري ولا حتّى أن نقرّر.

جنّ جنون مرزوق من استهزاء مسعود بكلامه وقد بدا من تعابير وجهه غير مقتنع بما يقوله له، تنبّه إلى كون أخيه الأكبر منه لا تخفى عنه بأيّ حال مبرّرات التحاقه بالمتطرّفين في الجبل، وأنّه يبالغ كثيرا بمسألة القناعة التي يغطّي بها على انضمامه لجماعة عاصم، حاول أن يطمس ما يعرفه مسعود عنه ويُتفّه ظنونه به باستعراضه لقوّته أمامه ولمكانته الجديدة المستمدّة من أوامر الله ونواهيه، زعم أنّه وجماعته وحدهم من يملك السّلطة الشّرعيّة من عند الله، وأنّهم سيحكّمون شرعه في النّاس، بدأ يهدّد

ويتوعّد، حذّره من عصيانهم وأنّ عليه أن يلتزم بالأوامر، ويستقيل من حرفة الصّحافة المليئة بالأكاذيب وتزييف الحقائق، قال له أنّه قرأ ما يكتبه هو بالذّات عنهم، لقد شعر بالإهانة والعار بين رفاقه كونه أخاه، فهو يصرّ دوما على أن يصفهم بالإرهابيّين، وأنّهم يفتخرون بذلك، رغم المحاولات الفاشلة لتدنيسهم بهذا الوصف، فهم إنّما يطبّقون كلام الله حينما يأمرهم بأن يرهبوا عدوّه وعدوّهم.

تعجّب مسعود من التّغيّر الجذريّ الذي طرأ على تفكير أخيه، ومتى كان الشّعب عدوّه حتّى يرهبَه هو وجماعتهُ؟! ذكّره بأنّهم يقتلون الأبرياء ويزهقون أرواحهم، ماذا جنوا حتى يلقوا مصيرا بشعا أجبروهم على التّوقّف عنده؟ هل أمر الله بذلك؟ واجهه بما فعله مع الحيوانات المسالمة التي لم تسلم هي الأخرى من إيذائه:

- ماذا فعل لك الحاج الطّاهر لتسرق غنمه وتقتل قسما منها، وتحرق محاصيل الفنوانيّين المساكين، هل هذه هي تعاليم الإسلام؟!

أجابه مرزوق ببرودة دم جامد، قال أنّهم يستحقون كلّ ما يجري لهم، وأنّ ذلك بسبب تعاونهم مع الحكومة ضدّهم، فهم يرشدون العساكر ويخبرونهم عن تحرّكاتهم، مثلما فعل مختار راعي سالم، الذي أفلت من بين أيديهم، ذكر له والشّرر يتطاير من عينيه كيف أنّ سالم يزوّدهم بالمياه بجرّاره، ويساعدهم على نقل أغراضهم بشاحنته، قال له أنّه هو الآخر يستحقّ كلّ ما حلّ بمحصوله.

- وماذا تريده أن يفعل، أن يعصي أوامر سلطة الجيش ليتعرّض للعقاب والمتابعة القضائيّة في ظلّ هذه الظّروف الاستثنائيّة، التي تجبره على أن ينحاز للدّولة ضدّ من يخرّب أمنها ويهدّد استقرارها وسلامة مواطنيها؟!

- نحن الدّولة وهم اغتصبوا السّلطة منّا.

ذهل مسعود لما سمع من أخيه، انتابه شعور ممتزج ومتناقض في آن، منعته الصّدمة من الضّحك، مرزوق... هذا الجاهل الواقف أمامي! ومتى كان منهم حتّى يدّعي أنّ الدّولة اغتصبت السّلطة منه؟! هل كان في يوم من الأيّام مع الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ؟! يقول لي هذا وكأنّني لا أعرفه، يريد أن يوهمني بأنّه صاحب قضيّة عادلة، وهو في حقيقة الأمر ما صعد الجبل إلاّ من أجل الانتقام من الحاج الطّاهر، هذا الحقد الذي أعمى قلبه وطمس على عقله وبصيرته من أجل امرأة. فتح مسعود ذراعيه وصفّق بيديه بقوّة وحوقل، طلب من مرزوق أن يبيّن له ما جناه من صنيعه مع الحاج الطّاهر:

- وها قد حرقت محصوله وسرقت غنمه، هل شفيت من حرقتك؟

انتفخ وجه مرزوق غضبا، بعدما حقنت كلمات مسعود أوداجه بدماء كانت تتوثّب في جبهته كقرون الشّياطين، ركل بأخمص قدمه طاولة الطّعام أمامه في الأسفل فأحدثت جلجلة عظيمة وصل صداها إلى المطبخ، أسرعت فاطمة واخترقت خلوة ولديها على وقع تهديد مرزوق لأخيه بالقتل وقد علا صراخه، حالت بينهما مادّة ذراعيها ويديها أمامه كشرطيّ مرور يعترض سيّارات ليمنع مسيرها، واصل مرزوق تهديده غير آبه لتدخّل أمّه التي أمرته بأن يترك أخاه وشأنه، أجابها بلامبالاة:

- لن أتركه حتّى أذيقه مرارات الدّنيا كلّها... أمّا أنتَ فإن لم تترك مهنة التّملّق للطّغاة والتّحريض علينا فسأذبحك بيديّ هاتين.
أمسكت فاطمة بياقتي جاكيت مرزوق، هزّته متسائلة باستنكار، بدا في اتساع عينيها اللّتين كادتا أن تقفزا من محجريهما:
- تريد أن تقتل أخاك!... وأنا حيّة أرزق؟
- نعم سأقتله، لأنّه خائن وعميل للطّواغيت، ولا يستحق الحياة، ولن نتركه حتى يتخلّى عن الكتابة في الصّحف.
- وماذا تريد منه أن يعمل؟! هاه... الله يفتح أمامه أبواب الرّزق لتغلقها أنت في وجهه، هل جننت؟! وهل تعب هو وشقي سنينه الطّوال من أجل أن يتعلّم، وكابد المتاعب حتى يظفر بمنصبه من أجل أن توقفه أنت؟!
تجاهل مرزوق كلام والدته، مبتعدا برأسه عنها قليلا إذ كانت تحول بينه وبين رؤية مسعود الذي ظلّ جالسا في مكانه، ثمّ رفع صوته متوعّدا إيّاه:
- سوف أحتزّ عنقك كشاة أيّها الخائن عميل الطّاغوت.
حرّكت فاطمة ذراعها اليمنى إلى الخلف ورمت بكلّ قوّتها يدَها على وجه ابنها، فتورّم خدّه واحمرّ وصرخت في وجهه المهان:
- أغرب عن وجهي يا عدوّ بطني، عد إلى بحرك النّتن.

* * *

11

ترتفع على تلّة صغيرة في طرف فنوان الشّرقيّ مزرعة جورج گاريگ، المعمّر الفرنسيّ الذي استوطن جدُّه مارسيل ووالده برنار المنطقة قبل ثلاث وخمسين سنة على استقلال الجزائر، مع مرور الزّمن استبدلت فنوان اسمها بلقب هذه العائلة الوافدة لمدّة بدت لها أنّها لن تنتهي أبدا، كانت أرضها العذراء الممتدّة قبل غزوهم لها خاليةً من الإسمنت والخرسانة، وتعبق بتراب الأرض المحتضن لكلّ نبتة فيها، منطقةٌ مترامية من الجبال والغابات تتوسّطها على مدّ البصر أراضٍ زراعيّة خصيبة، اغتصبها المعمّر گاريگ الجدّ بمباركة من إدارة المحتلّ الفرنسيّ، قبلها كان مجرّد صعلوك خسر أمواله في القمار وأدّى به انفعاله الغاضب إلى قتل خصمه في إحدى جلساته المسكرة، حاول أن يهرب من سخريّة الأقران ومن جريمته البشعة التي لازمته كظلّه وظَلّ متخفيّا من الشّرطة بسببها، فوجد نفسه في الجزائر، تلك الأراضي الشّاسعة ما وراء المتوسّط، يبحث عن مجد ضائع كان أشبه بالمغامرة، تماما كمقامراته الانتحاريّة.

مع إعلان الاستقلال غادر الحفيد مارسيل گاريگ ابن جورج فنوان رفقة عمّه ستاني، الذي كان يحتلّ بمزرعته التي تحمل اسمه الطّرف الغربيّ من القرية، عندما بات البقاء مستحيلا في بلد بات يحكمه أبناؤه من الجزائريّين الأصليّين المستقلّين عن فرنسا الاستعماريّة، صحيح أنّهما جزائريّان هما أيضا، ولا يعرفان موطنا غير الجزائر التي ولدا بها وترعرعا فيها، وعلى الرغم من كون مارسيل من أبناء الجيل الثّالث من المعمّرين، وحتّى اتفاقيّات

إيفيان بين الثّوار والإدارة الاستعماريّة كانت تتيح له مع عمّه البقاء والاحتفاظ بممتلكاتهما، غير أنّ هواجس انتقام السّلطة الثّورية والأهالي، سكان الجزائر كما درجت الإدارة الاستعماريّة على وصفهم، من معمريْن كانت تراودهما وتجعلهما يزهدان في أراضٍ خصبة تمتدّ على مساحة أربعة آلاف هكتار، خوفا من مصير غامض على مزرعتين تختلجان تحت ماضي مزرعة جورج، التي أحرقها الثّوار المجاهدون بعدما قَتلوا جورج گاريگ سنة 1957، تحوّلت المزرعة بعد هجومهم ذاك إلى ثكنة تنطلق منها أرتال العساكر الفرنسيّين لمطاردة المجاهدين وتعقّبهم ومحاصرتهم داخل الغابات الجبليّة المجاورة، ولاقتياد المقبوض عليهم إلى أحد مستودعاتها الذي جهّزه الجيش الفرنسيّ بأحدث معدّات التّعذيب والاستنطاق وقتها.

يقبع في قمّة التّلّة منزل بطابق، مشرف على القرية كقلعة تحرس مستودعات وإسطبلاتٍ، تنحدر من جانبيه لتلتفّ أسفل التلّة حول فناء مربّع، تطلّ عليه أبوابها ونوافذها لتعطيه ملمح الحلبة.

يغفو جيلالي هانُوي وقت القيلولة في غرفة تسكنها أشباح عائلة جورج، عشرُ دقائق قبل الظّهر تكفيه ليستجمع عظامه التي يكون قد ضعضعها التّعب والإرهاق، وليستعيد نشاطه الذي فقده طيلة نصف نهار منذ استيقاظه قبيل الفجر، من عادته أن يقضيه متنقّلا بين مستودعاته ومزرعته، أو في جولاته بين فنوان وسعيدة، وفي الأيّام التي تصادف سوق المواشي من عادته أن ينهض من فراشه أبكر من ذلك.

في السّتّين من عمره، أقلّ أو أكثر بقليل، وبعنفوان مجنّد الجيش الفرنسيّ في حرب فيتنام التي وصمه المجاهدون باسم عاصمتها، دون أن تترك هذه

الكنية الغريبة استياءً لديه، على العكس؛ يشعر معها باعتزاز عريض كلّما نودي بها، لطالما تحدّث جيلالي عن حكاياته في "هانُوي" (Hanoï) للثوار الجزائريين بعد عودته منها، فقد سلبت لبّه بأجوائها الثّوريّة والطّبيعة الخلّابة المحيطة بها، وقلبه بحبّ زوجته الفيتناميّة "هوونغ" التي أحضرها معه وأنجبت له خمسة أبناء، صاروا هم بدورهم يُلقّبون بأولاد الشّنويّة (الصّينيّة)، تزوّج بها بعد أن فرّ من معسكر الجيش المحتلّ والتحق بصفوف اتّحاد استقلال فيتنام، "الفييت مينه"، وأبلى بلاء حسنا في "ديان بيان فو"، ألهمته الثّورة الفيتنامية التّمرّد على فرنسا في الجزائر، فعاد إليها متخفيّا من تونس أين كان مختبئا، مع إطلاق أوّل رصاصة في الأوراس ليُلقي بنفسه في أتون حرب استمرّت لأكثر من سبع سنوات، رافقته "هوونغ" في معاركها دون كلل، فقد آمنت بقضيّته مثلما آمن هو أيضا بقضيّتها، وقد كان إيمانه وهروبه من الفرنسيّين مهرها الذي اشترطته حتّى توافق على خطبته.

يحمل هانُوي جراب الرّاعي وعصاه، يتوغّل ببقراته الممتلئة ضروعها حليبا وسط مرعاه الخصيب؛ من أطيب ما تدرّه أبقار فنوان من حليب، يرّدد الفنوانيّون كثيرا على ألسنتهم أمر النّكهة الفريدة في زبدة بقراته العجيبات، يحاولون جاهدين استدرار سرّ هذا الأمر المحيّر من فم جيلالي، فيردّ بجواب بسيط ومقتضب: "أنتم كسالى ومتّكلون، هذا كلّ ما في الأمر". يبدو جوابه مقنعا لسامعه، طالما أنّ بقراته ترعى في فنوان غير بعيد عن مراعي أبقار بقيّة الفلّاحين، يرفض هانُوي اقتراح أبنائه الملحّ باستخدام راعٍ للبقرات، إذا كان هناك من سرّ فإنّ مكوثه مع بقراته طيلة أمسية إلى

ما بعد العِشاء من كلّ يوم يصنع الفارق والذّوق الاستثنائيّ معا، يؤكّد كبار القرويّين ممّن يعرفونه جيّدا، مستحضرين طبعه العنيد والصّارم، حتّى مع الصّبيان من أبناء أقربائه حين يراهم يلهون بالكرة، يهجم خلسة على كرتهم ويرميها فوق الأسطح بعيدا عنهم، أو ربّما سحب خنجره "بوطلعة" من جيب سترته ليشقّها نصفين، أمّا عن أحفاده فلا مجال لأحدهم أن يخالف تعاليمه الصّارمة وعسكريّة مزاجه، وإن حدث وأن رأى مخالفة لأوامره فإنّ صاحبها سينال عقابا شديدا، يدخل رفض جيلالي هانوي للعب أحفاده ضمن عقليّته في إلزامهم بضرورة التّفاني في الاستفادة من الوقت، وعدم هدره في أشياء تبدو له من دون جدوى ترجى أو حتّى فائدة تذكر، كما أنّ اللّعب بالكرة يؤدّي في الغالب إلى تمزّق الأحذية والملابس، جرّاء ركلها والحركات الهوجاء التي يضطرّ إلى القيام بها من يمارسها لخطف الكرة من خصمه، والتّوتر الذي يحدث بين اللّاعبين، قد ينتهي إلى عراك وإصابات، وهو ما يعتبره هانوي عدم محافظة على الصّحة والمال معا.

بحسّ المجاهدين الأوائل ممّن فجّروا ثورة التّحرير واهتمامهم يسارع الخطى، يلفّ بسيارته المغطّاة أزقّة فنوان، يقصد أماكن اجتماع القرويّين وتجمّعهم؛ عند المسجد بعد الصّلاة، خلف الحمّام، بالقرب من بقالة محمود، أمام مركز البريد، في مقهى جلّول، تجمّعات يغلب عليها أحاديث حول أحداث متسلسلة وقعت قبل يومين؛ مقتل قرويّ اتهمه ڤرطوع بالسّرقة، طارده مع طراڤو وخيداس، فآوى إلى نادر من حزم التّبن، فلمّا تفطّن لوجوده بداخله أشعل النّار فيه فاحترق الرّجل في وسطه، أمام مركز البريد سمع هانوي رجلا يهمس إلى جلسائه بحادثة تعزير بوريق لثلاثة غرباء كانوا

يمرّون بالقرية في شاحنة اكتشف أنّهم يحملون معهم صناديق خمر، جماعة عند الحمّام تحدّث عن ذلك الشّابّ الذي أجبره خيداس على ابتلاع علبة شمّة، وعشرة سجائر كانت في علبتها بعدما فتّشه واستخرجها من جيبه.
عرف كلّ من رأى هانوي من الفنوانيّين يجوب تجمّعاتهم أنّه بصدد دعوة بعض وجهاء القرية وأكابرها على العشاء، كان يتوقّف بسيّارته بالقرب من المجلس وينادي على من يريد دعوته فيخبره بذلك، وهو قريب منه ومتكّئ على نافذة سيّارته، تفاديا للإحراج.
في بيت هانوي المضياف تبدأ نقاشات بين أعيان فنوان حول الأحداث الأخيرة، الكلّ يبدي أسفه وخوفه من مصير مجهول. تدور الأحاديث حول الوضع الرّاهن الذي فرضه المسلّحون عليهم، تحدّث الحاج غياث عن مقتل لعرج الدّراز، وكيف أنّ المتطرّفين داسوا على كرامتهم وقتلوا كلابهم، وعن تدخّلهم في حياتهم وشؤونهم الخاصّة، أخبرهم بشيء من التّهكم المرّ الذي بدا على شفتيه المضطربتين وخدّيه الذين ظهرا وكأنّهما يبتسمان بتكلّف، بأنّ قريتهم التي كانت وادعة يعمّها الأمن والسّلام، بات سكّان سعيدة والمدن المجاورة بعد سيطرة عاصم وجماعته يطلقون عليها اسم "فنوانستان"، صارت فيما آلت إليه من تطرّف تضاهي أفغانستان التي تدور في جبالها وشوارع مدنها وقراها رحى حرب طاحنة بين شاه مسعود وحكمتيار وربّاني، لقد أصبح ذلك الشِّعب الذي يفصل فنوان عن الغابة "وادي بانشير" لعاصم، أضحى يحاكي بثيابه الأفغانيّة هيئة شاه مسعود ومشيته، وصارت الجبال المحيطة بفنوانستان تبدو له كجبال سليمان الأفغانيّة تماما.

قال الحاجّ الطّاهر أنّ على القرويّين أن يثبتوا انحيازهم المطلق للدّولة وللجيش حتّى يضعا ثقتهم الكاملة فيهم، ذكّرهم بوقوف أغلب سكّان القرية في الانتخابات الأخيرة في صفّ الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، واحتضانهم لعاصم وجماعته، وكيف أنّهم صاروا يبيعون لهم ويتقاضون عندهم ويدعونهم إلى الأكل في بيوتهم، وافقه جيلالي هانوي فيما ذهب إليه، قال إنّ السّلطات المحليّة وضبّاط القطاع العملياتي يشكّون في ولاء القرويّين للدّولة ويعتقدون أنّهم يسندون الجماعات المسلّحة ويدعمونها بالمال والطّعام، ويمدّونها بالمعلومات حول تنقّل عناصر الجيش ومواقع كمائنهم وأماكن تواجدهم.

يُدخل الحاج بوخاتم يده تحت عمامته، يحكّ جلدة رأسه التي حلقها له إبراهيم بن هانوي في الصّباح أمام بيته، مستخدما ماكينة الحلاقة، أحالت رأسه إلى كرة ملساء، يتنحنح ثمّ يصدح، منهيا صمتا وجيزا ساد بعد كلام الحاج الطّاهر وجيلالي هانوي كان قد وضع القرويّين تحت أصابع الاتّهام:

- يا الحاج جيلالي، لقد أصبحنا كفئران في مصيدة، عاصم وجماعته سيفنوننا إن بقينا صامتين هكذا، ومهما تفادينا استفزازاتهم فإنّهم قد يحقدون علينا لسبب أو من دونه، مثلما حدث مع بلال المغدور، لقد قتلوه في الأسبوع الماضي وهو يرعى بقراته وأنت تعرف من هو بلال، إنّه ليّن العريكة ينقاد لك كنعجة من نعاجك، لا يجلب مضرّة لأحد، ولا يعنيه شأن جماعة عاصم ولا يذكرهم بشرّ، قد يأتي الدّور علينا نحن كذلك أو على قطعاننا وحقولنا كما حدث مع الحاج الطّاهر، المسكين تبخّرت ثروته الطّائلة في رمشة عين.

- لقد سبقتني في الكلام، فهذا هو السّبب الذي دفعني لجمعكم اللّيلة عندي، علينا أن نجد حلّا جذريّا لهذه المصيبة التي حلّت بنا...

يقاطع الحاج عمر هانوي، مصرّحا له بالمكانة المرموقة التي يتمّع بها:

- أنت رجل معروف عند السّلطات المحليّة وحتى في العاصمة، إذا لم تجد لنا حلّا لهذه الورطة فمن ذا لها غيرك؟

حاول جيلالي هانوي بعدما فهم ما يرمي إليه الحاج عمر مولاي بكلامه، أن يضع ضيوفه في الصّورة التي يراها، ذكّرهم أنّ البلاد كلّها تكتوي بنار الأزمة الأمنيّة، ليست فنوان وحدها من تعاني، قال لهم أنّ إمكانيّات الجيش من العساكر والأسلحة مهما عظمت فإنّها تبقى محدودة جدّا، وهؤلاء الخنازير ينتشرون في أطراف البلد من شرقه إلى غربه، طلب منهم ألا يعتقدوا أنّه بقي يتفرّج طوال هذا الوقت ولم يتحرّك لفعل شيء، فلقد أخبره أحد أصدقائه وهو قياديّ في الجيش أنّهم يدرسون إرسال الإمدادات العسكريّة حسب الأولويّات، وما ينبغي عليهم أن يضعوه في الحسبان هو أنّ هناك مناطق تعيش ظروفا أصعب من ظروف فنوان، وسينشئ الجيش مفرزات وحاميات بها، فقط عليهم بالصّبر لبعض الوقت، فقد أكدّ له صديقه الضّابط أنّ الإمدادات العسكريّة ستصلهم حتما...

يقاطعه الحاج غياث مولاي، ممتعضا من نصيحته الثّقيلة:

- نصبر! إلى متى نصبر يا الحاج جيلالي؟! ندع هؤلاء الأوباش يقتنصوننا كالأرانب ويفنوننا عن بكرة أبينا!

- يا الحاج غياث، لا تستعجل الأمور، كلّ مشكلة إلاّ ولها حل، صحيح أنّ الأوضاع صعبة، لكنّها ليست بأصعب ممّا عانيناه في زمن الثّورة على

المستعمر، لقد قاومنا بالمناجل والسّكاكين، وبنادق الصّيد الصّدئة، ومن كان يمتلك رشّاش "ماط 49" الفرنسيّ كان مبجّلا بين الثّوار.
ردّ عليه هانوي، محاولا وضعه أمام أمر واقع لا يمكن التّعامل معه من دون رويّة وتأنّي.
تدخّل الحاج بوخاتم مستغربا طرح هانوي:
- تريدنا يا سي جيلالي أن نحاربهم بالمناجل؟!
- أنا لم أقل ذلك يا الحاج بوخاتم، علينا أن نثق في الله سبحانه وتعالى، المهمّ أن تكون لدينا عزيمة لمقاومة الإرهابيّين، والأمور الأخرى ستكون أسهل بكثير.
يرتعد وركا الحاج غياث المتربّعين تحت صلبه المتأرجح سخطا على المتطرّفين، ويطلق تحسّرا مريرا على الوضع:
- ابناي يوسف ومبارك يتوثّبان ككلاب مقيّدة، وبسبب انعدام السّلاح في أيديهما سرعان ما يهمدان كذئب ألقمته حجرا.
يحفّز كلام الحاج غياث أخاه الحاج عمر على تعضيد طرحه:
- وأبنائي كرّوم وقادة وعزّوز يحلفون لي كلّ يوم، بعد مقتل جارنا بلال وحرق محصولنا أن ينتقموا منهم.
يتنهّد هانوي مستبقا طرحه الحاسم، فقد بات من الواجب عليه أن يعرضه على القوم، بعدما ساد الصّالة غموض حيّر ضيوفه المستائين من كلامه:
- يا جماعة الخير، أولا ينبغي أن ننظّم أنفسنا لحماية أرواحنا وأرزاقنا، يجب ألا يرعى أحد منّا قطيعه ومواشيه منفردا ومنعزلا عن البقيّة فيكون صيدا سهلا لهم، ابتداء من الغد فإنّ الرّعي سيكون جماعات جماعات، علينا أن

ننشئ حول القرية وفي مناطق مرتفعة ومناسبة نحدّدها من أطرافها ومداخلها نقاطَ مراقبة حتّى لا يباغتنا الإرهابيّون منها على حين غرّة.
يؤيّده الحاج بوخاتم في اقتراحه دون أن يخفي تحفّظه من جدواه:
- رأي سديد يا الحاج جيلالي، لكن بدون توّفر أسلحة ستكون المأموريّة صعبة جدّا.
يوافق أغلب الحاضرين الحاج بوخاتم في رأيه، وترتفع أصواتهم بالثّناء عليه والتّصديق لكلامه، فيحاول هانوي أن يمتصّ صخبهم. راح يستدرجهم بنكتة من نكته المضحكة، عرف الضّيوف بأنّه سيقصّ عليهم شيئا منها، من ابتسامته المميّزة التي من عادته أن تسبق دعاباته، فاشرأبّت الأعناق مصغية إلى كلامه:
- تصرّ على السّلاح يا الحاج بوخاتم، تذكّرني بالمرحوم الرّئيس هواري بومدين عندما كان في زيارة للاتحاد السّوفياتي، ظلّ صامتا ومكتئبا طوال مرافقته لبريجينيف وهما يتجوّلان في شوارع موسكو، وما إن بدأ العرض العسكريّ ومرّت أمامهما الصّواريخ والدّبابات حتّى طفق موصطاش رحمة الله عليه يبتسم، واستعادت تقاسيم وجهه نضارتها وبهجتها.
يعمّ الضّحك المكان، يُصلح جيلالي هانُوي هيئته ويُعدّل جلسته ثمّ يستأنف كلامه:
- شوفوا يا جماعة الخير، هذا الأمر يجب أن يظلّ سرّا بيننا، تمكّنت من تدبير بعض الأسلحة، الأمر لم يكن سهلا بالمرّة، لقد ساعدني صديقي وهو ضابط سامٍ في الجيش على ذلك، وقد تعهّد كتابيّا أمام رئيسه على المحافظة عليها، وسنستلمها بداية من الأسبوع المقبل من ثكنة القطاع العسكريّ بعد

إمضاء تعهّد استلام، يجب أن نكون حريصين على عدم وقوع أيّة قطعة منها في أيدي الإرهابيّين، ستكون كارثة حقيقّية لو حدث ذلك، لقد أخبرني صديقي أنّ قيادة الجيش متخوّفة من هذه النّقطة بالذّات، وهناك تحفّظ كبير من قبل العديد من قادة الجيش في رئاسة الأركان من مسألة توزيع السّلاح على المتضرّرين.

* * *

يختلس گرطوع خطاه كذئب على ضفاف وادي سرباو خافضا ظهره المنحني، تكاد ركبتاه تلامسان الأرض، يتبعه طراگو، ويقف خيداس في الخلف مسندا كتفه إلى شجرة صنوبر يراقب أعيناً محتملة قد تتبع مسارهم. كانت نسائم ريح باردة قد حملت إليهم قهقهات خليعة ومتهتّكة لأشخاص يتسامرون حول نار تنير المكان بلهبها، ويطقطق حطبها مرسلا شرارات تتلاشى فوقها ودخاناً يمتدّ بأعمدته إلى السّماء.

يجتمع رجلان وامرأتان حول طعام مشكّل من دجاج مشويّ ومخلّلات وجبن وزيتون وكاشير، وزجاجات خمر أحمر تستنزفها كأسان تدوران بين كل عشيقين، لدى وقوف گرطوع وطراگو على مرتفع يشاهدان من فوقه شلّة العشّاق يتسامرون بعفوية ولا مبالاة.

خلف أشجار صنوبر انتحى كلّ زوج بعيدا عن الآخر، بحثًا عن خباء من سكّيت أو عريش من شجيرات متقاربة تبعدهم عن مصابيح السّيارات على الطّريق فوقهم، وتتيح لهم عازلا يحجز عنهم لفح الرّيح الباردة، مضى العشّاق في خلع ملابسهم استباقا لمضاجعة في غابة سرباو، كان گرطوع قد استبق نزع أحد الرّجلين لشورته، بعدما رمى برجليه سروالَه المكوّم تحت

قدميه ساحبا إيّاهما منه بصعوبة، وبأخمص سلاحه لطم رأسَه حتى خرّ صريعا بينه وبين عشيقته في لباسها الدّاخلي الشّفاف، يدُها على فمها مفزوعة منه.

لم يتمكّن العشيقان الآخران من إغاثة صاحبيهما ونجدتهما حتّى برز لهما طراگو من بين أشجار الصّنوبر كالشّبح، كانت ضربة بعصاه القلبوزة على رأس الرّجل كافية لتخمد أنفاسه، وتجعل زبدا كرغوة الصّابون يخرج من فمه الفاغر. أخذ الصّديقان المتحمّسان لسهرة طال انتظارها مكان الرّجلين المجندلين، نزع كلّ واحد منهما ثيابه أمام المرأة التي وجدها قبالته ترتعد فرائصها خوفا مما ينتظرها، وقد نسي جِلدُها الحاسر بردَ المكان ولم يعبأ به، لم تجدا بدّا من الاستجابة لنزوة مستعجلة لمتطرّفين يعيشان في غابة تخلو من أنثى الإنسان، وأكمل الصّديقان ما كان العشيقان الصّريعان يودّان بدأه مع عشيقتيهما، كان انقضاضهما كوحشين على جسديهما الغضّين الطّريّين متنفّسا لكبتٍ استمر أشهرا، لم يكن الحبّ في مثل هذا الظّرف العبثيّ ليشغل قلبي الأنثيين اللّتين تملّكهما خوف مريع من أن يلاقيا مصير عشيقيهما، إن هما أحجمتا عن تلبية رغبة الملتحيين.

بعد الهياج المتوحّش الذي خمد مع انقضاء اللّذة اللّاهثة، ربط گرطوع وطراگو الرّجلين الحاسرين إلى جذع شجرة صنوبر ضخمة، لم يكد فجر ذلك اليوم القارص يمرّ حتى تجمّدت جثتاهما أمام ناظري راع كان يمرّ بقطيعه بالقرب من المكان، عاين بقايا طعامهما جيّدا، وراح يقلّبها بعصاه مفتّشا عن زجاجات خمر، ينبغي لها أن توجد بين فضلات الأكل تلك، في غابة تواتر

العشّاق على السّهر بين أشجارها، كأنّما يفلي شعره بحثا عن قملة تنهش جلدة رأسه الحريصة على جرعة مشروب مدوّخ، دونما أن يعثر لها على أثر.

كان ڨرطوع وطراڨو يستمتعان بطعم الخمر الأحمر المفتقد منذ أمد بعيد، إذ يسحبان بحبلٍ جاريتيهما المسبيّتين المقيّدتين نحو السّيارة المركونة بالقرب من بيت مهجور، غير بعيد عن ملهى سهرة العشّاق الغابيّ، متفاديين طريق خيداس الذي بحث عنهما مطوّلا، فلمّا استيأس رجع إلى السّيّارة، وجدهما في انتظاره، استغرب الأمر ولم يشأ أن يدخل في جدال مع ڨرطوع حول التّغيّر المفاجئ الذي طرأ على خطّتهم.

وصل الثّلاثة إلى وكرهم بالسّبيّتين اللّتين غنموهما في غزوة سرباو، كان عاصم جالسا على صخرة مصفّحة عند مستنقع صغير، بدا خيداس شاكّا في معاملتهما للمرأتين المنهكتين، ومن رائحة فاهيهما الطّافحة خمرا أحمر، غير أنّه لم يردِ الوشاية بهما عند عاصم، لم يشأ أن يثير عداوة مع ڨرطوع، كان يخشى من أن يكون قد لمحه بينما كان يستخرج رزما من النّقود التي أخذها من بعض أصحاب القطعان دون علم من عاصم، بعد أن ابتزّهم وافتكّها منهم غصبا، وخبّأها مؤقتا عند شجرة الصّنوبر التي كان يتّكئ عليها، تاركا صديقيه يذهبان بدونه لاستكشاف مصدر الضّوء والدّخان في وسط غابة سرباو، كانت فرصة سانحة له لكي يضع رزم النّقود في ثنايا ملابسه، حتّى ينقلها في الغد إلى حفرته المركزية بغابة بوعتروس، لا يريد لأحد أن يعرف مقدار المبلغ الهامّ الذي يخبّئه بداخلها هناك.

اضطرّ ڭرطوع وطراڭو أن ينصرفا سريعا ويبتعدا عن عاصم بعدما استأذناه، حتّى لا يشمّ رائحتهما من مسافة قريبة، أشاحا بيديهما مومئين بحاجتهما للنّوم.

كان عشقهما المقدّس للخمر سببا وجيها في إطلاق الفنوانيّين عليهما كنيتيهما الغريبتين اللّتين لازمتاهما طوال حياتهما، فكان أغلبهم يجهل اسميهما الحقيقيّين، قد لا يعرف سكّان فنوان أصلا لكلمة "ڭرطوع" التي تقال في المناطق المجاورة، غير أنّهم يطابقون معناها مع مقصودها المتقارب في تلك البلاد -دون أن يشعروا بذلك- والذي يشير عندهم إلى الشَّربة الطّويلة التي تنتهي مع انقطاع نفَس الشّارب، وهكذا كان دأب سنوسي دليمي، لا يروي غليله من أصناف الخمر العديدة التي لا يصبر عنها، حتّى تنقطع أنفاسه وهو يكرع الخمر من الزّجاجة كمضخّة، أمّا صديقه هوّاري صفي الدّين فلم يكن ليدرك أنّ كلمة "طْراڭُو" التي التصقت به إسبانيّة، غير أنّه لم يكن يجهل معناها المستخدم في مناطق مجاورة والذي يدلّ على "الجرعة"، فقد كان يكتفي بالجرعات التي يشحذها شحذا من المقتدرين على شراء الخمر، بالقدر الذي يوصله جمع عدد منها إلى الانتشاء، ويجعله يحتفظ بحالة من الاسترخاء النّفسيّ.

* * *

تزدحم قارورات بلاستيكيّة فارغة في مطبخ رابحة، وتكتظّ مصطفّة في انتظار فراغ صبيّة من بنات الجيران من مخض الحليب الرّائب، لم تعد رابحة تحلب سوى بقرة واحدة فقد غرزت بقرةٌ وباع سالم أخرى مع العجول الثّلاثة ليشتري قطيعا من النّعاج، أسنّ قسم كبير من غنمه، وقدّر

أنّ عليه أن يبثّ الحيويّة فيها بإدخاله لنعاج جديدة أقلّ سنّا وأقدر على الإنتاج، كما أنّ سوق البقر كانت مدرّة ورائجة وسعر الأبقار كان مرتفعا، ولن يجد فرصة مماثلة ليحصل على مبلغ مجز، يعوّضه عما أنفقه من مصاريف على العلف طوال أشهر الشّتاء الباردة، التهمت خلالها بقراته الثّلاث جزءا ليس باليسير ممّا اشتراه من شعير ونخالة وتبن، بعدما أفسد مرزوق جميع حساباته.
لم يكن من بدّ على رابحة من أن تُنقص من حصص الجميع من اللّبن حتّى تكفي شَكوتهُ، كانت هذه الوضعيّة الصّعبة والضّاغطة من التّقشّف وازدياد عدد المحتاجين للّبن، والتي أجبرت سالم على تلبية حاجتهم له، كفيلةً بأن تجعله وزوجتهُ رابحة ينسيان ميمونة ولا يتفقّدان أحوالها، بل حتّى إنّ بعض فقراء القرية كانوا يستوقفونه ويطلبون منه حاجيات أخرى كالطّحين والحنطة أو دشيشة الشّعير، وتدريجيّا قلّت مواساته لها، وقد مضى عليها أكثر من شهر لم يصلها شيء من بيت سالم، إلّا ما كان يضعه أخوها موسى في يدها عند زيارته لها، والذي قلّت هو الآخر مواساته لأخته، منذ أن بدأت جماعة عاصم تنحو إلى استخدام العنف مع زوّار فنوان، فكان موسى لا يحبذ الالتقاء بهم، وكانت النّقود التي يمنحها لها مع قلّتها، لا تكاد تكفي لسدّ حاجيات أسبوع واحد، كما أنّ الحصّة التي اعتاد سالم أن يخصّصها لها ولابنيها، من الأرض التي تركها الحاج بن عثمان لأبنائه، من الموسم الماضي لم تكفها سوى لبضعة أشهر، فقد ذهب نصف المحصول أدراج الدّخان ولم يسلم منه إلّا جزء يسير حصده سالم قبل أن يحرق مرزوق الحاصدة، وكاد سالم أن يفقد الأمل لولا حصّته من محصول القمح الذي

جناه من أرض والدته الحاجّة ثامرة في عين المانعة، والذي منح ميمونة منه نصيبا، على قلّته، ومع بداية الرّبيع لم يتبقّ بيد ميمونة دينار واحد.

لم يكن من حقّ ابنيها اللّذين كانا صغيرين وقت توزيع تركة الحاج بن عثمان الحصول على نصيب منها، فقد توفّي زوجها بلقاسم قبل ذلك بثلاث سنوات، وبعد وفاة الحاجّة ثامرة وأحمد قلّ العاطفون عليهم، كان سالم يجعل لها ولابنيها ربع نصيبه ممّا تنتجه حصّته في الأرض التي ورثها عن أبيه، أمّا حمواها الحاج غياث والحاج عمر فهما قليلا المساعدة لها لكثرة التزاماتهما مع أسرتيهما كثيرتي العدد، خصوصا بعد أن تزوّج بعض أبنائهما الذين ليس لهم من عمل سوى معهما، في أشغالهما الزراعيّة في فلاحة الأرض ورعي القطعان.

تأبى ميمونة أن تظهر لسالم وزوجته رابحة بمظهر المحتاج، محافِظةً على عزّة نفسها، تحرص على أن تعلّم ابنيها هذا التّرفّع والتّعفف وتوصي رشيد كلّما أراد أن يذهب لبيت عمّه سالم للّعب مع حميد ألا يبدي حاجته لشيء، ترفض حتّى وهي في حاجة للطّعام أن ترسل ابنتها حليمة عند رابحة لإحضار بعض اللّبن، مخافة أن تضطرّها ولو من دون قصد أو سوء نيّة إلى القيام ببعض شؤونها المنزليّة، تعتبر ذلك إهانة لها فتقطع كلّ طريق مؤدّية إليها.

اضطرت ميمونة لأن تطوف ببعض بيوت فنوان من ميسوري الحال خفيةً عن سالم وأخيها موسى، لتعرض مهاراتها في القيام ببعض الأشغال المنزليّة كَفتْل الكسكس ونخل الطّحين، كانت هذه الأعمال تستمرّ ليوم بأكمله، من طلوع الفجر إلى مغيب الشّمس، بكل تعبه ومشاقّه، لقاء ما تجود به

عليها نسوة فنوان من الدّقيق والكسكس والبيض واللّبن والحليب وبعض الزّبدة.

أُرغمت ميمونة مكرهةً على أشغال السّخرة في بيوتات نساء فنوان بعدما سُدّت أمامها الأبواب، تعرّضت خلالها ولمرّات عديدة لتحرّش بعض أزواجهنّ، فقد عرض عليها أحدهم خلسة مضاجعتها لقاء بعض المال، كانت صدمة قويّة تلقّتها لم تتوقّعها ولم تكن لتستوعبها، لم تكن لتتخيّل أنّ فنوان الوادعة المحافظة تخفي خلف وجهها الطّهور البريء كلّ ذلك الفجور وتلك الدّناءة، ارتجّت في مخيّلتها صورة العفّة والشّرف التي كانت تعهدها عمّن واعدها وهي تنشر الكسكس في حوشه خلسة عن زوجته، أو معمّر حشمان الذي استوقفها عند قدومها إلى بيته مع الفجر، وعرض عليها أن تكون زوجته الرّابعة، فلم يعجبها أسلوبه الفظّ الخارج عن العرف والتّقاليد في بيئة فنوان التي تقدّس حرمة المرأة، وتفرض على الرّاغب في الزّواج من امرأة أن يفاتح أقاربها الرّجال في الموضوع، كانت تشعر حتّى وهو يعرض عليها الزّواج أنّها مجرد متعة جنسيّة يريدها لإشباع غريزته البهيميّة، ولن تكون سوى قطعة جديدة سيلحقها بأسطوله النّسويّ الممتع.

طفح بها الكيل وما عادت لتشتغل في البيوت من جديد، بعدما تحوّلت الهمسات والتّصاريح إلى أفعال، حينما مدّ احميدة الباندي يده وقرصها من خصرها ومرّرها على إليتيها وطلب منها ممارسة الجنس معه، بألفاظ بذيئة زادت من شعورها بالانحطاط، أحسّت بدمار نفسيّ رهيب، لم تشأ أن ترفع صوتها وتدخل معه في شجار دفاعا عن نفسها وشرفها، حتّى تتفادى كلام النّاس وكتمت الأمر، مكتفية بلطمه على وجهه والهروب منه.

سعت لأن تشتغل في بيتها، في نسج الزّرابي والفرّاشيّات وحياكة اللّحوف والمخايد، غير أنّ الطّلب عليها كان شحيحاً جدّا، لقد عضّها الجوع بأضراسه الشّرهة ليالي عدّة لم تحفل فيها بطعم الخبز، تألّمت كثيرا لحال ابنيها إذ ينامان على جوعهما ويصحوان عليه، ولا تجد ما تفعله لأجلهما سوى أن تصبِّرهما. أحيانا كان رشيد يتعمّد البقاء عند حميد إلى العصر حتّى يسدّ رمقه، ويدسّ خلسة عنه بعض الخبز بالزّبدة مع العشويّة تحت قميصه، ليوصله لأخته وأمّه التي فقدت نصف وزنها.

* * *

III

صاحبة الجلالة والمتاعب

12

يحمل مسعود أوراقا في يده، يسارع الخطى داخل رواق تصطفّ فيه يمينا وشمالا أبوابٌ أغلبها مفتوح، تقبع خلفها مكاتب أقسام صحيفة السّبق المستقلّة التي انضمّ إليها بدوام كامل قبل أشهر، بعدما قدّم استقالته من جريدة الشّعب. يدقّ على باب في نهاية الرّواق، يسمع صوتا يأذن له بالدّخول، يرفع رأسه لينظر إلى اللافتة فوق الباب: مكتب مدير التّحرير، جمال قاسمي، تنتهي إليه جميع المقالات قبل نشرها. عند الباب وقبل دخول المكتب، تستحوذ سكرتيرته على مكتب ضئيل تعلوه آلة راقنة لا تكفّ عن العويل طوال الوقت، على يمينها تتراصّ رسائل البريد الصّادر والوارد ومقالات تنتظر تأشيرة مدير التّحرير قبل أن تمرّ إلى النّشر، يقترب مسعود من جمال ويمدّ يده مصافحا، يطلب منه الجلوس:

- تفضّل سي مسعود، ماذا لديك اليوم؟

يضع مسعود أوراقه على المنضدة الملاصقة للمكتب، والتي تفصل بينه وبين جمال قاسمي الذي قام من كرسيّ مكتبه وجلس مقابلا له، أوضح له مسعود الأمر وقد جثم الأسى على وجهه:

- مقال صحفيّ حول حادث تفجير مستغانم.

كان مسعود قد عاد لتوّه من ولاية مستغانم، التي شهدت إحدى بلديّاتها تفجيرا داخل مقبرة الشّهداء، أخبر جمال أنّه رأى المآتم في كلّ شارع وبيت، النّواح والعويل لا يزالان يرجّان بلديّة سيدي علي الوادعة، كاد

البحر أن يبتلعها، بعد أن زرع الإرهابيّون قنبلة بالقرب من سارية العلم داخل مقبرة كانت تحتضن احتفاءً بمناسبة عيد الثّورة.
في مقبرة المدينة حُفرت قبور بطول نصف رجل، الموقف كان مفجعا حينما وُضعت توابيت تحمل أشلاء أشبال الكشّافة الأربعة لدفنهم، كانوا في غفلة عن وجود القنبلة بالقرب منهم، منشغلين بمراسيم رفع العلم، قبل التّفجير بلحظات كان الأطفال مبتهجين كزهور نديّة، لكن يبدو أنّهم ذبلوا قبل أن يتفتّحوا حتّى.
خيّم حزن عميق مشوب بالأسى فوق رؤوس المصلّين، بعد التأبينيّة التقى مسعود بأحد أصدقائه، يقطن بمستغانم، كان حاضرا لتغطية حدث إحياء الكشّافة لذكرى الثّورة التّحريريّة، أخبره أنّه ساعة رفع العلم في مقبرة الشّهداء كان في الخلف، سمع دويّا هائلا، كان مفعول القنبلة شديدا، كلّ شيء تطاير في الهواء كما ريش مخدّة، وحول مركز التّفجير انتشرت أشلاء الأطفال القتلى وقادتهم الكشفيّين، وتساقط الجرحى الذين سيحمل كثير منهم عاهات مستديمة لما تبقّى من أعمارهم الحزينة. كلّ من التقى بهم مسعود ممّن حظر الحادث قال له أنّه شعر بأنّ الأرض زلزلت زلزالها، وأنّ يوم القيامة قد أذن بانتهاء الحياة، مساكين أولئك الأطفال كانوا يحتفلون بذكرى التّحرير ويترحّمون على شهداء الثّورة، فإذا بالإرهاب الأعمى يسحق أجسادهم الغضّة ويختطف أرواحهم الطّاهرة ويخنق حرّيّتهم الجنينيّة، صمت مسعود بعدما دفن وجهه بين يديه.
- لا أدري إلى أين يقودنا هذا الجنون المسعور، لقد أفرغ المتطرّفون جام حقدهم على أطفال أبرياء في ذكرى يوم تحرير وطن يعبثون هم بأمنه.

ردّ جمال على مسعود بحزن ممتزج بكآبة خنقت عنقه، فأرخى ربطتها القابضة عليها كحبل مشنقة، قام من كرسيّه بمشقّة، قطّب حاجبيه ومطّ شفتيه ووضع يديه على مكتبه، خافضا رأسه المثقلة كأنّما يحاول أن يتخلّص من تعب يكبّل مفاصل جسده، أمسك بعلبة السّجائر على المكتب وأخرج منها سيجارة، أشعلها ونفث منها نفسا، ثمّ انفجر صارخا:

- اللّعنة... البلاد تحترق والأطفال صاروا يحملون أوزار الكبار، ونحن لا نستطيع فعل أيّ شيء لحمايتهم من هذا الجحيم المستعر، تبًّا للسّياسة وللدّيمقراطيّة التي أوصلتنا إلى هذه الحال البائسة، كنّا نظن أنّنا قد تخلّصنا من الاستبداد إلى غير رجعة، فإذا بنا ندخل هذه الدّوّامة الدّمويّة، التي تأبى أن تتوقّف وتلّح على الاستمرار في عصفها وزمجرتها كإعصار حارق لا يبقي ولا يذر.

- لقد بدأ المتطرّفون استراتيجيّة جديدة، فبعد أن كانت عمليّاتهم تقتصر على رجال الجيش والأمن، توسّعت لتشمل المدنيّين فلن يوفّروا معها أحدا بعد اليوم، حتّى الأطفال قُتل منهم أعداد كبيرة ببرودة دم، هدفهم بات معلنا الآن، إنّهم يريدون نشر الهلع بين النّاس، رسالتهم من وراء هذا الحادث إلى الشّعب: إمّا أن تكون معنا وإلّا كنت أنت هدفنا الموالي.

- هذه أساليب الإرهاب يا مسعود، الأوضاع ستتعقّد وستأخذ منحى خطيرا بعد اليوم، الجيش سيشدّد قبضته الأمنيّة وسيضرب معاقل المتطرّفين بكلّ ما أوتي من قوّة وسيصعّد من عمليّاته، وسندخل حلقة مفرغة، كلّ يوم على تفجيرات واغتيالات تليها حملات عسكريّة في الغابات والجبال.

يُفتح الباب فجأة، فيكسر صريرُه الحادّ انفعالَ الرّجلين، تحمل السّكرتيرة ورقتين بيدٍ وتمسك مقبض قفل الباب بالأخرى، تقف عند مدخل قاعة التّحرير، معُلِمةً جمال بما في يدها:

- سي جمال، مقال أمين دحماني جاهز، هل ترغب في مراجعته؟

- لا داعي لذلك، أحيله على النّشر في عدد الغد، كالعادة سنضعه في العنوان الرئيسيّ.

تنسحب السّكرتيرة متراجعة بخطوتين إلى الخلف لينغلق الباب.

يرخي مسعود الاشتباك بين أصابع يديه، ويطلق تعليقا مغلّفا باستفسار:

- يبدو أنّك تثق كثيرا في أمين يا سي جمال.

- بل أثق في مصادره وولائه التّامّ للأمن.

- لعلك تقصد خوفه منهم.

- ليس الخوف وحده ما يصنع الولاء، رنين النّقود أيضا يفرض الوفاء.

- العصا والجزرة معا إذا.

فهم جمال أنّ مسعود يقصد بكلامه ما هو حاصل في واقع البلاد التي أصبحت محكومة من قبل جماعة من العسكريّين والسّياسيّين، الذين يمسكون بزمام خيوط أزمة أمنيّة مكّنتهم على الرّغم من مشقّة مواجهة المتطرّفين من السّيطرة على مفاصل الدّولة، وفرض منطقهم على كلّ من يرغب في إبداء رأيه بخصوص ما هو حاصل في البلاد، فليس كل ما يُعرف يقال، ينبغي ألا يتجاوز من يتحدّث عن الأوضاع المتأزّمة حدودَ ما يرسمه له هؤلاء، لم تكن جريدة السّبق تشذّ عن تلك القاعدة، الإشهار العموميّ وما يدرّه من مداخيل تغطّي نفقاتها كانت تغري ملّاكها من بعض الإعلاميّين

الذين نفروا من الصّحافة العموميّة، إلى جانب أكاديميّين ورجال أعمال قرّروا الاستثمار في الصّحافة، التي أصبحت ثرثرتها في مواضيع الأزمات الأمنيّة والاقتصاديّة والسياسيّة تستجلب القراء وتسترعي اهتمامهم، وكانت الدّعوات القضائية التي ترفعها ضدّهم المطابع العموميّة ترعبهم، أكثر ممّا تفعله بهم تهديدات المتطرّفين في أحيان كثيرة، قطْع مورد الرّزق لا يقلّ فظاعة عن إيقاف مسار الحياة، وهذا كلّه كان يجعلهم متّفقين على ضرورة التّخفيف من وطأة خطّ الصّحيفة التّحريريّ على جماعة المسؤولين التي تقطن المراديّة ونادي الصّنوبر وموريتي.

- الخضوع للهيمنة تقصد؟ قد أتفهّم أن نخني للعاصفة، لكنّني أخشى أن نصبح بوقا لهم.

علّق مسعود على كلام جمال، محاولا اكتشاف الطّريقة التي يواجهُ بها مجموعةٌ من المثقّفين استثمروا في الصّحافة ولا يكفّون عن الحلم بالدّيمقراطية وحرّيّة التّعبير رفضَ السّلطة لأحلامهم اللّذيذة، يعتقد جمال أنّ صحيفتهم تشذّ قليلا عن تلك القاعدة، ليس إلى هذه الدّرجة، فلطالما اعتبر أنّ جريدة السّبق أحسن حالا من العديد من الدّكاكين الإعلاميّة التي تنبت كالفطريّات هنا وهناك هذه الأيّام، والتي لا همّ لأصحابها سوى تلميع صورة النّظام مقابل الحصول على فتات الإشهار وتفادي ابتزازه لها، من الممكن تسميتهم أيّ شيء؛ سماسرة، دجّالون، مشعوذون، مقامرون، إلّا أن يكونوا إعلاميّين، لا علاقة لهم بالصّحافة، فتجدهم ينشرون الأكاذيب ويزيّفون الحقائق وينوّمون الشّعب بالوهم والخرافة، حاول جمال بينما كان

يطفئ سيجارته أن يبرّر لمسعود موقفه، ويزيل عنه ما بدا له أنّه مخاوف بدأت تطفو فوق كلامه.

- معك حقّ، وأتمنّى من كلّ قلبي أن نثابر في هذا الاتّجاه، وألا ننكسر أمام ابتزازهم. أبدى مسعود ارتياحه من طمأنة جمال له.

- من هذه النّاحية لا داعي لأن تقلق، ولهذا السّبب بالذّات قبلت بأن يعمل معنا أمين دحماني.

لدى أمين دحماني علاقات ممتدّة ومتشعّبة بأجهزة الأمن والاستخبارات وحتّى بالسّياسيّين والمسؤولين، كان ذلك كفيلا بإزالة هاجس كهذا، بالنّسبة لجمال النّظام ليس شيئا واحدا، هناك عصب وأجنحة تتصارع أحيانا وتتصالح أحيانا أخرى، ما يجعله يتمسّك بثقة مسترخية في أمين أنّه يحسن إمساك العصا من الوسط، يبعد نفسه عن صراعاتهم ولا يكشف أوراقه لأحد ساعة الصّلح، يتحفّظ عن نقل أحاديث طرفٍ إلى الآخر، كلّ هذا أكسبه ثقة الجميع، وجعله يعرف جيّدا كيف يحصل على المعلومة، المعلومة هي عملةُ جمال النّادرة وأمين أصبح منجما من المعلومات.

يشكّ مسعود في أن يظلّ أمين دحماني ممسكا بالعصا من الوسط إلى الأبد، أبدى لجمال قناعته بأنّ المرحلة الانتقاليّة التي تعيشها السّاحة السّياسيّة والمرتبطة بشرعيّة الأزمة الأمنيّة قد لا تدوم، عاجلا أم آجلا سيضطرّ النّظام إلى تنظيم الحياة السّياسيّة، وساعتها ستكون هناك انتخابات وسيوضع دستور جديد للبلاد، غير أنّ جمال الذي كان يهزّ رأسه يمنة ويسرة كعلامة على عدم تقبّله لكلام مسعود قاطعه بصرامة:

- أووه، خيالك يذهب بك بعيدا سي مسعود، قلت لك أنظر من حولك فقط، ولا تبتعد كثيرا حتّى لا يسحبك مجرى الوادي فيغرقك.
يعتمد جمال بشكل كامل على أمين دحماني في السّبق الأمنيّ؛ كلّ ما له صلة بتحرّكات الإرهابيّين ومخطّطاتهم، نشاطاتهم والتّحولات والانقسامات والصّراعات التي تطرأ داخل جماعاتهم، المقبوض عليهم من قبل مصالح الجيش والدّرك والأجهزة الأمنيّة، بالإضافة إلى مسارات ونتائج الحرب التي تشنّها الدّولة عليهم، كلّ هذه الأخبار يبحث عنها القارئ ويتصيّدها، وتوفيرها له سيرفع من حجم مبيعات جريدة السّبق وسيجعلها في أريحيّة ماليّة، وفي مأمن من ابتزازات وكالة الإشهار والمطابع التي تسيطر عليها الحكومة.
- المعلومة في ظلّ هذه الأزمة الأمنيّة أصبحت محتكرة ولا يسمح بتداولها إلّا في حدود سقف منخفض جدّا، وليست متاحة للجميع. عقّب مسعود على كلام جمال المتخم بالتّفاؤل.
جال بخاطر مسعود وهو يصغي إلى إطراء جمال لأمين دحماني معاناته الشّديدة التي يلاقيها في أيّامه هذه من تحصيل بعض المعلومات البسيطة، بغرض إنجاز تقاريره الإخباريّة أو تحقيقاته الاستقصائيّة، يبدو أنّ أمين دحماني محظوظ بمورده المعلوماتيّ. كما أنّ أخبار الإرهاب والهاجس الأمنيّ الذي استقطب اهتمام الدّولة والشّعب على حدّ سواء، ألهى الجميع عن قضايا الفساد والجرائم والتّحوّلات والتّغيّرات التي تطرأ على المجتمع، والتي لا يشعر النّاس بها حتّى تصبح واقعا محتّما ليس بمقدورهم مقاومته أو

رفضه، هذا ما يجده مسعود كلّما فتح بمبضعه الاستقصائيّ جرحا في مشكلة ما ليستقصي الأسباب الكامنة وراءها.

يضرب مسعود بكلتا يديه على فخذيه، ويعتمد بهما على ركبتيه ويضغط على الأرض برجليه هامّا بالوقوف، يصرّح لمديره بذلك:

- عليّ أن أذهب الآن.

لم يكد ينتشل جسده من الأريكة، حتّى ابتدره جمال مستغربا بينما كان ينظر إلى ساعته:

- إلى أين؟ ما زال الوقت على نهاية الدّوام!

كان مسعود يجري تحقيقا بدأه قبل شهر، بخصوص التّلاعب بالعقار الزّراعيّ من قبل بعض أصحاب النّفوذ، ممّن قاموا بشراء مساحات واسعة من أخصب أراضي الجزائر في منطقة بوشاوي بالعاصمة، وقاموا بتحويلها عن طابعها الفلاحيّ إلى أغراض أخرى، على غرار بناء فيلات وفنادق ومستودعات صناعيّة وتجاريّة وغيرها. استأذن للانصراف لموعد هامّ يدخل ضمن مجريات التّحقيق، أخبره جمال أنّه قرأ مقالا إخباريّا قبل أشهر كان قد أعدّه زميله الصّحفيّ العربي ميموني، اقتلع عنوانه من ذاكرته بصعوبة: "على ما أعتقد... أنّه كان... "مافيا العقار الزّراعيّ... تعبث بسهل متيجة"... أو شيء من هذا القبيل".

- أو شيء من هذا القبيل؟! تريد إبعاد العين عنك حتّى لا نحسدك على ذاكرتك الفولاذيّة سيدي مدير التّحرير، وها أنت تحفظ عنوان مقال كُتب منذ ستّة أشهر، لن أقلق على مستقبل جريدتنا بعد اليوم. ردّ مسعود بشيء من الدّعابة الملفوفة بمجاملة لمدير تحريره.

- ليس إلى هذه الدّرجة، كان ذلك محض مصادفة فقط.

طلب جمال من مسعود أن يحرص جيّدا على أن يكون عمله متقنا إلى أدقّ تفاصيله، تمنّى له التّوفيق، ونصحه بأن يلمّ بجميع جوانب التّحقيق حتى يستوفيه، وبكلّ أطرافه حتى يضمن موضوعيّته، أبدى مسعود أسفه البالغ للعراقيل التي يواجهها تحقيقه، فهي تصعّب من إنجازه على الوجه الذي يرجوه.

تُلقي تداعيّات الأزمة الأمنيّة بثقلها على مهنة الصّحافة ككلّ، لم يتمكن مسعود حتّى هذه اللّحظة من الحصول على بعض المعلومات الهامّة من تحقيقات الدّرك بالخصوص، بعدما رفضوا إجراء مقابلة معه، من حسن حظّه أنّه استطاع التّعرف على ضابط يعمل بالقيادة العامّة للدّرك الوطنيّ، كان قد تعرّف عليه بواسطة العميد خالد عمراني، وعده بأنّه سيزوّده بمعلومات حول ما توصّلت إليه التّحقيقات إلى جانب بعض النّسخ لوثائق مهمّة في القضيّة، كاد الضّابط يجهش بالبكاء حينما أخبره مسعود بموضوع التّحقيق، حدّثه عن معاناة والده الذي حُرم من حقّه في الحصول على مستثمرة فلاحيّة بعدما خدم لسنوات عديدة في قطاع الفلاحة، ومن حسن حظّه أنّه استفاد من معاشه.

كان جمال ينصت إلى مسعود وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، لم تغادره طوال حديثهما، تغمر البهجة قلبه وهو يراه مندمجا في عمله ومنكبّا على تحقيقات تتطلّب تركيزا عاليا، قد تجاوز محنته النّفسيّة واستعاد نشاطه كسابق عهده به.

* * *

غياب ڤرطوع وطراڤو عن اجتماعٍ عقده عاصم بعد صلاة الفجر بدا فجّا وفاضحا ولم يخفَ عنه، حتّى وهو منهمك باستعراض الأسلحة والذّخيرة التي بعثت بها إمارة المنطقة أمام عساكره الصّامتين في سكون غير معتاد، أَلِف ڤرطوع أن يملأه ضجيجا بتدخّلاته السّمجة والوقحة أحيانا، دون استئذان، مبرزا برياء واضح وتصنّع متكلَّف معرفته لأيّ شيء في كلّ ضرب أو أيّ مجال كان، صمته المؤقّت سرعان ما تفضحه عقليّته الصّاخبة واندفاعه السّافر لإبداء آرائه، دون أن يُطلب منه ذلك، أو من أجل الاعتراض على اقتراحات العبابسة وتفنيد أفكارهم، حتّى وإن كانت تبدو محقّة، سرعان ما يسترسل في استعراض عضلات معرفته بالمنطقة وتضاريسها الوعرة وبأهلها وسيرتهم وعاداتهم. كان هذا المزاج المتمايز عنهم كفيلا بأن يحدث شرخا داخل جماعة عاصم لتنقسم إلى فنوانيّين وعبابسة، يتولّد بينهما تنافس وصراع على الزّعامة والقيادة.

يستند العبابسة إلى سبقهم في اللّحاق بالجماعات المتطرّفة، وإلى خلفيتهم السّياسيّة والدّينيّة التي تعود إلى زمن الصّحوة الإسلاميّة بداية الثّمانينيّات، وماضي أغلبهم الجهاديّ ورصيده العسكريّ في الحرب الأفغانيّة على الرّوس، كما أنّ عاصم يمتلك باعا طويلا في العلوم الشّرعيّة والفكر الجهاديّ، أهّله ذلك لأن يتصدّر الفتوى ليس داخل جماعته في فنوان فحسب، بل كثيرا ما تستفتيه إمارة المنطقة في مسائل عدّة، لم يمنعه تخصّصه الجامعيّ في الفيزياء التي درّسها لطلّاب المرحلة الثّانويّة بسيدي بلعبّاس من استيعاب الكثير من المسائل الفقهيّة، وحفظ جزء كبير من القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة وفتاوى وآراء ومذاهب العلماء، بل إنّه يملك اطّلاعا

واسعا في علم النّفس والاجتماع والتّربية، فزيادة على إحاطته بكثير من المسائل في العلوم الشّرعية كان منفتحا على معارف شتّى وعلوم جمّة، إلى جانب إتقانه للفرنسيّة التي يحسنها كأحد الباريسيّين الأقحاح، كتابةً ومحادثةً بلغة سليمة مسترسلة ومتدفقة.

لم يكن عاصم متحمّسا كثيرا لحمل السّلاح في وجه الحكومة والجيش، لولا أنّه رأى ردّة فعل قويّة من قبل السّلطة حينما حلّت الجبهةَ الإسلاميّة للإنقاذ، بعد أن رفضت نتائج الانتخابات التّشريعيّة التي كانت في صالحها وأدخلت شيوخها السّجن، وخصوصا أنّه صار مستهدفا من قبل الأجهزة الأمنيّة، فقد نجا من سجن رقّان بأعجوبة حين راوغ رجال الدّرك بعدما داهموا بيته، وفرّ من بين أيديهم كثعلب محتال من قنّ دجاج لحظة اكتشاف صاحبه لأمره، وعلى إثرها التحق بالجماعات التي اتّخذت من الغابات والجبال مراكز لتجمّعها وتدريبها، وأصبح على الرّغم من عقيدته المهادنة في مواجهة قدر محتوم لا فكاك منه، في أن يصطدم بالحكومة وجيشها الذي أخذ على عاتقه محاربة الإرهاب والتّطرف.

يتوضّأ عاصم قبالة منزل حارس الغابة، يمرّ من أمامه ڤرطوع يضع ظاهر يده على فمه ليقمع تثاؤبه المستطيل المصحوب بصوت صاخب ومزعج، لم تمنعه مشقّة غسله لرجله من مناداته واستيقافه:

- جعفر، لماذا تغيّبت عن اجتماعنا بالأمس.

- كنت متعبا من العمليّة التي نفذناها.

صار عاصم أكثر تفطّنا لمراوغات ڤرطوع مع مرور الزّمن، جعله ذلك يدرك أنّه لن يستطيع خداعه هذه المرّة أيضا، فواجهه بتهكّم وسخرية:

- متعب من العمليّة أم من ثقل الخمرة التي نوّمتك إلى هذه السّاعة؟ كان وقت الظّهر على وشك الدّخول، وگرطوع وطراگو لم يصلّيا الصّبح بعد، رغم إيقاظه لهما مرارا. لطم عاصم بصراحته الفظّة وجهَ گرطوع كاشفا له حقيقة سلوكه وتصرّفاته، لم يستسلم گرطوع على عادته في محاججته ولجاجته، أبدى استياءه الشّديد ممّن وشى به لديه، وأصرّ على أنّ ما تناوله لم يكن خمرا، إنّما هو نبيذ... "والنّبيذ حلال".

- آه! هكذا إذا... النّبيذ حلال! خمر معسكر الأحمر صارت حلالا الآن وزِناكما، أنت وصاحبك، بالمرأتين قبل شهرين حلال هو الآخر؟!

- إنّهما سبيّتان غنمناهما من غزوتنا تلك.

لم تنطلِ تبريرات گرطوع المشبوهة على عاصم، مطّ حاجبيه وزمّ شفتيه مستغربا، كونهما اقترفا شيئا أدّى بهما نهيُهما لمن وجداهما يفعلانه إلى أن قتلاهما، صرخ في وجهه:

- تفتي لنفسك بنفسك، تنتهك حدود الله وتقول لي حلال!

بدا لعاصم أنّ ما كان الرّجلان المقتولان يودّان القيام به مع المرأتين ارتكبه گرطوع وطراگو، استغرب ساخرا من گرطوع الذي استحلّ لنفسه ما حرّمه على غيره، طلب منه بحدّة شديدة يشوبها الكثير من التّهكّم أن يبرّر له سبب قتلهما لهما، أكان ذلك مثلا لذنب ارتكبه هو وطراگو بدلا عن الرّجلين؟! ثمّ صرخ بوجهٍ سرعان ما فارقته ملامح الاستهزاء الذي تحوّل إلى جِدٍّ أشبه بالصّخور الصّلدة التي تحيط به من كل جانب:

- أتامرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم يا جعفر؟!

- نحن مسلمان وهما كافران فاجران ومرتدّان.

أثار ردّ گرطوع ضحك عاصم الذي استغرب حجّته في كونه وصديقه مسلمان كما زعم، وهو لا يدري مع ذلك ما جزاء الزّنا وشرب الخمر في الشّرع، لم يستسلم گرطوع لاستهتار عاصم به وأكدّ له على الفور وببلادة يخالطها نوع من التّهتّك أنّه يعلم ذلك جيّدا، "شارب الخمر يُجلد ثمانين والزّاني يجلد مائة جلدة"، لكنّه ومع ذلك أراد إقناع عاصم بأنه حكم على الرّجلين بحدّ الحرابة والإفساد في الأرض، وأنّه لم يشأ أن يُصَلِّب أيديهما وأرجلهما من خلاف أخذا بأرفق الأمرين وأيسرهما، ورحمة منه بهما فإنّه خلّصهما من روحيهما الشّرّيرتين بطلقتين في الصّدر.

كان گرطوع إذ يستعرض وجهة نظره في حكمه بقتل الرّجلين، ودفاعه المستميت عنها لا يزال يثير استهزاء عاصم منه، الذي استمرّ في مخاطبته بنبرة التّهكّم والسّخرية فقال له أنّه ربّما رأى أنّ تقطيع رِجل وذراع من أصليهما كان ليأخذ وقتا منهما، وأنّهما كانا مستعجلين وقتها وأنّ الرّصاص أسرع من التّقطيع، ولم تكن الرّحمة والرّأفة بهما سوى مدعاة كاذبة ومراوغة حاول گرطوع أن يفرّ منها بذنب قتل الرّجلين:

- كنتما مستعجلين إذن ولم تمكّنا من تنفيذ حدّ الحرابة عليهما؟! يا لحرصكما على تطبيق الشّريعة على غيركما. أليس الجلد في حقّ الزّاني إذا كان عازبا، أمّا الثّيّب فجزاؤه الرّجم حتى الموت؟ تساءل عاصم بسخرية.

- صحيح، عافانا الله من الخمر والزّنا. رد گرطوع مصرّا على موقفه.

- جعفر، ستحال أنت ومصعب على المحكمة الشرعيّة للنّظر فيما ارتكبتماه.

- ماذا تقول يا عاصم؟! هل جننت... تريد أن تحاكمنا؟!

- نعم، ألسنا نطبّق الشّريعة؟ فكيف نطبّقها على من تقول أنّهم كفّار ولا نطبّقها عليكما أنتما المسلميْن؟

- لكننا لم نرتكب ما يخالف شرع الله حتّى تحاكمنا؟

أخبر عاصم كرطوع أنّ القاضي الشّرعيّ هو من سيقرّر ذلك، ثمّ التفت ناحية المنزل أين كان جنوده مستلقين تحت شجرة صنوبر وبعضهم كانوا ينظّفون أسلحتهم المفكّكة، وأمر حمزة وصهيب أن يقيّداه من يديه ورجليه ويحبساه، وأن يفعلا الشّيء نفسه مع صاحبه الغارق في نومه كخنزير بدين ريثما يفرغ لهما.

* * *

13

عقب صلاة العشاء جمع عاصم أفراد فرقته ملحّا عليهم بالحضور لأهمّية الأمر المتعلّق بنشاط الجماعة بعد أن أضحى يواجه صعوبات تكتيكيّة، فقد أنشأ القرويّون فرقة للدّفاع الذّاتيّ حدّت من تحرّكاتهم التي صار رصدها وكشفها سهلا، كما أنّها شجّعت عساكر المفرزة رغم قلّة عددهم على المرابطة ليلا عند مداخل القرية، فلم يجسر المتطرّفون بعدها على تهديد الفنوانيّين داخل قريتهم المنيعة.

استأذن خيداس وطلب التّدخّل، تنحنح في قبضة يده، وتفل نخمة كادت تخنقه بعدما جذبها من حنجرته بشدّة وصعوبة، كأنّما ينتزع مسمارا صدئا من ساق شجرة عرعار:

- حتّى نتمكّن من استعادة تفوّقنا، علينا أن نضيّق عليهم ما هو خارج عن سيطرتهم وهم في حاجة ماسّة إليه، وما هو تحت أيدينا وبوسعنا منعهم عنه.

لمّح خيداس إلى كون جماعته لا يمكنها الاستغناء عن فنوان بأيّ حال، فَهُم يتزوّدون منها بكلّ ما يلزمهم من موادّ غذائيّة ووقود وغاز، كما أنّ سيطرتهم عليها تتيح لهم التّحكم في سكّانها ومعرفة ما يدور حولهم في سعيدة ومولاي العربي وغيرهما، وكلّ ما يتعلّق بتحرّكات عساكر المفرزة وهذا هو الأهمّ، وأن يجدوا حلاّ لهذه الفرقة الجديدة التي تسمّي نفسها "الدّفاع الذّاتيّ"، فقد شلّت قدرتهم على اقتحام فنوان.

أصابت عودة خيداس إلى مكانه، بعد خطبته المقتضبة جدّا، عاصم بحيرة مليئة بالغموض، بدا وكأنّه لم يفهم اقتراحه المبهم، حرّك طاقيّته العسكريّة ثمّ طلب منه أن يوضّح كلامه:

- هلاّ أوضحت لنا أكثر يا أبا دجانة.

وقف خيداس مجدّدا ضامّا شفتيه ومقطّبا حاجبيه، استغرب عدم استيعاب عاصم لكلامه، رغم أنّه بدا له سهلا كطاس اللّبن الذي شربه في العصر مع قرص خبز الشّعير، تأمّل عاصمَ جيّدا وعاود كلامه مجدّدا:

- أنتم تعلمون أنّ القرويّين وحتّى العسكر في حاجة إلى الماء والطّريق، وهذان الأمران لا غنى لهم عنهما بأيّ حال، كما أنّهما تحت سيطرتنا لبعدهما عن القرية.

من اليسير جدّا على جماعة عاصم احتلال خزّان المياه الذي يموّن القرية، إضافة إلى جميع عيون الماء والآبار المنتشرة حول فنوان، كما أنّ باستطاعتها نصب كمائن على الطّرق المؤديّة إلى مولاي العربي وسعيدة وسيدي بلعبّاس، وهكذا لن يتمكّن الفنوانيّون من شرب الماء أو توريد قطعانهم ومواشيهم، وسيصبح تنقّلهم محفوفا بالمخاطر، وبوسع المتطرّفين حينذاك ابتزازهم الواحد تلو الآخر، كي يدفع لهم مقابل تمكّنه من شرب الماء، ولقاء إرخاء قبضتهم عنه.

يضع عاصم يده اليسرى على جانب وجهه الأيمن؛ إصبعهُ السّبّابة على صدغه وإبهامُه على ذقنه، بينما يصغي إلى كلام خيداس بتمعّن شديد، وعند انتهائه يؤشّر بسبّابته ناحيته قائلا:

- اقتراح جيّد، فقط علينا التّفكير مليّا في تفاصيل تنفيذه حتّى لا تخرج الأمور عن السّيطرة، ينبغي ألا نترك أيّ شيء، مهما بدا تافها، للصّدفة أو للمواعيد غير المضبوطة.

يضع بوريق الواقف أمام شجرة صنوبر رشّاش الكلاشينكوف الذي يحمله على الأرض، ويجلس متربّعا قبالة عاصم، ثمّ يسترسل في كلامه مقترحا:

- علينا كذلك أن نضع جدولا زمنيّا بجميع العمليّات التي سننفذها خلال كلّ شهر، وأن نخطّط تفاصيل إنجازها.

فكّر بوريق بوضع طريقة ما تتيح لهم تقييم مدى نجاح اقتراح خيداس، وإلّا فإنّه بإمكانهم أن يعدّلوا في خطّتهم حسب نقاط الضّعف التي تظهر لهم تباعا وأوّلا بأوّل.

ينزع عاصم طاقيّته العسكريّة التي غنمها بعد قنصه لرائد في الجيش، يضعها على حجره، ويسترسل معقّبا على كلام بوريق:

- شيء مهمّ وضروريّ أن نقيس تحرّكاتنا ومدى نجاح عمليّاتنا حتّى نحقّق فاعليّة أكثر، ونكتسب بذلك خبرة تساعدنا على إلحاق الخسائر في صفوف العسكر والقروييّن واستنزاف قدراتهم، والاستفادة من كلّ ما يمتلكه الفنوانيّون الذين بدأت عداوتهم لنا تزداد وتحالفهم مع الطّواغيت يشتد.

نهض عاصم وأزاح ستارة كانت تغطّي شيئا ظلّ الحاضرون يرمقونه بعيون فضوليّة ومتطفّلة طوال اجتماعهم، فكشف عن مدفع هاون، أبلغهم بينما كان يشير إليه أنّ هذا الهباب وصل اليوم صباحا، بوسع قذائفه التي تصل إلى أيّ نقطة في فنوان إلحاق إصابات وخسائر في صفوف العسكر ومن يرغبون في القضاء عليهم من الفنوانيّين.

كان احميدة الباندي الذي التحق بالجماعة المسلّحة قبل شهر يستمع إلى عاصم بإصغاء سكونيّ، وإلى كلّ همسة تنفلت من أحشائه المرتعدة على إثر زكام بات ملازما له منذ مدّة، كأنّما ينصت لأغنية بدويّة من قصائد القصبة التي يردّدها شيوخ المنطقة، خصوصا حينما أكّد أنّ فنوان أصبحت تحت رحمة فوهة ذلك المجسّم الحديديّ، انتفض الباندي واقفا ثمّ بدأ هوايته القديمة في النّميمة، أشار بسبّابته المقطوعة إلى منزل جيلالي هانُوي أعلى التّلة: "هذا الكلب هو من ألّب الفنوانيّين علينا"، كان تشكيله لفرقة الدّفاع الذّاتي سببا وجيها للتّخلّص منه، ومن المؤكد أنّ عاصم لن يجد مانعا بعد الآن يحول دون دفنه تحت ركام بيته، ليقضي على عدوّ أثار المشاكل لأشهر عصيبة خلت، سيلتفت إليه منذ اللّحظة، بيته ومزرعته سيكونان حتما أوّل أهدافه.

تتهلّل أسارير الباندي وتتوثّب دماء أوردته، من فرط البهجة التي سرت بين أسنانه وفي بياض عينيه الذي لمع عاكسا أشعّة تلك اللّيلة المقمرة والتآمريّة.

* * *

يغلق سالم بوّابة منزله من الدّاخل بإحكام، يعتلي جدار فناء البيت ويقفز إلى الزّقاق. في الخارج تصطفّ ثلاث شاحنات تُصدر محرّكاتها أزيزا يمتزج بثغاء النّعاج ومأمأة خرافها المحمّلة عليها.

حزم آل مولاي أمتعتهم، لم يعد لهم من مكان في فنوان أو أيّ مقدرة على البقاء في قرية مهدّدة بالمخاطر المحدقة، بعد أن قتل المسلّحون خمسة من القرويّين كانوا يسقون ويوردون قطعانهم ومواشيهم، حينما انفجرت قنبلة

مفخّخة حوّلت عين تانزارة إلى كومة من الأشلاء واختلطت مياهها بدماء القتلى، لم يعد بمقدور سالم وأخويه غياث وعمر تحمّل العطش الذي يصيب قطعانهم بعدما فجّر المتطرّفون بئر ستاني القريب من القرية والذي كان مخصّصا لتوريد القطعان، انتشرت شائعات بتسميم الإرهابيّين لمياه الخزّان المشيّد في أعلى تلّة بمحاذاة أرض الحاج الطّاهر، ومياه النّقب في سفح الجبل وبعض الآبار في الجوار. بالكاد يكفيهم صهريج شاحنة مفرزة الجيش للشّرب والغسيل بعدما تطوّع قائد المفرزة لتزويد الفنوانيّين بمياه الشّرب.

من العسير على رجال الدّفاع الذّاتيّ التّوغّل داخل الغابة لمواجهة المسلّحين، مع نقص العدد والعدّة في مفرزة العسكر وأوامر قيادة الجيش الصّارمة بتلافي الهجوم والبقاء في وضعية الدّفاع، لم تعد خطّة هانُوي لمراقبة القرية تفيد مع أسلوب الاستنزاف الجديد الذي اتّبعه المسلّحون. تفجير البئر والعين وشائعات تسميم الخزّان والنّقب أرغما أغلب القرويّين على المغادرة، لا يستطيعون الصّبر أكثر على تحمّل نفقات إضافيّة فرضتها تغذية قطعانهم داخل حظائرها، عقب منع قائد المفرزة الرّعي في الجوار منذ أن قنص ڤرطوع أحد عساكره فأرداه قتيلا.

قرّر أغلب القرويّين مغادرة فنوان، تحوّلت مفرزتها وغاباتها المحيطة بها إلى فكّي كمّاشة، الخناق الذي ضربه العساكر على المتطرّفين، الذين لا يلبثون أن يردّوا على منعهم من دخول القرية أمرٌ عقّد الأوضاع الأمنيّة وجعل استتبابها يبدو ميؤوسا منه، وجد القرويّون أنفسهم يدورون داخل حلقة مفرغة من أيّ مآل، ومليئة بالمخاطر المتربّصة خلف كلّ جدار من جدران القرية، ساد الشّكّ حتّى بين أقرب النّاس، الوشاية أصبحت مهنة جديدة

تدرّ الكثير على أصحابها، خصوصا الذين يعملون لحساب "الخاوة"، تجنّد آخرون في الصّفوف الخلفيّة للأمن العسكريّ واشتغلوا مخبرين لصالحهم. أرغمت هذه الظّروف القاهرة والملتبسة سالم وأخويه على حزم أمتعتهم والتّوجّه جنوبا.

رفض حميد بشدّة أن يحمل صورتي موسى ووالده، واكتفى بصورته مع رشيد في بزّتين عسكريّتين جلبهما لهما جدّهما الحاج بن عثمان حال عودته من الحجّ، كانا يحملان مسدّسين بلاستيكيّين يصدران أضواء ملونة وأصوات إطلاق نار، تمتنع فوهتاهما المسدودتان عن إطلاق أيّ شيء، يستغرب حميد كيف أنّه قبِل من جدّه هذه اللّعبة المخاتلة التي جعلت منه مجرّد صبيّ أبله. تحجّج أمام أمّه التي كانت تمدّ له صورتي أبيه وموسى بوزيد ليدسّهما في حقيبة الظّهر خاصّته، بأنّهم سيسكنون خيمةً لا يوجد بها جدران تعلّقان عليها، أضمر في نفسه خشية شديدة من أنّ أمّه ستعلّقهما رغم ذلك في قماش الخيمة، ولن يكون بمقدوره فعل أيّ شيء يُظهره مشاغبا أمام أبيه المختبئ في إطار الصّورة، يتذكّر جيّدا الرّهبة التي كان يشعر بها إذا ما دخل دار التّيلي، كان كلّما ساورته وساوسه بفعل شيء مريب يجعل أمّه تضربه أو توبّخه عليه، يلتفت إلى صورة أبيه فيجده ينظر إليه، كانت نظراته لا تفارقه حتّى وهو يغيّر مكانه داخل الغرفة، استحضر حينما كان صغيرا لم يدخل المدرسة بعد، ضرْب رابحة له بعد أن اتّهمته بسرقة عشرة دنانير كانت قد خبّأتها تحت قطعة القماش التي تغطّي بها التّلفاز عند إطفائه. اعتراه بعض الشّكّ إذ لم يكن معه أحد في تلك اللّحظة،

فكيف لأمّه أن تعرف؟ "لماذا لم تتّهم أخي مهدي؟ لا بدّ أن يكون أبي أو موسى قد شاهداني من داخل صورتيهما وأبلغاها عني".

زهد في الضّبّ هو الآخر، اكتشف بعدما نزعته رابحة من الحائط أنّه مجرّد خرقة جلديّة، بطنه به شقّ طويل طرفاه ممسوكان بخيط، ومحجرا عينيه المفقودتين يشغلهما زرّا قميص، أدرك أنّهما على درجة كبيرة من الابتذال والتّصنّع، رؤيته له من الأسفل حينما كان متشبّثا بالحائط جعلتاهما مستترتين، منظره بين يديه الآن أصبح بشعا وباعثا على الغثيان، أحسّ بأنّه تعرض لخديعة مدبّرة طوال هذا الزّمن، لم يكن ذنَبه المضلّع يعكس تلك الهيبة المزعومة. طالما اعتقد أنّه ضبّ ميّت حقّا، لكنّه مكتمل، كان يجزم دون أن يتحقّق من الأمر أن والده اصطاده في إحدى رحلات صيده الظّافرة. عندما كان صغيرا وقبل أن يدخل المدرسة كان يظن أنّه مجرد ضبّ كسول يحاول أن يشقّ طريقه نحو السّقف الجبسي، غير أنّه لن يصل أبدا فهو أبطأ من سلحفاتهم الرّابضة في الحوش عند كرمة العنب. خيّبت رابحة ظنّه في والده كثيرا بعدما أخبرته، وهي ترميه بازدراء وتَرخّص في إحدى زوايا الغرفة، أنّ جدّه كان قد اشتراه من عند بائع أغراض مستعملة متجوّل، قبل زواجها ومجيئها إلى بيت الحاج بن عثمان، وطالما أنّه لا يريد اللّعب به فإنّ القمامة ستدفنه في أحشائها النّتنة.

اكترى آل مولاي مراعي لقطعانهم في مشرية، إلى الجنوب، على الطّريق إلى الصّحراء، لا توجد مشاكل أمنيّة في تلك البراري السّهبيّة الممتدّة، المنبسطة والمنكشفة، فهي لا تتيح أدنى فرصة اختباءٍ للمتطرّفين، لهذا السّبب لم يفكّروا في استيطانها. تعجّ المنطقة بالبدو الرّحّل، يرحلون بخيمهم

وأغنامهم من أجل الكلأ، صار آل مولاي راحلين مثلهم على الرّغم من أن رحيلهم لم يكن لذات السّبب، الأمن والاستقرار ليسا أقلّ شأنا من البحث عن أعشاب تجترها ذوات الأصواف.

هنا في مشريّة سيكون بوسع سالم وأخويه أن يبدؤوا نشاطهم من جديد في بيئة بدويّة قبليّة ورعويّة لا تختلف كثيرا عن فنوان، على الأقلّ لن تجبرهم على بيع قطعانهم وفقدان مصدر رزقهم. نصب الثّلاثة خيما مصنوعة من شعر الماعز وصوف الضّأن كانوا قد اشتروها من سوق المدينة للمواشي التي تقام يوم الأربعاء من كلّ أسبوع.

خارج السّوق تصطفّ شاحنات الجيا كا في المحيط، تنزل منها حمولاتها من الغنم والبقر والماعز، وقبل اجتياز البوّابة يدفع أصحابها رسوما عن كلّ رأس يودّون بيعها، يسمّونها "الكُمرد"، لعلّها تحوير للكلمة التّركية (كمرك) والتي تُنطق في العربيّة الفصيحة (جمرك)، داخل السّوق يدرُس صاحب القطيع خرافه بطريقة تشبه تشابك الأصابع، يتقابل صفّان من الخراف التي يعانق بعضها بعضا، يمرّر بين رؤوسها حبلا مصنوعا في الغالب من الحلفاء يحزمه في طرف الدّرّاسْ، وتبدأ المساومات في شكل مزايدة لا يجتمع لها المشترون، يكتفي صاحب الخراف بالمناداة بآخر سعر يعرضه عليه من يمرّ لمساومته، يحمى وطيس السّوق عند اقتراب البائع من الثّمن الذي يريده، اعتبارا للأسعار المتداولة داخل السّوق، والتي تتوافق مع وزن الخروف منفردا أو مع المعدّل الافتراضيّ لأوزان خرفانه المدروسة مجتمعة، بعد أن يكون قد قدّره البائع والشّاري الذي لا يفوته أن يقلّبها ويقصّها، فيقدّر بيده

كتلة اللّحم في ظهرها، فيتأكّد له إن كانت سمينة أو هزيلة، ويهزّ بعضها من الخلف ليخمّن ثقلها أو خفّتها.

يحتدّ التّفاوض حول السّعر، ويكثر التّشكّي، قد يكشف صاحب القطيع، صادقا أو كاذبا، عما أنفقه عليها من علف ومصاريف مختلفة، وبالمثل يشكو المفاوض مغالاة البائع ويستطرد في وصف عيوب خرافه وكثرة شحمها في مقابل قلّة لحمها، وأنّ السّوق يشهد تراجعا وكسادا، فيبثّ الماهر في هذه الحيل الخوفَ في قلب البائع ويرغمه على القبول بالثّمن الذي اقترحه عليه، فيعلن عن ذلك متنازلا أو من فرط إحباطه بقوله: "الله يربّح"، ويصفّق الاثنان على يديهما إيذانا بإتمام عمليّة البيع وعقد الصّفقة، يهرع صاحب الخراف الجديد إلى إشهار شرائه أمام المزايدين والفضوليّين بأن يضع علامة مميّزة عليها، كأن يجزّ بعض الصّوف بمقصّ يحمله معه في جيبه أحيانا، أو يمرّر قلم تلوين على ظهرها، أو يحثو بعض التّراب على أظهرها، وتنتهي المساومات مع صاحبها الأوّل لتبدأ مع مالكها الجديد.

ليست الأنعام وحدها ما يباع في سوق مشريّة، قد تكون أساسَ إقامتها وتجمّع تجّار المواشي ومالكي القطعان بداخلها، يتجوّل حميد مع أبيه وعمّيه في مكان مخصّص لبيع الخيم ولواحقها من حبال وأوتاد، بجوارها يرصّ الباعة سلعا متنوّعة؛ صوف أغنام وأغذية للأنعام وملابس وأواني وخضارا وفواكه وموادّ غذائيّة متنوّعة، ولحوم أغنام يذبحها أصحابها في السّوق ويعرضونها معلّقة فوق طاولات للبيع، نوافذ وأبواب، خرداوات وقطع غيار مستعملة، وغيرها كثير.

يتجمهر خلق عظيم، أغلبهم كهول وشيوخ حول رجل يحمل مكبّر صوت يعرض أدوية وأعشابا للبيع على طاولة أمامه تفيد، كما يزعم، في شفاء كلّ مرض يمكن تصوّره، من الزّكام إلى أمراض العقم وعدم الإنجاب وحتّى بعض أنواع السّرطانات المستعصية، لا يستحي بينما يمسك الميكروفون بيدٍ ويعرض أمام الزبائن بالأخرى دواءً يصفه لشيخ عجوز يقف إلى جواره، يقول ّإنّه سيرفع من طاقته الجنسيّة ويخلّصه من قلّة الرّغبة وضعف الانتصاب.

يقف حميد عند بائع حلوى السّوق المميّزة بجوار خيمة تنتصب قريبا من المدخل، يجتمع بداخلها المتسوّقون لشرب القهوة والشّاي وأكل السّفنج، كان قد قدِم إليها من حلقة الشّيخ إسماعيل؛ رجل متوسّط العمر بلحية خفيفة ويرتدي جلّابة صوفيّة، يحسن قصّ الدّعابات والطّرائف، رآه واقفا والنّاس حوله يضحكون، ذكّرته حكاياته المسليّة والمضحكة بجارهم محمود البقّال، لم يبرح حلقته حتى انفضّت بمن فيها، بعدما جمع الشّيخ من المتحلّقين حوله مبلغا لا بأس به من المال.

اشترى حميد بما أعطاه والده من نقود حلوى السّميد والنوگا وحلوى المطرق، ولحق به في "الخيمة المقهى"، كان جالسا على مقعد طويل يصطفّ عليه المتسوّقون حذو رجل لا يعرفه حميد، يعدّ نقودا كانت ثمنا قبضه منه بعدما باعه مجموعة من الخراف السّمينة.

حطّ آل مولاي رحالهم خارج المدينة غير بعيد عن طريق الإسفلت، وبالقرب من بئر ماء مجهّزة بمضخّة. غادر مربّو الأغنام والماشية فنوان، رحل الحاج بوخاتم هو الآخر إلى بوقطب غير أنّ ابنه حسان فضّل البقاء

في بيتهم الواسع، كونه يشتغل في تجارة المواشي وتسمينها وهو عمل لم يتأثّر كثيرا بتهديدات المتطرّفين. احتمل الحاج النّاصر زوجته الحاجة يمينة وابنهما وأحفادهما، واستقر الجميع بمسكن واسع اشتراه بثمن جرّاره وشاحنته بعد أن باعهما، قرّر الحاج النّاصر أخيرا الرّحيل إلى سعيدة فقد كان متصلّبا في رأيه، معاندا بعدم تركه لفنوان مهما حدث، مشهد سي ميلود إمام القرية وهو يشدّ رحاله هو الآخر إلى سعيدة جعله يلين بعض الشّيء ويتراجع عن قراره، وقف عنده بينما كان يُحمّل أثاث بيته على شاحنة ممازحا:

- سي ميلود راك راحل؟ وكلامك لنا الجمعة اللّي فاتت؟ "المسلمون لازم يكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا"؟

- يا الحاج النّاصر ما بقى قعاد في فنوان، المعيشة مرارت هنا.

غادر أكثر من نصف القرويّين في تلك الصّبيحة وهجروا فنوان، فبقيت خاوية خالية تجتاحها الرّياح وتتجوّل الأشباح بدروبها المعفرّة مع من بقي ممّن عجز عن الرّحيل إلى أيّ وجهة كانت، لقلّة ذات اليد، مؤثرا البقاء وانتظار المصير المحتّم ما دامت المقدرة على شراء مسكن أو كرائه بالمدينة معدومة.

* * *

إلى الحوش الكئيب يعود موسى بوزيد مع انتصاف النّهار، يتفاجأ بقدوم أخته غير المتوقّع، ليس من عادة ميمونة أن تزوره رفقة ابنها إلّا في أيّام العطل، تجّهمها والكربة التي تعلو وجهها كانا يوحيان بخطب ما، لم يُرِد موسى أن يسأل أخته خشية من حساسيّتها المفرطة، لا تحبّ ميمونة أن

تثقل على أخويها، وبعد رحيل أخيهما يوسف إلى تلمسان بعدما اضطرّته ظروف عمله هناك، لم تجد من سبيل إلّا قرع باب دار أكبر إخوتها، تتفهّم ظروف موسى المتعسّرة والأوضاع الصّعبة التي يمرّ بها، لا تريد أن تكلّفه المزيد من المتاعب.

بعد الغداء اختلى الأخوان بعيدا عن بختة زوجة موسى، كانت بالمطبخ مع ابنتيها الصّغيرتين اللّتين كانتا تلهوان مع حليمة ورشيد.

في الغرفة تنفجر ميمونة بالبكاء، يهرع موسى مواسيا لها، سألها عن سبب بكائها المفاجئ، ما الذي حدث خلال هذا الأسبوع؟! كان سكان القرية كلّهم يغادرونها، منذ أن قتل المتطرّفون بلال وأصحاب العين، والنّاس يرحلون، كانت ميمونة مستأنسة بسالم حموِها، غير أنّه قرّر الرّحيل هو الآخر، لم يعد لها من جدار تستند عليه بعده، البقاء في فنوان بات مستحيلا، سُدّت في وجهها الأبواب والدّور فلم تجد من تشكو إليه ضيق حالها سوى أخيها موسى.

يعانق موسى أخته ويضع رأسها على كتفه محاولا كفكفة دموعها، قال لها مطمئنا:

- لا تقلقي يا أختي، طالما أنا حيّ فلن يمسّك مكروه، أنت في بيتك ورشيد وحليمة أبنائي، لا تحملي همّا أبدا.

يتذكّر موسى إذ يسند رأس أخته على كتفه وصاية أمّهما عند احتضارها، وعهده الذي قطعه على نفسه ألا يمسّ ميمونة وسفيان سوء، ومنذ توفّيّ زوجها بلقاسم مولاي لم يخش عليها عداوة الزّمن الغادر، شهامة سالم جعلته يطمئنّ عليها في فنوان أكثر من تواجدها معه، هنا في سعيدة، "ربما يكون

البيت ضيّقا لكنّ قلبي يسعك أنت وأبناؤك... الضّيق في القلوب، والدّار دارك". تلاشى قلق ميمونة بكلام موسى المطمئن لها.

لم تكن ميمونة ترغب في أن ترى أخاها يتألّم بسببها وهي تعلم أنّ ظروفه صعبة، يكفيه حمله، أبناؤه وزوجته، بالإضافة إلى أخيهما سفيان، لقد صارت هي وأبناؤها عبئا إضافيّا، المعيشة أصبحت نارا وكلّ شيء زاد ثمنه، وموسى مجرّد موظّف راتبه متواضع جدّا بالكاد يكفيه هو وأسرته. طلب منها أن تكفّ عن التّفكير في ذلك، "اللّقمة نقتسمها، والرّزق على الله، هو من شقّ الفم وهو من يرزقه".

من نافذة الصّالة التي تطلّ على الشّارع يسمع موسى صوت شخص ينادي عليه، ينتظره عند خروجه مستطلعا الأمر رجلان، سلّم عليهما:

- آه، بومدين وكريمو، مرحبا، تفضّلا، واش كاين؟

- سي موسى، جيت مع كريمو عندنا كلام معاك، حبّينا نوضحوا لك الصّورة.

- تفضّلوا أوّلا، نتكلّم في الدّاخل.

- نروحوا للقهوة.

فكّر موسى بأنّ المقهى تغلي بالآذان والأعين بداخلها، كمرجل على نار مضطرمة، تترقّب الدّاخل والخارج وتتسمّع لكلّ كلمة قد تصدر من الأفواه الكتومة والمتناجية، أصرّ على الحديث داخل منزله. فتح موسى باب بيته وصرخ عند مدخله حتّى تخلي له زوجته وميمونة الصّالة: "الطريق..."، أدخل صاحبيه إلى الصّالة ثمّ توجّه إلى المطبخ، وطلب من بختة أن تعدّ لهم إبريق شاي وعاد إليهما. بادر كريمو بالكلام، دبّجه

باعتذاره على إزعاجهما له بسبب زيارتهما المفاجئة على غير موعد مسبق، وفي وقت رأى أنه غير مناسب للزّيارة.

- مرحبا بكما في أيّ وقت، الدّار داركما.

خفّف موسى من وطأة حرج ضيفيه الاضطراريّين.

- الله يسّلمك.

امتنّ كريمو لموسى.

أخبر كريمو موسى أنّه جاء مع بومدين حتّى يضعا الأمور في نصابها قبل أن تحلّ الكارثة عليهم جميعا، المدير دحّو غارق إلى عنقه في مآزق بسبب تصرّفاته الطّائشة والمستهترة التي ستجلب الخراب على الشّركة، منذ أن أصبح مديرا قبل عام ونصف وهو يسيّر الأمور بشكل مريب، ينفق على أشياء تافهة ليس لها علاقة بالعمل، اشترى سيّارة فارهة بأموال الشّركة رغم الظّروف الصّعبة التي تمرّ بها، يستعملها وكأنّها ملك أبيه، في الوقت الذي يحتاج فيه العمّال إلى حافلة لتقلّهم من بيوتهم إلى الشّركة، وهم الآن يمضون شهرهم الخامس بدون راتب، قبل عشرين يوما اكتشف كريمو أنّ دحّو يتواطأ مع مموّني الشّركة بمواد البناء وقطع الغيار والخرداوات، يضخّمون الفواتير ويضعون أسعارا خياليّة تفوق ضعف ثمنها الحقيقيّ، ليتقاسم الفارق معهم، أنفق من خزينة الشّركة وحساباتها البنكيّة أموالا طائلة على موادّ دون حاجة إليها، وهي الآن مكدّسة في المخزن منذ مجيئه بدون فائدة تذكر.

- لقد تسبّب دحو في خسارتنا للعديد من الصّفقات، أكّد بومدين قاطعا على كريمو حديثه.

ذكر لهما بومدين أنّ زميلهم بوزيّان، مسؤول الصّفقات، أخبره أنّ دحّو تعمّد أن يضع أسعارا مبالغا فيها لثلاث صفقات ضخمة، كان بوسعها أن تنتشلهم من الضّائقة التي يمرّون بها، تأسّف بومدين بتحسّر مؤلم على رفض مديريّة الأشغال العموميّة عرض شركتهم وقبول شركاتٍ من ولايات أخرى كونها قدّمت أحسن العروض، وعندما عاتب بوزيّان المديرَ دحّو على ذلك، كان مبرّره أن تلك الشّركات التي فازت بالصّفقات لن تتمكّن من تحقيق أرباح تذكر، وحسب زعمه فإنّها ستخسر بدلا من ذلك، في حين أكدّ بوزيّان لبومدين أنّهم كانوا سيفتكّون تلك الصّفقات بيسر، ويحقّقون عند إنجاز مشاريعها السّهلة عوائد مهمّة كانت ستخرج العمّال من ضائقتهم، لو أنّه استمع إلى نصائحه.

- هذا هو دحّو ليسكرو «l'escroc»، وهكذا كنّا نسّميه.

عقّب موسى على كلام بومدين، موضّحا طبيعة دحّو المحتال.

تذكّر موسى بينما كان يتوجّه ناحية باب الصّالة الذي طرقته زوجته لإحضار الشّاي، أيّام كان دحّو مجرّد موظّف إداريّ بسيط في مقاولة الولاية، أخبر صديقيه أنّه قبل أن يتحوّل إلى شركة الجسور والطّرقات ويفرضه المدير السّابق كرئيس مصلحة، كان لا يتورّع عن اقتطاع جزء من أرباح عمّال مقاولة الولاية ليضعها في جيبه، كان العمّال لا يتجرّؤون على مواجهته بحقيقة أفعاله خوفا من سطوته. وافقه كريمو على كلامه حينما رفع بصره عن كأس الشّاي بين يديه، مازّا شفتيه ومحرّكا رأسه إلى أعلى وأسفل، أخبرهما وقد اختطف حبل الكلام من فيِّ موسى، كيف أنّ عائلة دحّو سئمت من تصرّفاته العابثة، وأنّه بلغته معلومات من صهره تفيد بأنّه

أرغم زوجته وأبناءه منذ يومين على مغادرة منزله في حيّ الكاسطور، والرّحيل إلى بيت اكتراه لهم في حيّ الرّياض، لأنه يعتزم الزّواج من عشيقته، تلك السّكرتيرة التي وظّفها بطريقة غير قانونيّة بعدما نجح في مسعاه الدّؤوب لإحضارها من مصنع الورق المفلس، حتّى تكون بالقرب منه: "إنّه ينفق عليها بإسراف وبذخ، وكلّه من أموال الشّركة والعمّال".

استعاد موسى، وهو يذكر لهما لقاءه بدحّو، لحظة أغراه في صباح ذلك اليوم بالمال مقابل أن يخفي بعض الحسابات عن لجنة التّفتيش الوزاريّة، قبِل كالعادة الظّرف الذي كان يحوي بعض الأوراق الماليّة، أكّد لهما أنّه فعل ذلك حتّى لا يثير حفيظته فيساوره شكّ أنّه قد أخذ منه موقفا عدائيّا. استحسن كريمو ردّة فعل موسى تلك، وأبدى لهما ضرورة أن يحافظوا على رباطة جأشهم ويتصرّفوا معه بحيطة وحذر:

- ينبغي أن نبقيه على يقين من عدم تخلّينا عنه ووقوفنا دوما إلى جانبه، لا نريد له أن يتّخذ ضدّنا أيّ إجراء قد يضرّ بنا.

- سنبقى على حذر منه طوال هذا الأسبوع، وعند قدوم اللّجنة، علينا أن نكشف كلّ الحقائق ونفضحه أمامها هذه المرّة، علينا تحضير جميع الأدلّة التي تثبت فساده وسوء تسييره.

وافقه موسى على كلامه بينما كان يرفع إبريق الشّاي عاليا ليصبّ في كأس بومدين الذي كان مقابلا له على اليمين، يرتفع منسوب الشّاي في كأسه وتتصاعد رغوة بيضاء تزداد كثافة لتأخذ لونا أكثر اصفرارا، يتناوله بومدين ويسحب منه رشفة مطلقا معها صوتا يحمل دلائل انتشائه بكلام صديقه واستطابته لمذاق الشّاي، أكّد لهما ممرّرا كأسه إلى يده اليسرى

وصانعا قبضةً باليمنى، أنّهم بعدما يتخلّصون من هذا الفاسد الفاجر، سيصبح بوسعهم تدبير أمور الشّركة وحشد جميع العمّال وتوعيتهم بالمصير المعقّد الذي يواجههم، الظّرف يحتّم تكاتف الجميع لحماية الحقوق، "لن نتخلّى عن مسمار واحد، فالحكومة لن تنصت إلّا لمن يثير الشّغب ويحتجّ على أوضاعه، أمّا الصّامتون فستبيع مؤسّساتهم من تحت أقدامهم لمن يدفع أكثر". قرّر بومدين بينما كان يرجّ قبضة يده.

يأمل موسى أن تسير الأمور في صالحهم، أعاد عليهما خبر حادثة إحراق المتطرّفين لمصنع الأجهزة الإلكترونيّة في تلاغ قبل أسبوعين، وكيف أنّه انتابه خوف شديد من أن يحدث لشركتهم المصير ذاته، تصطفّ بالحظيرة عشرات الآليّات والسّيّارات والشّاحنات، إنّها ثروة كبيرة، والمخازن والمستودعات يتراكم بداخلها من الموادّ والسّلع ما يسيل له لعاب اللّصوص، حاول كريمو أن يبدّد مخاوفه تلك، طلب منه ألا يقلق من هذا الجانب، أكّد له أنّه بعد استتباب الأمور لصالحهم فإنّهم سيقومون بتعزيز إجراءات الأمن والسّلامة، سوف يوظّفون حرّاسا ليليّين وسينشؤون أبراجا للمراقبة خصوصا في الجهة الخلفيّة المطلّة على الخلاء، قد يباغتهم المسلّحون منها وينفذّون أعمالهم التّخريبيّة، "سنبقى يقظين ريثما نحصل على مستحقّاتنا"، أصرّ كريمو.

* * *

14

لم يغادر جيلالي هانُوي مزرعة گاريگ، يمتلك بئرا في أرضه بالكاد تكفيه مع إخوته وجاريه اللّذين فضّلا البقاء إلى جانبه. أغلق قائد المفرزة الطّريق إلى سعيدة أمام القرويّين، لم يعد بإمكانهم الوصول إليها إلّا عبر الطّريق المؤدّية إلى مولاي العربي أيّام الأحد والخميس فقط، كان ذلك ردّا على تكثيف جماعة عاصم لنصب الكمائن وزرعها لعبوّة ناسفة في الطّريق، أدّى انفجارها إلى إصابة العديد من القرويّين كانوا في طريقهم إلى سوق المواشي في سعيدة التي أصبحت أبعد بعشرة كيلومترات عن السّابق.

أصبحت فنوان معزولة عن العالم الخارجيّ سائر أيّام الأسبوع، وأحيانا لأسبوعين، تحوّلت إلى مدينة أشباح تكنس الرّياح أزقّتها وأفنية بيوتها، يشتدّ عويلها فتصدر صفيرا مخيفا، كلّما تسرّبت بين مصاريع النّوافذ والأبواب الموصدة وبين جدران المنازل.

تكتظّ الذّكريات الأليمة أمام حمّام الحاج بوخاتم، وتنهار عند بوّابته التي لم تُفتح، منذ اكتمل بناؤه، أحلامُ صبايا فنوان وعرائسها المتبقّيات، الرّاغبات في الاستحمام فيه صبيحة دخلتهنّ المؤجّلة بعدما هجرها نصفهنّ.

غادر قابض مركز البريد مع عائلته، قبل ذلك كان قد سلّم عهدته للمصلحة خوفا من هجوم محتمل على الخزنة، على إثر أخبار نمت إليه حول عمليّات سطو نفّذها المتطرّفون على العديد من مراكز البريد في القرى المجاورة.

يتناقص زبائن محمود البقّال وتتكدّس بضائعه ويفسد بعضها جرّاء كسادها، دخل عليه جيلالي هانوي ذات يوم فوجده مكتئبا خلف مصرفه الخشبيّ،

يضع يده على خدّه ومرفقه فوق سجّل ديون الزّبائن الملقى على المصرف، كان البقّال قد اكتشف لتوّه احتواءه على مبلغ ضخم يتعسّر عليه استيفاؤه لظروف القروييّن القاهرة، بعدما رحل أغلبهم من القرية مضطرّين لمواجهة الإنفاق على مساكن في حيّ بوخرص وعين الحجر. يحاصره نسيج العناكب من جميع زوايا دكّانه الذي التهمه الغبار، طار من الفرحة حينما أبلغه هانوي بأنّه سيشتري منه جميع ما في بقالته، لم يتعب نفسه في التّفكير كثيرا أو حتّى في السّؤال حول ما سيفعله بكلّ تلك المستلزمات المنزليّة التي لا تحتاج أيّة ربّة بيت إلّا لجزء يسير منها لتدبير أمر أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، في قرية لا يتحمّل أيّ أحد يعيش بها كلّ هذه المصاريف التي يريد هانوي أن ينوء بها، اعتقد محمود للوهلة الأولى أنّ هانوي سيفتح بقالة وسيغتنم فرصة كساد تجارته لينقضّ على ما تبقّى من سلع متهالكة تكاد الأغبرة والعناكب أن تقضي عليها، لم يكن هانوي من صنف البشر الذين يتركون نظراءهم فريسة للشّكوك تنهش أمخاخهم، كان واضحا في تعليل تصرّفه غريب الأطوار ذاك أمام البقّال: "أريد أن أدّخر هذه السّلع لاحتياجاتي المستقبليّة".

لم يغادر محمود فنوان، حتّى بعدما صفّى بقالته التي أصبحت عبئا عليه، فلم يعد بمقدوره تزويد محلّه بالسّلع، ومنذ أن أغلق العسكر الطّريق صار سكّان فنوان يشترون أغراضهم من سعيدة ومولاي العربي، بدأ محمود بما جمعه من مال يتّجر في المواشي، كان ذلك أفضل من البقاء في سجن من السّلع الغذائيّة الكاسدة.

قرّر هانوي ألا يغادر فنوان طوال حياته، بات متأكّدا من أنّه أصبح مستهدفا من قبل المتطرّفين، رجل في مثل مكانته من السّلطة وتاريخه الثّوري والنّضاليّ، ومساره المهنيّ كرئيس لمزرعة ياحي قادة الاشتراكيّة، بعد الاستقلال وقبل أن تكيّفها الحكومة ضمن ما يشبه الخوصصة، دون أن تفصلها عن صفتها العموميّة بالمطلق وتقسّمها بين العمّال في شكل تعاونيّات صغيرة، من المستحيل ألا يكون مقيّدا في قائمتهم التي تحمل أسماء المغضوب عليهم، خصوصا وأنّه جاهرهم العداوة بإنشائه لفرقة الدّفاع الذّاتي التي أسهم بشكل أساسيّ في تسليحها. تأكُّده أصبح قناعة منذ أن انضمّ احميدة الباندي الذي كان حركيّا (عميلا) إبّان الثّورة إلى المتطرّفين.

يدرك هانوي جيّدا أنّ الباندي لن يرحمه بعد قطيعة بينهما استمرّت لسنوات، منذ أن قصده العميل القديم المجنّد في صفوف "كوموندوس كوبرا" التي كان يقودها العقيد الفرنسيّ بيجار زمن الاستعمار، كي يشهد على مشاركته في صفوف الثّورة ليتمكّن من الحصول على شهادة مجاهد، تفتح له آفاقا رحبة نحو الظّفر براتب شهريّ من وزارة المجاهدين إلى جانب امتيازات أخرى.

كان هانوي معتمرا قبّعته الصّيفيّة ومتمنطقا بحزام ذخيرة يحتفظ به منذ حرب فيتنام، ساعتها كان عائدا لتوّه من مغامرة صيد في أطراف غابة البرّاح، انهال على الباندي بسيل من الشّتائم والكلام البذيء قبل أن يهدّده بالقتل، وبعدما دخل المنزل ليحضر بندقيّته لم يجد سوى غبارٍ خلّفته أرجل الباندي الذي فرّ مع رجائه الخائب، لحق به وسدّد فوهة بندقيّته باتجاهه، أصابته طلقة في منتصف ساقه سبّبت له بعد ذلك عاهة مستديمة، لم تفارقه

الرّصاصة من بطّة ساقه حتّى أصبح يعرج أمام سكّان فنوان الذين لم يخفوا شماتتهم بتاريخه المخزي، مع مقدم المتطرّفين إلى القرية لاحت بين ناظريه فرصة اللّحاق بهم، بحثا عن مكانة جديدة تتيح له الانتقام من نظرة القرويّين الجائرة عنه.

لم يكن هانوي لينسى إبلاغ الباندي عن أمكنة تواجد الثّوار، والوشاية بهم عند العقيد بيجار والتّسبّب في تعذيبهم والبوح بمعلومات سريّة وهامّة للعساكر الفرنسيّين بعد استنطاقهم، مرّت ثلاثون سنة عن الاستقلال جعلت هانوي يتفادى الباندي، لم يغفر له خيانته تلك، كما لم يسعَ إلى إيذائه أو الانتقام منه، كانت جرأته وهو يطلب منه، حال عودته من رحلة صيد متعبة يتعكّر مزاجه غالبا بعد الانتهاء منها والاصطدام بمتاعب الحياة، أن يشهد لصالحه في إجراءات حيازة شهادة مجاهد، أمرا لا يتنافى فقط مع ماضيه المخزي بل يناقضه إلى حدّ بعيد، كانت تلك الحادثة بمثابة قطرة دم زائدة أفاضت عروق هانوي النّاضحة غضبا وحنقا على الباندي.

لا يمثّل الطّبع الحادّ أغلب حالات جيلالي هانوي النّفسيّة، يعرفه سكّان المناطق المجاورة لفنوان بكرمه منقطع النّظير وتدخّلاته في الإصلاح بين المتخاصمين من مختلف العروش، يكلّفه ذلك مالا كثيرا ينفقه على عزومات تصالحيّة تطيب بعدها الأنفس وتعود على إثرها مياه ركدت لسنوات إلى مجاريها السّابقة، وينسى معها المتخاصمون خلافاتهم التي كانت تبدو لهم أبديّة قبل ذلك.

أطلق في مرّات عديدة أبقارا ونعاجا وحميرا وبغالا لأصحابها، بعد أن كانت قد رتعت، وهم في غفلة عنها، في حقل أكبر أبنائه الذي كان يحتجزها

عندما يجدها قد قضمت مساحة معتبرة من زرعه العزيز، أكثرَ حتّى من واحد من أبنائه غلاوة على قلبه، كان هانوي يدخل إلى بيت ابنه ويفتح باب الحظيرة في غيابه ويخلي سبيلها، ليأخذها أصحابها دون أن يدفعوا أيّ تعويض أو مقابل لما سبّبته حيواناتهم من إتلاف لمزروعات ابنه.

لا يحبّذ هانوي أن يأكل لوحده، كان إذا عاد متأخّرا ووجد أهله قد سبقوه لتناول الطّعام، فإنّه ينادي أوّل من يجده في طريقه، حتّى ولو كان أصغر أحفاده ليشاركه نصيبه الذي تتركه له إحدى كنّاته أو بناته.

أمر هانوي أبناءه بالبقاء معه في القرية وعدم مغادرتها تحت أيّ ظرف كان، لم يكن بوسعهم غير الانصياع لقراراته، حتّى وهم كبار ومستقلّون عنه. كانت حادثة قصف بيته بالهبهاب سببا وجيها لأن يتركه ويرحل إلى بيت ابنه إبراهيم في القرية.

في منتصف نهار ذلك اليوم كان هانوي غافيا في غرفة من عادته أن يستعملها صيفا، فجدرانها العريضة المبنيّة بأحجار جبال المنطقة تتيح لها الاحتفاظ ببرودة استثنائيّة في حرّ فنوان القائظ، يعلم الباندي ذلك جيدا، كان واقفا على رأس المكلّف بإطلاق قذائف الهاون، القعقاع، أرسلته إمارة المنطقة مع المدفع الصّغير، يمتلك خبرة من الحرب الأفغانيّة الروسيّة مكّنته من أن يصيب جميع أهدافه بدقّة فائقة، يقولون أنّه بوسعه اصطياد عصفور به لو رغب في ذلك، على الرّغم من أنّ مدفع الهاون بطبيعته غير دقيق في إصابة أهدافه، لم يتردّد القعقاع كثيرا وهو يبعد عنه ارتباكا ساوره لحظة توجيه ماسورة الهاون نحو منزل هانوي، وبحسابات أجراها على دفتره الصّغير ضبط زاوية الإطلاق حسب المدى والمسافة

استنادا لسبّابة الباندي، التي لم ترتدّ عن وضعيّة الإشارة والتّوجيه، حتّى وضع القعقاع دفتره في جيب سترته الأماميّ بعد أن أحكم جيّدا قاعدة الهاون وضبط توازنه ببراعة، راح معها الباندي يطلق ضحكات كيديّة.

اكتفى القعقاع بخمس قذائف أصابت الجدار الشرقيّ لغرفة هانوي الذي استيقظ مفزوعا مذعورا، انغرست أربعٌ منها في الجدار الذي لم يتهدّم منه سوى بعض الأجزاء، رغم انفجارها الشّديد، غير أن قذيفة شقّت مسارها باتجاه النّافذة حطّمت لوحها وزجاجها، وانفجرت داخل الغرفة ملقية بشظاياها في المكان، أصاب العديد منها مواضع عدّة في جسم هانُوي، وجدته ابنته مغشيّا عليه، أدركه ابنه بعد ذلك وأخذه إلى عيادة المفرزة، تلقّى بعض الإسعافات الأوليّة ثمّ أخلاه النّقيب بسيّارة إسعاف مجهّزة إلى عيادة النّاحية العسكريّة بوهران، انتزع منه الطّبيب الجرّاح ستّا وثلاثين شظيّة، فقد كانت القذيفة محشوّة بالمسامير والأسلاك، وأجرى له عمليّتين معقّدتين على مستوى ركبته اليسرى وشريان في ساعده الأيسر، توقّف نزيفه تماما بعد أن وضع الجرّاح عليه مجموعة من الغرز.

* * *

يختال قائد المفرزة الجديد ممتطيا صهوة حصانه البربريّ ازرق دار بدار (رماديّ اللون)، تعلو نظّارتان زجاجُهما بلون السّماء تخفيان عينيه، أنفَه الدّقيق المستقيم الذي يتوسّط وجهه الصّخريّ الصّارم، بجبهة عريضة محدّبة وذقن مربّع. عصاه لا تفارق يده الغليظة كثيفة الشّعر، لم تكن لتحفيز الحصان على الإسراع فحسب، أضحت لها مآرب أخرى في نظر القرويّين، منذ أن تذوّق بشير ابن محمود البقّال لسعاتها الحارّة المؤلمة.

لم يجد بشير في ثاني أسبوع حطّت فيه الرّحال بالنّقيب قائد المفرزة وجنوده، بعد أن استوطنوا المتوسّطة التي قارب بناؤها على الاكتمال، فرصةً لصدّ ضربات تهاطلت عليه يمينا وشمالا كما العاصفة الثّلجيّة القارصة، من حظّ القروِيّين أن كان ميمون يهمّ بالخروج من بيته متثائبا ويده على فيه، هاله المنظر، تراجع خطوتين أعادتاه إلى البيت وترك بابه مواربا وسط ظلام دامس، ساعده على الاختباء ولم يحرمه من حضور مشهد المبارزة ذات الوجهة الواحدة؛ بوعصا، كما أصبح الفنوانيّون الذين يجهلون اسمه ويحبّون تكنية الغرباء يلقّبونه، وهو الذي حرص على إخفائه عن الجميع حتّى لحظة سماعه حكم قاضي المحكمة العسكريّة بإعدامه شنقا، غير بعيد عن عمود الإنارة العموميّة وبكلّ ما أسعفته ذراعاه المفتولتان، وبشير الذي كان يتلقّى ضربات عصاه كأنّه حارس مرمى ليس من صلاحيّاته الابتعاد عن حيّز مرماه، كانت الشّتائم تنهال على أذنيه ممعنة في إذلاله وهو ممدّد على الأرض يتلقّف ضربات قاسية أدمت ذراعيه ويديه. وقف بعد صولة خنَق غبارُها تأوّهاته فاستحالت إلى شهيق بدا معه كرضيع يستطيل رغاؤه حتّى ينقطع نفسه، نفض ملابسه المغبرّة وعاد أدراجه إلى منزلهم يتبعه هوان وخزي، حرص على أن يتركهما خارجا ويغلق الباب دونهما.

لم يكن بمقدور بشير أن يخفي أمر تلك العلقة المجلجلة، فما لبثت أن انتشرت التّعليمات الصّارمة في فنوان وبلغت أغلب سكّانها مع تباشير الصّباح، كان ميمون قد أذاع على أسماع نصف سكّان القرية وعيد بوعصا لبشير بجولة أشدّ قسوة، في حال رآه يتجوّل في أزقّة فنوان بعد الخامسة مساء.

لم يكن بشير الذي كان قد عاد لتوّه من رحلة البحث عن عمل له بعد تخرّجه من الجامعة، ليشيع نبأ العلقة التي أخذها حتّى لا يظلّ موصوما بعارها دون الآخرين بقيّة حياته، غاب عنه أمر حظر التّجوّل الذي فرضه قائد المفرزة فتأخّر إلى ما بعد الغروب، في يوم سدّت فيه غيوم سوداء حالكة ومرعدة سماء فنوان.

أفسد ميمون عليه خطّته دون أن يدرك نواياه في كتم أمر انتهاك بوعصا لكرامته، فباح بسرّ فات بشير أن يكون غيره على اطّلاع به. امتنع عن الخروج من بيتهم حتّى في النّهار، اختفى شهرا عن أنظار الجميع بعدما زعم أنّه سقط من حصان إبراهيم ابن هانوي فانسلخ جلد ذراعيه، أيّاماً وليالي طوالا قضاها في تجريب مراهم وأعشاب دوائيّة لإخفاء ندوب الكدمات وآثار الجروح، كلّ من عاده على فراش مرضه كان يلمّح له بامتنانه الكبير كونه كفاه شرّ الاصطدام بنقيب جديد، دون إدراك لتفاصيل تضاريس مزاجه الوعرة، التي استهان بها بشير حينما أصرّ على السّير في شواهقها ومنحدراتها بعد وقت حظر التّجوّل.

لم يكد القرويّون يتعرّفون على اسم بوعصا الحقيقيّ حتّى انتشرت كنيته في فنوان، على عادتهم في تكنية المميّزين والمعدومين على حدّ سواء، وكاد بشير أن يكون عقيقةً لتسمية النّقيب الكهل زائر القرية الجديد بمراسه الفظّ، لم يعرف له الفنوانيّون مذ ذاك اسما غير "بوعصا".

يحسن بوعصا استخدام لسانه اللاّذع أيضا، وبالقدر نفسه الذي يهشّ به هراوته معقوفة المقبض على الفنوانيّين كذلك، يُحدث وقعها على الرّأس صداعا نصفيّا يستمرّ لأسابيع. كلّما مرّ بجماعة من ثلاثة أشخاص فما فوق إلّا

وابتدرهم بعصاه، يضربهم بها من دون إعلان حرب حتّى، كان بعض عساكره وبتوصيّات وأوامر منه يمنعون التّجمعات والتّجوال داخل القرية بداية من الخامسة مساء.

بدأت التّجمعات تختفي من أزقّة فنوان بعدما أصدر النّقيب تعليماته الصّارمة عندما جمع أغلب شباب القرية قبالة الملعب، حينها كانوا منهمكين بمشاهدة ما يشبه بطولة القرية الكرويّة أو كأسها، لم يكن يعرف الاستئذان أو الملاطفة، كانت اللّباقة مراسا مغايرا وعلى النّقيض تماما من طبعه الحادّ ومزاجه المتقلّب، لم ينتظر حتّى تنتهي المباراة ليلقي إعذاراته وإنذاراته التي انطلقت من فمه تسبقه كرشقات كلاشينكوف. دخل الملعب على حين غفلة من لاعبيه، وقبل أن يرمي أحدهم الكرة استبقه بوعصا ووضع عليها رجله منهيا حماسا كان يستبدّ بالقرويّين الشّباب، وبعد أن أملى تعليماته الجديدة التي لا تقبل النّقاش، طردهم من الملعب وهدّدهم بمعاملة قاسية في حال رآهم فيه مرّة أخرى، كان وعيده نهائيّا لا تسبقه مقدّمات أو أيّ إمكانيّة للخطأ دون أن يمرّ بعقاب صارم وزاجر.

أتاحت له عيناه الحادّتان هيبةً سرعان ما كانت تتحوّل إلى رهبة، ينقطع لها نبض من يقابله بناظريه اللّذين ما يفتآن يذبلان تحت وطأتهما كزهرة لفحتها ريح ساخنة. منكباه العريضان وطوله الفارع ينضحان بطشا وغطرسة، من العسير على أيّ قرويّ أن يتحمّل الوقوف إلى جانبه لأكثر من دقيقة واحدة، دون أن يكون أوّل تفكيره الفرار منه، لقد فرض حظرا للتّجوّل بجسده المصقول كمصارع إغريقيّ، تخرّج قبل سنوات من المدرسة التّطبيقيّة للقوّات الخاصّة، المعروفة بمدرسة المغاوير، في بسكرة

بالجنوب الشرقيّ، صنعت التّدريبات القاسية منه كتلة من القسوة والعنف، كان مضمار المحارب لا يأخذ من وقته سوى بضعة دقائق، حوّلته قيادة أركان الجيش مع مئات من صناديد دُفعته إلى أماكن مختلفة من البلاد، منذ أن بدأت أوضاعها الأمنيّة تزداد سوءا، كان المتطرّفون قد انتشروا فيها كالطّاعون وأحكموا سلطتهم على قاطنيها، فأصبحت موبوءة لا يمكن علاج مشاكلها إلا بتشكيل مفرزات للجيش، تأخذ في نظامها شكل الحاميات المتموقعة عادة داخل تجمّعات سكنيّة تخترق الغابات الكثيفة، التي تشكّل مكانا مفضّلا للمسلّحين وموطئا ملائما لنشاطاتهم الدّمويّة.

يرتع السّاف، حصان بوعصا في حقول فنوان كلّها، دون أن يجرأ أيّ قرويّ على طرده من أرضه، يحبّذ الشّعير ويأكل منه بشراهة ونهم غير عاديين، يَفرُغ كيس النّصف قنطارٍ منه كلّ ثلاثة أيّام بين يدي العريف رحّال، المسؤول عن إطعامه والاعتناء به، كعسكريّ وجد نفسه وبدون رسميّات، منذ أن جلب بوعصا حصانه، سائسا لدى إمبراطور فنوان الجديد.

يضطرّ الفنوانيّون إلى تلبية نزوة الحصان المدلّل والمتكلّف، فيدفعون بجزء غير يسير من محصولهم من الشّعير في أمعائه الدّقيقة، يتضجّر إبراهيم كلّما شعر بدنوّ دوره في التّضحية ببعض أكياس شعيره الفاخر لروث السّاف المحظوظ، غالبا ما يدعو على الحصان بنفوقه وهلاكه حتّى يتخلّص من تكاليف باتت تثقل كاهله وأجبرته على أن يبيع حصانه كي يتفرّغ لبطل التهام الشّعير، لم يكن ليجسر على التّفوّه بذلك في ملأ من القرويّين،

يتوجّس من نسائم فنوان التي تحمل كلّ همسة خلسة إلى حاكمها العسكريّ الفظّ والبذيء.

مع العصر تصطفّ مدفعيّات الجيش بجانب ملعب القرية موجّهة فوهاتها نحو غابة البرّاح الكثيفة. تلتحف فنوان بإزار البؤس وتتسربل برداء الكآبة الغادرة، لا يكلّ الأسى بينما يغرس مخالبه القاسية في وجهها الوضّاء ويخدش نور سمائها الفسيحة، تاركا حمرة شفق مؤلم يجثم على قمم جبالها المفكّكة، وهي تعتصر من أشجارها الكالحة دخانا أسود، بعدما أحرقت قذائف المدفعيّة أوكارها وثنيّاتها وأغراسها، أتعبها قصف الطّائرات العسكريّة قبل أشهر، وأنهكها حرق الجيش لها في مطاردته للمتطرّفين. تستحمّ الغابة الطّاهرة برذاذ الضّباب المسجّى على ضفاف نبعها الرّقراق المتلألئ، وتشطف بأشعة الشّمس المنسحبة ندى نباتاتها السّابحة في فجاجها الثّملة، فتطرد الأرانب من جحورها وتبعث الأطيار من أعشاشها ويفيض الكون فزعا.

يرتعش الأفق المرعوب وتكبت صخور غابة البرّاح الصّلدة رجع صدى انفجار القذائف، وتزدحم أنفاس المغيب وتغصّ نسائمه الملوّثة بغبار الانفجار ورائحة البارود في حلق السّماء المشرئبّة أبراجُها، فتتفطّر على وقع رعود تمزّق فنوان الباهتة وترسل زخّات من دموعها المتحسّرة، فيتضمّخ تراب الغابة بمطرها الغزير ويبعث رائحته الشّذيّة، وتمتزج مياه السّيول المنحدرة بدخان القذائف فتقمعه، ويمتقع لونه الدّاكن فيستحيل إلى هباب سرعان ما ينكشح عنها، مرتاعا لهول ما عانته فنوان من ألم غائر في صدرها الطّريح على طرف الكون، يصيح ممسكا بطرفه الكسيح، تحاول

فنوان النّهوض لمواجهة قدرها المحتوم عساها تدفعه بقبضتها المرتعشة. تشيح بيدها فتسقط منهارة ويجثم اللّيل بعد تلكّؤ، فتستعيد الغابة سكينتها الهشّة كأوراق يابسة سرعان ما تكنسها نسمة مختلجة.

كان مقْدمِ الجنود من ثكنات تيندوف بالجنوب لتدعيم المفرزة، التي خَلَفَ بوعصا قائدَها السّابق على رأسها، بعدما فشل في القبض على جرذان الغابة، سبباً في تراجع عمليّات المتطرّفين، الذين فرّوا تحت وطأة قصف الطّائرات العسكريّة من منزل حارس الغابة بعد أن حوّلته إلى ركام من الحجارة، وحاصرتهم النّيران التي اندلعت في الغابات والجبال المجاورة، فقد قرّر الجيش حرقها لإرغامهم على الخروج منها على وقع الأدخنة الخانقة والحرارة اللّاهبة، ومن ثمّ يترصّد العساكر تحرّكاتهم ويكمنون لهم في أعالي غابة البرّاح، بعدما انكشفت الأرض واختفى غطاؤها الحرجيّ الكثيف، وبدت دروبها متاحةً لمدافع الطّائرات ورشّاشات الحوّامات.

تمكّن عاصم وجماعته من مخاتلة القوّات المحاصِرة لهم والفرار إلى الغابة الغربيّة على الحدود مع تفاسور، أين أنشؤوا كازمات مموّهة استقرّوا بداخلها واستجمعوا أنفاسهم إلى أن توقّفت العمليّة العسكريّة، ثمّ عاودوا نشاطهم من جديد، منتهجين استراتيجيّة مغايرة تستبعد المواجهة أو حتّى الاقتراب من العسكر. بدأت الجماعة تساوم الفلّاحين ومربّي المواشي والأغنام، خصوصا القاطنين في الضّواحي الرّيفيّة والدّواوير المجاورة. طلب عاصم من الميسورين منهم المزيد من الأموال وهدّدهم بالقتل في حال هم رفضوا ذلك، وقد تأذّى من هذا التّكتيك الجديد سكّان الدّواوير المحاذية للقرية بشكل كبير.

ألِف القرويّون تواجد قوّات الجيش وصرامته أيضا، بدؤوا في الاحتكاك بأفراده والتّعامل معهم، ومالوا إلى سلطته عليهم ونفروا من المتطرّفين، أصبحوا في حكم الموالين بشكل تامّ للحكومة وسياساتها الأمنيّة، واستحال بذلك على الإرهابيّين دخول القرية مع انتشار نقاط المراقبة التي أحاطت بها، وصار جنود المفرزة ينصبون الكمائن وينفّذون مهمّات التّمشيط والمرابطة ليلا داخل الغابة بشكل مكثّف، فاقتصر نشاط المتطرّفين على الدّواوير المحيطة، غير أنّ هذه القبضة الأمنية الخانقة وغلق الطّريق إلى سعيدة، بالإضافة إلى مراقبة الجيش وضبطه لمغادرة الفنوانيّين القريةَ، وقصره لذلك على يومين في الأسبوع بمرافقة قافلة من الجنود، جعل الحياة أكثر تعقيدا وأقلّ عمليّة بالنّسبة للسّكان، فأجبر المزيد منهم على المغادرة إلى حيّ بوخرص بسعيدة أو عين الحجر إلى الجنوب منها.

* * *

يهرول بوريق ومرزوق كمجنونين، يتهادى بينهما وعلى كتفيهما خيداس المصاب في قصف مدفعيّة الجيش، يتشكّل في الطّريق خلفهم خطّان ترسمهما قدماه المسحولتان، ويمتزج دمه بالتّراب، رأسه منخفضة تتأرجح يمنة ويسرة، كأنّ جلدة من رقبته التي بدت مقطوعة وهي تهتزّ، تعاند في بقائها وتتمسّك متّصلة بصلبه، فتحول دون سقوطها أرضا.

إصابة خيداس في حوضه بليغة، مدّداه بالقرب من كازمتهم التي ينامون فيها، احتار مرزوق فيما يصنعه من أجل علاجه وتطبيبه، إذ لا يمكن الاعتماد على مسعف الجماعة، معرفته محدودة تقتصر على تقديم بعض الإسعافات الأوليّة البسيطة، ويبدو من إصابة خيداس أنّ عظام الحوض

قد تفتّت والعضلات المحيطة به ممزّقة والدّم ينزف بدون توقّف، لم يكن من خيار أمامهم إلّا طلب المعونة من إمارة المنطقة، غير أنّ خطوة كهذه كانت لتأخذ وقتا، ولم تكن لتجدي نفعا، وحتّى جلب طبيب من سعيدة أو مولاي العربي لن يكون بالأمر الهيّن.

حاول المسعف جاهدا إيقاف النّزيف ببعض الوسائل البسيطة التي كانت معه، انهارت جهوده المتخاذلة حتّى قبل أن يتحرّك مرزوق إلى سعيدة لإحضار طبيب بعدما عزم على ذلك كحلّ نهائيّ وضروريّ، لم يكن هو الآخر ليضيف شيئا أمام حالة صحيّة جدّ معقّدة تتطلّب تدخّلا جراحيّا دقيقا داخل غرفة عمليّات مجهّزة.

دُفن خيداس بالطّريقة نفسها التي تواطأ المتطرّفون على دفن جثامينهم وجثثهم بها، لا مجال لأن يعرف غيرهم قبر ميّتهم، تُطمس معالم قبورهم ولا يبدو منها أثر، تختبئ أجسادهم وهم أحياء وبموتهم تختفي قبورهم أيضا.

كان خيداس إذ يلفظ زفراته الأخيرة، يعتقد جازما أنّه أخذ معه إلى عالمه البرزخيّ سرّ الأموال التي كان يخبّئها في غابة بوعتروس، تلك الأموال التي اغتصبها من الفنوانيّين وغيرهم من ضحاياه في مناسبات مختلفة، لم يكن يدري أنّ يحي مجاهد كان شاهدا ولمرّات عديدة على إخفائه لأكياس من رزم الأوراق النّقديّة، كان قد أخذها من كبار تجّار وملاّك القطعان في ضواحي فنوان الرّيفيّة، العوالي والكرارشة ويامدلس، ساعتها كان يحي الذي يعمل راعيا عند أحدهم يمرّ منفردا وسط الغابة، حينما لمح ظهر خيداس يتحرّك وكأنّه يتعارك مع شخص أو يخنقه، أدرك بعد مغادرته

للمكان قيمة الكنز الذي خبّأه داخل الحفرة التي كانت أشبه بمطمورة، كانت مصوغات الذّهب تمثّل جزءا وافرا منه، امتنع يحيى عن مدّ يده ولو لورقة نقديّة واحدة، وكلُّ ما حرص على فعله حينذاك كان أن يحفظ جيّدا موضع مخبأ خيداس وسط تلك الأشجار الكثيفة، التي كانت تضفي على جوانب المكان وزواياه شبها إلى حدّ التّطابق.

لم يكن ليغيب عن يحيى مكان مخبأ الكنز حتّى استقر في رأسه كما اسمه، منذ ذلك الزّمان ارتبط كثيرا بخيداس، غالبا ما كان يدعوه لتناول الطّعام في بيته المتوغّل داخل دُوّار يامدلس، كان يفتعل افتراقا عنه بعد توديعه مع رفاقه، ويختبئ عنهم مقتفيا أثرهم بعد ذلك، دون أن يشعروا بحركاته المختلسة كثعلب ماكر، أحيانا كان يمضي وقتا طويلا بجوار مخبأ الكنز، يرقب خيداس على حين غفلة منه وهو يخبّئ بعض الأموال، كانت أغلى أمنياته أن يختلي به فيخنق أنفاسه ويزرع جثّته في شِعب من شعاب غابات المنطقة الكثيفة، غير أنّ القدر خالف موعده وحالف أجل خيداس، لكن يبدو أنّ مقتله أحيا في نفسه تلك الأماني القديمة.

حينما انقطعت أخبار خيداس لم يكن يحيى ليسأل عن أحواله، حتّى لا يثير الشّكوك حوله، فيعتقد المسلّحون أنّه عين الاستخبارات العسكريّة عليهم، وأنّه هو من دلّهم على مكانهم فقصفوه بالمدافع.

يكاد يحيى يطير فرحا إذ يرصّ رزم المال وحزم المصوغات داخل قبو في بيته يعود إلى زمن الاستعمار، كان والده المجاهد الثّائر الذي أنشأه بيديه يستخدمه للاختباء عن أعين العساكر الفرنسيّين، غالبا ما كانوا يعقدون الاجتماعات الهامّة لقيادة الثّوار بالنّاحية داخله، وكثيرا ما اختبأ بداخله

خيداس ومرزوق وڨرطوع وطراڨو، عندما كان العساكر يباغتونهم بعمليّات تمشيط بالمنطقة ساعة تواجدهم بها، كان مكانا مثاليّا واستراتيجيّا للاختباء والاسترخاء معا.

من داخل بيت يحيى وحتّى من الخارج، لا يمكن لأحد سواه أو لغير من تعوّد على دخول القبو أن يدرك وجوده أصلا، يكفي أن يزيح بعض الحجارة والحصى والتّراب من فوق غطاء حديديّ أمام باب بيته، حتّى تظهر فوهة ينزل منها درج إسمنتيّ يؤدّي إلى حفرةً عظيمة في الأرض، تشكّل قاعة فسيحة ومظلمة، يستطيع أطول إنسان أن يقف في وسطها دون أن يلامس سقفها الخفيض. في مرّات عدّة، دأب ڨرطوع وطراڨو على اللّجوء إلى ذلك القبو السّرّي هربا من عاصم، وبرفقة يحيى، أين كان يتسنّى لهم تمضية بعض الوقت، يتداولون خلاله معا سجائر ملغّمة بالكيف ويديرون بينهم كؤوس الخمر.

* * *

أمام مزرعة بمنطقة بوشاوي يجلس مسعود، يمسك بفنجان قهوة ويستمع في إنصات شديد إلى صاحبها، كان ضابط الدّرك قد عرّفه عليه، اسمه شعبان البليدي، كان يروي لمسعود قصّته مع مافيا العقار كما يصرّ على تسميتهم، هم مجموعة من أصحاب النّفوذ المسنودين من قبل جهات حكوميّة وقضائيّة وعسكريّة، قاموا بابتزاز مئات الفلّاحين واستولوا على مزارعهم التي تعود إلى الحقبة الاستعماريّة، وقعت هذه الحوادث بعدما أصدر رئيس الجمهوريّة مرسوما قبل ثلاث سنوات بغرض إنشاء محميّة للدّولة يقطن بها المسؤولون من ذوي المراتب الوظيفيّة العليا؛ أعضاءٌ في الحكومة

ودبلوماسيّون وضباط في الجيش والأجهزة الأمنيّة وأثرياء متنفّذون، كان ذلك بهدف توفير الحماية لهم إبّان أزمة أمنيّة أصبحوا معها عرضة للاغتيال من قبل الجماعات الإرهابيّة.

ما حزّ في نفس البليدي هو أنّ الوعاء العقاريّ الذي أقيمت عليه تلك المحميّة كان أرضا زراعيّة تتشكّل من العديد من المستثمرات الزّراعيّة الجماعيّة والفرديّة، قامت مديريّة أملاك الدّولة بنزع ملكيّتها من أصحابها تحت ذريعة المنفعة العامّة، وأقامت الحكومة عليها فيلّات رئاسيّة فخمة وسكنات لإطارات سامية في الدّولة. كانت تلك الأرض من أخصب الأراضي الزّراعيّة وأجودها، ليس في الجزائر فحسب، بل على مستوى العالم بأسره، وإذا كان هناك من شيء قد أغرى فرنسا باحتلال الجزائر في الثّلث الأوّل من القرن التّاسع عشر، فإنّها تلك الأراضي بلا ريب.

لم يبق في هذا المكان غير شعبان البليدي، جميع من كان إلى جواره استسلم لتهديدات المتنفّذين وابتزازاتهم وإغراءاتهم بالمال أيضا، غادروا المنطقة كلّهم. في وجه البليدي الأسمر يشقّ أخدود سميك وطويل خدّه الأيسر، تعترضه غرز تمتدّ على شاكلة خطوط صغيرة؛ من الأعلى بالقرب من حاجبه إلى أسفل ذقنه، جعلته أشبه ما يكون بخطّ سكّة حديديّة، كان ندبا لجرح أصيب به قبل سنتين، لم يكن حادثا عرضيّا داخل أحد إسطبلاته في المزرعة، فقد نجم عن ضربة بخنجر لوّح به صاحبه في الظّلام وفرّ دون أن يتعرّف عليه شعبان، لم يترك خلفه آثارا تدلّ على صلته بجريمته، تركه غارقا في بركة دماء وفرّ في الظّلام.

قبل هذه الحادثة بأشهر حينما كان شعبان يقود سيّارته عائدا من زيارة لأقربائه، قريبا من منطقة الشّفّة، حاصرته في طريقها الجبليّة الوعرة سيّارتان واحدة من الأمام والأخرى من الخلف، ناور مطوّلا لتفادي الاصطدام بهما، بينما كان سائقاها يفتعلان ذلك عمدا، وبعد احتكاك ومحاولات مضنية لإيقافه فقَد السّيطرة على توجيه عجلة القيادة في أحد المنعرجات الخطيرة، كانت سرعة سيّارته الهاربة جنونيّة، وجد نفسه يتقلّب بها في منحدر سحيق، في الأخير خرج منها سالما لكن بذراع مكسورة.
إلى جانب صينيّة القهوة أمامهما، تتكدّس رزم من الأوراق والوثائق والعقود على طاولة من الخشب، أخرج منها شعبان عقد ملكيّة للأرض موثّقا منذ زمن العثمانيّين قبل مجيء الفرنسيّين بسنوات وأراه لمسعود، قال له أنّ الأرض كانت لجدّه الأكبر. بعد الاستقلال حصل والده على قطعة صغيرة من تلك الأرض الممتدّة، كان يعمل بها بعدما صارت مزرعة عموميّة، قسّمتها الحكومة فيما بعد على العمّال، وعقب وفاته صارت تحت تصرّف ابنه.
رفع شعبان من تحت الرّكام أجندة صغيرة بنيّة اللّون بمساحة الجيب، فتحها وراح يقلّب صفحاتها، انشدّ مسعود لشكل الأجندة ولونها، لم يكونا غريبين عنه، في الأعلى عند إحدى صفحاتها أشار شعبان إلى اسم محاميه يقابله عنوان ورقم هاتف مكتبه، قال إنّه زاره في مزرعته ذات مرّة وجلب معه خبيرا زراعيّا، ضحك شعبان بشدّة بينما كان يذكر له ذلك، خلال القضيّة التي رفعها عليه أحد المتنفّذين أصدرت المحكمة قرارا باللّجوء

إلى خبير زراعيّ محلّف، للتّأكّد من كون الأرض غير زراعيّة وأنّها صالحة للبناء كما ادّعى خصم شعبان.

لم يرغب مسعود بمقاطعة حديث شعبان، تجنّب أن يعقّب عليه أو أن يشكّك في صدقية ما يرمي إليه ويدّعيه ضدّ من يحاولون إخراجه من أرضه، كان البليدي منفعلا جدّا أثناء حديثه، شعر مسعود بأنّ أيّ سؤال منه قد يكون استفزازا له، أخبره بأنّه يودّ مقابلة المحامي والخبير الزّراعيّ. ابتسم شعبان، ذكر له بأنّه على يقين من أنّ قضاة المحكمة سيقفون إلى جانب خصومه، دون أن يلتفتوا إلى خبرة المهندس الزّراعيّ، الذي أكّد له بدوره أنّ كلّ ذلك ما هو إلا مسرحيّة هزليّة يصرّون على الاستمرار في عرضها:

- "المتّيجة أرض صالحة للبناء؟! أيعقل هذا؟! هذا لا يحتاج إلى خبرة من البداية، لو التقطت من الشّارع شخصا مصابا بمتلازمة داون وسألته عن ذلك، فسيقول لك على الفور أن القضاة مصابون بعمى ألوان". ختم الخبير الزّراعي تأكيده السّاخر لشعبان.

تحمّس مسعود لسؤال شعبان، حينما رأى مكان نواجذه المختفية من لثّته يشعّ تبسّما، عن يقينه المبالغ فيه من كون القضاة سيقفون حتما إلى جانب خصومه، قد تأخذ القضيّة مجرى آخر، ربّما يكون القضاة الممسكون بها نزهاء وسيفصلون في النّهاية لصالحه، حاول طمأنته وتبديد تشاؤمه، لكنّ شعبان أصرّ على موقفه:

- ليس القضاة من سيقرّر هذا، المال أو الكلاشينكوف، أحدهما من سيفعل ذلك. رفع شعبان شفته بإبهامه فظهرت من تحتهما لثّة خالية من الأضراس، ثم استأنف كلامه مؤكّدا على صحّته بتفكّه:

- هذه اقتلعتها جلسات المحاكم، لم أنتزعها عند طبيب أسنان.

* * *

تتنهّد ميمونة في الصّالة الباردة، تزيح الغطاء عن رأسها، بعد أن خنقتها الهواجس المشتعلة في قلبها الملتهب، تغالب الأرق ولا تستطيع النّوم. كلام بختة لها في المطبخ بعد الغداء لا يزال يرنّ ويطنّ في أذنيها، ويدفع بإلحاح غفوات تتردّد على عينيها الذّابلتين والمنهكتين من كثرة الإبكار سائر أيّامها، تحاول جاهدة تبديد غيوم الخلاف داخل هذا البيت الذي يشنّج ضيقه أمزجة ساكنيه، لا تفتأ تذكّر ابنيها رشيد وحليمة، مُسرّة إليهما، بالتزام الهدوء وعدم الانسياق وراء استفزازات بختة المستدرجة.

قبل الجميع تنهض، تحضّر الفطور وتنظّف البيت وتتفقّد كلّ شيء فيه يحتاج إلى إصلاح أو تعديل، تستبق استيقاظ بنتي أخيها فتوقظ ابنيها وتصطحبهما إلى الحمّام وتوصيهما بالإسراع قدر الإمكان، تتفادى كلّ احتكاك وأدنى ملاحظة قد تفجّر قنبلة موقوتة مخبّأة بإحكام داخل النّفوس الكتومة، تُتكتك منذ زمن دون أن تشعر بها، تُتعب نفسها طوال النّهار في الطّبخ والغسيل والجلي والكنس، رضيت مرغمة بالعقد التّوافقيّ غير المعلن بينها وبين بختة، اتّفاق حول السّخرة الطّوعيّة، يُخضعها لمشقّة أشغال البيت لتحظى في المقابل باستقرار وسكينة لها ولابنيها وكذلك لأخيها موسى، لا تريد له أن يقع ضحيّة الاختيار الصّعب ما بين المرّ والحامض، تتفادى أن تتسبّب له في الإحراج الذي تفرضه عادةً مواقفُ تأزّم العلاقة بين طرفين، كلاهما يمثّل حليفا استراتيجيّا لا يمكن التّخلّي عنه، لا ترغب في أن ترى موسى يستعيد ذكريات الجامعة في معهد المحاسبة،

ليقف مذهولا أمام معادلة صفريّة لا تقبل نتائجها أنصاف الحلول أو القسمة على اثنين، لا تريد أن تشقّ على أخيها وتثقل حمله أو تحمّله المزيد من الأعباء، يرتاح بالها حينما تكون منغمسة حدّ الهذيان في الأشغال الأكثر إيلاما في حياة البشر، وهي ترى بختة منشغلة في عالمها المريح أمام شاشة التّلفاز، مستلقية على جنبها ومتّكئة على مرفقها، تقلّب القنوات الفضائيّة ولا تخرج من مسلسل إلّا لتدخل في آخر، تحمد الله كثيرا على هذا الاختراع الجديد، الذي يساعدها كثيرا في استتباب الهدنة أحاديّة الأطراف وعدم خرق بختة لها.

تدرك ميمونة جيّدا من هي بختة، تلك المرأة الفظّة النّزقة، الماكرة غالبا، تتذكّر جيّدا أنانيّتها عند زواجها بموسى، كان يريد خطبة أختها الصّغرى الهادئة والمتعقّلة والمتّزنة كاسمها، سكينة، لولا أنّها فرضت إرادتها على والديها اللّذين اشترطا على موسى وهو ناكس رأسه ومشبك يديه بين أيديهما، يطلب حسبهما ونسبهما، أن يتزوّج كبرى بناتهما، فوافق مضطرّا، حينها كان يريد الاستقرار بعد زواج أخته الوحيدة من بلقاسم مولاي، كان يعيش حياة صعبة في بحره بفيلاج بوديّة، لم يكد يصدّق أنّه بإمكانه العثور على امرأة تقبل به وبأوضاعه العسيرة، لقد طرق كلّ باب توجد خلفه امرأة عزباء دلّوه على عنوانها وأرشدوه لخطبتها، وخرجت أخته ميمونة من كل تلك الأبواب تتحسّر على طالع أخيها وخيبتها في أنّها قد لا تراه يبني حياته المحطّمة، ويلملم أحلامه المبعثرة كقطع زجاجة متكسّرة ومتناثرة.

كان شرط والد بختة، على قسوته، قد أعاد له الأمل في أن يصبح لوجوده معنى في هذا الكون المضطرب، بعدما فشل في الحظوة بأختها سكينة التي خفق لها قلبه حينما لمح طيفها ذات مساء، حال مروره بمحاذاة حلاّقة فيلاج بوديّة، كانت سكينة تهمّ بمغادرة المحلّ، وفي أكمل ما تكون فيه امرأة في شبابها اليافع من زينة تخدّر أعتى الرّجال زهدا في النّساء، بينما تحرص على سترها عنهم؛ فتحت الباب لحظة مرور موسى، كانت تهمّ بتغطية شعرها الأسود الفاحم الفتّان، حينما رآها موسى اصطدمت عيناها البنيّتان الواسعتان بناظريه فشلّتا حركته ولم يستطع المضيّ، أرسل ابتسامةً طرَف لها جفناها الشّاسعان خجلا وانغرست أسفل خدّيها البارزين غمّازتان جذّابتان، توقّف عندها إذ ترفع جلّابتها عن ساقها الأبيض النّاعم لتتجاوز به عتبةَ المحلّ واضعة قدمها أمامه، كادا يرتطمان لولا أنّها استجمعت توازنها، رؤية جمالها الأخّاذ وافق لحظة تفكيره في حاجته الملحّة إلى امرأة تشعره برجولته، التي سئمت النّوم على سرير منفرد طوال حياة رتيبة كمياه مستنقع راكد. وقفا ينظران إلى بعضهما برهة؛ اعتذر منها متأسّفا، لم تشح بوجهها عنه حتّى غادرها بعدما أيقن أنّ التّمعن في جمالٍ، غالبُ ظنّه أنّه لن يكون له، سيعطّل مسار حياته الحتميّة ويسبّب لقلبه المسكين مزيدا من الكدمات المؤلمة.

كانت نظرة موسى لسكينة تُثير مكامن الأنوثة الجامحة والمتوحّشة في أصابع قدميها، وتروي أرض مشاعرها العطشى لمطر عينيه العسليّتين اللّتين يعلوهما حاجبان كثّان ينضحان فحولة، وتُفجرّ شعيرات محتقنة داخل أحشائها المضطربة، تلفّتت تتابعه بعينيها. لقد عرف من تكون، إنّها ابنة الحاج عبد

الرّحمان صاحب حمّام فيلاج بوديّة، واللّيلة عرس أخيها مراد، وها هي ذي سكينة عند حلّاقة الحيّ تجهّز نفسها للسّهرة التي تتشوّف لها العازبات كما يترصّد الزّهاد انتصاف الشّهر لصيام الأيّام البِيض.

تألّم موسى بعد زواجه بغيرها كثيرا، ولضياع فرصة الارتباط بجمال ساحر ونادر، تأسّف وتحسّر كثيرا لكون الحاج عبد الرّحمان وزوجته لم يتفهّما وضعه العاطفيّ وظروفه الرّومانسيّة، فراحا يشترطان الزّواج بالكبرى، ليس هناك ما هو أصعب من فهم المشاعر وقراءتها، يبدو أنّها أعقد حتّى من تلك المعادلات الاقتصاديّة التي كان أساتذة الجامعة يبيّضون بها سبّورة المدرّج الخضراء أيّام كان طالبا.

غير أنّ موسى لمّا صار زوجا سرعان ما نسي أمر هيجان المشاعر ذاك، كانت تقاسيم وجه بختة تكاد تُطابق ملامح أختها سكينة الأكثرِ جاذبيّة، حتّى وهي تخرج من عند حلّاقة الحيّ ليلة زفاف أخيها مراد، ولعلّ هذا الأمر خفّف عنه بعض الشّيء من عناء التّفكير في سكينة التي لا تزور بيت أختها، منذ أن تزوّجت هي الأخرى، حتّى لا تهيّج مواجع موسى وتثير حرقة فؤاده وتفجّر أوردته ندما على إضاعتها من بين يديه.

كان موسى قد صرّح لسكينة، قبل خطبته لأختها، بتباريح حبّه ورغبته في الزّواج منها، لم تنتظر ساعتها طويلا حتّى تزفّ له قبولها بعرضه الثّمين والمغري، إذ تَحني وجهها الحييّ حينما واعدها في حديقة لامارين، كانت أغنية " كلمات" لماجدة الرّومي تصدح في المكان، كلماتها كانت تنبعث من ديسكوتيك مقابل للحديقة، وجم موسى إذ يستمع لكلمات نزار قبّاني، لم يستسغها منه كثيرا على الرّغم من كون ماجدة قد وفّقت إلى حدّ بعيد في

تأدية أغنيتها، إذ كيف لمحبوبته الحمقاء والخرقاء تلك أن تصدّق كل ذلك الكذب الطّافح؟! أيعقل أنّه كان بوسعه أن يهديها شمسا وصيفا وقطيع سنونوات؟! لو كان سرب نحل أو صرعوفة نعاج حتّى، لكان ذلك معقولا ووجيها وقابلا للتّصديق.

كانت سكينة تستمع لموسى بإنصات شديد، بينما كانا جالسين على ثلاث لوحات تعتلي كرسيّا حديديّا طويلا في الحديقة، صامتين يتأمّلان نخيلها الباسق المحيط بهما بثماره التي تخفق دائما في أن تتحوّل إلى تمر، على عكس ما هو الحال عليه مع نخيل الصّحراء. كان موسى يروي لها أشياء تدوّخها، تنسيها المرقص والخطوات، يردّد على مسامعها كلماتٍ ليست ككلمات نزار، لكنّها ورغم كلّ شيء، كانت تَقلِب تاريخها وتجعلها امرأة في لحظات. كادت بقايا زغرودة كانت مختبئة بين حبالها الصّوتية أن تنطلق من حنجرتها الرّقيقة التي بُحّت في عرس أخيها مراد، حينما قطع صاحب الدّيسكوتيك كلمات ماجدة ووضع بدلا عنها كلمات الزّهوانيّة التي راحت تغنّي "سكنت مارساي"، يبدو أنّ سكينة لم تجد اللّحظة المناسبة لتطلق دويّ تلك الزّغرودة الآسر الذي يختطف أحاسيس الرّجال المرهفة، فقد خذلت الأقدار موعدهما الخائب، وصارت كالرّيشة تتقاذفها النّسمات العاتية وتطوّحها في كلّ مكان، وجدت نفسها وهي تعود إلى طاولة مطبخ بيت أبيها في فيلاج بوديّة، لا شيء معها سوى بعض الكلمات من كلام موسى المعسول، تُقطّع البصل وتندب حظها العاثر وتتأوّه تماما كما كانت ماجدة تتأوّه، حينما تأكّد لها أنّ موسى لن يتمكّن من أن يحملها معه في يده... آآاه في يده... لذلك المساء ذي الشّرفات الورديّة، بعد شرط والديها الذي

أملته عليهما بختة. صحيح... أنّ موسى أخذها من ذراعها وزرعها في إحدى الغيمات التي كانت تمرّ بالقرب من الحديقة تمخر عباب السّماء، وأنّه أسكنها للحظات في قصر الوهم ذاك، الذي بناه لها، لكن سرعان ما دمّره ذلك المطر الأسود الذي كان يتساقط زخّاتٍ زخّات، هكذا بدا لها وهي تذرف الدّموع من عينيها بسبب ذلك البصل اللّعين الذي لم تتمكّن من تقطيعه حتّى قطّع عينيها.

أمّا بختة، أختها الماكرة، التي لم ترض بمجرد كلمات سخيفة، كونها قد حظيت بزوج ستتمتّع معه بثروة طائلة سيصنعها بعد خمس سنوات من زواجهما، صار تحمّل مشاغبها ومشاكساتها مقدورا عليه، ما إن ترجع من عند حلّاقة فيلاج بوديّة بتلك الهيئة المليئة بالسّحر والجاذبية، كانت تذكّره بأوّل لقاء له مع سكينة. كلّما شعر بحاجته إلى لحظات رومانسيّة تنسيه مرارة أوقاته الصّعبة، يطلب من بختة أن تذهب إلى حلّاقة الحيّ عقب اغتسالها في حمّام أبيها، كانت حال عودتها واستلقائها بجانبه، بعدما تدير له ظهرها جالسةً على كرسيٍّ ولنصف ساعة، أمام مرآتها المعلّقة على منضدة الزّينة، تعيد له صفاء مشاعره، وتنسيه سكينةَ ومواجعها وتشعرُه بلذّة غامرة، لا تنطفئ إلّا بعد أن يدخل معها في نوبة جنون فوق سريرٍ ملتهب.

* * *

IV

شهوة الثّروة

15

في الدّاخل وعند بوّابة بازاره الجديد بشارع أحمد مدّغري الذي يشقّ المدينة نصفين منحدرا من شرقها إلى غربها وكأنّه نهر من إسفلت، يختبئ موسى في مكتبه الزّجاجي الصّغير الذي يقتطع جزءا من الرّكن الأيسر لمحلّه الشّاسع، يطلّ المكتب على جميع زواياه ويترصد كلّ حركة أو أيّ محاولة لسرقة تحفة نفيسة أو قطعة غالية. يكرّر موسى النّظر في ساعته الثّمينة، يضع يديه في جيبي سرواله، يذرع المكتب الصّغير ماشيا طولا وعرضا، جيئة وذهابا، يقف خلف ظهر كرسيّه الهزاز يلفّه بيديه ويتأفّف في انزعاج شديد، غير مبال ببرودة نسائم المكيّف فوق رأسه في يوم حارق.

ينتظر موسى قدوم صديقه المحامي الذي يبدو أنّه تأخرّ بأكثر من نصف ساعة عن موعده الذي حدّده له عندما اتصل به على هاتف المحلّ. يبدو الانزعاج على ملامح موسى الذي أصبح أكثر انشغالا عن ذي قبل، منذ أن أخذ مبلغا ضخما كمستحقّات له عن تصفية الشّركة التي كان يعمل بها، بعدما تمّ تقسيم أصولها المنقولة وغير المنقولة بين العمّال. أقام موسى صلة وثيقة بدحمان بلحاج، المحامي الذي سبق له وأن تابع الإجراءات القانونيّة لبيع شركة الجسور والطّرقات وتقسيم أصولها على الموظفّين والعمّال، كانت تربطه بموسى صداقة ليست بالحميمة منذ أيّام الدّراسة، دفعت بمحاسب الشّركة المفلسة الذي بات يشغل منصب مصفّي شؤونها حاجةٌ ملحّة إلى أشهر قانونيّ متمرّس وأشدّهم ارتباطا وأعقدهم صلات بالأوساط القضائيّة، ليقوم بتسوية الأمور بطريقة تجنّبه صراعا مع العمّال، وقد تمكّن

موسى من التّعرف على وكيل الجمهوريّة وبعض القضاة عن طريقه، ومنذ ذلك اليوم الذي نجح فيه المحامي دحمان بلحاج في مهمّته، أصبح مرجعا لموسى في شؤونه القانونيّة لتسيير شركاته الجديدة الخاصّة به، ولجميع أعماله التي باتت تزدهر يوما بعد يوم، كلّ ذلك بفضل شبكة علاقات صديقه المحامي الذّهبيّة والممتدّة التي أفادته كثيرا.

العديد من الموظّفين السّامين في سلك القضاء، من بينهم وكيل الجمهوريّة وثلاثة قضاة، لا يجدون غضاضة في قبول الهدايا من موسى والحصول على بعض الأغراض من محلّه الواسع بوسط المدينة، ولا يتورّعون في أخذ المال منه مقابل المشاريع التي يتوسطّون له في الحصول عليها، تمكّن موسى بعدها من مدّ صلات بمدراء البنوك في المدينة، وتحصّل على قروض دون أدنى ضمانة، في بداية أنشطته كان يستحوذ على بعض العقود، أصبح يزوّد بموجبها العديد من الإدارات المحليّة بالتّجهيزات المكتبيّة وقطع الغيار والإعلام الآليّ، ثمّ استطاع أن يفتكّ صفقة كراء حافلاته، التي تشتغل في خطوط النّقل داخل المدينة، لنقل طلبة جامعة وهران من الإقامات الجامعيّة نحو المعاهد والعكس، واستحوذ على العديد من الصّفقات والعطاءات المجزية، بعدما أسّس مقاولة في الأشغال العموميّة.

أصبح لموسى بوزيد صلات بقائد المجموعة الولائيّة للدّرك الوطنيّ والمدير الولائيّ للأمن والوالي ورئيس الدّائرة والعديد من المدراء التنفيذيّين بالولاية، مكّنته من الظّفر بمشاريع مربحة في البناء والرّيّ والأشغال العموميّة، اشترى بثمن زهيد، بما سحبه من قروض بنكيّة من بعض أصدقائه القدامى في شركة الطّرقات والجسور جميع آليّاتهم التي كانت تستخدم في

شقّ الطّرقات وتعبيدها وبناء القناطر والجسور، بل إنّ بعضهم ممّن كانوا يشغلون مناصب إداريّة في الشّركة المصَفّاة وافقوا على طلبه للعمل في شركته فاستفاد بذلك من خبراتهم وعلاقاتهم، وبدأت نشاطاته التّجاريّة والمقاولاتيّة في التّوسع حتى أضحى في ظرف وجيز إمبراطور المدينة بلا منازع.

كان موسى على موعد هامّ مع المحامي بلحاج ليربط علاقة جديدة بينه وبين بعض المسؤولين، ستفتح له أبواب الثّروة الفاحشة التي ظلّت موصدة أمامه لزمن طويل. أطفأ سيجارته في المنفضة ونادى على العامل الذي ينهمك في ترتيب بضاعة جديدة على الرّفوف:

- زينو... سأذهب لقضاء بعض الأمور، لا تنتظر عودتي، أغلق المحلّ بإحكام بعد أن تسجّل في دفتر الإيرادات عوائد اليوم وتخبّئها جيدا داخل الصّندوق.

يضع زينو المقرفص بجانب رفّ طويل ومرتفع آنيةً خزفيّة على الأرض بعناية فائقة، يستقيم واقفا ويردّ على مستخدِمه:

- لا تقلق سي موسى، ستسير الأمور كما تحبّ.

يتلكّأ دحمان بلحاج على مقربة من محلّ موسى الذي لمحه في مواجهته، رأسُه إلى الأسفل مشبكا يديه وراء ظهره، يركل برجله علبة سجائر فارغة كانت ملقاة على الأرض، تعمّد موسى مباغتته فوقف فجأة في طريقه، كاد أن يصطدم به لولا أن فاجأه ممسكا بكتفيه، أطلق ملاحظاته على مزاجه المضطرب:

- بواخرك غارقة اليوم ولم تتمكّن من تفريغ شحناتها في الميناء أستاذ دحمان.

- عذرا على تأخّري عن الموعد، جلسةٌ بالمحكمة أخذت أكثر من وقتها المتوقّع.

- ويبدو أنّك خسرت المعركة أمام وكيل الجمهوريّة.

حاول موسى أن يستفزّ محاميه، كانت حيلة منه كي يجعله يبوح بحقيقة شروده المختبئة في رأسه كما تختفي يداه المشبكتان خلف ظهره.

- كلامك مستفزّ.

فكّ دحمان الاشتباك بين أصابعه وبسط يديه، كأنّما يوضّح لموسى بيديه الفارغتين خطأ ظنونه ومزاعمه، ثمّ واصل حديثه:

- انتظر حتى تسمع بقيّة الحديث ولا تستعجل أحداثا لا أساس لها.

كان دحمان قد التقى وكيلَ الجمهوريّة في المحكمة، أبلغه أنّه يحتاج لموسى في أمر هامّ، فكّر أنّ ذلك يستدعي حفلة عشاء بفيلّا موسى الجديدة حسب ما أوحى به مضمون كلام رجل القضاء، لن يفكّ شيفرته سوى محامٍ متمرّس في مثل فراسة دحمان بلحاج، أضاف له بعدما اتّفقا على العزومة أنّ هناك أشخاصا لهم وزنهم ينبغي أن يكونوا من بين المدعوّين، لم يمانع دحمان، وبدأ يخطط أثناء حديثهما كي يجعل من الحفلة فرصة لعقد صفقات أكثر وأكبر، "ضربة بالفاس خير من عشرة بالقادوم" كما يقولون، قال دحمان لموسى الذي رحّب بالفكرة:

- وأين المشكلة مرحبا بهم عندي، طالما أنّ عزومة كهذه ستدرّ علينا مشاريع مربحة.

تملّك دحمان حساسيّة مفرطة تجاه ضبّاط الجيش من ذوي النّفوذ الذين يسعون للاستئثار بكلّ شيء، يلتهمون من نصيب من يتوسّطون لهم أضعاف

ما يتبقّى بحوزتهم من فتات، رغم أنهّم لا ينفقون على المشاريع سنتيما واحدا من جيوبهم، ولا يبذلون قسطا ولو قليلا من الجهد ولا يتحمّلون أدنى المخاطر، كلُّ ما يقومون به هو أن يستخدموا نفوذهم من خلف مكاتبهم المكيّفة، بمجرّد لمس أزرار الهاتف والتّدخّل لدى المسؤولين لجلب المشاريع والصّفقات.

يضحك موسى عاليا وهو يستمع إلى مخاوف دحمان، الذي لم يخفِ اغتياظه، فاستفسره بامتعاض عن سبب ضحكه الغريب والسّمج، مخاوف دحمان واحترازاته تلك ذكّرته بمحاضرات الاقتصاد السّياسيّ أيّام الجامعة، والخلاف الذي ثار بين الماركسيّين والرأسماليّين حول فائض القيمة ومن أحقّ به، العمّال أم أرباب العمل؟ يحفّز امتعاض المحامي موسى على أن يتخيّل نفسه مناضلا شيوعيّا بثروة طائلة جناها بتوسّط من ضبّاطٍ بورجوازيّين وتحت جناح نفوذهم، فكرةُ مطالبتهم بما ليس من حقّهم تدغدغ جوانحه.

- ليس لدينا من خيار.

بدا موسى حازما بعض الشّيء في تقرير ذلك لدحمان.

كانت البلاد تعاني من اضطرابات أمنيّة متأصّلة، والسّلطة الفعليّة بأيدي أجهزة الأمن، وهم لهم رأيهم أيضا في منح الصّفقات العموميّة، وكلمتهم مسموعة لدى السّلطات المحليّة ومشورتهم واجبة والقرار بعيدا عنهم سيكون نوعا من النّكران لجهودهم في جلب الأمن للبلد، بل تعدّيا على صلاحيّاتهم.

كان الجيش هو من يقود حملة مكافحة الإرهاب وبسط الأمن في البلاد، لن تكون هناك تنمية ولا مشاريع ما لم يسبقها استقرار، كان موسى على يقين من أنّ الضّباط هم وحدهم من بوسعهم تحقيق هذا الاستقرار والمحافظة عليه، لن يتمكّن الوالي ولا رئيس دائرة أو أيّ مدير تنفيذيّ في الولاية كلّها من أن يفعل شيئا إلّا بعد إذنهم وأخذ مشورتهم.

لم يكن موسى ليبالي بأن يحصل من يجلب له مشاريع مربحة من أولئك المتنفّذين على عمولات تضاهي ما يكسبه من مشاريع يتوسّطون له في الحصول عليها، وطالما بوسعهم أن يغرقوه في الصّفقات فلم ير مانعا في أن ينالهم هم أيضا حظّا منها، حتّى ولو كان كبيرا، وسيقنع ساعتها برحابة صدر بما يتبقّى له.

لا يخفي دحمان قلقه بشأن نظام الجيش وصرامته، صحيح أنّ الضّباط المتنفّذين يحرصون على ألا يقابلونهما إلّا في زيّهم المدنيّ، ويتركون بزّاتهم العسكريّة في مكاتبهم داخل الثّكنة أو في بيوتهم، من باب الاحتياط، لكنّهم لا يتركون معها رتبهم العسكريّة التي تفرض هيمنتهم على المدنيّين، بوسع مدير الأمن العسكريّ أن يفعل ما يشاء في هذه الولاية. العسكر تحكمهم قاعدة أساسيّة، يحرص دحمان كثيرا على مراعاتها، ولن يخطو خطوة واحدة حتّى يأمن غوائلها، إذا ما كان ضابط مهمّ في الجيش ومتنفّذ لا يدع خلفه أثرا لما يقوم به من معاملات مخالفة لنظام الجيش وقوانين البلد، التي تطاولهم هم أيضا، فلا خوف منه، أمّا إذا حدث وأن ارتكب من مخالفات بالقدر الذي يمسّ بمكانته وبمنصبه فلن تجري الأمور كما يرغب موسى. يدرك المحامي الماكر أن المتابعات القضائيّة العسكريّة أكثر

تعقيدا من جلسات المحاكمات التي يعتاد حضورها، والأدهى من كلّ ذلك أنّ ضبّاط الجيش يضحّون بشركائهم المدنيّين حتّى قبل أن توجّه لهم التّهم، "تبكي أمّه ولا تبكي أمّي"، هكذا كانوا يتحدّثون، بهذا المنطق.

- لا تكن مذعورا إلى هذه الدّرجة، عليك أن تترك لنا مجالا للشّجاعة التي تدفعنا للوصول إلى أعلى، الجبن لن يدفعك أبعد من قدميك.

حاول موسى تبديد قلق صديقه المحامي.

- لا أستطيع أن أقرّر إذا ما كان يدفعك شجاعة أم تهوّر.

قال دحمان ذلك وهما يدخلان البازار ويستلقيان على أريكتين بمقابل المكتب داخل الغرفة الزجاجيّة، بينما كان يزيح ربطة عنقه التي خنقت أنفاسه، ويرتشف نسمات المكيّف فوقه.

يبدو كلام موسى لدحمان منطقيّا في الاتّجاه الذي إذا ما هما لم يبادرا بالاستفادة من مكانة الضّباط ونفوذهم، على ما في ذلك من مخاطر وربح متواضع بالنّسبة لما سيحصلون عليه هم من أرباح دون عناء، فإنّهما ساعتئذ سيضربان أخماسا في أسداس وسيتحسّران طويلا حيث لا ينفع النّدم على ما سيفوّتانه إذا ما حازه غيرهما من المنافسين المتربّصين الذين يبحثون عن عقد صلات بالضّبّاط المتنفذين ولو اضطرّهم ذلك للتضحيّة بثرواتهم الطّائلة، وما أكثرهم في المدينة وخارجها. تكمن مخاوف دحمان من عواقب كلام موسى في احتمال اصطدامهما بمشاكل، قد لا تنتهي بالمكوث في السّجن لسنوات طويلة.

- دع عنك كلّ هذه الهواجس المشؤومة يا صديقي ولتتفاءل، فما هو قادم يحتاج منك أن تُبقي لي ذهنك صافية مثل زيت الصّانكو.

قال موسى مخفّفا من وطأة احترازات المحامي، ثم أردف:

- قبل أن أنسى، نريد اللّيلة عشاء خرافيّا لم يحدث حتّى في المسلسلات المكسيكيّة.

كان دحمان قد رتّب لدعوة أركان الحكم في سعيدة إلى بيت موسى بعد المغرب، قائد الأمن العسكريّ العقيد خثير وصديقه قائد القطاع العمليّاتيّ، توطّدت صداقتهما كثيرا مع حربهما على الإرهاب، وكيل الجمهوريّة الجديد وقاضيان في المحكمة على قائمة المدعوّين أيضا، لا يريد أن يغادر أحدهم وهو غير راض عنهما، كان موسى مطمئنّا من هذا الجانب، سيكون كلّ شيء جاهزا في وقته وعلى أحسن ما يتوقّعه حسّ دحمان المرهف، في مثل هذه الظّروف التي تتطلّب الهمّة والشّان والطّبع. تذكّر موسى أمرا مهمّا، لم يذكر له دحمان رئيسَ المحكمة وقائدَ المجموعة الولائية للدّرك في قائمة الضّيوف.

- لن يحضرا. هذا ما يثير مخاوفي. ردّ دحمان على سحنة موسى المتبرّمة.

خمّن دحمان أنّهما يتورّعان عن لقاءات كهذه رغم محاولاته المضنية واللّحوحة معهما، وسعيه جاهدا لأن يكونا ضمن مجموعتهما الذّهبيّة حتّى لا تفلت الأمور من بين أيديهما، غير أنّهما يصرّان على أن يكونا خارج السّرب، ربّما سيقتنعان في القريب العاجل. هكذا بدا لدحمان.

- لا تقلق، المال يفلّ العناد، سيذعنان حتما لرنينه الآسر عاجلا أم آجلا.

قال موسى ذلك بينما كان يضع فخذا على فخذ، ويهتز بكرسيّه يمنة ويسرة نافثا فوق رأسه غيمة دخان من فمه بعدما أزاح سيجارته عنه.

* * *

لم تترك صرامة الأجهزة الأمنيّة التي ترتاب كثيرا في موالاة بعض سكّان الدّواوير القريبة من فنوان للمتطرّفين، ودعمهم لهم بالمال والغذاء وتزويدهم بالمعلومات عن تحرّكات الجيش، من خيار أمامهم سوى المغادرة إلى فنوان. قام مكتب المصالح الأمنيّة باقتياد بعض الرّعاة المشتبه بهم للتّحقيق معهم في ضلوعهم في إسناد الإرهابيّين وتموينهم والتّواطؤ معهم، أحال أغلبَهم على وكيل الجمهوريّة لمتابعتهم قضائيّا استنادا لما ورد في محاضر التّحقيق.

لجأ العديد من أوليائهم الذين كان عددهم في حدود خمسة عشر إلى موسى، الذي تربطه صلات وثيقة بعناصر في مكتب المصالح الأمنيّة، لطالما وظّف تلك العلاقات في حماية العديد من سكّان فنوان وضواحيها من الفلاحّين وملاّك القطعان الذين تحيط بهم الشّبهات، لمجرّد أنّهم يسكنون في عمق الغابة في ظرف أمنيّ شديد الحساسيّة والخطورة، استغلّ علاقاته الجديدة مع وكيل الجمهوريّة وبعض القضاة من أجل إطلاق سراح أبنائهم.

كان موسى يأخذ أموالا من أصحاب القضايا لقاء ذلك، يقتسمها مع وكيل الجمهوريّة والقضاة قبل محاكمتهم، خصوصا في قضايا يُتّهم أصحابها بدعم الجماعات الإرهابيّة، لم يكن تدخّله لدى مكتب المصالح الأمنيّة لصالح المحتجزين من سكّان ضواحي فنوان بالمجّان، كان صريحا معهم منذ البداية وأبلغ كلّ من يريد أن يرى ابنه حرّا طليقا يرفل في أحضان أمّه الخائفة عليه، أن يدفع مقابل ذلك مبلغ عشرة ملايين سنتيم، أوضح لهم أنّه لن يأخذ منها شيئا لنفسه وأنّ وكيل الجمهوريّة سيقتسمها مع القضاة الذين سيصدرون أحكاما بالبراءة على أبنائهم.

أذهلت الأحكام التي نطق بها قاضي الجلسة الأخيرة بعضهم، فقد حكم على أبنائهم بالسّجن لثلاث سنوات، كانت صدمة بالنّسبة إليهم، كيف يحدث ذلك وقد وعدهم موسى بأنّ أبناءهم سيعودون إليهم بعدما قبض ما طلبه منهم من أموال. اتّجه أحدهم إلى القاضي بعد رفع الجلسة مباشرة، همس في أذنه أنّه من طرف موسى بوزيد، لم يفهم القاضي مقصوده فاستوضحه الأمر، واستفهم منه عن علاقة موسى بالقضايا وماذا وعده بخصوص قضيّة ابنه، كاد القاضي أن يجنّ غير أنّه هدّأ من غضبه، حينما أخبره الرّجل أنّ موسى تلقّى منه ومن جميع أولياء المتّهمين الذين حكم عليهم بالسّجن مبالغ ماليّة لقاء إطلاق سراح أبنائهم، وهو ما لم يحدث!

في المساء اتّصل وكيل الجمهوريّة بموسى وأبلغه بما حصل مع القاضي، داخل سيّارته بزجاج نوافذها المعتم والمرتفع، كان وكيل الجمهوريّة منفعلا جدّا ومستاء بشدّة من فعلة موسى، اعتبر الأمر تعدّيا عليه وعلى زملائه القضاة، واستغلالا سيّئا لعلاقته الوثيقة بهم بشكل مهين ومثير للمخاطر.

فضح قاضٍ جديد، تولّى ملفّات الرّعاة الفنوانيّين استثنائيّا أساليبَ موسى، بعد أن كان قد أوصى القضاة الذين من عادته التّعامل معهم، كي يصدروا أحكاما في صالح أبناء الفنوانيّين الذين أخذ منهم أموالا ليست بالقليلة لقاء ذلك.

تلعثم موسى وهو يسوق لوكيل الجمهوريّة مبرّراتٍ بدأت تتهاوى من لسانه الذي كان يرتجلها بسخف وتفاهة، لم يستسغها منه. لم يكن لموسى من خيار سوى أن يعود من بيته من جديد إلى سيّارة وكيل الجمهوريّة برزم من

المال، ما إن أمسكها بين يديه حتّى هدأت عاصفة غضبه وتهديداته له بالسّجن.

تكاثرت قطعان المواشي في فنوان وأصبح في كلّ بيت قطيع، نزح أصحابها من الضّواحي الرّيفية إلى القرية واشتروا مساكن القرويّين الذين غادروا إلى سعيدة، بعدما لم يعد يربطهم بالقرية أيّ شيء، كان أغلب القرويّين الذين تركوا القرية يعمل بمصنع الآجر وشركات المنطقة الصّناعيّة في سعيدة.

نزحت جميع عائلات الإرهابيّين التي أصبح بقاؤها في فنوان الملتهبة من جرّاء المعارك بين العساكر والمتطرّفين يثير الشّبهات والشّكوك حولها، ويجلب لها تهما مجانّية بالوقوف مع الجماعة المتطرّفة ومساندتها، بحكم تواجد ذويها ضمن صفوفها.

كانت الجهة الشّرقيّة لفنوان تتشكّل من غابات مأهولة، يمتهن ساكنوها، الذين استوطنوا فُرُجاتٍ بداخلها، الزّراعةَ والرّعي، يحرثون قطعا أرضيّة بمساحات صغيرة، ولا يحسنون مهنة ولا يعرفون كسبا غير ذلك. وبعكس غابات الجهة الغربيّة الفارغة من السّكان والتي تمثّل امتدادا طبيعيّا وتضاريسيّا لجماعة تفاسور المتطرّفة، فإنّ تواجد دواوير العوالي والكرارشة ويامدلس وسط غابات الجهة الشرقيّة شجّع عاصم منذ البداية على الاستيطان في تلك المنطقة، حتّى يضمن المدد لجماعته ويتمكّن من الاتّصال بسكّانها ويتزوّد منهم بالمعلومات والمال فيحافظ على ظهره مسنودا، غير أنّه منذ أن قصف بالهاون دار جيلالي هانُوي، لم تنعم تلك المنطقة بالأمان، تعرُّضها لتمشيط قوّات الجيش وقصف طائراته وما خلّفه من تدمير لمنزل حارس الغابة، وإحراق الجيش لأجزاء منها حتّى تبقى مكشوفة ويصعب

على المتطرّفين الاختباء بداخلها، ويصبح من اليسير على قوّاته كشف تحركاته هو وجماعته، كلّ ذلك جعل عاصم وأصحابه يغادرونها باتجاه طرف فنوان الغربيّ على الحدود مع تفاسور ويجاورون جماعتها، وأدّى بسكّان تلك الضّواحي إلى النّزوح والهجرة إلى فنوان والاستقرار بها.

تغيّرت فنوان كثيرا بعدما استوطنها سكّان الضّواحي الرّيفية والدّواوير المجاورة وما عادت كسابق عهدها، وبعدما كانت قطعان الأغنام لا تتعدّى الأربعة قبل الأزمة الأمنيّة، أصبح مظهر الآلاف من رؤوس الأغنام مهيمنا على القرية؛ وهي تخرج مع طلوع الشّمس، وتعود إليها مع الغروب، بكلّ ما تخلّفه وراءها من غبار وروائح وروث، انتشرت مكبّات فضلاتها في وسط فنوان وعلى أطرافها وتخومها، خاصّة بالقرب من بيوت من يمتلكون أغناما وأبقارا كثيرة، كان ذلك مؤشّرا ودليلا واضحا على ثرائهم الفاحش المختلط ببعر الأغنام وروث الأبقار الموحل الذي أضحى يملأ أزقّة القرية، وصار منظر قطعانها وهي تغزو دروبها، ورعاتِها الذين يمتطون الحمير يعطي انطباعا للنّاظر بخروج فنوان من تاريخها ومن بيئتها، وتحوّلها إلى مكان غير مكانها وإلى زمان ليس بزمانها.

تعلو صرخات الرّعاة الوافدين حديثا إلى القرية، وهم يهمزون أحمرتهم ويحفّزون قطعانهم على المسير قدما، ترافقهم كلابهم التي تقودها في المقدّمة، يحتدّ بينهم الكلام بنبرة خشنة وأسلوب فظّ وغليظ، تنطلق من سحناتهم التي حرّقها لهيب الشّمس لطول مكثهم في الفضاء المفتوح كلماتٌ نابية وبذيئة، أغلبهم لم يكمل أربع سنوات في المدرسة، يمضون يومهم بين الغابة وفي الحقول التي تتوسّطها، من طلوع الشّمس إلى مغيبها.

في المساء بعد عودتهم يحرصون على ملء فراغهم اللّيليّ في مقهى افتتحت حديثا مع تكاثرهم في القرية، هي ليست مقهى بالمعنى الحرفيّ للكلمة، أقرب ما تكون إلى مكان للقمار، تنتشر فوق طاولاتها الضّاجة بالمقامرين أوراق اللّعب والدّومينو، يديرها صاحبها الذي ابتدع أساليب مختلفة ومبتكرة لتسيير مقهى لألعاب القمار، جعلت جلّول يفقد أغلب زبائنه. يتجمّع شباب القرية الجدد في المقهى المناوئة لمقهى جلول بالقرب من صاحبها الذي اتّخذ طاولة في ركن مقابلٍ لباب المحلّ، ينثر أوراق اللّعب أمام من يحين دوره للمقامرة، يراهن المقامر على ورقة يعيّنها بنفسه ويخفيها عنه من بين ثلاث أوراق مقلوبة قبل بدء اللّعب، لتبدأ المقامرة على شكل الورقة التي يخفيها وما تحتويه.

هناك لُعبة استهوت غالبيّة القروييّن، الجدد منهم على وجه الخصوص، وسرعان ما انتشرت بينهم، تماما كسرعة الضّوء، كان ذلك عن طريق راعٍ شابّ غريب عن القرية جاء في زيارة لأحد الأقرباء في فنوان، يبدو أنّه ذهل لحالة الملل التي تعمّ أزقّتها، لم يرحه ذلك خاصّة وأنّه كان عليه المكوث لثلاثة أيّام ستمرّ عليه في عشّ الغربان ذاك حتما كثلاث سنوات. أخرج ما في جعبته، لعبة الجاندو، يوزّع أوراق الرّوندا بينه وبين خصمه، ثلاث أوراق لكلّ واحد منهما، من يكون في يده ورقتان يشكّل مجموعُهما التّسعة بوسعه أن يكشف أوراقه معلنا فوزه، في هذه الحال ستصنع ثلاث أزواج من الأوراق الفوز لحاملها؛ السّينكو مع الكواترو، السّيس مع التريس والسّوطة مع الدّوز.

يقف صاحب المقهى الجديد يتفرج على الشّابّ الزّائر بينما يعلّم خصمه لعبة الجاندو، ويلقّنه درسا قاسيا جعله يتجرّع مرارة خسارته بصعوبة ويبتلعها على مضض، استهوت اللّعبة الجديدة صاحب مقهى القمار كثيرا، فكّر في اقتباسها منه وإدخال تحويرات عليها، بدل لاعبيْن فقط سيكونون ستّة، لن يلعبوا لمجرد التّسلية وتمضية الوقت طبعا، قبل أن يحصل كلّ واحد منهم على أوراقه الثّلاث عليه أن يضع ورقة من فئة مائة دينار على يمينه، في الأخير سيجمع الفائز نقود الخاسرين، وماذا عنه هو؟ ماذا سيستفيده مدير صالة القمار من كلّ ذلك؟ قبل أن يبدؤوا اللّعب يجب عليهم أن يدفعوا له "الباراطو"، أجرة اللّعب داخل مقهاه، سوف لن تتجاوز الثّلاثين دينارا، ثمن زهيد كما تدلّ عليه كلمة "باراطو" الإسبانيّة، سيشجّع ذلك الجميع على اللّعب.

مع نهاية العمل في المقهى وإغلاقها يكون صاحبها قد جمع مبلغا خياليّا لا يقلّ عن عشرة آلاف دينار، عمليّا سيكون أغلب من لعبوا قد فقدوا أموالهم التي تدخل صندوق صاحب المقهى، بسبب مفعول هرمون القمار المحفّز على اللّعب في الحالتين؛ الرّبح من أجل المزيد والخسارة بغرض تعويضها، ولن ينتهي اللّعب حتّى يعلن عن ذلك صاحب المقهى بنفسه، بل إنّه كان يطردهم منها طردا وهم يترجّونه كي تظلّ المقهى مفتوحة لوقت أطول، حتّى يسمح لهم بإخراس دودة القمار التي لا تكفّ عن التهام رؤوسهم اليابسة كجذوع مهترئة، بعدما يمتلئ صندوقه وينال منه التّعب والنّعاس.

* * *

كان حميد ورشيد عائدين من متوسّطة المجّاجي في أوّل يوم لهما بها، إنّه الدّخول المدرسي، بينما كان سالم وزوجته رابحة التي تضمّ ابنتها ثامرة إلى حضنها يهمّان بدخول بيت موسى القديم، بعد أن وقفا أمامه مطوّلا مشدوهين للتغيّر الكبير الذي طرأ عليه، كادا يتيهان في فيلاج بوديّة بحثا عن شكله السّابق في شارع آخر، بدا لهما كما لو أنّ البيت قد غادر موقعه، وظنّا أنّهما أخطآ المكان.

لم يشأ سالم أن يُبقي حميد معه في مشريّة، فعدا عن أنّه لا يحبّذ أجواء الخيم والبادية، على خلاف أخيه مهدي الذي فضّل أن يبقى إلى جانب والديه ويدرس في ثانويّة مشريّة، لم يطق فراق صديقه وابن عمّه رشيد الذي رافقه طيلة العطلة الصيفيّة، وهما هائمان وراء الغنم يسرحان بها في براري الحلفاء والشّيح، لقد أخفقا في العثور على أصدقاء جدد، ولعلّ هذا ما عجّل برحيل حميد وبثّ في نفسه السّأم من المكان الذي غادره رشيد قافلا إلى بيتهم تأهّبا للدّخول المدرسيّ.

مع نهاية العطلة لم يكن أمام سالم من خيار إلّا أن يُرفق حميد برشيد على متن حافلة بشّار-وهران للالتحاق بالمتوسّطة في سعيدة، أخبره بأنّه سيأتي إلى سعيدة بعد يومين ليباشر إجراءات تسجيله بالمتوسّطة، وحتّى يشتري له ملابس وأدوات الدّراسة، كانت فرحة الصّديقين غامرة بعد أن تأكّد لهما أنّ أوقاتهما القادمة ستكون مليئة بالمغامرات والمرح الدّائم والبهجة التّامّة.

فتحت ميمونة الباب، كادت تطلق زغرودة حينما أخفضت رابحة عجارها الذي كان يحجب وجهها كلثامِ رجل الطّوارق، وأسفرت عن وجه باسم بشفتين خلّابتين، وراحت تتفكّه بكثير من العتاب على غياب أشهر طويلة،

وكيف أصبحت ميمونة العروبيّة فجأة مدينيّة، فقد صار لها بيت في قلب سعيدة على مرمى حجر من دار البلديّة المجاورة لمسجدها العتيق، وانتقلت ملكيّة منزل موسى إلى ميمونة بعد رحيله إلى فلّته الجديدة في قلب المدينة. كان عناق السِلفتين الحميمتين طويلا وحارّا.

حظي حميد بقبلات لا تنتهي من والديه والكثير من الحلوى والشّوكولاطة، وقبل مغادرة سالم إلى مشريّة ليتفقّد وضع غنمه التي بقيت في عهدة راعيه الجديد، أخذ حميد في جولة إلى حيّ لامارين، اشترى له من السّويقة بذلتين وملابس رياضيّة وحذاء كلاسيك وآخر رياضيّا.

داخل الورّاقة كان حميد ورشيد يحملان معهما قائمة الأدوات المدرسيّة، قدّماها للبائع الذي طلب منه سالم أن يوضّب لكلّ واحد منهما أدواته في كيس خاص به، دفع الحساب ثمّ غادروا. نال رشيد الذي لم يكن ليتخلّى عن ابن عمّه وصديقه هو الآخر جانبا كبيرا من عطف عمّه سالم، اشترى له بذلة وحذاء، على الرّغم من أنّ خاله موسى بعدما أصبح واسع الثّراء لا يقصّر في العناية به، هو وأخته وأمّه التي أصبحت أحسن حالا بكثير عن ذي قبل، فقد قام بترميم بيتها الجديد وأحدث فيه تغييرات عديدة جعلته يختلف جذريّا عن حالته الأصليّة، وأضاف له طابقا علويّا. تمكّن البنّاء الذي كلّفه من استغلال المساحات إلى أبعد الحدود، وبحسّ مهندس معماريّ استطاع في الأخير أن يوفّر في المنزل بحلّته الجديدة ثلاث غرف ومطبخاً نخماً بجدران سيراميكيّة، وصالةً فسيحة وحمّاماً عصريّاً جدرانه ملبّسة بالسّيراميك من أرضيّته إلى سقفه، كلّ ذلك جعل رابحة التي بقيت لتمضية بعض الوقت عند ميمونة منجذبة إلى التغيّر الكبير الذي أصبحت

عليه سلفتها، ومعجبة بمنزلها الفخم الأنيق، ولا تخفي عنها غصّتها من عدم استجابة سالم لرغبتها في شراء بيت بالمدينة، متذرّعا بكونه لا يطيق العيش فيها، ومبرّرا لها ذلك بأنّه لن يجد له من عمل يقوم به سوى التّسكّع في الشّوارع ولعق الآيسكريم ولعب الدّومينو والضّامّة والكارطة، وإطالة اللّسان مع الفنوانيّين الذين استوطنوا حيّ بوخرص في قصص تافهة لا تجلب لجيبيْ سرواله المنهكين من المصروف أيّ فلس، يفضل سالم التّريث وانتظار تحسّن الظّروف الأمنيّة، كما أخبرها، ليعود إلى فنوان.

بعد مضيّ يومين على مجيئها إلى فيلاج بوديّة، وقبل أن يعود سالم في موعده المحدّد، اقترحت ميمونة على رابحة أن يقيموا عندها حتّى يفرجها الله عليهم، بدل هذا الشّتات الذي يعيشانه وبُعدهما عن حميد الذي أضحى يشعر بالوحدة والملل والوحشة بعيدا عنهما. تحمّست رابحة كثيرا لفكرة ميمونة، وفي مشريّة عند عودتهما، كلّمت زوجها في الخيمة التي كادت عاصفة رمليّة أن تقتلع أوتادها، وأثارت له موضوع عرض ميمونة السّكن معها في بيتها.

كان سالم قد عاد مع منتصف النّهار بالغنم في موعد ورودها مع راعيه الجديد، كان قد عثر عليه قبل أسبوعين بشقّ الأنفس، بعد أن رفض أن يعمل عنده بالأجرة، أصرّ الرّاعي أن يكون المقابل ثلث ما تنتجه الغنم من خراف، غير أنّ سالم رفض عرضه بشكل قاطع، شعر بأنّ القسمة غير عادلة وأنّه سيفقد مالا غير يسير من وراء ذلك، اقترح أن يجعل له عشرين خروفا في السّنة وما تنتجه عشرة شياه من الصّوف، وأنّ له أن يحصل على حليب الغنم مجانا، كما وعده بأن يشتري له بدلتين في السّنة؛ واحدة في

الصّيف وأخرى في الشّتاء. بدت قسمة سالم عادلة بعض الشّيء وغير بعيدة عمّا كان يأمله الرّاعي الجديد بوحفص، لم يتريّث كثيرا حتّى يُحضر عائلته إلى المرعى ويحطّ رحاله وينصب خيمته على مقربة من خيمة سالم.

بعد أن هدأت العاصفة الرّملية، كان سالم قد أخذ قرارا نهائيّا بأن يقيم مع زوجته وأبنائه عند ميمونة زوجة أخيه بلقاسم، ترك غنمه في عهدة أخيه الحاج عمر وسافر إلى سعيدة.

لم يكن مسعود هو الآخر، حال مجيئه إلى سعيدة، يدرك حينما كان يبحث عن بيت موسى في فيلاج بوديّة، أنّه قد حزم أمتعته إلى مكان آخر وترك بيتا مختلفا جذريّا لأخته ميمونة، حتّى سمع من سالم عندما فتح له باب البيت، بعدما تردّد لوقت ليس بالوجيز ليدقّ عليه.

رافقه سالم إلى موقف سيّارات النّقل الجماعي كي يطلب من أحد سائقيها جلب أبيه وأمّه عند ميمونة، ليتمكّن من رؤيتهما بعد غياب نصف عام كما تصرّ أمّه على ترديده أمامه عند عتابها المستفيض له، على خطيئة ليس له فيها من يد مفتعِلة. منذ شجاره مع مرزوق وتهديده له عزم على ألا يعود إلى فنوان، وأن يكتفي برؤية والديه في سعيدة، يتعمّد السّفر قليلا إلى سعيدة بسبب الأوضاع الأمنيّة وانتشار الحواجز المزيّفة التي تنصبها الجماعات الإرهابيّة على الطّرقات، كانت تُوقِفُ سيّارات التّاكسي والنّقل الجماعيّ وتقتل أفراد الجيش والدّرك المسافرين في عطلة لزيارة ذويهم أو العائدين إلى ثكناتهم، يستهدف المتطرّفون القضاة والمحامين ورجال الشّرطة والأسلاك الأمنيّة الأخرى والصّحافيّين، وكل من هو مسجّل لديهم في

قوائمهم السّوداء، بل إنّهم ربّما قتلوا من يوقفونهم في تلك الكمائن من دون أيّ سبب وجيه حتّى.
كان بكاء فاطمة على ابنها شديدا وشهيقها يكاد يستحيل إلى نحيب، إذ تسحب رأسها من على صدره بعد معانقة طويلة لا يضاهيها سوى قبضة ملزمة حدّاد على قطعة حديد. بكى هو الآخر بشدّة عندما رأى لأوّل مرّة في حياته دموع أبيه تنهمر على خدّيه، أخذت الأقدار من بين يديه ولديه فأصبح الفقد خبزه اليوميّ.
في موقف سيّارات النّقل الجماعيّ لم يطلق الأب ابنه وظلّ يمسكه من ياقة قميصه حتّى لحظة وداعه، وكأنّه يحاول استبقاءه وألا يدعه يسافر، عيناه الذّابلتان والمضطربتان لا تفارقانه، ولحظة التفت مسعود مستديرا كانتا تترجّيانه بألا يغادر، تضطرب تفاحة آدم في رقبة والده المتهدّلة بعروقها البارزة، ويتسرّب من منخريه زفير مرتفع، تنهّد متحسّرا حينما رمى مسعود أوّل خطوة مبتعدا عنهما، ظلّت يده معلّقة بالهواء بعد أن أطلقت ياقة جاكيته، لامس برودُها المرتجفُ رقبة مسعود، شعر بها وهي تمرّ على منكبه حينما استدار. كانت فاطمة غائبة تماما عما يدور حولها حينما قال لهما مودّعا "ابقوا على خير"، تمنّت ألا يبرح المكان، وظلّت تلهج بالدّعاء متضرّعة إلى الله بأن يحفظه ويحميه من سوء ما تحيكه الطّرقات الغادرة.
كانت جلسةً مقتضبةً على الغداء في بيت ميمونة لا تكفي كي تشبع من وجوده معها وترتوي من حضنه الفردوسيّ.
كان مسعود في حاجة إلى موسى، بعدما سمع بعلاقاته الوطيدة بضبّاط في الجيش يعملون في قيادة الأركان بوزارة الدّفاع، كي يتوسّط له عندهم

لإسقاط استدعاء إعادة تجنيده الذي بات يؤرّقه وينغصّ عليه حياته، كلّما مرّ بكمين للدّرك أثناء مزاولته لمهنته التي أصبحت تتطلّب منه التّنقل كثيرا إلى المناطق البعيدة عن العاصمة، هذا عدا عن كون التّجنيد في الجيش في ظلّ أزمة أمنيّة مرعبة قد يعني أنّه سيكون في مواجهة مخاطر الموت على يد الجماعات الإرهابيّة.

قبل ستّ سنوات كان مسعود قد أنهى خدمته العسكريّة، غير أنّ مكافحة الإرهاب أصبحت تتطلّب من إدارة الجيش تجنيدا إضافيّا فلم يكن لها من بدّ سوى تعبئة جنود الاحتياط. لم يتطلّب الأمر من موسى أكثر من مكالمة هاتفيّة، جعلت مسعود يقابل ضابطا في وزارة الدّفاع، طمأنه بأنّه لن يتلقّى بعد ذلك اليوم أيّ استدعاء للتّجنيد، وأنّه بوسعه ممارسة حياته ومهنته بشكل طبيعيّ، دون أن يخشى من أن يقبض عليه رجال الدّرك تحت مبرر التّهرب من أداء الخدمة العسكريّة.

* * *

تردّد مسعود كثيرا في ركوب الباص من محطّة تافورة إلى محطّة كيتاني بحيّ باب الواد، منعه ضحكه الذي أخفق في التّوقّف عنه من ذلك، ولم يتمكّن في الأخير من الرّكوب إلّا بعد جهد كبير. كان قد خرج في الحادية عشر صباحا من الصّحيفة في جولة إلى الجزائر وسط، تلزمه بعض الحاجيات، اشترى كتبا من مكتبة العالم الثّالث المقابلة لساحة الأمير عبد القادر، ثم عرّج على شارع العربي بن مهيدي، غير بعيد عن تمثال الأمير، كان يمتطي حصانا ويلوّح بسيفه، الأمير طبعا، بينما كان مسعود يحمل كتبه ويرمي بخطوات متثاقلة أمام واجهة زجاجيّة، تنتصب داخلها دمى

عرض ملابس نسائيّة في أكمل زينتها، تقف واحدة منها على اليمين تلبس شدّة تلمسانيّة، الوسطى بقفطان مغربيّ مزركش بالمجبود، أمّا التي على اليسار فقد لفتت انتباهه وجذبت إليها مداركه واختطفت منه حواسّه، بعينيها الخضراوين بلون زجاجات الخمر، وشعر أشقر يصل إلى شحمتي أذنيها، قد غطّاه فولار ذهبيّ اللّون ينعقد طرفاه فوق جبهتها، ترتدي كاراكو؛ سروالٌ فضفاض في أعلاه ووسطه، يضيق قليلا فوق كعب القدم ليمسك بساقيها وينتفخ حولهما فيبدو في هيئة تنّورة طويلة، وسترة موشّاة بالمجبود، تضع الدّمية يدا على خصرها، ينعقد في طرف أصابعها منديلٌ فضيّ اللّون مكسوٌّ برقائق بلّورية مذهّبة، وتحمل بالأخرى منديلا بنفس لون الآخر وشكله، راحت تلك الدّمية العارضة تحاكي بسكونها رقصةً عاصميّة، زادتها موسيقى الشّعبيّ المصاحبة لغناء الهاشمي قروابي، في إحدى المقاهي المجاورة، جوًّا قريبا من الحقيقة:

"نسبلك يا عمري تمشي تجاهتو هذاك الغلغال

نكّمل قصيتي عند النّاس اللّي تبيع غاااالي

احكي محبتي وقول لها راني نحبّ مازال

مشتاق في بهاها في وهران ساكنة غزاااالي..."

كانت الدّمية العارضة تبدو لمسعود بينما يدقّق في تقاسيم وجهها كامرأة حقيقيّة، زغاريد النّسوة في أغنية قروابي جعلته يتخيّل أنّها تحرّك قدميها وتهزّ ردفيها وكتفيها، وتُشيح بمنديليها ملوّحة يمنة ويسرة، إلى أعلى وإلى أسفل، تماما كما تفعل محترفات الرّقص العاصميّ، كان الوقوف أمامها والتّأمّل في أناقة تصميمها وأسلوب ارتداء الثّياب التي كُسيت بها، وتناسق ألوانها

البديعة يدفعه دفعا إلى التّفكير بالزّواج، لم يسيطر على مشاعره التي راحت أنوثة تلك الدّمية الغانية تخلبها وتستدرجها، ودون أن يشعر دفعت يداه باب المحلّ، عند مدخله وجد نفسه مكبّل الإرادة بإزاء صاحبه الذي استقبله بذراعين مفتوحتين، بعدما كانتا متصالبتين على صدره، وبابتسامة تاجر متمرّس سأله:

- مرحبا، كيف يمكنني أن أخدمك؟

- الدّمية بالخارج... التي على اليسار... أأأ... عفوا... صارت على اليمين الآن.

- ما بها؟!

- أقصد... الكاراكو الذي ترتديه.

فجأة علت حمرة خدّيه المستديرين، شعر بأنّه شرب شيئا ما كان بداخل تينِك العينين الخضراوين فأسكره ودوّخه، جال في خاطره كما لو أنّه كان على وشك أن يسأل صاحب المحلّ إن كانت الدّمية مرتبطة أم لا، مخطوبة أم ليس بعد؟ فهو في الحقيقة لم ير خاتم الارتباط في خنصر يدها اليسرى، فكّر بذلك بينه وبين نفسه، تماسك حتّى يخرج من ورطة سؤالٍ غير مقصود، كان سيضعه في موقف خاطبِ دمية عرض أزياء من صاحب محلّ بيع ألبسة نسائيّة، يا لها من سخافة! سعل في قبضة يده وحوّر الكلام:

- كم ثمنه؟

- عشرون ألف دينار.

- يبدو هذا معقولا، تفصيله وخياطته بجودة ومهارة استثنائيّتين.

وحتى يتمكّن من الخروج بالكلّيّة من هذا الموقف المحرج، راح يتملّص مقترحا على التّاجر بسبّابته المهتزّة:

- سأزورك في المرّة القادمة.. بعد أن أستشير الأهل طبعاً.

- هكذا أفضل، على الأقلّ ستتأكّد إن كان ذلك مناسبا لهم.

لم يفارق الضّحك مسعود طوال جلوسه في الباص، حاول ألا يجلب انتباه من حوله، أدخل يده في جيب جاكيته الدّاخلي وأخرج أجندة صديقه أحمد، تذكّر الأجندة التي أخرجها شعبان البليدي من بين ركام الأوراق الذي كان أمامه، كانت الأجندة التي بيده مطابقة لها في الشّكل واللّون، إنّهما نسختان متشابهتان، تشعّب تفكيره بشعبان، غاص في انبهار عميق بشجاعته التي تشبه التّهور، شدّه تمسّكه المستميت بأرضه، ومجازفته لأجلها وتحمّله للأذى الذي ألحقه به خصومه المتنفّذون ومقاومته لترهيبهم واستفزازهم له، أصبح شعبان محطّ إعجاب وافتخار بالنّسبة إليه، صار أيضا حافزا له على أن يطرد المخاوف التي تحول بينه وبين الاتّصال بالأرقام الهاتفيّة في أجندة أحمد، بدت له المسألة بالمقارنة لما حدث لشعبان أمرا تافها، أو ربّما كان انطواؤه النّفسي الذي عايشه قبل سنوات قليلة سببا في تزايد مخاوفه حتّى أصبح مبالغا فيها، قد يكون لاندماجه في عمله والتّحقيقات الاستقصائيّة التي أجراها، والتي تطلّبت منه جسارة وجرأة، فضلٌ فيما آل إليه من تحسّن كبير.

عزم مسعود على الاتّصال بأحد تلك الأرقام في الأجندة، عنّ له أن يجرّب أحدها، شدّ انتباهه وجود اسم كان صديقه أحمد قد خصّه من دون بقيّة الأسماء في الجزائر بتدوين رقم هاتفه وعنوانه معا، اسمه سمير بن

دالي يسكن بحيّ باب الواد، وضع في الاحتمال وجود علاقة وثيقة بينه وبين أحمد، وإلّا لما كان ليشفع رقم هاتفه بعنوان بيته على الأجندة، هكذا فكّر. قرّر الذّهاب إلى العنوان أوّلا حتى يتمكّن من مراقبة سمير هذا عن كثب دون أن يتفطّن لذلك، لعلّه يكون قد التقى به من قبل في مكان ما أثناء مرافقته لأحمد.

لم يكن يودّ إن هو اتّصل به هاتفيّا أن يفتح معه موضوعا حول أحمد ومشروعه البحثيّ، فإنّ ذلك قد يجرّ سمير، الذي يجهل من يكون وما حقيقة علاقته بأحمد، إلى سؤاله عن أسباب وظروف مقتله، كما أنّه من الوارد جدّا أن يمتنع عن كشف حقائق مهمّة قد يكون على اطّلاع بها خوفا من شخص مجهول يتّصل به، لأنّ مسعود في بداية الأمر عندما كان يتردّد في الاتصال بأرقام الأجندة كان يخشى من أنّه إن اتصل برقم واستفسره عن أحمد ومشروعه البحثيّ وأسباب مقتله، فقد يصبح مستهدفا بعد أن يكشف لمن يتصّل به عن علاقته بأحمد ومعرفته بأسراره، وربّما تعرّض إلى الاغتيال جرّاء ذلك، هكذا كان يتوهّم، لكنّه بعدما تعافى وكسر حاجز الخوف بقيامه ببعض التّحقيقات الصّحافيّة شجّعه ذلك على الاتّصال بسمير، كونه الوحيد الذي يوجد رقم هاتفه وعنوان منزله معا في الأجندة.

اتّصل مسعود بمنزل سمير على العاشرة صباحا، اختار توقيتا خمّن أنّه لن يكون معه في البيت، ردّ عليه صوت أنثويّ، قال لصاحبته أنّه صديق سمير ويودّ التّحدّث معه، ذكرت له بأنّه غير موجود في البيت، كان جوابها ذاك متماشيا مع خطّته التي رسمها، حيث إنّه قرّر وفي حال ردَّ عليه سمير أو

أجابه غيره بأنّه في المنزل، فإنّه عندها سيقفل الخطّ ويعاود المحاولة في وقت لاحق. أبدى لها مسعود أسفه كونه لم يتمكّن من الاتّصال به، وطلب منها أن تخبره بوقت عودته إلى المنزل حتّى يعاود المكالمة، قالت بأنّه في العادة يرجع إلى المنزل عند الخامسة مساء.

اكتشف مسعود من مراقبته لسمير بأنّه يتردّد كلّ يوم على المعهد الوطنيّ للبحث الزّراعيّ الذي كان يعمل به أحمد، كان ذلك بمثابة دليل مبدئيّ على كونه يشتغل بالمعهد، لم يسلّم بذلك من أوّل يوم، أصرّ على أن يتأكّد من حدسٍ لازمه طيلة ثلاثة أيّام. في مساء اليوم الأخير، وبعدما بدا له أنّ حدسه صار حقيقة، وقف أمامه عند بوابة المعهد كما الشبح، أبلغه بعد التّحية والسّلام أنّه صديق لأحمد مولاي كان يسكن معه في شقّة بحيّ الحرّاش، وطلب منه اللّقاء في أقرب مقهى من المكان لأمر هامّ، رحّب سمير برغبة مسعود، بعد أن تخلّص من ارتباك تملّكه من مقابلة فجائيّة وغير منتظرة، في النهاية لم يجد أيّ مانع للحديث مع صديق أحمد، وبدا غير منتبه لكل تلك الاحتمالات المعقّدة التي افترضها مسعود حينما كان يخطّط لملاقاته.

في المقهى استفاض مسعود في تقديم نفسه لسمير، أخبره أنّه صديق أحمد الذي عاش معه أغلب فصول حياته، إلى غاية مقتله أمام عينيه وارتقاء روحه إلى بارئها بين ذراعيه، تأسّف سمير كثيرا على الطّريقة التي انتهت بها مسيرة أحمد المليئة بالطّموح، والخسارة الكبيرة لفقدانه، فهم مسعود من ذلك أنّ لدى سمير معلومات عن موضوع بحثه وربّما يكون على اطّلاع بتفاصيله، لكنّه لم يظهر له شيئا. اعتذر سمير منه كونه لم يحضر العزاء لأنّه

وقتها كان خارج البلاد، بالضّبط في تونس أين كان يباشر إجراءات الحصول على فيزا إلى أمريكا، غير أنّ الأمر تعسّر عليه، ردّ على استفسار مسعود حول الغاية من سفره بأنّ ذلك من أجل الدّراسة والعمل هناك، يريد سمير مغادرة البلاد بحثا عن حظوظ أوفر في بلد أجنبيّ للدّراسة والعمل والاستقرار، أخبره بأنّه تمكّن مؤخرا من أخذ موافقة مبدئيّة من معهد كنديّ على الدّراسة فيه، وأنّ هذا سيساعده كثيرا في إجراءات الحصول على فيزا إلى كندا.

كان مسعود طوال حديثه يكرّر أسفه وحسرته على ضياع بحث أحمد، ومشروعه الذي يتعلّق بسيادة البلاد وامتلاكها لقوت شعبها واستقلالها من التّبعيّة للخارج، وضرورة الانعتاق من ارتهانها إلى الشّركات المصدّرة للقمح، ردّد كثيرا على مسامعه كلام أحمد له أيّام كان ينوي السّفر إلى إنجلترا، عن طموحه وحلمه في تطوير إنتاج البلاد من القمح، بالقدر الذي يحقّق اكتفاءها ويمكّنها من تصدير الفائض منه إلى الخارج، ومساعدة بلدان أخرى في إفريقيا والعالم العربيّ خصوصا، على القطيعة مع الشّركات الأجنبيّة والخلاص من إملاءات بلدانها ومن ارتهانها لسطوة الدّوائر الماليّة العالميّة، كان يأمل في أن يتجاوب معه سمير ويخلّصه من المسؤوليّة الأخلاقيّة والإحساس بالمرارة، كلّما ساوره هاجس بأنّ مشروع أحمد قد اغتيل معه ودفن إلى جانبه في مقبرة سيدي مبارك.

لم يتفاعل سمير مع حماسة مسعود في طرحه لموضوع مشروع أحمد، ولم يبدِ تجاوبا حيال إلحاحه، لم يلتقم خيط كلامه الذي ظهر وكأنّه ينطلق من صنّارة صيد، يروم صاحبها اصطياده به فجعله إدراكُه لوجوده يتهرّب منه.

بدا له أنّ سمير ليس بمقدوره فعل أيّ شيء، ربّما لأنّه تعوزه المعرفة العلميّة الكاملة المتعلّقة بالبحث، أو أنّ لديه طموحات بحثيّة مغايرة تجعله يشعر بالتّخمة والزهد في مشاريع أخرى، بينما كان يلمّح له بضرورة بعث ذلك المشروع الاستراتيجيّ. في ذروة انفعاله ويأسه من أيّ إمكانيّة لأن يتلقّف سمير تلميحاته ويردّ عليها، أخرج مسعود ما في رأسه وقلبه ووضعه على الطّاولة إلى جانب فنجانيهما الفارغين:

- سمير! أريدك أن تفهمني، لا أريد أن يلازمني هذا الشّعور الخانق، إلى متى وأنا أعتقد أن أحمد اغتيل مرّتين، بل إنّني أكاد أجزم أنّه يُقتل في كلّ يوم مرّات ومرّات، لن أرتاح حتى تُبعث الرّوح في بحثه من جديد، وإنّني على قناعة راسخة من أنّه لا أحد غيرك يتوجّب عليه فعل ذلك؛ درايتك بالموضوع وتخصّصك في المجال وصداقتك مع أحمد، كلّ ذلك يفرض عليك تحمّل هذه المسؤولية يا أخي!

تفطّن مسعود إلى تجاوزه بكلامه الفظّ حدود اللّياقة واللّباقة مع شخص لم يمض على معرفته له والجلوس معه سوى بضع دقائق، وكيف أنّه كان يتكلّم معه بصوت مرتفع ويشيح بيديه في وجهه يمنة ويسرة، لدرجة أنّ من كان بالمقهى التفتوا إليه وهو على حالته تلك، حاول أن يستدرك ما فاته باندفاعه القاسي، قال متأسّفا:

- سمير... أعتذر على انفعالي وتدخّلي في شؤونك، لم أسيطر على كلماتي المندفعة، لكن صدّقني نيّتي سليمة حتّى وإن كان كلامي معك عنيفا.

- لا عليك صديقي مسعود، لم يحدث أيّ شيء، أنا أستمع إلى كلامك بكلّ وجداني، لأنّه لا يوجد أحد يعرف قيمة ما كان يقوم به أحمد أكثر منّي.

- وهذا ما أعتقده أنا أيضا ويجعلني أتعشّم أن يكون لك دور في إحياء عمله الذي لم يرَ النور.

- فقط... لديّ بعض التّحفّظات، سأخبرك بها لاحقا، أعدك أنّني سأتّصل بك قريبا وسأطالعك بأخبار تسرّك.

16

نادرا ما كان إبراهيم ثاني أكبر أبناء جيلالي هانوي يذهل عن بيته، كلّما ذهب إلى سعيدة للتبضّع عندما لا يجد من بدّ سوى أن يغامر مخاطراً بنفسه وسيّارته التي اشتراها قبل أسابيع. وبعد أن استقرّ والده في بيته عقب حادثة قصف منزله بمزرعة ݣاريݣ أصبح الذهاب إلى المدينة أمرا محتّما لجلب دواء أو التزوّد بمؤونة، من المعتاد أن تكفيه ساعتان كي يشتري ما يحتاجه من مواد غذائيّة وخضر وغيرهما من مستلزمات، ويعود بعدها قافلا إلى بيته، غير أنّه في ذلك اليوم الخريفي تعطّل في الطّريق، نسي أن يعبّئ سيّارته بالوقود، مؤشر البنزين على التابلو لا يشتغل، فلم يشعر إلّا وسيّارته الرّيتمو تختنق وتتوقّف فجأة في عقبة تنتصف الطّريق إلى فنوان.

جاهد كثيرا ليبعد السّيّارة عن الطّريق ووقف على حافّتها بيده دلو وأنبوب قارورة غاز، علّه يجد في سيّاراتٍ قد تمرّ بجانبه من يسعفه بلتر أو لترين من البنزين يبلّغه مقصده، كان النّهار في ذلك الوقت من السّنة قصيرا جدّا، فما هي إلّا لحظات حتّى تبدأ أشعّة الشّمس بالانكسار وقت الأصيل بين العصر والمغرب، مؤذنة بقرب جثوم اللّيل على تلك المنطقة الرّيفية المخضرّة والخالية من سكّانها الذين هجروها بعدما ساءت أوضاعها الأمنيّة.

يخيّم السّكون المطبق على الوجود، وتستطيل ظلال الأشجار المحيطة بالطّريق من كل جانب كما الأشباح مؤشّرة على دنو المغيب، بدأ إبراهيم يشعر بالخوف يتسلّل إلى جسده المرتعش ويسري في أعصابه المرهفة، يزداد الطّقس برودة وترتجف شفتاه لاضطراب فكّه السّفلي فيرفع ياقة جاكيته

ليغطّي رقبته، وتعصف نسائم الجليد لتستقرّ فوق أذنيه فيتصلّبان، انحنى قليلا ليستلقي أرضا على صدره، ألصق أذنه بإسفلت الطّريق لينصت إلى أصوات محتملة لعجلات سيّارة قادمة، قد تنجده من مأزق صعب بدأ يتعقّد مع غروب الشّمس التي خلّف اختفاؤها وراء الجبال احمرار الشّفق في السّماء، كان أشبه بخطوطٍ وبقع دماء تطايرت على حائط فلطّخته بفظاظة.

يرفع إبراهيم رأسه مستبشرا وتنفرج أسارير وجهه، أدار رأسه ملتفتا باتّجاه الصّوت، مرّت ثوانٍ معدودة فوجد نفسه في مواجهة سيّارة تلتهم الإسفلت بمطّاط عجلاتها، هيمنت روائحه على عبير رياحين الغابة المحيطة بالمكان عندما صارت السّيارة أمام إبراهيم، تهدر المكابح عند رجليه، ورائحة الفرامل تبلغ أنوف الذّئاب المتثائبة والمتلمّظة، استعدادا للهجوم على فرائسها القاصية في البرّيّة المقفرة تحت عتمة اللّيل الكالحة.

ترجّل من السّيارة رجلان ملتحيان يحمل أحدهما سلاحا، ابتدرا إبراهيم الذي دبّ الرّعب في أوصاله المرتجفة ووقف متسمّرا دون أيّة ردّة فعل منه، كانت رؤيته للحيتيهما وثيابهما تشلاّن حركته وتجعله يجفل ويرقب صنيعهما المحتوم به، بدا كنعجة مكتّفة تنتظر ذبحها في صبيحة العيد، ركبتاه ترتعدان وأسنانه تصطكّ، لم يجرؤ على المعاندة أو المقاومة، لم يكلّف المسلّحان نفسيهما بالحديث معه كما لو أنّهما كانا صائمين عن الكلام، احتملاه بعنف وأرغماه على ركوب سيّارتهما التي انطلقت نحو وسط الغابة ترجّ الأرض من تحت مطّاط عجلاتها رجّا.

* * *

عند القنطرة قبل الوصول إلى بونقّر، على الطّريق إلى مولاي العربي، تمرّ سيّارة ميمون في طريق عودته من سعيدة، يركب حسان بجانبه، في الخلف تستلقي زوجته رقيّة ويختفي تعبها خلف عجارها إلى جوار وجهها الجميل. كان حسان قد استأجره لينقلهما إلى طبيب النّساء والتّوليد، كانا يعودانه منذ أسابيع، لعلاج مشكلتهما مع العقم حيث إنهما لم ينجبا منذ زواجهما قبل ثلاث سنوات، جرّبا خلالها مئات الوصفات التي أفتت بها عجائز فنوان والقرى المجاورة، وعشرات الخلطات من الأعشاب البريّة ورُقى سي ميلود الإمام وتمائمه التّي علّقاها لأشهر بخيوط على أكتافهما، كانت تتدلّى أسفل الإبط تحت ثيابهما الدّاخلية، وأخرى كانوا ينقعونها في كأس ماء ويشربانه، عدا عن زياراتهما العديدة للأضرحة والتّبرك بالأولياء وتوسّم الخير في أهل الصّلاح وطلب دعائهم.

عانت رقيّة كثيرا من الأسئلة المحرجة والمتطفّلة للنّسوة من قريبات حسان وأهله، كانت كلّها تدور حول موضوع واحد لم يعرف طريقه إلى الحلّ؛ هل من شيء بين أحشائك المنحوسة؟ هكذا كان يُخيّل إليها أنّهنّ تسألنها.

اضطربت نفسيّتها مؤخرا وبدأت تتفادى المجتمعات واللّقاءات النّسائيّة حتّى لا تقع فريسة لأسئلتهنّ البغيضة ونهش ألسنتهنّ السّليطة، فعلت المستحيل تفاديا للطّلاق وخشية من أن يضيف حسان عليها زوجة ثانية، إذعانا لضغط والديه الذي بدأ يلحّ ويشتدّ عليه، لم يتضرّر حسان بالأوضاع الأمنيّة العويصة، وإلى جانب كون عمله في تسمين المواشي التي لا تتأثّر كثيرا بتلك الأوضاع، فإنّه كان قد فضّل البقاء في فنوان لهذا السّبب تحديدا، حيث إنّه اختار أن يجنّب زوجته ذلك القهر النّفسي الذيّ تسبّبه

لها والدته، وتفاديا للاصطدام بمطالبة والديه له بالزّواج مجدّدا آثر الابتعاد عنهما والسّكن لوحده مع زوجته. وعلى الرّغم من كلّ ذلك فإنّ تحريض أمّه منصورية لم يتوقّف وكان يجري أمام ناظري زوجته وسمعها كلّما زار معها بيت أبيه في بوقطب.

جابت زهرة بابنتها رقيّة مشارق الأرض ومغاربها طلبا للولد، نصح أحد المعارف حسان بطبيب نساء وتوليد قدم حديثا من وهران وفتح عيادة في حيّ المحطّة، غير بعيد عن الغرفة الفلاحيّة، قال إنّ لديه خبرة لا بأس بها وأنّه يحوز على شهادات من جامعات ومعاهد طبّيّة فرنسيّة معلقة على الجدار خلف مكتبه كما النّياشين على صدر ضابط عسكريّ.

في أسفل القنطرة يضطرّ ميمون إلى خفض سرعته، الطّريق في حال سيّئة للغاية، بعدما أفسدتها مجنزرات الدّبابات التي تحرّكت فوقها، حين اضطرّت حاملاتها لإنزالها على مشارف مولاي العربي، لم تكن الطّريق باتجاه فنوان تسعها، حدث ذلك عندما كانت مفرزة النّقيب بوعصا تنتقل من تيندوف بالجنوب لتستقرّ مؤقّتا في متوسّطة فنوان، قبل أن ترحل إلى الثّكنة الجديدة بمقرّ الدّيوان الوطنيّ للغابات.

يقفزون كأشباح من القادوس العابر تحت القنطرة أين كانوا مختبئين، مرزوق ورفاقه، من العسير جدّا على ميمون أن يتراجع إلى الخلف في هذا المقطع السّيئ من الطّريق، أطبق عليهم المسلّحون الخمسة كأنفاس خانقة، أنزل بوريق ميمون وحسان من السّيارة بإشارة من ماسورة رشّاشه الذي كان يشهره في وجهيهما، فيما أمر مرزوق رقيّة بعدما جلس في مكان ميمون بأن تنتقل إلى المقعد الأماميّ إلى جانبه، فعل ذلك بصرخة حازمة

في وجهها المذعور خلف عجارها الأبيض، أذعنت لأوامره دون اعتراض، لم يكن من بدّ، أوثق ݣرطوع وبوريق ربط ميمون وحسان بإحكام، ووضعوهما في المجاهدة في الخلف، وانطلق مرزوق ومعه رقيّة كالمسعور.
منذ الظّهيرة، ظلّ مرزوق وأصحابه يترقّبون مرور سيّارة حسان عند قنطرة بونقّر، قبلها كان قد حمل إليه أحد القروييّن المتواطئين خبر ذهاب حسان ورقيّة إلى سعيدة في الصّباح الباكر.
تتوقّف السّيّارتان في وسط الغابة، لم يخرج عاصم من كازمته بعد. يُنزل مرزوق رقيّة بعد أن أوقف محرك السّيّارة، يمسكها من ذراعها ويأخذها بعيدا عن السّيارتين، يلمح من النّافذة المنخفض مربّعها الزّجاجيّ حسان المضطرب في مكانه بقلق شديد على زوجته، يتوجّه إليه ويقف عند باب السّيّارة، يفتحه ويرفع عمامته قليلا ويحكّ جبهته وينظر إليه مليّا، ثمّ يأمره بصوت حازم:
- والآن... عزيزي حسان... طلّقها.
يضطرب خدّ حسان الأيمن كأنّ رعشة جليديّة سرت فوقه، تتحرّك حنجرته المضطربة داخل رقبته، ويردّ على أمر صديقه القديم:
- لكنّني لا أريد أن أطلّق زوجتي يا مرزوق!
- يبدو أنّك لا تفهم الكلام، أو أنّك لا تدرك عاقبة عنادك ومغبّته.
يتعّنت حسان ويصرّ على الرّفض مشيحا بوجهه عنه، ويتكلّم مؤكّدا بصوت حاول أن يجعله يبدو حاسما بعض الشّيء:
- لن أطلّقها يا مرزوق وافعل ما بدا لك.

- اسمع يا حسان، كنّا أصدقاء منذ طفولتنا، لكنّك أنت من غدر بي، تعرف أنّني كنت أريدها... لماذا تزوّجتها إذن؟ ورغم كلّ شيء سأغفر لك هذا الخطأ، فقط لأنّك كنت صديقي في يوم من الأيّام... حسان طلقها!

- اسأل أبي الحاج بوخاتم وقل له لماذا خطبت ابنة الحاج الطّاهر لحسان، واسأل أمّي وقل لها لماذا خطبت ابنة زهرة لابنك، أمّا عن نفسي فعندما صرت في سنّ الزّواج تزوّجت امرأة، كانت أمّي قد رأتها فأعجبتها فخطبتها لي، وهي الآن زوجتي، ولن أطلّق زوجتي.

يغتاظ مرزوق من جواب حسان المستفزّ، يعيد مخاطبته بتهديد ووعيد أشدّ من السّابق:

- اسمع يا حسان، يمكنني أن أتزوّج رقيّة في حالتين، إذا طلّقتها أو في الحالة الأخرى التي لا أريدك أن تضطرّني إليها.

- تريد أن تقتلني إذن؟ لا مشكلة. اسمع يا مرزوق، زواجك من زوجتي على جثّتي.

يغتاظ مرزوق من جواب حسان، ينادي بوريق، كان ينقل بصره في السيّارة بين حسان وميمون الذي بقي مسمّرا تغمره الدّهشة من لامبالاة صديق عمره به وإنكاره لوجوده:

- بوريق خذهما إلى حيث اتّفقنا.

* * *

تتيه سيّارة يقودها حمزة في وسط الغابة بين أشجار الصّنوبر على الطّريق الحرجيّة الوعرة، وبعد مسير مضنٍ وشاقّ، توقّفت بجوار بيت خرب

ومهجور يوجد بالقرب منه بوريق ومعه أربعة فنوانيّين من المتطرّفين وميمون وحسان، نزل حمزة ورفيقه صهيب يدفعان إبراهيم أمامهما ويرغمانه على التّقدم نحو البيت.

يجلس ميمون وحسان مقيّديّ الرّجلين واليدين بسلك إلى الخلف، ويسندان ظهريهما إلى جدار، دفع حمزة إبراهيم من الظّهر فسقط على الأرض، أمسك به مسلّحان من يديه وأثبتاه، قرفص صهيب وجثا على ركبتيه خلف إبراهيم وقيّده مثل ميمون وحسان.

كان الثّلاثة في ذهول وخوف شديدين يتقافزان في أعينهم الجاحظة ممّا ينتظرهم من مصير مجهول، ماذا سيفعل بهم هؤلاء؟ زاد في شدّة ذلك اعتزال المتطرّفين لهم ودخولهم في حوار بعيدا عنهم، بدوا معه كأنّهم يختلفون حول خطب ما، راح الفنوانيّون الثّلاثة يحاولون دون جدوى الإصغاء إلى ما يدور بين المتطرّفين، وإذا ما كان حديثهم يتعلّق بمصيرهم. بعد مرور وقت ليس بالقصير، ركب أفراد الجماعة سيّاراتهم وانطلقوا شمالا.

يعرف الثّلاثة بعضهم بعضا جيّدا، جميعهم يقطنون بالقرية، إبراهيم أكبرهم سنّا وهذه المرّة هو أكثرهم جرأة إلى حدّ التّهور، في نقطة يلتقي عندها الموت مع الحياة وتتساوى تكاليفهما الباهظة، بينما يبدو ميمون وحسان منهارين ومطأطئي الرّأس مستسلمين للأسلاك التي تشلّ حركتهما، ولكلّ ما ستجلبه الأقدار من أجلهما وقد بدت لهما ترفرف فوق رأسيهما منتظرة انبثاق سبب هجومها.

نهض إبراهيم بصعوبة شديدة، لم يتمكّن من الاعتماد على يديه المقيّدتين إلّا بعد جهد ومعاناة وتمرّغ طويل على التّراب، أمر ميمون أن يقف ويولّيه ظهره، جثا على ركبتيه والتقم بفمه السّلك المعدنيّ المبروم والمربوط بإحكام حول معصمي ميمون المستندين لظهره. بدأ إبراهيم يحلّ السّلك بأضراسه، وبكلّ ما أوتي من قوّة ورغم أنّ السّلك كان مثنيّا وملتويا، إلّا أنّ فكّيه وفي أكثر اللّحظات حرجا وأقصر الأوقات التي قد يتطلّبها اتّخاذ قرار مصيريّ وتنفيذه، تحوّلتا إلى كلّاب، تُصدر أضراسه التي راحت تدير السّلك بعكس اتّجاه الرّبط، طقطقة كلّما اختلطت به، وتنزف دماؤه من بين لثّته وأسنانه وتسيل على رقبته لتخترق ياقة قميصه الرّماديّ، لم تمرّ سوى دقائق قليلة حتّى أصبحت يدا ميمون طليقتان وتسريان بخفّة قلقة لتخلّص حسان ثم إبراهيم وتفكّهما من قيديهما.

انطلق الثّلاثة كالمجانين لا يلتفتون، يجرون في ذلك الظّلام الدّامس وتلك الأحراج وبين أشجار الغابة الكثيفة، لم يصدّقوا أنّهم نجوا من المتطرّفين وفرّوا من بين قبضتهم المحكمة، وبعد مشوار شاقّ وطويل من الرّكض المضني في مكانٍ يجهلونه جميعهم، توقّف إبراهيم وأوقف صاحبيه، أمر كلّ واحد منهما أن يسلك اتّجاها مغايرا. سار حسان شمالا واتّجه ميمون غربا وأكمل إبراهيم الطّريق في الوجهة التي بدأ بها؛ نحو الشرق، وصل إلى طريق إسفلتيّ بعد جهد ممضّ، وجد راعي غنم يرعى قطيعه المتناثر حوله في الجوار، سأله عن الاتّجاه نحو سعيدة وعن المكان الذي يتواجد به، حيث إنّه يجهله، أخبره بعدما اطمأنّ إليه بأنّه وصديقيه تعرّضوا لاختطاف من قبل إرهابيّين احتجزوهم في وسط الغابة، وأنّهم تمكّنوا من الفرار منهم

بأعجوبة، أجابه الرّاعي بأنّه بالقرب من تفاسور وأنّ عليه أن ينتظر لبعض الوقت، حتّى يدرك حافلة تلاغ المتّجهة نحو سعيدة مع بزوغ الفجر.

* * *

طفق جيلالي هانوي يتأفّف من طول انتظاره لعودة ابنه، ليس من عادته أن يظلّ إلى هذا الوقت المتأخّر في المدينة، ومع مرور الوقت بدأ القلق يخالج دقّات قلبه فلم يطق الجلوس لأكثر من ذلك واستند على رجله السّليمة، متجنّبا الألم الذي قد يصيبه إن هو اعتمد واقفا على رجله المصابة في قصف بيته، كان قد رجع قبل أسبوع من عند المجبّر في داود غير بعيد من فنوان على الطّريق إلى سيدي بلعباس، كانت شظية قد أحدثت شقّا في عظم ساقه حذو ركبته، ورغم أنّه تلقّى علاجا في العيادة العسكريّة في وهران وأجرى عليها عمليّة جراحيّة، غير أنّه قرّر استشارة مجبّر حينما شعر أنّه بقي على حاله لا يستطيع المشي برجله تلك إلّا بعد أن يبذل جهدا كبيرا، وبعد مضيّ سنة كاملة، ظلّ يعرج برجله اليسرى. أخبره المجبّر أنّه يعاني من انزلاق غضروفي ورباطي في الرّكبة، لم ينتبه الأطباء له بعد العمليّة، أو أنّه هو من أهمل زيارتهم وتهاون في متابعة العلاج، قال له أنّ سبب ذلك غالبا يعود إلى حركة هوجاء خاطئة يكون قد قام بها بعد العملية أو ربّما بعد الانفجار مباشرة حين حاول القيام من فراشه، دلّك المجبّر ساقه وركبته ووضع عليها جبيرة، لفّ حولها شاشا طبيّا على عيدان من نبات الكلخ اليابس، فلم يتمكّن بذلك من ثني ركبته.

خرج هانوي على عكّازيه كالمجنون يبحث عن ابنه إبراهيم، وبعد جولة طويلة في القرية لم يترك بابا توقّع أن يوجد خلفه إلا وطرقه، دون جدوى، ولمـّا

استيأس وأنهكه التّعب استسلم وقرّر أن يذهب إلى بيته في مزرعة گاريگ، من المحتمل أن يكون ابنه إبراهيم هناك، وأنّ أمرا ما جعله يتأخّر في المزرعة. لحظة وصوله وقبل أن يدخل ورغم حلكة اللّيل وما أصابه من ذهول، اكتشف أنّ باب الگاراج في مزرعته بقي مفتوحا، أمِل أن يكون إبراهيم موجودا بداخله، تفحّص الگاراج جيّدا فلم يجد أحدا، أطفأ الأنوار وما إن همّ بالخروج وهو يستدير بعدما أحكم غلق القفل، إذا به يصطدم بجثّة رجل، لم يكد يلامسها حتّى أحسّ بصوت غليظ يصدر من حنجرته الخشنة وكأنّه يخرج من أنبوب صدئ:

- لا داعي لأن تبحث عن إبراهيم لقد أخذه الخاوة.

ارتعدت فرائص هانوي، وهو يتحسّس كلمات الرّجل بأذنيه وجسدَه بيديه ويحاول معرفة من يكون في ذلك الظلام:

- لماذا أخذوه... ماذا فعل؟ من أنت؟ گرطوع؟ هذا صوتك، ماذا فعلتم بابني؟

- يبدو أنّ ابنك لا يريد أن يستمع للكلام، ويريد أن يفعل ما يحلو له، هذا مصير كلّ من يخالف الأوامر في هذه القرية، أمّا أنت أيّها العجوز الخرف فستلقى حتفك على يديّ ولن تفلت منّا هذه المرّة...

لم يكد گرطوع يلتقط أنفاسه ليكمل كلامه مع هانوي، الذي سمع صوت ضرب يده على أخمص الكلاشينكوف، وحركته بينما كان يهمّ بتصويب فوهته نحوه، حتّى استند هانوي على رجله اليمنى وضغط على عكّازه الأيسر، بعدما حرّر الأيمن في الهواء، جذبه للخلف قليلا ثمّ أرسل قاعدته نحو رقبة گرطوع بيده القويّة دون أن يفلته من يده، فمضى العكّاز في الهواء كأنّه

قذيفة مدفع، كانت إصابة كّرطوع في ترقوته أشبه برفسة حصان، سقط على ظهره بينما طار سلاحه بعيدا عنه، واختفى بين الحشائش وفي وسط الظّلام، بدأ يتمرّغ على الأرض من شدّة الألم، حاول مسرعا النّهوض مستندا على يدٍ وظلّ ممسكا حنجرته بالأخرى، لم يفكّر في البحث عن رشّاشه لمعاودة المحاولة، أخذ يرتعد من ضربة هانوي فلم يتجرّأ على مواجهته مجدّدا، بدا له الانسحاب في مثل هذا الموقف المعقّد والفرار بالجلد أسهل من كلّ تلك الاحتمالات الصّعبة.

* * *

V

سلطة الأمر الواقع

17

يستعيد إبراهيم الجالس في قاعة للدّراسة في مدرسة القرية أحداث فوز الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ في الانتخابات المحليّة قبل خمس سنوات، بنبرة العارف بكلّ شيء يراوده شعورُ المتميّز عن الآخرين بامتلاكه لذاكرة فولاذيّة، ويخاطب زملاءه المكلّفين بإدارة مكتب الاقتراع رقم 3 رجال، المنهمكين في تناول وجبة الغداء المخصّصة لمؤطّري رئاسيّات 17 نوفمبر 1995.

لم يحُلْ انتصاف النّهار بما يقتضيه من رابطة مقدّسة بين القرويّين واستسلامهم لإلحاح أمعائهم، دون تقاطرهم على مدرسة بلماحي قادة التي استحالت إلى مركز اقتراع، تتراكم طاولات قاعات شطرها الشّرقيّ بأقسامه الخمسة في الخلف ملتصقة بجدرانها، فتفسحُ الوسط لصندوق خشبيّ يرتفع فوق طاولتين متلاصقتين، لتحتضن المدرسة سكّانَ القرية القادرين على الإدلاء بأصواتهم في انتخابات كانت هي الأولى منذ وقف المسار الانتخابيّ في يناير اثنين وتسعين.

عند مدخل القاعة، على اليمين تتشبّث طاولة بالحائط، تصطفّ فوقها رزم أوراق المترشّحين الأربعة، يجثم رشاش كلاشينكوف على ثلاث رزم منها، وتتخفّف رزمة الأوراق التي تحمل صور المرّشح الرّئيس اليامين زروال من ثقله، متحرّرة بذلك من سطوة فوهته، فلا يكون بوسع من يدخل مكتب التّصويت أن يحمل سوى ورقة الرّئيس زروال، طالما أن إزاحة الكلاشينكوف عن ورقة أخرى غيرها قد يرغب بوضعها في صندوق

الاقتراع ستكلّفه علقة من بوعصا، كان لا يكفّ عن التّردّد على مكاتب التّصويت.
على الرّغم من انتهاء الأجل القانونيّ للحملة الانتخابيّة قبل أربعة أيّام عن الاقتراع، بعد أن امتدت لثلاثة أسابيع، كان أنصار الجنرال المترشّح لا يزالون يجوبون أزقّة القرية ويحفّزون سكّانها على الانتخاب، الذي استمر إلى غاية السّابعة ليلا. قبل ذلك بنصف ساعة دخل النّقيب بوعصا إلى مكتب مدير مركز التّصويت، أعطاه أوامر لا تقبل النّقاش بالإمضاء داخل سجلّ الانتخاب في الخانات التي لم يحضُر أصحابها للتّصويت، كان ذلك بمثابة انتخاب بدلا عنهم ورفعا لنسبة الاقتراع.
عند السّابعة تماما، أمر بوعصا مدير المركز بوقف التّصويت وإغلاق صناديق الاقتراع، حملها المؤطّرون على سيّارة مغطّاة اتجهت بها إلى دار البلدية، أين كانت تتجمّع تباعا صناديق التّصويت قادمة من المراكز الانتخابيّة الأخرى.
يقف رئيس المندوبيّة التّنفيذيّة البلديّة على رؤوس عمّاله وموظّفيه، يصرخ في وجوههم بحنجرته الخشنة وبأعلى صوته، يحضّهم على الإسراع قدر الإمكان لإنهاء مهمّتهم، كان يشرف بنفسه على قلب الصّناديق فوق حصير داخل قاعة الاجتماعات، أمر موظّفين في البلديّة بملء الصّناديق الفارغة بأظرفة معدّة سلفاً، يحمل جميعها الورقة الانتخابيّة للرّئيس المترشّح، شرع عاملان في مصلحة النّظافة في جمع الأظرفة التي تتكدّس فوق الحصير، وضعاها داخل أكياس بلاستيكيّة سوداء، ثمّ تخلّصا منها بأن أحرقاها في مكبّ نفايات غير بعيد عن دار البلديّة. وفي مكتبه سجّل رئيس المندوبيّة التنفيذيّة البلديّة في محاضرَ بعدد مكاتب مراكز الاقتراع جميعها نتائجَ

الانتخابات، ووضع نسبة مائة بالمائة مقابل خانتي نسبة التّصويت والرّئيس المترشّح.
تشهد العاصمة مع انتصاف اللّيلة التي تلت نهار الانتخابات أصوات إطلاق أعيرة ناريّة، احتفالا بالنّتائج الإيجابيّة التي حصل عليها المترشّح اليامين زروال، وبفارق كبير عن ملاحقه المرشّح عن حركة مجتمع السّلم الشّيخ محفوظ نحناح، احتجّ أنصاره على الطّريقة التي أديرت بها عملية الاقتراع على مستوى الوطن، فاتهموا معسكر زروال بتزوير الانتخابات وقلب الصّناديق وحشوها بأوراقه الانتخابيّة والتّخلّص من الصّناديق الأصليّة في أغلب المناطق، خصوصا الرّيفية والنّائية، مستندين في ذلك إلى تقارير وشهادات مراقبيهم ومحاضر الفرز التي كانت بحوزتهم.
لم يكن ذلك الاحتجاج العارم، من قبل المرشّحين الثّلاثة وأنصارهم ليمنع وزير الدّاخلية من الخروج أمام الصّحافة الوطنيّة والأجنبيّة، ويعلن عن فوز المترشّح اليامين زروال بنسبة فاقت السّتّين بالمائة.
يمتعض مسعود القابع في مكتب مدير التّحرير إلى جانبه، ساعة إعلان النّتائج، يسحب رجلا كانت تمتطي الأخرى ويضع فنجانه على الطّاولة أمامه بعنف، فتندلق منه قطرات من القهوة، ويصرخ في غضب حانق:
- إلى متى يصرّ النّظام على إجهاض حلم الشّعب بديمقراطيّة حقيقيّة وها هي الانتخابات، آخر شيء يمكنه أن يعكس الحقوق السّياسيّة للمواطنين يدنّسونها ليكرهها الشّعب!
يستذكر مسعود ما حدث معه ليلة أمس مع وقت إغلاق صناديق الاقتراع، حين كان في جولة إلى بعض مدارس العاصمة، احتجّ أحد

مراقبي المترشّح سعيد سعدي رئيس حزب التّجمع من أجل الثّقافة والدّيمقراطية (الأرسيدي) على مدير مركز التّصويت، عندما رآه بعد تجميع الصّناديق وتهيئتها للشّحن يغلق بعضها، بدا له أنّه قد قام بحشوها بعدد من الأظرفة التي كان يحملها داخل أغلفة ورقيّة كبيرة كانت بحوزته، كان ذلك أمام أنظار الجميع وفي حضور الصّحافيين، وأمام عدسات الكاميرات، وحينما أمعن مراقب حزب الأرسيدي في احتجاجه وقال لمدير المركز أنّه ليس من حقّه فتح الصّناديق، ردّ عليه مناكفا بأنّه مخوّل بفعل أيّ شيء في ذلك المركز الذي يشرف عليه ولا يحقّ لأيّ كان الاحتجاج على ما يصنع.

- هدّئ من روعك صديقي مسعود، كلّنا يعلم بأنّ خروقات جسيمة وتجاوزات خطيرة طبعت هذه الانتخابات.

قال جمال ذلك محاولا خفض نسبة الأدرينالين في دم مسعود، أخبره جمال أنّه بالأمس، عندما خرج من مركز الانتخاب الذي أدلى فيه بصوته، وجد الآلاف من الأوراق الانتخابيّة في الشّارع، ملقاة على الأرض، أغلبها لا يحمل صور المترشّح محفوظ نحناح، فكّر أن يكون أنصاره قد فعلوا ذلك ورموها حتّى يبيّنوا للمارّة أنّ رئيس حركتهم كان الأكثر انتخابا من طرف النّاخبين، قال جمال لمسعود أنّ ذلك ربّما كان من باب الدّعاية الانتخابيّة والتّأثير على مسار الاقتراع، أو لإثبات أنّ سير عمليّة التّصويت كان في صالح مرشّحهم.

رجع جمال بظهره قليلا إلى الخلف، ألقاه على الكرسيّ وطرح على مسعود سؤالا سياسيّا بعض الشّيء:

- هل تعتقد أنّ نحناح يصلح لأن يكون رئيسا للجزائر في هذه المرحلة الدّقيقة، وفي ظلّ هذه الظّروف الدّوليّة والإقليميّة المعقّدة؟

- ولم لا؟! طالما أنّ الشّعب اختاره لذلك، وطالما أنّه جمع أغلبيّة الأصوات. أليست هذه هي الدّيمقراطية التي نتغنّى بها؟

ردّ مسعود على سؤال مدير التّحرير، مستحضرا حادثة التّصويت داخل ثكنات الجيش ومقرّات الشّرطة وحتّى في وحدات الحماية المدنيّة، وكونه لصالح الرّئيس المترشّح بتعليمات فوقيّة لا تقبل النّقاش، إلى جانب الصّناديق المتنقّلة التي صوّت فيها البدو الرّحّل وسكّان المناطق النّائيّة والصّحراويّة، البعيدة عن المراقبة أصلا، حفّز كلام مسعود جمال على أن يستدير بكرسيّه الهزّاز نحوه ليبرّر صحّة مزاعمه:

- يا سي مسعود أنت تعلم أنّ قيادة الجيش هي السّلطة الفعليّة للبلاد، وأنّهم يكملون المسار الذي تورّطوا فيه مع بداية سنة اثنين وتسعين.

بدا من تحليل جمال لنتائج الانتخابات الملتبسة والمشبوهة، أنّ قيادة الجيش كانت تبحث عن مخرج لمأزق الأزمة السيّاسّية التي وجدت نفسها متورّطة فيها أمام القوى الدّوليّة، كان الحلّ المقبول حسبه، يحتّم الانتقال إلى بناء مؤسّسات الجمهوريّة على أنقاض المؤسّسات الانتقاليّة التي فرضها إيقاف المسار الانتخابيّ، وما تلاه من فراغ دستوريّ وقانونيّ، وأيضا لمواجهة الأزمة الأمنيّة التي دخلت عامها الثّالث، فاختيار جنرال من بين قيادة الجيش لرئاسة الجمهوريّة سيكون مخرجا مناسبا، وهو ما يجبرهم على فعل كلّ ما فعلوه بالأمس واليوم، بغرض فرضه وجعله أمرا واقعا.

- انظر من حولك في الخارج. لوّح جمال بإصبعه السّبابة صانعا دائرة في الهواء، هل تعتقد أنّ فرنسا وأمريكا والدّول الغربيّة الأخرى ستقبل برئيس إسلاميّ حتّى وإن انتخبه الشّعب؟

قناعة جمال كانت في أنّ مجرّد كون نحناح محسوب على التّيار الإسلاميّ، وعلى الرّغم من اعتداله وعدم تشدّده وقبوله بالمشاركة السّياسيّة فإنّ السّلطة الفعلية، كما يصرّ على أن يسمّي قيادة الجيش، لم تكن لتقبل به بغضّ النّظر عن مصالح الدّول الغربيّة الاقتصاديّة وشركاتها البتروليّة التي تحميها السّلطة، وحتّى هذا، وفقا لما يذهب إليه جمال، سبب كاف ووجيه لاعتراضهم على نحناح أو غيره، فقد بدأت تتشكّل في الغرب فوبيا من الإسلام السّياسيّ، خصوصا بعد أحداث أفغانستان وما يحصل اليوم في البلقان من صراع بين الهويّات والأقليّات، إضافة إلى الحرب بين السّلطة والمتطرّفين.

- الوقت لم يحن بعد لانتقال السّلطة للمدنيّين، وحينما تنتقل لهم فسوف يستلمها من ترضى عنه قيادات الجيش.

ختم جمال تحليله بتأكيد رأيه في مبرّرات انتخاب زروال.

- إذا كان الأمر كذلك، ما الدّاعي إلى إهدار المال العام على انتخابات محسومة مسبقا، هي أشبه إلى تمثيليّة منها إلى الحقيقة.

سأل مسعود مستغربا إجراءَ انتخاباتِ الفائزُ فيها معروف سلفا.

- كان ذلك ضروريّا لإظهار أنّ هناك ديمقراطيّة في الجزائر، حتّى يراها الخارج.

- ديمقراطيّة مزيّفة إذن.

- طالما أنّ تزييف الاستقرار والتّنمية أمر مستحيل وغير ممكن. دعنا من الانتخابات الآن فما قد حصل لا يمكننا إلاّ الإذعان له. أين وصلتَ في تحقيقك بخصوص سيّارات ZH.

كان مسعود قد أنهى التّحقيق قبل يومين فقط بعد معاناة مع الاتّصال بمدير مصالح الجمارك على مستوى الميناء، ورفض وزير الماليّة استقباله أو الرّد على مكالماته. اكتشف من خلال تحقيقات استقصائيّة أوليّة أنّ تلك السّيارات التي دخلت الجزائر واكتسحت السّوق وحملت لوحةُ ترقيمها حرفي Z و H ، قد أثارت طريقة تداولها بين النّاس شكوكا حول حقيقة عمرها الذي لا يمكن معرفته، وقد حاولت شبكات مختصة في استيرادها وبيعها مغالطة المشترين بادّعاء أنّ سيّاراتهم حديثة الصّنع، حتّى إنّهم كانوا يزعمون أنّها صنعت فقط قبل سنة أو سنتين على الأكثر، أخبره أحد أعوان الجمارك كان قد التقى به قبل أسبوع في مقهى بالقرب من البريد المركزي، بعد أن شدّد على عدم إيراد اسمه في المقال، أنّ مصالح الجمارك رأت في ذلك تحايلا عليها فقامت بحجز ومصادرة جميع السّيارات من هذا النوع، أغلبها من نوع بوجو 205 التي كان يتمّ تفريغها على مستوى الميناء، وهناك شكوك حول قيام أصحابها بتزوير وثائقها إلى جانب تصريحاتهم الكاذبة حيال سنة التّصنيع، أكدّ له أنّ إدارة الجمارك ستقوم بتحويل جميع تلك المركبات إلى المحشر ومن ثمّ تبيعها في المزاد، كما أنّها ستحرّك دعاوى قضائيّة تجاه مالكيها لمخالفتهم التّشريع المعمول به في مجال استيراد السّيّارات، وبعد اتّصال مسعود بمحامٍ متخصّص في قضايا الفساد

الاقتصاديّ، أبلغه أنّ أصحاب تلك السّيّارات سوف لن يتمكّنوا من استعادتها، وسيكونون عرضة للسّجن لمدد قد لا تقلّ عن ثلاث سنوات.

- هذا جيّد، يمكنك وضعه للنّشر مع أوّل فرصة.

قال جمال الذي كان يصغي إلى سرد مسعود لمضمون تقريره في انتباه شديد، بعدما أومأ إليه بيديه أنّه أنهى عرض تحقيقه عليه.

- وهو كذلك. ردّ مسعود.

* * *

يدقّ يحيى مجاهد باب بيت ميمونة مبكّرا، في يوم جمعة يُلقي بالسّكون والهدوء على سعيدة ويفرض على سكّانها نوما إضافيّا يمتد إلى العاشرة أو لما بعدها، يصيح بأعلى صوته مفجّرا حيّ فيلاج بوديّة: سالم... سالم...

يطلّ سالم من نافذة بالطّابق الأوّل بعد أن اجتذبه صوت يحيى من أحلام كان لا يخالجه الشكّ في كونها حقيقة قبل أن يفيق، بالكاد يتعرّف على سحنته التي لم يرها منذ أن كان قد حرث بجرّاره أرضَ والده بيامدلس، قبل ما يربو عن سبع سنين. أمام الباب تفادى سالم أن يعرض عليه الدّخول للحديث في البيت، استثقالُه له دفع بيحيى كي لا يتردّد طويلا حتّى يكشف عن سبب قدومه، لا ينصت سالم لكلامه الذي كان يدور حول حوادث وقعت منذ سنوات، استحضرها يحيى من باب سرد ذكريات الزّمن الجميل الذي لا يكاد سالم يذكر منه شيئا قد يجمعهما به، وبدلا من ذلك غاص في تفكير عميق في كيف ليحيى أن يكتشف مكانه هنا في فيلاج بوديّة، لا بدّ أنّه بحث عنه طويلا وسأل كثيرا حتّى وجده مختبئا في دروبه الضّيقة.

اقترح يحيى على سالم شراء منزله في فنوان بأسلوب فظّ وناشف، لم يمهّد له بمقدّمات أو يوطّد بتلميحات، بل إنّه لم يسأله حتّى إن كان يعرضه للبيع أم لا. أصيب سالم بصدمة من جرأة يحيى وفجاجة اقتحامه السّافر. يحيى... ذلك الصّعلوك الذي كان يعمل راعيا عند أصحاب القطعان -كما يتخيّله دائما- يُزيل الكلفة ويرفع الحرج ليطرح بيتهم الذي يعجّ بذكريات عائلته ويعبق برائحة أبيه الحاج بن عثمان وأمّه الحاجّة ثامرة في المزاد، ويجعله محلّ تفاوض وأخذ وردّ، هكذا بهذه البساطة!

يمسك سالم أعصابه بغيض مرير ولا يظهر حنقه، اكتفى بإجابة جدّ مقتضبة، حاول وهو يلقيها على مسامعه أن يكون حاسما فيها، حتّى لا تثير تساؤلا آخر أو استفسارا من جانب يحيى، وألا يترك له مجالا لاقتراح عرض جديد قد يبدو له أكثر إغراء من سابقه:

- آسف. داري ليست للبيع ولو بكنوز الأرض كلّها.

منذ أن خبّأ يحيى مجاهد الأموال التي استخرجها من مطمورة خيداس في قبو منزله، وهو يفكّر جديّا في استثمارها، بدأ يتاجر في المواشي بجزء منها، اشترى عشرة بيوت في فنوان كان أصحابها قد تركوها مجبرين ورحلوا عنها، إضافة إلى أرض ممتدّة مساحتها تفوق المائة هكتار، كان ذلك بمقابلٍ زهيد بعد أن ساوم مالكيها الذين كانت تحاصرهم ديون أثقلت كواهلهم، اقترضوها حينما اضطرّتهم هجرة فنوان لشراء سكنات بالمدينة، كما اشترى له بيتا في بوخرص وقطعة أرض للبناء في لاصاص بالمدخل الغربيّ لسعيدة.

كان يحيى لا يريد من اقتراحه ذاك شراء بيت سالم، لم يكن يرمي لأيّ شيء آخر، سوى لأن يغيظه ويظهر له على أنّه صاحب مال وثراء، فهو يعلم

يقينا أنّ سالم يفضّل الموت على أن يعيش ليرى يوما كهذا، وأنّه لن يقبل ببيع بيته حتّى ولو صار على الحديدة ولم يجد ما يأكله، يدرك يحيى جيّدا من هم آل مولاي في عنادهم وأنفتهم الكاميكازيّة، كان همّه فقط أن يتطاول بعض الشّيء على سادة الأمس القريب الذين لم يكن يشقّ لهم غبار، بعدما عبثت الأيّام بمقامهم الرّفيع، فانزووا إلى الخلف في ركن على هامش الدّنيا التي تبسّمت حظوظها لمثل يحيى.

أدرك سالم أنّ يحيى، وإمعانا منه في إيذائه المهين له، إنّما أراد من مجيئه ذاك أن يبيّن له أنّه استطاع أن يكشف عن حقيقة اختبائه خلف امرأة أرملة، ولجوئه لميمونة حتّى يستتر هو وأبناؤه عندها من عداوة الأيّام.

لم ينتظر سالم كثيرا بعد مغادرة يحيى، لم يترك فرصة للأفكار المسمومة كي تقضم عظمة جمجمته لمزيد من الوقت، دخل إلى البيت من فوره، لبس حذاءه وتوجّه إلى بازار موسى وطلب منه أن يقرضه مبلغا من المال، ليدفعه ثمنا لمنزل زعم له أنّه فاوض مالكه فيه، في وقت سابق، وأعطى موافقة مبدئيّة بشرائه منه، كانت حجّة محكمة ساقها سالم لموسى بعدما حبك في الطّريق إليه خيوطها، وحاول جاهدا أن تبدو وجيهة من جميع جوانبها، خصوصا ألا يبدي أيّ إشكال محتمل يكون قد حصل بينه وبين ميمونة أخته، دفعه إلى مغادرة بيتها، لم يتردّد موسى كثيرا، قام من مكتبه وركب سيارته، إلى جانبه سالم، واتّجها إلى فيلّته وأعطاه المبلغ الذي طلبه وأخبره أنّ بإمكانه سداده على مهل.

بعدما بات استقراره محتّما في حيّ عمروس أين يوجد مسكنه الجديد، باع سالم غنمه وجرّاره وشاحنته، وفتح محلّا لبيع قطع غيار العتاد الفلاحيّ، وأعاد بما تبقّى له من مال جزءا من قرض موسى.

* * *

في الصّالة الفخمة، في الفيلّا الجديدة التي اشتراها موسى بوزيد بحيّ الكاسطور، تنتصب مائدتان وسط صالون من الأرائك الجلديّة البنيّة الفاخرة، يستلقي عليها ضيوفه ويمدّون أيديهم إلى الطّعام المتنوّع أمامهم، لقد سنّ لهم موسى هذه السُّنّة فغدت متواترة، لا يكاد يمرّ أسبوع حتّى يدعو نفرا من المسؤولين وذوي الوجاهة والسّلطان في الإدارة العسكريّة والقضائيّة والمحليّة للولايّة. تنهش أيديهم بنهم لحم خروف مشويّ مقسوم إلى نصفين، نصف في كل مائدة. تعلو ضحكاتهم والقهقهات الصّاخبة بعد كلّ نكتة يتندّر بها أحد المدعوّين، ويتلوها استماع لحديث موسى عن وضعه الماليّ الجيّد، بدا من كلامه لهم أنّه يتطوّر يوما بعد آخر، تسود مظاهر التّعجب والاستغراب كلّما ساق قائد القطاع العمليّاتيّ مغامرة من مغامراته الخياليّة منذ أن بدأ مساره العسكريّ كملازم في الجيش قبل عشرين عاماً.

تخفّ حدّة الضّحك ويصير الاجتماع أكثر جدّيّة، مع سكب الشّاي في كؤوس زجاجيّة شفّافة، بدا للحاضرين وكأنّها ستخفّف من وطأة الشّحم المتغلغل بين هبر لحم الضّأن الطّريّ، لم يكن ليأخذ وقتا طويلا حتّى ينساب ذائبا ويستقرّ في أمعائهم الدّقيقة، ترافقه صحون صغيرة من المكسّرات المتنوّعة، تتردّد عليها أيديهم بين رشفة وأخرى.

طغت على الجلسة أحاديث ثنائيّة على وقع رشفات الشّاي المتأنيّة، لم يلبث وكيل الجمهوريّة ومرافقاه القاضيان طويلا ليستأذنا موسى للمغادرة، بعد أن نجح في تقديمه إلى الضّبّاط الجدد المحوّلين حديثا إلى القطاع العمليّاتيّ، وخلقِ جوٍّ حميميّ بينهم، غادر الجميع ولم يبق غير قائد الأمن العسكريّ العقيد خثير ودحمان المحامي، الذي استعاد حيويّته حينما رأى مكافح الجماعات الإرهابيّة يهمّ بالانصراف، وكأنّه نشط من عقال، اغتنم صمتا وسكونا سادا الصّالة الفسيحة، لم ينتظر طويلا حتى بادر بالكلام:

- سيادة العقيد، تعلَم ولاء موسى بوزيد للدّولة خصوصا في حربها على الإرهاب، إنّه يجازف من أجل إيصال المؤن إلى ثكنات الجيش في مناطق ملتهبة في الجهة، يريد منكم بعض المساعدة والعون، كما لا يخفى عنكم، فهو ينفق أموالا طائلة ويعاني كثيرا، دون تحقيق ربح كبير، بل إنّه مهدّد من قبل الإرهابيّين بعدما وضعوه في قائمتهم السّوداء، كلّ ذلك من أجل أن يدعم جهودكم ويرافقكم لوجستيّا في القضاء على المتطرّفين الدّمويين، أظنّ سيّدي أنّ من حقه أن يحصل على صفقات مجزية تعوّضه ولو قليلا عن كلّ ذلك التّعب.

يقوم موسى بعد أن رأى بلحاج يعضّ على شفته السّفلى ويغمزه خلسة عن العقيد، يفتح درجا في طاولة ضخمة تحمل تلفازا بشاشة عملاقة، يسحب منه شيئا ملفوفا في ورق هدايا ويضعه بين يدي العقيد، يستلقي على الأريكة المقابلة له ويخاطبه:

- لطالما وددت زيارة سيادتكم لتهنئتكم على العمليّات الأخيرة النّاجحة، غير أنّ المشاغل تمنعني دائما، أنتم تستحقّون أكثر من هذا التّكريم البسيط سيادة العقيد.
- أشكر لك تقديرك الغامر سي موسى، أتفهّم انشغالك وأقدّر مساعيك في مساعدتنا على تخطّي العديد من العوائق اللّوجستية التي نواجهها في مكافحتنا للإرهاب، أنت تقدّم خدمات جليلة بشاحناتك التي تسخّرها، وتتخطّى بها خطوط النّار من أجل إيصال اللّقمة لجنودنا المرابطين في عمق معاقل الإرهاب في الغابات والجبال، لكن لا تقلق، فما تكرّمت به على الدّولة والجيش ستنال لقاءه دعما ووقوفا منّا إلى جانبك.
وعد العقيد خثير موسى بأنّه سيعرّفه على جنرال في الجيش، سيفتح له الآفاق نحو تجارة استيراد القمح من الخارج، ستكون تجارة مربحة ودائمة، أوصاه بأن يحسن التّعامل معه وأن يحافظ على ثقته به ولا يخسره، كاد موسى أن يصرخ من الفرح لهذا الخبر السّعيد. أخرج العقيد من جيبه قلما وبطاقة صغيرة يبدو من شكلها أنّها بطاقة زيارة لشخص مهمّ، كتب في ظهرها عنواناً ورقمي هاتف قال إنّها لرائد في الجيش يدعى مدني، عليه أن يتصّل به أوّلا حتّى يرتّب له موعدا للقاء الجنرال نصر الدّين، طمأنه بأنّه سيتكلّم معه قبل ذلك وسيوصيه به خيرا.
أصبح للجنرال نصر الدين يد طولى في استيراد القمح للبلد، كانت الحكومة قبل فتح السّوق أيّام كانت الاشتراكية خيارا لا رجعة فيه ولا محيد عنه، تحتكر شراء القمح الذي كان توريده يتمّ حصرا عن طريق الدّيوان المهني للحبوب، في زمنه كان الجنرال رائدا، انتدبه جهاز الاستعلام والأمن إلى

وزارة الفلاحة لكي يكون مسؤولا عن الأمن بداخلها، كانت لا تتمّ أيّ صفقة لشراء القمح دون تأشيرته التي تستند إلى تقاريره الأمنيّة، ومع الانفتاح في أواخر الثّمانينيات والسّماح للقطاع الخاصّ بالتّجارة في الاستيراد، أضحى بيد الجنرال سطوة ونفوذ في تحديد الشّركات الخاصّة التي ترسو عليها مناقصات استيراد القمح، نظرا للعلاقات الممتدّة التي تمكّن من حبك خيوطها مع الشّركات الأجنبيّة المورّدة طوال عقدين من الزّمن، وكان يوجّه صفقات الشّراء نحو شركات تابعة له بواجهة مدنيّة، كان يستعمل سجّلات تجاريّة لرجال أعمال كان يختبئ خلفهم بحكم وظيفته التي لا تسمح له بالجمع بينها وبين وظيفته كعسكريّ، غير أنّ الجنرال نصر الدّين، كان لا يثق في خياله، لم يكن يعتمد على أحد، يغيّر رجال الأعمال أولئك بشركاتهم وسجلّاتهم التّجارية كما يغيّر جواربه.

يدرك صديقه العقيد خثير ذلك جيّدا، وجد أنّ موسى وهو يطلب منه مقابلا عن خدماته الجليلة، بوسعه أن يشتغل مع سيادة الجنرال نصر الدين في بعض شحنات القمح تلك. كان كلّ شيء عن الجنرال في بطاقة الزّيارة التي دوّن على ظهرها معلومات عن الرّائد مدني، قدّمها لموسى وأوصاه أن يبلّغه تحيّاته القلبيّة عند لقائه به.

* * *

18

يبدأ حظر التّجوّل في فنوان قبيل غروب الشّمس بساعة، لا يسير في أزقّتها سوى الكلاب والقطط والحمير والأشباح.

تصطفّ داخل الدّيوان الوطنيّ للغابات بفنوان، الذي أوقف نشاطه مع تدهور الوضع الأمني في البلاد، أربعُ شاحناتٍ قلّابة، شاحنتان نصف مقطورة وثلاث آليّات، بلدوزر بجنزرات ومحمِّلة بعجلات مطّاطيّة وممهِّدة، جميعها كانت تستعمل في مشاريع شقّ الطّرق الغابيّة وتشييد القناطر وبناء المتاريس الصّخريّة لتصحيح مجاري السّيول وحفر الخنادق العازلة لحماية الغابات من انتشار الحرائق المندلعة، ومنذ استوطن عاصم وجماعته الغابة دبّ الخوف في محرّكاتها وآثرت أن تظلّ رابضة في حظيرة الدّيوان.

مع حلول الظّلام، وأحيانا بعد مغيب الشّمس بقليل تتحوّل حظيرة العتاد المتحرّك للمقاولة الغابيّة العموميّة التي أفلست مع كثير من مثيلاتها عبر البلاد، منذ انتشر الإرهاب فيها كما السّرطان، إلى ورشة ميكانيك، غير أنّها تختلف عن أيّ ورشة عاديّة، في كونها تفكّك ولا تعيد تركيب الأجزاء في أماكنها مجدّدا. يعكف ميكانيكيّ قدم من سعيدة برفقة مساعدين له، على تعرية هياكل العتاد من كلّ ما يلتصق بها من أجزاء وقطع.

أجبر بوعصا معمّر حشمان على تسليفه شاحنته التّويوتا زاعما أنّه سيستخدمها لنقل أغراض المفرزة من المتوسّطة إلى المقاولة الغابيّة، التي كانت ورشةً أشغال، عمِلت مقاولة خاصّة على تهيئتها وتحويلها إلى ثكنة لإيواء جنود مفرزته، بهدف إخلاء المتوسّطة واستقبال التّلاميذ من جديد بداية من

العام الدّراسيّ المقبل، أبلغه أنّه سيقوم كذلك بجلب بعض المعدّات الخاصّة بمقر المفرزة الجديد من وهران.

لم تطَل عملية التّفكيك حظيرة ديوان الغابات فحسب، وعلى أهميّة محتوياته، هناك شاحنات وآليّات أحرقها المتطرّفون بعد مجيئهم، كانت مستلقية على العشب على جنبات الطّريق بمدخل القرية، وبعضها بالقرب من مزرعة گاريك، قام المكلّفون بفصل الأجزاء عن هياكلها برصّ ما اقتلعته وانتزعته وانتشلته مفاتيحهم ونزّاعاتهم ومفكّات البراغي داخل الحظيرة.

تجمّعت بداخل حظيرة ديوان الغابات محرّكات، وعلب تروس، ومضخّات وقود، وعوادم دخان، وأضواء وغيرها كثير من القطع والأجزاء، قام الميكانيكيّ بتقطيع الهياكل بعدما طمس أرقامها التّسلسليّة، سيبيعها بوعصا لتاجر حديد كان قد عقد معه صفقةً مقابل سعر مجزٍ، لن يحمل عناء شحنها من المكان، سيُحضر التّاجر شاحنته ليحوّلها إلى مصنع الحديد والصّلب نظرا لكميّة الحمولة الضّخمة.

تُحَمَّل شاحنة معمّر حشمان بأجزاء وقطع الشّاحنات والآليات المفكّكة، لتنقلها قبيل بزوغ الفجر إلى شطيبو بوهران، أين تتواجد سوق كبيرة لبيع أجزاء وقطع الغيار المستعملة، يبيعها لحظة وصولها إلى هناك وكيلٌ تجاريّ، كلّفه بوعصا بالمهمّة، لبعض تجّار الأجزاء المستعملة للمركبات والآليّات.

كان بوعصا قد اتّفق مع وسيط تجاريّ يقطن بوهران ليصرّف حمولات شاحنة معمّر حشمان التي بلغت خمسة عشر شحنة، حصل لقاءها على ثروة طائلة، اشترى بعد تكدّسها عقارا وشقّة ومحلّا بالمدينة الجديدة في قلب وهران.

يهتمّ بوعصا كثيرا بتدريب جنوده والمحافظة على قدراتهم القتاليّة وجاهزيّتهم لأيّ طارئ، الانتباه بالنّسبة إليه أهمّ من الانضباط الذي لا يناقش في وجوب توافره هو الآخر لدى عساكره، يصرّ على أن يباغتهم على حين غرّة ليسبر مدى تركيزهم وتوقّعهم لحدوث الخطر.

أثناء عمليّات التّمشيط التي يقومون بها على حوافّ الغابات المحيطة بفنوان، يختبر جنوده فردا فردا، دون أن يتفطّن أحد منهم لذلك الاختبار الغريب، يضع في مسار أحدهم شيئا ذا قيمة، أن تمتدّ إليه يداه فمعنى ذلك أنّه قد وقع في الفخّ ورسب في الامتحان، إذ يمكن لذلك الشّيء المغري أن يكون محشوّا بقنبلة أو مفخّخا بمتفجّرات، قد تنشر أشلاء مفرزة بوعصا في الأرجاء لو كان الأمر حقيقة وليس مجرّد تدريب. يصل بوعصا ذلك الشّيء الثّمين بخيط، يموّهه جيّدا بأوراق الأشجار وعيدانها المتساقطة على الأرض ويختبئ في الجوار، حتّى إذا ما رفع أحد جنوده ما يكون قد وضعه أمامه لاختباره؛ نظّارات أو سترةً أو معطفًا أو قبّعةً أو حذاءً رياضيًّا أو حقيبةً أو أيّ شيء مثير للانتباه. يخرج له بوعصا من مكمنه ليوجّه له سيلا من الشّتم والسّبّ اللاّذع، وإن كان العسكريّ قد لُدغ من جحره لأكثر من مرّة فإنّه إضافة إلى ذلك سيتعرّض للرّكل والصّفع في المكان الذي رسب في امتحانه فيه، وعند العودة إلى مقرّ المفرزة يحلق رأسه ويعاقبه بالقيام بأشغال السّخرة داخل ثكنة المفرزة لشهر كامل.

في إحدى المرّات وضع بوعصا أمام الرّقيب مشطاوي مظلّة جديدة، عند مروره من أمامها كان شكلها المغري قد أنساه صرامة الالتزام بتعليمات قائده النّقيب، بل إنّه لم يدُر بخلده حتّى، أنّه بوسعه تفويت فرصة التقاطها

وتقليبها وفتحها ووضعها فوق رأسه لتجريبها. أمامه وقف بوعصا الذي خرج من بين أشجار بلّوط متشابكة الأغصان كعفريت من قمقمه، يحمل طرف الخيط بيده، سحبه بعنف فسقطت المظلّة من بين يدي مشطاوي المرتعشتين من زمجرة النّقيب الهائج كثور، أرغى وأزبد وانهمرت الشّتائم من فمه كسيل عارم، توعّد الرّقيبَ المرتعدَ بعقوبات قاسية والإيقاف وتمضية أسبوعين في الحبس، وبأن يحلق جلدة رأسه حتّى يرديها بيضاء كوجهه، وأن يحرمه من إجازته لمدّة لا تقلّ عن ستّة أشهر كاملة وأن يجعله عبرة لمن يعتبر، رغم كونها المرّة الأولى التي يخفق فيها الرّقيب في اجتياز امتحان النّقيب الغريب.

* * *

يحرص الرّائد مدني على ترتيب مكتبه مع كلّ زيارة للجنرال نصر الدّين له، فيتجاوز في ذلك حدود كلّ مألوف، حتّى إنّه يضطرّ إلى تغيير كثير من الأمور، من أثاث المكتب إلى السّجّاد والخِزانات والتّحف والطّاولات إلى أشياء أخرى دقيقة وتفاصيل مملّة، يحاول أن ينسجم مع مزاج الجنرال المتطلّب والمتقلّب الذي يمقت الرتابة والتّكرار، هذه المرّة طلب من موسى بوزيد أن يتكفّل ببرنامج الزّيارة التي ستدوم يوما كاملا، بعدما أحضر له لوازم مكتبه وتحفه من بازاره في سعيدة.

في برنامج موسى بوزيد لهذا اليوم غداءٌ فخم وعشاء فاحش متخم بالمقبّلات والمخلّلات التي يعشقها الجنرال، وسهرة خَمريّة وهدايا للجنرال وزوجته وأبنائه، سيكون هذا اللّقاء فرصة لعقد صفقات جديدة ومربحة، هذه المرّة يسعى الرّائد مدني لنيل قسط وافر من تقديم موسى إلى الجنرال، كان

العقيد خثير قد اتّصل به وأحاطه علما بمكانة موسى، وأبلغه أنّه يتوجّب عليه استقباله أحسن استقبال، وإطلاع الجنرال نصر الدّين على زيارته له حتّى يحدّد موعدا للقائه به. لقد كان الرّائد مدني واضحا في آخر مكالمة له مع موسى بخصوص العمولة التي يتعيّن عليه تقديمها له، حينما لم يدع مسألة نصيبه من الصّفقات والأعمال المستقبليّة للصّدفة ولتقديرات موسى الجزافية، كان واضحا معه وحدّد نسبة خمسة بالمائة عن كل عمليّة يقوم بها موسى تحت حماية الجنرال ونفوذه، لا يستطيع الرّائد مدني أن يفعل الشّيء نفسه مع الجنرال نصر الدّين، فقد تعوّد أن يتركه يقرّر في مسألة تحديد عمولته التي عادة ما تكون حسب عوائد كلّ عمليّة وصفقة، وغالبا ما يكون لمزاج الجنرال دخلٌ في تقديرها.

يتفنّن الرّائد المتحمّس للصّفقات في توفير الجوّ الملائم لهذه الأحداث التي تسنح له بحظوة غامرة بسخاء الجنرال، فيرتّب له سهرات لا تنسى، نساء حسناوات يحسنّ الرّقص والغواية والمضاجعة، وأنواع عدّة من خمور أجنبيّة، من عادة الجنرال أن يدسّ في جيب العقيد مبالغ مجزية من العملة الصّعبة مع نهاية كل حفلة، يعرف أنّه بدون الرّائد مدني لن يتمكّن من الحصول على خدمات كهذه إلّا في خارج البلاد، مكانته وسمعته لا تسمحان له أن يقتحم بنفسه هذا العالم الفاضح والمفضوح، قد يتعرّض للمساومة وهو في حالة سكر متقدّم، أو من الممكن أن يبتزّه أحدهم بعد أن يصوّره في أوضاع مخلّة، يتفادى الجنرال نصر الدّين كل هذه المواقف المحرجة التي يكفيه الرّائد مدني متاعبها، ويؤمّنه من غوائلها بشبكة علاقاته الممتدّة التي صنعها في وهران منذ ستّ سنوات.

على الرّائد مدني أن يكون بسيارته في المطار العسكريّ بعد نصف ساعة ليقلّ الجنرال نصر الدّين إلى مقرّ النّاحية العسكريّة، لديه بعض الأشغال هناك وبعدها يبدأ البرنامج، ينتظرهما موسى في ملهى مرجاجو، سيتحرّر العسكريّان من بزّتيهما الرّسميّتين بعد ذلك، ويكونان بعيدين عن أعين النّاس من الطّبقة الوهرانيّة المخمليّة والمترفة، تفاديا لنظراتهم وخصوصا ألسنتهم، سيذبون في مجتمعهم السّافر ببذلتين وكرافطتين، أحاط العقيد مدني موسى بكلّ ما يتعلّق من تفاصيل حول شخصيّة الجنرال ومزاجه قبل أن يلتقيا، ما يحبّه، ما يكرهه، ما يريد الكلام فيه، وما لا يرغب في إثارة سيرته من أحاديث، كلّ ذلك شكّل لدى موسى صورة وافية عنه، جعلته يحسن التّصرف والكلام معه خلال لقائهما. بعد العشاء انضمّ الثّلاثة إلى طاولة صغيرة عليها طقم كؤوس وزجاجات خمر بأشكال وألوان وأصناف وأحجام عديدة، والكثير من المكسّرات والفواكه. التقط الجنرال تفاحة حكّها على صِداره وتنهّد محاولا التقاط أنفاسه بعد جرعات من الويسكي المصحوبة بحبّات لوز مملّح، أخذ قضمة من التّفاحة ووجّه سبّابة يده التي تحملها إلى موسى، وقال له بصوت شوّهته قطعة التّفاح التي كان يلوكها في فمه:

- أريد منك أن تضبط جميع أمورك لتأسيس شركة الاستيراد التي حدّثك عنها مدني، سوف أزيح عنك جميع العراقيل التي تعترض هذه المشاريع في العادة، من الغد ستباشر الإجراءات مع وزارة التّجارة والفلاحة ومصالح الجمارك، أريد منك أن تتمّ أوراقك في أسرع وقت ممكن، سنبدأ أوّل شحنة مع بداية الشّهر القادم، عليك أن تنسى جميع التزاماتك وأعمالك الحاليّة لبعض الوقت، نحن مقبلون على تجارة رائجة ومربحة.

- بالتّأكيد سيادة الجنرال، ستجد منّي كل الانضباط والسّمع والطّاعة.
ردّ موسى باقتضاب وجيز ومفيد، مستحضرا ما أوصاه به الرّائد مدني صباحا في مكتبه.
- أنظر يا... ما اسمك؟ ذكّرني باسمك...
- موسى، سيدي الجنرال.
- شوف يا سي موسى، أنا سأوفرّ لك كلّ شيء، الصّفقات، الحماية، إجراءات تفريغ الشّحنات من السّفن وشحنها إلى المخازن، الجمارك، البنوك، كلّ شيء... كلّ شيء، أنت فقط ضع في جيبك عشرين في المائة من كلّ عمليّة، وباقي الأرباح أريد منك تحويلها إلى حسابات بنكيّة سيطلعك مدني على أرقامها فيما بعد، مفهوم؟
- مفه... أح أح أحم... مفهوم سيّدي الجنرال.
ردّ موسى على الجنرال، وابتلع مشروبا كان في كأسٍ أمامه حتّى يسلّك حلقه المسدود.

* * *

يبحث مرزوق كمجنون عن أثر محتمل لحسان، يتعقّبه منذ شهرين، لم يترك شِعبا أو واديا أو أكمة إلّا وفتّش بين جنباتها أو خلفها عن ملجأ أو كازمة أو مغارة قد تأوي إليها حسان.
رفض عاصم طلبه الزّواج من رقيّة رفضا قاطعا، احتجّ بكونها لا تزال على ذمّة حسان، بعدما كان قد هرب مع إبراهيم وميمون اللّذين ثبت أنّهما رجعا إلى فنوان. ابتهج مرزوق كثيرا لاختفاء حسان وعدم ظهور أيّ أثر له، آملا في أن يكون قد وقع بين أيدي الخاوة في مكان ما من الغابة

الممتدّة من المرجة إلى تلاغ، لكنّ ذلك عكّر عليه صفو مزاجه، لن يتمكّن من الزّواج من رقيّة حتّى يعثر على حسان حيّا أو ميّتا.

سأل عنه عند الجماعات المنتشرة في المنطقة بين سعيدة وسيدي بلعباس، أخبره بعض المتطرّفين في جماعة تنشط على طريق المرجة-تلاغ أنّهم قبل أيّام كانوا قد قنصوا رجلا حال هربه منهم، بعد أن رفض الاستجابة لأوامرهم له بالتّوقف، تراهنوا على قنصه، أصابوه بثلاث طلقات سقط على إثرها ميّتا في دمائه، وعند سؤاله لهم عن شكل ولون الثّياب التي كان يرتديها، أخبروه أنّهم لم يدقّقوا في الأمر، غير أنّه عندما رافقهم إلى مكان مقتله تأكّد له أن الجثّة التي أكلت الذّئاب جزءا كبيرا منها وتحلّل ما تبقّى، لا تزال عظامها داخل سروال جينز أزرق وقميص بنيّ ممزّقين وحذاء رياضيّ، جعلت مرزوق يفرح لتأكّده من أنّ الأمر يتعلّق بحسان. أشهد بوريق وطراگو وحمزة وصهيب على ذلك.

صار على مرزوق بعد أن أخبر عاصم بأمر حسان والبهجة تلتهم تقاسيم وجهه، أن ينصاع لأوامره بعد ذلك وينتظر مرور أربعة أشهر وعشرة أيّام، ستعتدّها رقية على زوجها حسان المقتول، بكته بحرقة حينما وضعت صفيّة زوجة عاصم أمامها ملابسه التي انتزعها مرزوق من جثّته، حتّى يقدّمها كدليل إثبات أمام عاصم، كانت عليها بقع دمه ولم تزل محتفظة برائحة عرقه.

حذّر مرزوق، الذي تشاجر مع عاصم واتّهمه مجدّدا بالوقوف في طريق سعادته، الجميع وخصوصا گرطوع وطراگو من التّعرض لرقيّة، هدّدهما بأنّه

لن يتسامح مع من تسوّل له نفسه التّحرش بها، أو مجرّد محاولة الاقتراب من الكازمة التي تمكث بها.

مع انتهاء أجل العدّة أذعن عاصم لطلب مرزوق بالزّواج منها، غير أنّه طلب منه أن ينتظر لحين أخذ رأي رقيّة في هذا الزّواج، احتجّ مرزوق ورفض ذلك متّهما إيّاه بافتعال الحجج والذّرائع للحيلولة دون زواجه منها، إلّا أن عاصم أصرّ على موقفه، وعندما دخل على رقيّة كانت إلى جانب زوجته سألها محتجبا عنها عند باب الكازمة، عن رأيها في الزّواج من مرزوق، أجابته أنّه لا يمكنها ذلك كونها عند زيارتها وحسان للطّبيب يوم اختطافهما، أخبرهما بأنّها حامل بعدما بقيت لأيّام دون أن يعاودها الطّمث على غير عادتها.

كشفت رقيّة لعاصم بأنّها كانت تخفي عنهم بروز بطنها حتّى وهي قريبة من شهرها السّابع، خشية أن يحصل مكروه لولدها وطمعا في أن تحدث معجزة ما تخلّصها من وجودها عندهم.

كانت صدمة مرزوق كبيرة إذ يستمع لعاصم، أخذ ينصحه بالصّبر وتأجيل فكرة الزّواج حتى تضع رقيّة مولودها، وحذّره من الاقتراب منها أو التّعرّض لسبيلها.

تحترق أعصاب مرزوق وتحتقن أوداجه وتنتفخ حين تهجم عليه ذكرى رقيّة، وهي أقرب إليه من أيّ وقت مضى وأكثر تواجدا وحضورا إلى جواره، تجتاح جوانحه مشاعر آسرة تجذبه إليها جذبا ويسلبه الشّوق سلبا، فلا يشعر بنفسه إلّا وهو يترصّدها ساعة خروجها من خدرها لقضاء حاجتها ليلا، يعترض طريقها ويصارحها بحبّه لها طوال سنواته الطّويلة الماضية،

تتجنّب رقيّة الحديث معه غير أنّ إلحاحه عليها دفعها للردّ عليه، أخبرته قاطعة هواجسه وآماله العريضة بيقين قرارها الصّارم أنّها لن تكون له أبدا مهما فعل، سعى لأن يبيّن حبّه لها ويبرهن عن مدى عشقه وهيامه بها، عبثا كان يحاول، وكأنّه يحرث في بركة ماء، أشاحت بيدها ولوّحت مومئة بحركة من عينيها الجذّابتين وحاجبيها الأزجّين تطلب منه أن يفسح لها الطّريق، انتفض قلبه فما كان منه إلّا أن يأتمر بأمرها ويخلي لها السّبيل.
تبعها إذ تزيح باب الكازمة المصنوع من أخشاب وعيدان، جلس منهارا عنده فاقدا لكلّ أمل، يتذرع بتفاهات يرتجلها كمجنون، بدأ يئن ويشكو:
- نسيتِ حبّي لك يا خائنة.
- متى ذكرتك حتى أنساك، ومتى وعدتك حتى أخونك.
- يوم أعلنتُ لكِ عن حبّي عند باب المدرسة، وحين بعثت لكِ بالرّسالة تلك مع صديقتك عقيلة بنت الحارس.
تضحك رقيّة وتمدّ قهقهات اهتزّ لها قلبه المحترق، ثم تردّ عليه:
- تكلّمني عن أشياء لا أجد لها أثرا في عقلي، من أعلنوا حبّهم عند بوابة المدرسة ومن بعثوا لي برسائل غراميّة مع عتيقة في زمن المدرسة الابتدائيّة بعدد شعر رأسي، هل نسيت من تكون؟
- لا لم أنسَ، أنا الذي خطبتك وأهلك رفضوا، لأنّني فقير لا أملك المال الذي يسعد ابنتهم ويدلّلها.
- وأنت أيضا من أحرق قلب أبي بعدما أحال محصوله إلى رماد وسرق قطيعه، ولولا ستر الله لأصبحنا نتسوّل في الطّرقات، وأنت السّبب في

مقتل زوجي ومأساتي. فعلتَ كل هذا بنا وتريدني أن أقبل بك؟! مستحيل، لن يحدث هذا.

عقب صلاة الفجر اختلى عاصم بزوجته صفيّة، بعدما طلبها على انفراد بعيدا عن رقيّة التي تنام معها في كازمتها، سألها إن كانت تدرك ما كان يدور من حوار بين رقيّة ومرزوق ليلة البارحة، أخبرته أنّها سمعت كلّ ما دار بينهما عند دخول رقيّة، وأنّها استفسرت منها ما كان يريده مرزوق، فحكت لها تعلّقه الشّديد بها ورغبته في الزّواج منها قبل سنوات، غير أنّ الأقدار لم تجرِ بما كان يهواه، وأكّدت لها أنّها لا تجد تجاهه ما قد تشعر به أيّ امرأة تجاه حبيبها أو فارس أحلامٍ يأتي على صهوة حصانه ليهرب مع عشيقته المغرمة به قبل أن يتخاطفها الخُطّاب، قالت لها أنّ الزرع يمكن له أن ينمو في سبخة غير أنّ قلبها لن يثمر من حبّ مرزوق لها سوى الأشواك. وضعت رقيّة حدّا لأيّ التباس قد يقع فيه المجتمع المتطرّف، ولأيّ رغبة لها في الزّواج منه بعدما ذاع أمر حبّ مرزوق لها.

استغرب عاصم سلوك مرزوق وإلحاحه على الارتباط بامرأة لا تريده، بدا له تافها وفاقدا لعقله، صحيح أنّ رقيّة جميلة وتشبه الشّمس، بل كأنّها قطعة منها ساعة تتوسّط كبد السّماء، وربّما بوسعها حتّى أن تقول لها أشرقي أو سأشرق بدلا عنك، غير أنّ رفضها القاطع له مبرّر كاف لكي يضرب صفحا عن الموضوع، فكيف له أن يجنّ كلّ هذا الجنون لأجلها، عليه أن يلتفت إلى شؤونه، فالله لم يخلق سواها.

عزم عاصم على تحذير مرزوق مجدّدا من معاودة فعله ذاك مع رقيّة، فحظر عليه التّعرض لها أو التّحدّث إليها، كونها أجنبيّة عنه ولا يجوز له ذلك شرعا، خاصّة وأنّها ترفضه وقرارها في هذا الأمر واضح لا لبس فيه.

كان عاصم في كازمته بينما كانت صفيّة نائمة برفقة أبنائها في الكازمة المجاورة التي تمكث بها رقيّة، لا يفصلها عنه سوى بعض الصّفائح القصديريّة التي تستعمل في تسقيف البيوت والمستودعات، وضع المصحف جانبا وأطرق منصتا لما يدور بالخارج، يسودُ الجوَّ صمتٌ أطبقت على أنفاسه ظلمة اللّيل في الخارج فخنقت كلّ همسة. عاود عاصم وقد اعترته كحّة غاصت في حلقه فتْح المصحف واضعا يده اليمنى على صفحة اختارها كيفما اتّفق، خفض رأسه ووضع إبهام يده اليسرى ووسطاها على صدغيه، سكت برهة، استعاذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ثمّ طفق يتلو: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ".

لم يستطع عاصم إتمام تلاوته، عاد وكرّر الآية من جديد، وكأنّه لم يسمعها من قبل أو أنّه يقرؤها لأوّل مرّة فيريد أن يسبر كنهها، وبعد مدّة خاطب نفسه كأنّما يهمس في هواجسها:

- الله لا يقبل إلّا من تقيّ والتّقيّ ليس بقاتل... ما الذي جنيته على نفسي؟

انهمرت دموعه من عينيه كشلّال حينما واصل تلاوته:

- "لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ"

- كيف لم أسمع هذه الآية من قبل؟ أين كنت طوال هذا الزّمن؟ لا عذر لقاتل ولا مبرّر لسفك دم وإهداره بعدها، كيف بسطت يدي لأزهق كلّ تلك الأرواح وأُعين على زهقها رغم أنّهم لم يبسطوا إليّ أيديهم لقتلي؟!

كاد ينهار من الحسرة على ما اقترفته يداه في حقّ من قتلهم بيديه أو كان سببا في قتلهم، عندما قرأ:

- "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ".

شرع يردّد في تضرّع وبكاء شديد:

- أعوذ بك ربي أن أكون من الخاسرين... ثمّ عاود التّلاوة من جديد:

- "مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ".

وضع المصحف على مرفع يستند إلى جدار ترابيّ، جثا على ركبتيه رافعا يديه عاليا، وبدأ ينتحب مبتهلا:

- ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا...

يلهج عاصم بدعاء لا ينتهي، يهمس بصوت خافت، غير أنّ خنينه وشهيقه المرتفع أيقظ صفيّة التي لا يفصله عنها سوى صفيحة قصدير، لم تسمعه أو تشاهده طوال حياتها معه على مثل هذه الحال، لم تشأ أن تقطع عليه خلوته الإيمانيّة المباغتة. وضع عاصم يديه وجبهته على الأرض ساجدا، وتاه في حمد وتسبيح وتكبير واستغفار لا يخبو.

دخل عاصم بعد تلك اللّيلة في دوّامة تفكير وتأمّل، ثقل نشاطه وادّعى المرض أمام أفراد جماعته حتى يتهّرب من مسؤوليّات الجماعة التي بات يرى أنّها أضحت عبئا ملقى على ظهره، بعدما كانت تبدو له مكانة رفيعة وعملا يتقرّب به إلى الله، أصبح يكثر من تلاوة القرآن ويتعذّر بتعبّده عن القيام بأعباء الجماعة ومهامّها. اصطدامه بآيات تحريم القتل الواضحة المعاني والدّلالة جعله يقارنها بالفتاوى التي تفرض قتل النّاس وحتى الأطفال، حالته الغريبة والجديدة هذه أدخلته في تناوش مع أفراد الجماعة، خصوصا الفنوانيّين الذين اعترضوا بحزم على أسلوب قيادته لهم.

دفع الخلاف الحادّ مع عاصم ڨرطوع ومرزوق للذّهاب خلسة إلى غابات تلاغ لملاقاة وجوه من قيادة إمارة المنطقة، ووضعهم في الصّورة بخصوص تقاعس عاصم عن أداء واجباته المنوطة به، أرسلت القيادة أيّاما بعد ذلك مبعوثا إلى عاصم يبلغه بأوامرها الجديدة بضرورة تكثيف عمليّات الاختطاف والقتل ونصب الكمائن للعساكر والفنوانيّين على حدّ سواء، بعثت بعده عنصرين يراقبان الوضع ومدى التزام عاصم بأوامرهم.

كان مرزوق وڨرطوع قد اتفقّا، قبل ذلك، مع أعضاء الجماعة من الفنوانيّين على خطّة لافتكاك القيادة من العبابسة، وجد ڨرطوع مرزوق مهيّئا للاقتناع بحججه، بينما كان يسرد لبقيّة الفنوانيّين المختلين في قبو يحيى مجاهد كيف أنّه وطراڨو كانا على وشك أن يُحكَم عليهما بالقتل رجما، بسبب وشاية عاصم بهما واتّهامه لهما بارتكاب الزّنا وشرب الخمر، وأنّه بعث بهما مقيّدين مع خمسة من العبابسة إلى القيادة ليحالا على القاضي الشرعيّ، كان على وشك أن يصدر حكمه بإقامة الحدّ عليهما، لولا أن ڨرطوع أصرّ

على أنّه لا يوجد شهود في الحادثة، وأنّ خيداس وحده من كان معهما في تلك اللّيلة ولم يشهد العمليّة، كان ڤرطوع متشبّثا بتفنيده لمزاعم بعض العبابسة الذين ادّعوا أنّهم قد شمّوا رائحة الخمر ليلتها تفوح من فيهما، فطلب من القاضي أن يقدّم له شهود عيان، وترجّاه ألا يكتفي بشبهة الرّائحة التي من الممكن جدّا أن يكون العبابسة، الذين زعموا أنّهم اشتمّوها، قد اشتبهوا في أمرها، إذ من المحتمل جدّا أن الأمر يتعلق برائحة تشبه رائحة الخمر فاختلط الأمر عليهم.

كتم ڤرطوع عن الفنوانيّين في قبو يحيى، بينما كان يؤلّبهم على العبابسة، أمر شهادة المومسين أمام القاضي بأنّهما تعرّضتا للاغتصاب في تلك اللّيلة، نفى ڤرطوع وطراڤو ذلك بشكل قاطع، وطلبا الاستماع إلى أربعة شهود ليشهدوا مع المومسين، ولم يتردّد الصّديقان في الحلف أربع مرّات بأنّهما لم يرتكبا كبيرة الزّنا ولم يغتصبا المومسين، فأسقط عنهما القاضي التّهمة وأطلق سراحهما.

التفت ڤرطوع إلى مرزوق وقال له مقسما:

- والله يا مرزوق إنّ عاصم يقف في طريق زواجك من بنت الحاج الطاهر.

* * *

لم يعد مرزوق يتورّع رغم تحذيرات عاصم له من عاقبة اعتراضه سبيل رقيّة أو حتّى ترصّدها أمام الكازمة التي تقطنها، بل إنّه غالبا ما يدفع بابها ويختلس النّظر ويقف في مدخلها محاولا التّحدّث إليها أو رؤيتها، أصبحت تصرفّاته الغريبة تضيف كل يوم حركة جديدة أو كلاما غير معتاد، يسعى

مرزوق من ورائه لرفع الكلفة أو القفز إلى الأمام، حتّى يفرض واقع علاقةٍ ما تربط بينهما، تبدأ رقيّة في الصّراخ أو تباغته حينما تسمع وقع قدميه وتقف عند باب الكازمة التي تبدو لمرزوق حالكة العتمة لحظة دخوله، تنسلّ من أمامه دون أن يتمكّن من رؤيتها، وتهرب إلى عاصم فتخبره بأفعال مرزوق ومضايقاته المتكرّرة لها.

سألها عاصم في إحدى المرّات، عمّا إذا كان مرزوق يبدي محاولات للاعتداء عليها، أجابته بأنّه لا يفكّر حتّى في مجرّد لمسها إذا ما هي هربت من طريقه، وأنّه كثيرا ما يجلب لها بعض الهدايا الثّمينة من ثياب وعطور وصابون وشامبو ويقدّم لها بعض المال، لكنّها كانت ترفض رفضا قاطعا في كلّ مرة أن تلمسها حتّى، تفاجأت في المرّة الأخيرة من انهياره أمامها، حينما قالت له أنّها لن تكون له حتّى ولو انطبقت السّماء على الأرض.

استغرب عاصم الحال التي أصبح عليها مرزوق، وشدّة تعلّقه برقيّة التي لا تبدي تجاهه أيّ إحساس أو أدنى شفقة، بدا له مرزوق أحمقا ووضيعا في مقابل رقيّة العنيدة والمكابرة التي تأبى أن ترضخ لإرادته وتستجيب لمشاعره.

يقف ڤرطوع أمام المصلّى منتظرا فراغ عاصم من تلاوته للقرآن، كان قد سمعها قبل أن يشرف على المكان، أخرج رسالة مختومة من تحت عباءته القصيرة بعدما انتشلها من جيب سترته الخارجيّ، إذ تعسّر عليه إدخال يده من جيب صدر العباءة، كانت ياقته تخنق عنقه الغليظة كحبل مشنقة ملفوف حول رقبة محكوم عليه بالإعدام.

يرمق عاصم بعينين جاحظتين عبارةً مكتوبة بالخطّ الأحمر فوق غطاء الظّرف المثلّث:"مستعجل جدا". لم يتريّث ڤرطوع العائد من غابة تلاغ

كثيرا ليستأذن عاصم الذي بعثه يطلب تموينه بالذّخيرة والمتفجّرات بغرض القيام ببعض المداهمات والتّفجيرات، كان ڤرطوع قد وشى بعاصم عند القيادة وألّبها عليه، بعد اتّفاقه مع جماعة فنوان على ذلك، حتّى يتسنّى لهم الانقضاض على قيادة الجماعة وإزاحته هو ورفاقه.
زعم ڤرطوع أمام قيادة إمارة المنطقة أنّ عاصم يتعمّد الخمول ولا يبادر للقيام بأيّ عمليّة أو تفجير أو نصب كمين، وأنّ العبابسة لا يتجرّؤون على معارضته كما يفعل هو والفنوانيّون، قال لهم أنّه أصبح منشغلا بالعبادة وتلاوة القرآن ومتفرّغا لهما زيادة عن اللّزوم، وأنّ طلبه منهم إمدادَه بالذّخيرة ما هو في حقيقته إلّا حيلة مفتعلة منه لمخادعتهم، حتّى يبدي لهم نشاطا مزعوما، حذّرهم من قائد المفرزة الجديد الذي بات يتّبع أسلوبا قتاليّا شرسا لا قِبل لعاصم الخانع بمواجهته، همس في أذن أمير المنطقة منذرا: "سيبيدنا بوعصا إن بقينا على هذه الحال".
كان ڤرطوع قبل مغادرته الوكر للمهمّة التي أوكله بها عاصم قد اتّفق مع مرزوق وطراڤو على اجتذاب المزيد من شباب فنوان وإغرائهم للانضمام إليهم، حتّى يشكّل الفنوانيّون أغلبيّة داخل الجماعة ويتمكّنوا بذلك من تزعّمها.
كان إذ يسوق لهما مبرّرات انقلابهم على عاصم، لا يكلّ ولا يملّ من ترديد وشاية عاصم به مع طراڤو عند القاضي الشّرعي بمرارة وحنق، ويُذكّر مرزوق لمرّات عديدة، بوقوف عاصم ضدّ رغبته في الزّواج من رقيّة.

* * *

VI

حُبّ بين السّماء والأرض

19

في كازمته الباردة والمعتمة إلّا من مصباح قديم وصدئ، يشتعل في وسطه فتيلٌ يُصدر حسيسا خافتا، معلّقٍ على مسمار مغروسٍ في عارضة خشبيّة تسند السّقف، يرسل أشعّة ضوء باهت لا تنتشر أبعد من مجلسه، وبجانب مصحفه المفتوح بإزاء وجهه المنقبض يجلس عاصم متربّعا على حصير أصفر يابس مصنوع من سعف الدّوم، يتلو بصوت خفيضٍ خان حنجرته الجهوريّة، فغصّ مخنوقا تحت تأثير بضع آيات، راحت تلحّ عليه أن يردّدها، فلا يجسر أن يعدوها إلى التي تليها، كأنّما اكتشف شيئا ما:

- "اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ".

تستفيق صفيّة وقد رجّ مسامعها أنينُ زوجها وشدّة بكائه وانهياره في نحيب لا ينتهي، وكأنّ قوّة داخليّة جبّارة استولت على مداركه ومشاعره، فما يستطيع السّيطرة على انفعالاته المضطرمة ولا يقدر على كظم بثّه، بدأ يلهج باكيا:

- اللّهم لا تتركني لظلمي ولكفري، اللّهم خذ بيدي فقد ضللت وحسبت أنّني أحسن صنعا، اللّهم إنّك أغدقت عليّ بنعمك وفضلك منذ أن كنت طفلا صغيرا، وغدوت شابّا وصرت كهلا، اللّهم اختم بالصّالحات أعمالي

ونجّني من نفسي الأمّارة بالسّوء ومن الشّيطان الذي أعمى بصيرتي ما بقي لي من عمر.

انتفضت صفيّة من فراشها مذعورة خوفا على زوجها من أن يحدث له مكروه، كانت لحظات استثنائيّة من زواجهما الصّارم، وهي تحتضنه بين ذراعيها كطفل صغير:

- عاصم ما بك... لماذا كلّ هذا البكاء، هل رأيت شيئا في منامك؟

سألته مندهشة ممّا أصابه، فأجابها وقد سرت على جلده قشعريرة زلزلت جسده:

- الحمد لله اليوم ولدت من جديد، لقد كبّلتني الآثام طوال هذه الحياة البائسة، اليوم عرفت ربّي... عرفت الله الذي خلق السّماوات والأرض... الله الذي كان يرزقني بكلّ ما أنبتته من ثمار، أدركت أنّه أنعم علينا ببحار تجري عليها السّفن بكل ما يحتاجه البشر، أيقنت أنّه ما خلق الشّمس والقمر واللّيل والنّهار إلا من أجلنا ولنا، وأنّه يسمعني وأنا أدعوه فلا يبخل عليّ بشيء ويستجيب لسؤالي له، عرفت أنّ نعمه كثيرة جدّا ولا يمكنني أن أعدّها أو أحصيها.

تنهّد عاصم بتحسّر مشوب بإحساس بالذّنب والتّقصير، قال لصفيّة أنّه يشعر بأنّه ناكر لمعروف الله جاحد لفضله عليه، كافر بنعمه وقد كان يتّهم غيره بالكفر، وكم غفل عن كونه أشدّ كفرا من الفنوانيّين الذين أجرم في حقّهم، أخبرها بأنّه كان يعتقد مخطئا أنّه يطبّق شرع الله وإذا به أضلَّ خلقه وأبعدهم عن شريعته ودينه. تبسّم بوجه طبعته تعابير الخذلان وهو يذكر لها اندفاعه لإقامة دولة إسلاميّة! أخبرها ساخرا من نفسه كيف أنّه كان يصبو

بحقٍ إلى نقلها من المدينة المنوّرة إلى فنوان المدنّسة! وبمن؟! بسكّيرين ومصاب بلوثة عشق خرج منها بخيبة عاطفيّة كادت أن تحيله إلى مجنونٍ لرقيّة، وشرذمة من أدعياء التّقوى أغلبهم يحمل كنية قبيحة وبائسة، وفجأة صاروا يُنعتون بأسماء الأنبياء ويتكنّون بكنى الصّحابة والتّابعين. تأسّف عاصم على كونه لم يبالِ بأن يكون إلى جواره أمثال طراگو وگرطوع بأخلاقهم السّيّئة، بفحشهم وبذاءتهم، دون أن يلتزموا بأدنى الآداب حتّى، لقد أجرم في حقّهما هما الآخران أيضا، فبدلًا من أن يحرص على تلقينهما تعاليم الإسلام ويربّيهما على أخلاقه، راح يدرّبهما على قتل النّاس وسرقة أموالهم.

- صفيّة... الإسلام ليس كما كنّا نعتقد ونظنّ، الإسلام شيء آخر مختلف تماما عن كلّ ذلك... الإسلام أن تستسلم مشاعرنا الطّاغية والمتعجرفة لربٍّ كريمٍ منعمٍ؛ فتحمده وترفق بخلقه.

قال لها ذلك وهو ينظر إلى وجهها الذي غمره المصباح بنوره فزاده وضاءة وصفاء.

- إيه يا عاصم يا حبيبي... مضى زمن طويل لم أسمع فيه منك مثل هذا الكلام الجميل عن الله وعن الإسلام.

- وأنا أتلو آيات عن نعم الله علينا خطر ببالي حبّ مرزوق لرقيّة وعدم مبادلتها له ذلك الشّعور الغامر، رغم أنّه كان يستميت في تقديم ما قد يسعد أيّ امرأة، صدمتني هذه الحقيقة حينما أدركت أنّني أرتكب نفس الشّيء مع ربّي الذي يحبّني كلّ هذا الحبّ ويفيض عليّ بنعمه... جفاف

مشاعري وجفاء أحاسيسي طوال حياتي البائسة تجاه ربّي المنعم جعلاني أعيد حساباتي في الطّريق التي أسلكها.

- الحمد لله على نعمه ونسأله أن يلهمنا شكرها، ويغفر لنا جحودنا ونكراننا لأفضاله.

كان صوت عاصم أشبه بشهيق حادّ ونشيج حارق، وهو يعيد على صفيّة كيف أنّه توصّل من مشاهدته حبّ مرزوق لرقيّة في مقابل إهمالها له، إلى نتيجة مفادها أنّ الله ينعم عليه وهو غافل عن ذلك الكرم الغامر، تأكّد له أنّه كان يعبد الله بجسده وهيئته بما يوافق مزاجه وهواه، كثيرا ما كانت تؤدّي به تلك الحركات الصّمّاء إلى الرّياء وتصنّع التّقوى والزّهد. قال لصفيّة أنّ رقيّة لم تأبه بمرزوق ولم تفكّر فيه يوما على الرّغم من أنّها عاشت في قلبه أكثر من أيّ شيء آخر، أكثر حتّى من الله الذي أصبح مرزوق يدّعي التّقرّب إليه بقتل النّاس واغتصاب أموالهم مثلما فعل هو أيضا، وقد فعل المستحيل لإرضائها، وغامر بحياته من أجلها.

- صحيح... لقد حدّثتني رقيّة عن جنونه وتعلّقه بها رغم رفضها القاطع له.

وافقته زوجته على كلامه بينما كانت تهزّ رأسها، ردّ عليها بإغماضة من عينيه تنّم عن انسجام بينهما، قال لها بأنّه اكتشف بتطرّفه هو وجماعته أنّهم كانوا يسعون إلى السّلطة من أجل تطبيق أفكارهم حول الدّين، دون اعتبار للدّين من الأساس والذي يعتبر في جوهره وفي أكمل صوره معرفةً بالله، تبدأ عقليّة لكنّها سرعان ما تسيطر على القلب، حينها يكون الانقياد والخضوع له سلسا وسهلا، ينطبق مع قناعة العقل ومشاعر القلب، وليس قهرا وإكراها وإرغاما وإخضاعا بالقوّة والقتل كما تفعل جماعته.

- الحمد لله على أن هداك يا عاصم، أتمنّى من كلّ قلبي أن يهديني لهذا أنا أيضا، لكن، قل لّي... كيف حصل معك كلّ هذا؟!

- وأنا أقارن ما كنت أعتقده وأقوم به في حياتي السّابقة مع تعاليم القرآن طوال شهرين من مدارسته وتلاوته، تأكّد لي أنّني ضللت الطّريق الموصلة إلى الله، بل لم أكن سائرا إليه أصلا وأنا أزعم انتمائي إلى عباده. اكتشفت أن الطّريق المستقيم تنطلق من قلوب البشر وتمرّ عبرها، وليست الأجساد والأغراض والسّلطة سوى مطايا لهذا السّير نحو الله، لقد كنّا نظنّ مخطئين أنّ الحركات والطقوس والكلام المنمّق هي الدّين كلّه، تبيّن لي أنّنا أضعنا الجوهر وتمسّكنا بقشور جافّة ويابسة، قيمتها بالنّسبة إليه كقشرة الفاكهة التي نرميها بينما نحرص على أكل لبّها.

- آه يا عاصم، كم تمنّيت لو أنّك توصّلت إلى هذه الحقيقة منذ زمن، قبل أن نغرق في هذا المستنقع الموحل.

- لم تكن بيدي حيلة يا صفيّة، لقد دفعتني أجهزة الأمن إلى هذا المصير دفعا، لم يكن منه بدّ، هربت من سجن رقّان فوقعت في مُعسكر تلاغ.

امتلأ وجه صفيّة حيرة وهي تسأله عن مصيرهما المجهول بعد هذا الوضع الجديد الذي أضحى عليه، سألته عما يمكن عمله الآن، وقد صار إلى ما صار إليه، وهذا المكان الذي يوجدان فيه يتناقض كليّة مع معتقداته الجديدة، أجابها بكونه لا يدري ما سيفعله، الفرار مقدور عليه وسهل ولكن إلى أين؟! هذا الموقف لا يختلف كثيرا عن الموقف الذي دفعه لاختيار الجبل على سجن رقّان، لا يتيح له سوى وجهة واحدة، وكالمستجير من الرّمضاء بالنّار، لا حلّ لهما سوى أن يسلّما نفسيهما للدّولة، قال لها أن الاختباء لن

يدوم طويلا إذا ما هما قرّرا العيش متخفّيين في أيّ مدينة كانت حتّى ولو في العاصمة على شساعتها.

يختفي القمر خلف غيوم سوداء كثيفة، كما لو أنّ البرد الجاثم على الكازمات يصدُر من حلكتها، تتحرّك الرّيح ببطء حذِر، آثر الوجودُ بكلّ خلائقه الاختباء داخل البيوت والجحور والأوكار والمهاجع، وفي غياب عاصم عن عالم النّاس الذي هجره إلى ملكوت غير ملتصق بالأرض تقف صفيّة ورقيّة خارج الكازمة، تتدثّران بظلام اللّيل وتلتحفان بردائه بعيدا عن أعين الرّجال، يستثير الجوّ المعتم والبارد فيهما رغبة في قضاء وقت يتطلّب تغييرا محفّزا لهما على الكلام، بين امرأتين أنهكهما تعب يوم كامل في أشغال منزليّة داخل غابة كثيفة ينتشر الرّعب بين جنباتها، رغم ذلك تحلو الثّرثرة بين شجيرات البلّوط عند نار مشتعلة لا يمكن إذكاؤها داخل كازمة مختنقة الأنفاس.

ترثي صفيّة لحال رقيّة، شابّة في مثل سنّها وجمالها تعيش بعد مقتل زوجها حياة تعيسة وعدميّة ومجهولة المصير، معلّقة بين الموت والحياة بحبل ينسدل من قمّة جبل البرّاح، بدا وكأنّه يخنقها... بل يشنقها، ليضع حدّا لعمرها الغضّ ويبثّ الموت في جسدها الذي بوسع فتنته السّاحرة لو أنّها كانت خارج هذا السّجن الأخضر الكبير، أن تُجبر قوافل الخطّاب المغرمين على الحجّ إلى بيت أبيها طلبا للقرب والنّسب، ليست هي فقط من ينبغي عليها أن تخلّص نفسها من هذا المأزق الموحل، جنينُها أيضا يستحقّ أن يرى النّور في بيت جدّه، ولادته في غابة فنوان سيجعل منه ابن وحش ضارٍ، سيضيف إلى يُتمه معيشةً قاسية غامضة المستقبل، أين سيكبر؟ كيف

سيتربّى؟ ماذا سيتعلّم؟ لو قُدِّر له أن يشبّ في جماعة تمتهن القتل، سوف لن يكون سوى قاتل متمرّس كما هو حال ڤرطوع وطراڤو وبوريق ومرزوق.

كانت كلمات صفيّة التي بدت صادقة ونصوحة تذكي جرأة تتقّد من عيني رقيّة، كلهيب نار يتطلّع ليلتهم ما حوله من هشيم يابس، شعرت بخفّة تسري في بدنها النّحيل عندما خوّفتها من زيادة وزنها مع اكتمال نموّ جنينها، قالت لها أنّ ذلك سيثقل حركتها وسيثبّط من عزيمتها، وإذا ما ولدته هنا فسيصبح أبوه مرزوق وبيته الجبل، لن تجد أنسب من هذه اللّيلة لتُسلِم رجليها إلى نسائمها الباردة.

تعانقت المرأتان وقبّلتا بعضيهما بحرارة، كانت دموعهما تنهمر على خدّيهما بغزارة، سيكون هذا آخر لقاء قد يجمعهما، بدا لهما أنّه يسبق الوداع الأبديّ، انفكّ جسداهما المرتجفان عن بعضيهما، شكرت رقيّة صفيّة على كلّ شيء فعلته من أجلها، على إخفائها لأمر حملها حتّى عن زوجها عاصم، وعلى نصيحتها الغالية لها بالهرب، أطلقتا أيديهما المتشابكة والمرتعشة.

تراجعت رقيّة بخطوات متردّدة واستدارت بسحنة حائرة، شمّرت عن عباءتها وعلّقت ذيولها على حزامها واستسلمت للرّكض، لا تلتفت، لم تعدُ منذ زمن كما تفعل اللّحظة، تلهث بنشيج فمها المفتوح وتتنفّس من منخريها المنتفخين بشدّة، تشعر كما لو أنّ هذا الصّوت يسدّ الأفق في وسط اللّيل الأصمّ، عيناها الحازمتان معلّقتان بالعقبة المشرفة على فنوان والمضاءة بالبدر المستنير، ترتسم طريق الإسفلت فوقها كخيط دقيق ترنو لها من الأفق، كما لو أنّها تنتظر وصولها فراحت تستحثّها على المسير، جرت، ركضت وعدت حتّى كادت رئتاها تنفجران، لم تتوقّف رغم الألم في زاوية بطنها، يدها

على جنينها، تخاف عليه من أن يسقط أو يصيبه مكروه، تستمّد منه عزمها على النّفاذ بجلديهما والفكاك من قبضة مرزوق الخانقة، تتذكّره كلّما احتدّ شهيقها وعلا زفيرها، تبدو لها الطّريق أطول مما توقّعت، وفنوان أبعد ممّا تخيّلت، فجأة شعرت وهي تنصت لخفق قدميها كأنّهما يراوحان مكانهما، كما لو أنّ الأرض تمسك بهما وتمنعهما من التّقدّم، توقّفت، خانها رجلاها وخذلها عزمها الملهِم، ركعت واضعة يديها على ركبتيها، رأسها إلى الأسفل، تنظر إلى الأرض، تضخّ الهواء برئتين واهنتين، تسحبه بفم يصدر فحيحا يرجّ صمتَ اللّيلة البكماء بأرجاء الأرض الهامدة والهاجعة في سكونها، ترتجف شفتاها الرّقيقتان، ارتوت رئتاها من هواء الغابة ولم يتوقّف اللّهاث المسعور، ارتاحت قليلا لكن التّعب المنهِك لم يزُل، رفعت رأسها واستجمعت قواها، أرخت العنان لساقيها من جديد، فجأة اصطدمت بحائل، ووقعت على الأرض واضعة يدها على جنينها تلهث وتنظر إليه.

* * *

يلتقي مسعود بقاضٍ في منزله، كان قد تعرّف عليه بواسطة محامي الصّحيفة، كان القاضي مكلّفا بقضيّة من العيار الثّقيل دارت جلسات محاكماتها حول فساد وسوء تسيير وثغرات ماليّة في أغلب المؤسّسات العموميّة بالبلاد، وعرفت أطوارها سجالات سياسيّة ومساجلات إعلاميّة، سُجِن على إثرها عدد كبير من مدراء ومسيّري شركات عموميّة قامت الحكومة بتصفيتها فيما بعد. يهدف مسعود من وراء لقائه بالقاضي إلى معرفة خبايا هذه القضيّة التي عُرفت واشتهرت إعلاميّا ونخبويّا بجملة "الأيادي النّظيفة"، يبدو مسعود مقتنعا بشكل وثوقيّ لا يقبل النّقاش،

خصوصا بعد لقائه بالقاضي، بأنّ من أثارها هو رئيس الحكومة ووزير عدله، أخبره القاضي أنّ رئيس الحكومة ووزيره قاما تحت ضغط من رئيس الجمهوريّة وأكبر مستشاريه بتحميل كوادر ومسيّري المؤسّسات العموميّة المفلسة المسؤوليّة عن وقوع مؤسّساتهم في الإفلاس، حاولت السّلطة إعطاء القضيّة طابعا إداريّا بحتا بغرض إبعاد التّهمة عن السّياسيّين وتنزيههم من كلّ مسؤوليّة سياسيّة فيما حصل للمؤسّسات العموميّة. أكّد القاضي المكلّف بالقضيّة لمسعود بأنّ السّلطة قدّمت مديري تلك الشّركات كبَاشَ فداء لتغطّي على أخطاء جسيمة ارتكبتها الحكومة بسياساتها الفاشلة وتسييرها الخاطئ.

كانت الحكومة قد لجأت إلى صندوق النّقد الدّوليّ وقامت بتنفيذ توصيّاته، وسرّحت العمّال، بعد إفلاس الشّركات، أكّد القاضي لمسعود أنّ القضاة المكلّفين بالقضيّة تلقّوا أوامر عليا بعدم محاكمة المتّهمين وإبقائهم قيد الحبس الاحتياطيّ بعدما تكفّلت مصالح الدّرك والشّرطة بالتّحقيق معهم، وليس دائرة الاستعلام والأمن كما راج، فهي منشغلة بمكافحة الإرهاب.

بدأت شكوك تساور مسعود في أنّ السّلطة قامت بافتعال الحملة، حتّى يتسنّى لها خوصصة الشّركات العموميّة وإيجاد مبرّر لتمرير قرار تواجه به الرّأي العامّ، فلجأت إلى شيطنة المسيّرين وتوريطهم في قضايا فساد، حتّى تخفّف من وطأة تسريح العمّال الذين سعت إلى إسكات بعضهم بمنحهم نصيبا من عمليّات تصفية الشّركات المفلسة، وبغرض إعطاء انطباع عامّ بأنّ التّسيير العموميّ للشّركات فاشل ومعرّض للفساد، كتمهيد لكي يتقبّل الرّأي العامّ فكرة الخوصصة كحلّ لهذه المعضلة، وبعد أن التقى مسعود بخبير

اقتصاديّ أكّد له أن الحكومة أمرت ببيع شركات حقّقت أرباحا منقطعة النّظير لا تجرؤ حتّى تلك المؤسّسات الخاصّة التي استحوذت عليها على تحقيقها، بل إنّها لم تسجّل خسائر في تاريخها، ورغم كلّ ذلك طرحتها للبيع، فقط لأنّها تُسيل لعاب بعض المتنفّذين.

التقى مسعود بعدها بأسبوع في إطار القضيّة بمسؤول حكوميّ أطلعه على سرّ مهمّ، أبلغه بأنّ صندوق النّقد الدّوليّ لم يطلب من الحكومة تسريح العمّال وخوصصة الشّركات بتلك الطّريقة الغريبة والمريبة التي أمرت بها، وأنّ المسؤوليّة تقع على من بيدهم السّلطة، فقد كانت لديهم نية مبيّتة لافتعال الخوصصة.

اضطرّ مسعود بعدها، وتعميقا لاستقصائه، لأن يذهب إلى عنّابة لملاقاة قريب لمسؤول مهمّ في مؤسسة الهندسة المدنيّة لصناعة الحديد والصّلب العموميّة، كان ذلك المسؤول قد أمضى أكثر من سنة في الحبس المؤقّت دون محاكمة. أخبره قريبه عن الحالة السيّئة التي تعيشها عائلته وقلقها الشّديد عليه، جرّاء فقدها لمصدر رزقها بعد سَجن معيلها الوحيد، ومرض زوجته وتشرذم أبنائه بين الأخوال والأعمام، الذين تحمّلوا أعباء إضافيّة فرضتها عليهم مسؤوليّة تربيتهم والإنفاق عليهم.

* * *

في مكتبه بجريدة السّبق يتأفّف جمال قاسمي ويعيد أوراق تقرير كان قد وجده أمامه بعدما قرأه بتأنٍّ شديد، يسحب سيجارة من العلبة الملقاة إلى جانب القدّاحة ومفاتيح المكتب والسّيارة، يضعها بين السّبابة والوسطى، يشعلها ويستنشق منها نفسا عميقا ينفثه فوق رأسه الذي ألقى به على الطّرف

العلويّ لكرسيّه الأريكة، يهزّه يمنة ويسرة، يخني واضعا يدا على ركبته وبالأخرى يسجن صدغيه بين أصابعها؛ خنصر وإبهام اليد التي تحمل سيجارته، يغرس السّيجارة في المنفضة أمامه ويخمد أنفاسها المستعرة نافثا آخر أدخنتها من فمه وأنفه، ثمّ يعود ليقلّب عابثا بأصابعه أوراق التّقرير. يسمع قرعا على الباب فيطلب من صاحبه أن يدخل، لا يلبث أن يقف بسرعة حينما يراه قائلا:

- آه... مسعود، جيت في وقتك، تفضّل اقعد.

- مساء الخير سي جمال، كنت أودّ أن أستفسرك عن أسباب عدم نشر التّقرير، أبلغتني السّكرتيرة بذلك.

قال مسعود، ووصمة الحيرة من خطب ما، لا يجد له تفسيرا، تعلو وجهه.

- آه يا سي مسعود... من أين أبدأ كلامي لك، لا أريدك أن تفهمني خطأ، قبل قليل قرأت تقريرك حول حملة الأيادي النّظيفة، تبهرني بمهنيّتك واحترافيّتك دائما، وتأتي بالجديد مع كلّ تقرير من تقاريرك الاستقصائيّة الرّائعة، غير أنّني... لا أخفي عليك... أنا في حيرة من أمري بخصوص نشره، صحيح أنّ التّقرير لا غبار عليه مهنيّا، لكنّه سيوقعنا في مشاكل مع السّلطة إذا ما قمنا بذلك.

- أيّة مشاكل يا سي جمال؟ أعتقد أن اللّافتة فوق باب مدخل الصّحيفة تدلّ على مهنتنا، نحن نكشف ما هو واقع وننقل الحقيقة دون تزييف.

- بالتّأكيد... لكن... ما جاء في تقريرك يمثّل إعلان حرب حقيقيّ على الحكومة، وأنت تعرف ما هي تبعات وتكاليف حرب مع السّلطة، ليست لنا القدرة على مواجهة أساليبها الابتزازية.

يقوم جمال من مكتبه، يضع يديه في جيبي سرواله ويقف أمام النّافذة خلف مكتبه بعدما أزاح ستارتها قليلا، ثمّ يواصل كلامه:

- مسعود أريدك أن تفهمني، أنا وأنت وبعض الزّملاء يمكننا أن نعمل في أيّ صحيفة نشاء، هنا أو في الخارج، لدينا الخبرة الكافية والمعارف الذين يوصلوننا إلى حيث نطمح، لكن ضع نفسك في مكاني، أنا مسؤول عن أكثر من عشرين عائلة يعمل معيلوها في الصّحيفة.

- فهمت ما ترمي إليه جمال، ولكن هذا لا يكون على حساب ضميرنا المهني.

أخرج جمال يديه من جيبيه، صالب ذراعيه على صدره والتفت إلى مسعود:

- عليك أن تفهمني جيدا مسعود، نحن في الجزائر، لسنا في أوروبا، نعيش أزمة أمنيّة معقّدة تلقي بظلالها على كلّ شيء، المجتمع، السّياسة، الاقتصاد... صحيح أنّ الرّزق بيد الله، لكن... هذا ليس مبرّرا كافيا لكي ألقي بعمّال الصّحيفة إلى التّهلكة، وليجابهوا في الصّبيحة التي ننشر فيها تقريرك مصيرا مجهولا، اسمح لي مسعود أعرف أنّك قد بذلت مجهودا مضنيا في إعداد تقريرك وتحمّلت متاعب كبيرة، لكن لا أستطيع... ليس بمقدوري المغامرة.

يرخي مسعود قبضة يده اليمنىّ، يشيح بذراعه ويمرّرها فوق شعره من منبته إلى أسفل قفاه، ثمّ يقول وقد انفجر تعب الأسابيع السّابقة فوق سطح وجهه كبركان:

- لا عليك جمال أتفهّم الموقف الصّعب الذي أنت فيه، للأسف نحن خاضعون لسلطة تحتكر كلّ شيء، وتمنعنا من أداء مهمّتنا المقدّسة في مراقبة الحكومة وكشف ألاعيبها.

20

في اللّحظة التي وضع مسعود فيها رجله خارج صحيفة السّبق، كان قد أخذ قرارا نهائيّا بألا يعود للعمل فيها مهما حصل له بعدها، بل إنّه رأى أنّ ذلك يتضمّن أيضا عدم زيارته لجمال، كان يشعر بتعب شديد وإرهاق يكاد يفتّت عظامه، رغم ذلك خطّط لكيلا يرجع إلى الشّقّة حتّى يجد له عملا، أو على الأقلّ بصيص عمل في صحيفة أخرى، تذكّر صديقه رضا طاهيري... سيكون من المفيد جدّا المرور عليه في مكتبه، إنّه يشتغل الآن في جريدة "اليوم" المستقلّة.

خرج من عند رضا بوجه أخذت تعابيره موقفا محايدا من الحزن والفرح معا، أحاطه حين سأله، إن كان لديه أيّ فكرة بخصوص وجود طلب على محرّرين أو صحفيّين في أيّة جريدة كانت، بأنّ صحيفةً مستقلّة ستبدأ في النّشر عمّا قريب، وهي جديدة على السّاحة الإعلاميّة، ستطرح طلبات للتّوظيف بعد أسبوع، أبلغه وقد بدا عليه نوع من التّلكّؤ الذي يخالطه نسيان جثم على جبهته، سرعان ما طرده بأن لطمه براحة كفّه وتأوّه متذكّرا، بأنّ القسم العربيّ في هيئة الإذاعة البريطانيّة بي بي سي قد أعلن منذ أسبوعين عن حاجته إلى محرّرين صحفيّين، بعدما هجرها عدد من صحفيّيها ومحرّريها إلى قناة إخباريّة جديدة ستنطلق في البثّ بعد أشهر، وهي الآن بصدد إرسال بثّها التجريبيّ، يقال لها الجزيرة ويقع مقرّها في قطر، قال له أنّه تمكّن من التقاط بثّها في بيته.

أثناء الطّريق إلى شقّته كان مسعود يفكّر بالعرض المغري الذي أخبره به صديقه، "محرّر صحفي في البي بي سي"... وظيفة جيّدة ومحترمة، في بلد لا يعترف بالأسقف والحدود، بل وحتّى المحرّمات، لا مكان في لندن للطّابوهات، لن يسمع من مدير تحريره أخبار سيّئة بخصوص إذاعة مقالاته، هذا عدا عن الجوّ المهني الاحترافيّ والاستقرار في بريطانيا، في الكفّة المقابلة لميزان تفكيره كان يضع في الحسبان فوبيا الطّائرات والمطارات تلك العلّة التي بقيت تلازمه منذ أزمته النّفسيّة التي مرّ بها بعد مقتل أحمد، تذكّر عندما عاد طبيبا نفسانيّا، كان على عكس الأوّل، يبدو عليه سمات التّديّن وجلّ كلامه معه كان بالعربيّة الفصحى، أخبره عندما شرح له حاله مع الطّائرات وأنّه عندما شاهد طائرة تحلّق في السّماء فاجأته بعض الأعراض التي ذكرها له، بأنّه يعاني من رُهاب الطّائرات، خطر ببال مسعود الذي سرح في ذهول شاردا بعينين منفجرتين، أنّ البلاد مأزومة من جرّاء الإرهاب وأنّه ليس على ما يرام بسبب الرّهاب، وعلى الرّغم من كونه قد شفي من أغلب آثار ذلك الإرهاب النّفسي الذي ألمّ به بعد اغتيال أحمد، فإنّه لم يعبر طريق الدّار البيضاء- مطار هواري بومدين منذ أربع سنوات تقريبا، حتّى ولو كان مضطرّا لذلك فإنّه كان يلتفّ بعيدا عنها للوصول إلى وجهته، تلك الطّريق بذكرياتها الأليمة. بل إنّه حتّى وهو يتجوّل في العاصمة كان يتفادى رؤية السّماء، مجرّد مشاهدته لخطوط الدّخان البيضاء التي تخلّفها محرّكات الطّائرات يجعله يشعر بالغثيان وضيق في التّنفس وآلام في الصّدر والبطن، ليدخل بعدها في حالة اكتئاب وانطواء يستمرّ أيّاما، لا مجال للحديث عن مرور طائرة أمام ناظريه بينما يكون

شاردا يحدّق في الأفق البعيد أو حتّى على شاشة التّلفاز، فكيف سيقبل بالعمل لدى بي بي سي التي بينه وبينها سماوات لا بدّ له أن يقطعها طيرانا في الهواء؟!

فكّر بينما كان على مقربة من شقّته في سمير بن دالي، كان قد أبدى له تحفّظه من مسألة التّكفل بإعادة إحياء بحث أحمد، وعده بأنّه سيتّصل به عمّا قريب وسيفاجئه بأنباء سارّة حيال ذلك، مضت ستّة أشهر منذ التقى به في المقهى المجاورة للمعهد الوطنيّ للبحث الزّراعيّ ولم يتّصل بعد، لا بدّ أنّه كان يتملّص منه وأنّ كلامه الجميل ذاك كان من باب المجاملة ليس إلّا.

دخل شقّته وأخذ حمّاما خفيفا أزال به عرقا كان يخنق أنفاسه وأزاح به تعبا شعر بأنّه فكّك مفاصله، استلقى على سريره وراح يشاهد التّلفاز، كان لا يزال يفكّر في البي بي سي، غيّر المحطّة على تلفزيون بي بي سي العربيّ الذي تموّله شركة أوربيت، كان يبثّ برنامجا حواريّا، على يمينه أطلق الهاتفُ العنان لرنينه، رفع السّمّاعة وقرّبها من شقّ وجهه الأيمن:

- ألو.. مسعود... أنا سمير بن دالي... عرفتني؟ كيف هي الأحوال؟

- بخير... أهلا سمير.

رفع مسعود ظهره المستلقي على السّرير، أسنده إلى الجدار خلفه وأكمل الحديث بشفتين تنضحان تبسّما:

- كيف هي أحوالك... سي سمير، أنتظر اتّصالك منذ ذلك اللّقاء في المقهى.

- الحمد لله... كلّ شيء على خير ما يرام... أعتذر عن تأخّري في الاتّصال بك. ظروف... أنت تعرف، مسعود أريد أن ألتقي بك في البيت عندي،

إذا لم يكن عندك مانع، لديّ كلام لأقوله لك، هل يناسبك يوم الغد على الغداء؟

- أوكي... لا مانع لديّ.

* * *

باغت بوعصا بعساكره الغابة، منذ شهور لا تهدأ مفرزته أبدا، يلاحق جنوده الإرهابيّين في كلّ مكان ويقتفون أثرهم عند كلّ وكر أو ثنيّة أو غرس، في الغابات المجاورة والمحيطة، يمشّطون كل شبر فيها، في الدّروب والطّرق المؤديّة إليهم، ينصبون الحواجز أو يكمنون على جوانبها ويختفون منتظرين أن تحين منهم غرّة حتّى يباغتوهم.

وضع بوعصا جنوده على أهبة الاستعداد وفي أتمّ الجاهزيّة وأقصى حدودها، يبيتون بعيدا عن مقرّ المفرزة أيّاما بلياليها منذ أن غزت جماعة جديدة غابات المنطقة الشّرقيّة، وردت معلومات أمنيّة تفيد بأنّها تتشكّل حصرا من الفنوانيّين يقودها كرطوع ومرزوق.

يحمل كلّ جنديّ على ظهره جرابه البحريّ، يضع بداخله بزّة عسكريّة ووجبته الباردة وملابسه الدّاخلية وأدوات الحلاقة والتّنظيف، ويحزم فوقه بطانيّة خفيفة، يسيرون في خطّ مستقيم ليشكّلوا رتلا. في الخلف يمشي بوعصا إلى جانب العقيد بوحجر، الذي كان قد قدم منذ يومين ضمن فريق عسكريّ يقوده جنرال من النّاحية العسكريّة الثّانية، أتى خصّيصا للإشراف عن كثب على عمليّات عسكريّة دقيقة ضدّ المتطرّفين، كان بوعصا يدلّه، إلى جانب ثلاث ضّبّاط مرافقين له، على تضاريس المنطقة ويناقشهم حول الخطّة العسكريّة التي استعرضها القادة العسكريّون بحضور الجنرال في مقرّ

القطاع العمليّاتي في سعيدة، يتفحّص بوعصا بعينيه الجسّاستين الأرض ويبحث بين أعشابها وأتربتها عن لغم محتمل مزروع هنا أو هناك، دون أن يلمح العقيدُ وضبّاطه انشغاله بإجراءات الأمن أو يكتشفوا حيطته وتحسّبه لأيّ تهديد محتمل، لا يضع رجله حتّى يتأكّد من أنّ الموضع الذي ستقف عليه خالٍ ومؤمّن تماما.

يعرف بوعصا جيّدا منذ أن كان طالبا في المدرسة التّطبيقيّة قبل عشر سنوات من هو الرّائد بوحجر، الذي تقدّم به العمر وابيّضت سوالف شعره حتّى أردته السّنون عقيدا يتجوّل في غابات فنوان. يشرف الكولونيل بوحجر من مكتبه في مقر قيادة أركان النّاحية العسكريّة الثّانية على العمليّات التي تستهدف مكافحة الإرهاب. لن ينسى النّقيب بوعصا، بأيّ حال، أيّام كان طالبا ضابطا عاملا، الإهانة التي تلقّاها من الرّائد بوحجر وقتها، أيّاما فقط بعد التحاقه للتّدريب بالمدرسة العسكريّة، حينما ألقى به أرضا وبدأ يركله بقوّة وبدون توقّف ومن غير سبب واضح، أمام زملائه الذين كانوا واقفين بصدورهم العارية بإزاء حاجز مرتفع في مضمار المحارب، مذهولين لا يعرفون سبب هجوم الرّائد قائد الكتيبة على زميلهم، وقف الطّالب الضّابط العامل سليم زيداني معتمدا على عارضة حاجز إلى جانبه، وبدأ يركض هاربا من الرّائد الذي باغته بهجومه حتى سقط في حفرة عميقة، كادت رجله أن تنكسر على إثرها.

كان الرّقيب المشرف على تدريب الطّلبة حينها، قد أعطى تعليمات صارمة بالتزام مراحل المضمار وعدم حرق أيّة مرحلة منه، كانت طبيعة سليم زيداني المسترسلة في السّخرية والاستهزاء قد دفعته في إحدى

اللّحظات، التي وقف فيها الرّائد بوجر في غفلة منه ومن زملائه الطّلبة، بعيدا عنهم في الخلف، إلى أن يخفي حركاته السّاخرة عن مدرّبه الرّقيب باختبائه في الصّف الأخير خلف زميل له، غير أنّ مباغتة الرّائد له، وقد شاهد مليّا ما كان يصنعه، جعلته يضطرّ لدفع تكلفة باهظة بسبب تصرفه الطّائش غير محسوب العواقب، والتي كانت هذه المرّة مؤلمة ومريرة.

كانت تلك اللّحظة القاسية والفارقة في حياة النّقيب بوعصا بداية لأوقات عصيبة، عاشها الطّالب سليم زيداني في المدرسة التّطبيقية بأعصاب مشدودة طيلة ثلاث سنوات، وقف خلالها الرّائد بوجر كشَوكة في حلقومه بعد أن وضعه ضمن مجاله البصريّ؛ في ساحة التّجمّع قبيل انصراف الطّلبة إلى مراقدهم كان محلّ تفكّهه وتندّره أمام زملائه، في المطعم كان يصفه بالشّره الأكول الذي ما التحق بالجيش إلّا من أجل التهام الطّعام المفتقد في بيتهم، وربّما خطف الملعقة من يده ورفع صحنه ليضعه مباشرة في فمه قائلا له بتهكّم: "كول بالصّحن المغرف ما تسلّكهاش معاك"، فينفجر المطعم ضاجّا بالضّحك الصّاخب والقهقهات العالية، بل حتّى في قاعة الدّروس وأثناء تسديد طلقات الرّصاص في حقل الرّماية، غالبا ما كان يمسكه من ياقة زيّه العسكريّ ويهزّه ويدفعه ليسقط أرضا، عدا عن السّباب والشّتائم البذيئة التي كان يُسمعه إيّاها بين الفينة والأخرى، والتي لا يكاد يمرّ يوم إلا ويجدها تصخّ أذنيه، وغالبا ما كان يقحم فيها والديه أو يضمّنها ألفاظا جنسيّة يقصده بها شخصيّا.

مضت عشر سنوات على تخرّجه الذي كان بمثابة تنفّس للصّعداء، لا يفارق ذاكرته الحديديّة، التي تستعيد في كلّ مرّة يمرّ طيف ذكراه بها،

صورة اجتيازه لبوّابة المدرسة ووقوفه أمامها حاملا حقيبة الظّهر على كتفه ومطلقا زفرة ارتياح طويلة، امتزجت لحظتها بحنق بدا على ملامح وجهه المكفهرّ كأنّها تمسك بطرفه المتدلّي في أعماق نفسه المتوقّدة غلّا دفينا، أعقبها بصيحة مدويّة: لاااكي ي ي ي...

أمام جرف صخريّ تستقرّ في سفحه شجرة صنوبر عظيمة يستظلّ عندها جنود بوعصا، ويأخذون قسطا من الرّاحة، بعد تمشيط استمرّ من الفجر حتى منتصف النّهار، أخرج كلّ عسكريّ من جرابه وجبته الباردة؛ علبة "كورند بيف" وقطعة خبز وحبّة برتقال، التقم العريف رحّال بفمه فوهة زمزميّته واستسلم لنهم حلقه الذي جفّفه طول التّجوال في غابة فنوان الممتدّة، أزاحها عن فمه ومرّر ذراعه عليه ليمسح قطرات كانت تعلق بشفتيه المبتلّتين، لمح العريفُ العقيدَ بوحجر ينسحب منفردا بينما كان بوعصا منهمكا مع الضّباط الثّلاثة في استعراض المنطقة التي كانوا متواجدين بها، تابع رحّال العقيد بعينيه الفاحصتين حتّى اختفى خلف أشجار الصّنوبر، كان العقيد قد رأى شيئا غامضا يلمع تحت أشعّة الشّمس، لم يشأ أن يخبر بوعصا وضبّاطه المرافقين له بأمره وواصل يشقّ طريقه نحوه.

* * *

يفتح مسعود القابع في مكتب جمال قاسمي، بعدما تردّد مطوّلا في دخوله، جريدةَ السّبق، كانت ملفوفة فوق المنضدة المجاورة للمكتب أمامه، شدّ انتباهه عنوان في رأس الصّفحة الأولى يفيد بمقتل عقيد وتسعة إرهابيّين. كان قد ورد في الخبر دون إشارة إلى أسماء القتلى أنّ العقيد

بوحجر توفّي على إثر انفجار لغم أرضيّ، أثناء عمليّة مداهمة لمعاقل الإرهاب في غابة البرّاح، غير بعيد عن قرية فنوان بولاية سعيدة، وقُتل معه في الحادثة تسعة إرهابيّين. لم يجد مسعود من بدّ لدخول مقرّ الصّحيفة مجدّدا، بعد أن كان قد اتّخذ قرارا بعدم الرّجوع إليها، لولا أنّ خبر مقتل تسعة إرهابيّين بفنوان دفعه ليتأكّد من جمال، بحكم علاقاته الوثيقة بأجهزة الأمن، إذا ما كان أخوه مرزوق بينهم.

وضع مسعود الجريدة على الطّاولة أمامه، ورفع رأسه باتّجاه جمال الذي كان قد أنهى مكالمته مع ضابط في أمن الجيش، تنهّد مسعود واسترسل في كلامه مستبقا استفسارا من جمال حول التغيّر الذي من المؤكد أنّه يبدو على ملامحه، بعد سماعه له بينما كان يملي عليه الأحرف الأولى لأسماء القتلى، التي كان الضابط يخبره بها:

- كلّما أسمع أو أقرأ عن حادثة اغتيال إلّا وتذكّرت أحمد مولاي عليه رحمة الله، بعد أربع سنوات على مقتله لم نصل بعد إلى القاتل، رغم أنّ تحقيق الشّرطة ربطه بحادثة المطار، وأُقفل ملف القضيّة لعدم وجود أدلّة حول هويّة الجناة.

- عليه رحمة الله... ولا تزال أنت مقتنعا بعدم وجود علاقة بين الفاعلين في الحادثتين، على عكس حادثة مقتل العقيد قبل يومين والتي يبدو فاعلها معروفا، أو لِنقل الجهة التي ارتكبتها معروفة؛ جماعةُ فنوان الإرهابيّة.

- هذا واضح ومؤكّد، كل المؤشّرات تدلّ على ذلك؛ المكان، المعركة، القتلى في الجانبين، اللّغم الذي زرعه الإرهابيّون، العداوة الشّديدة بين جيش يسعى لبسط الأمن وضمان الاستقرار للدّولة وللشّعب، وبين جماعة دمويّة لم

يعد لها من هدف سوى التّخريب والانتقام وترويع الآمنين وسلب أرواحهم وممتلكاتهم.
- ربّما لن تتمكّن الجهات الأمنيّة من تحديد منفّذي العمليّة الذين زرعوا اللّغم، لكن طالما أنّ المستهدف هو ضابط عسكريّ سامٍ، فإنّ الجهة الفاعلة توجد في ساحة المعركة، والتي تمثّل في الوقت ذاته مسرح الجريمة.
- بالضّبط هذا ما كنت أودّ قوله، وهذا ما يميّز بين اغتيال أحمد ومقتل العقيد.
قال مسعود ملوّحا بسبّابته، ثمّ تابع:
- لم يكن العقيد مستهدفا لذاته ولكن لكونه عسكريّا، وما كان يهمّ الإرهابيّين أن يموت هو بالذّات بلغمهم، ربّما كانوا يريدون قتل مجموعة من الجنود بدل أن يموت عقيد بمفرده، حتّى وإن كانت عمليّتهم الارتجاليّة هذه بالنّسبة إليهم نوعيّة أطاحت برأس عقيد في الجيش.
- وهنا مكمن الاستغراب، هل كان العقيد ساعة الانفجار لوحده؟ من المفروض أنّه وفي ظروف كتلك يكون مرفوقا على الأقل بقائد الوحدة العسكريّة التي كانت تشرف على عمليّة التّمشيط والمداهمة.
- صحيح، لا أزال أتعلّم منك سيّدي مدير التّحرير، لا تتركُ جانبا من جوانب الخبر إلا وأحطت به.
رفع مسعود الجريدة الملفوفة أمامه، قرأ خبرا صغيرا جدّا كان في الصّفحة الأولى ثمّ أعادها إلى مكانها، وقف بملامح متقلّبة حاول لملمة تبعثرها، واستأذن من جمال:
- أعذرني عليّ المغادرة، لديّ موعد هامّ. أشكرك كثيرا على المساعدة.

استسمح مسعود صديقه مستبقا إلحاحه عليه بالبقاء.

- ذلك شيء لا يستحقّ الذّكر، نحن أصدقاء رغم كلّ شيء... لن أعطّلك، يمكنك الانصراف، كان الله في عونك أستاذ مسعود، تمنّياتي القلبيّة لك بالتّوفيق في تحقيق طموحاتك.

ردّ جمال بابتسامة عريضة، لم يشأ أن يستفسر عما إذا كان مسعود قد وجد عملا أم تراه لا يزال يبحث عنه، ثمّ استطرد معاتبا إيّاه على غيابه:

- أرجو ألا تطيل غيابك علينا، لقد تركت فراغا في الصّحيفة يصعب ملؤه.

* * *

VII

شواهد الحقيقة

21

- مِن الأفضل لك هذه المرّة أن تذهب أنت إلى فنوان لتراهما هناك، بدلا من أن يأتيا هما لرؤيتك هنا في سعيدة.

ردّ سالم على مسعود، بعد أن طلب منه أن يُحضر والديه إلى سعيدة لرؤيتهما، كما أصبحت عادته منذ أن بات ذهابه إلى فنوان يشكّل خطرا حقيقيّا على حياته، كانت آخر مرّة رآهما فيها في بيت سالم، حينما رافقهما إلى ثكنة القطاع العسكريّ لإلقاء نظرة أخيرة على مرزوق، بعد تأكّد مقتله ضمن المتطرّفين التّسعة، مكث أربعة أسابيع في العاصمة وعاد سريعا كي يواسيَهما.

أردف سالم قائلا:

- لم تعد الأمور كسابق عهدها منذ مقتل العقيد وجماعة فنوان، الطّريق مفتوحة وسالكة سائر أيّام الأسبوع ولم يعد ارتيادها يشكّل خطرا، مقتل جماعة فنوان شلّ حركة العبابسة، كانوا أعينهم في المنطقة ومن دونهم لم يعد بإمكانهم التّحرك أو التّواصل مع أيّ أحد في فنوان أو حتّى ابتزازه.

ألمُ مسعود المضاعف أسفا على أمّه وأبيه لفقدهما مرزوق، بالإضافة إلى ارتباكه بسبب تفكيره الدّائم في إيجاد طريقة لإبلاغهما عن قرار سفره إلى إنجلترا، فَوَقْتُه ضيّق وهناك أمور كثيرة عليه أن يرتّبها قبل سفره، كلّ ذلك لا يسمح له بالعودة مرّة أخرى لتوديعهما وإلقاء نظرة عليهما، قد تكون الأخيرة، فهو لا يدري ما تخبّئه الأقدار من مصائر وآجال، أسبوع واحد يفصله عن ركوب الطّائرة إلى لندن.

كان مسعود قد زار سمير في بيته، يوما واحدا بعد اتّصاله به في شقّته، وبعد الغداء الدّسم في صالة الفيلّا الفارهة التي يقيم بها سمير مع عائلته التي عرّف مسعود عليها فردا فردا، حتّى على أخواته البنات، لم يجد غضاضة في أن يقدّمهنّ له، وبأريحيّة أتاحت له أن يستذكر، وهو ينظر إلى إحداهنّ، دمية الكاراكو التي رآها في شارع العربي بن مهيدي، كانت تشبهها إلى حدّ بعيد، أطرق خجلا حينما تذكّر شعوره الغامر ذاك، الذي جعله يفقد إدراكه بينما كان يدفع باب المحلّ، كاد وقتها أن يقع في ورطة الزّواج من دمية، خشيَ إن هو أطال النّظر في ملامحها الشّقراء أن يفعل مع سمير مثلما فعل مع بائع الألبسة النّسائيّة، سوف لن يجد مخرجا لمأزق الخطبة هذه المرّة، إنّها امرأة حقيقيّة وليست دمية عرض ملابس نسائيّة، لن يكون بوسعه أن يسأل سمير عن ثمن البدعيّة القبائليّة التي تلبسها أخته.

اختلى المضيف بضيفه في غرفته السّاحرة، التي تحوي جميع متع الحياة لشابّ جاوز منتصف عقده الثّالث بسنتين أو ثلاث، تلفزيون وحاسوب وأكواريوم تسبح بداخله ثلاث سمكات بألون زاهية، وسرير وخزانة ملابس من خشب الزّان الفاخر وإطلالة لم يكن معها ساحل البحر بعيدا، خصلاتٌ من شعر سمير تخفق على وقع نسائمه التي راحت تنعش وجه مسعود إذ يقفان عند النّافذة. جلسا بالقرب من الحاسوب، أشار سمير إلى قرص مضغوط (سيديه) كان فوق طاولته، قال إنّ هذا هو سبب صمته المطبق يوم لقائهما في المقهى، استغرب مسعود من كلام سمير، كيف لقرص مضغوط أن يكون سببا في ألا يبدي سمير حماسة وتجاوبا مع عرضه التّكفّل بإعادة بعث مشروع أحمد البحثيّ، ولا يردّ عليه إلّا بعد

مرور ستّة أشهر، لمح سمير علامات التّعجب التي لم تخفَ عن وجه مسعود، طأطأ رأسه وقد غمر الخجل سحنته، كما لو أنّه قد أذنب في حقّ أهل الأرض والسّماء جميعا، وبدا عليه ارتباكُ من يلتقط الكلام من بين الأشواك.

ذكر سمير لمسعود بأنّ السّيديه كان قد اختفى منذ سنة تقريبا ولم يعثر له على أثر، وأنّه ساعة عَرض عليه في المقهى التّكفل ببحث أحمد، كان كلّ تفكيره منصبّا على السّيديه المختفي، أدخله ذلك في شتات لم يعد معه يركّز كثيرا في كلام مسعود الطّافح تحمّسا، فبدا له بليدا وغير مهتمّ بالموضوع، وفضلا عن كون السّيديه من رائحة أحمد مولاي الذي أهداه إيّاه قبل حادثة اغتياله بأسابيع قليلة، فإنّه يحوي جميع أفكاره وتجاربه التي قام بها في معهد البحث الزّراعيّ حول القمح، بل إنّه قام بتهميشه وفهرسته، ولم يفُته أن يدوّن عليه تاريخ صدوره واسم صاحبه، حتّى أصبح يبدو للنّاظر كأيّ مرجع علميّ.

أخبره بأنّ الكرسيّ الذي يجلس عليه الآن، كان أحمد يشغله وهو عاكف على إدخال جميع بيانات بحثه في الحاسوب، قام بنسخها فيما بعد في ذلك القرص المضغوط الذي أخذ منه نسخة، وتركه عنده كنوع من الامتنان له على معروفه معه، تذكّر مسعود عندها حينما كان أحمد يخرج مسرعا من الشّقّة ويخبره بأنّه ذاهب عند زميل له يملك حاسوبا، في زمن من النّادر جدّا أن يملك إنسان حاسوبا شخصيّا، وأنّه قدّم له خدمة جليلة بأن أتاح له أن يدوّن عليه كلّ شيء حول مشروعه البحثيّ.

قال سمير لمسعود أنّه قبل سنة كان قد أعار السّيديه لأحد أصدقائه الذي كان بصدد إنجاز مذكّرة دكتوراه، لكنّه نسي الأمر ونسي مكان السّيديه ونسي حتّى الشّخص الذي أعاره إيّاه، حاول بعد لقاء المقهى جاهدا أن يتذكّر الأمر، دون جدوى، خمّن أنّه يمكن أن يكون قد أعاره لشخص ما بعدما استبعد إمكانيّة ضياعه، اتّصل بعدد من أصدقائه الذين افترض بأن يكون أحد منهم قد استعاره منه، لم يكن من أعار له السّيديه من بينهم، كلّهم أجابوه بأنّهم لا يعرفون عنه شيئا، ضحك سمير حينما تذكّر جواب أحدهم له بكونه لا يستخدم أصلا هذا الصّحن اللّمّاع والمثقوب في وسطه، وأنّه لا يزال يشتغل بالأقراص المرنة، تهدّج صوته واغرورقت عيناه دون أن تدمعا وهو يمسك بملزمة كانت على الطّاولة أمامه، بدا من شكلها أنّها مذكّرة تخرّج، فتحها بالقرب من نهايتها، أشار له في باب المراجع والمصادر، إلى اسم أحمد مولاي مكتوبا باللاّتينية، أخبره أنّه قبل يومين فقط كان بصدد وضع بعض اللّمسات الأخيرة على برنامجه البحثيّ الذي سيباشره في كندا، كان يحتاج إلى بعض المعلومات التي تَذكّر بأنّه قرأها سابقا في نسخة لمذكّرة دكتوراه منحها إيّاه أحد زملائه بمعهد الزّراعة، كانت تلك المذكّرة مدفونة في أحد الكراتين المصفوفة داخل قبو المنزل، وعند قراءته لاسم أحمد مولاي، كان إلى جنبه إشارة من صديقه صاحب المذكّرة في هامش إحدى الصّفحات تدلّ على رجوعه إلى القرص المضغوط واقتباسه لبعض المعلومات الموجودة به في مكان ما من مذكّرته، تذكّر سمير مباشرة بأنّه كان قد أعار السّيديه لصاحب المذكّرة التي بين يديه،

أبلغه حينما اتّصل به ليستردّه منه أنّه هو الآخر نسي من أعاره إيّاه، فاحتفظ به عنده ريثما يظهر صاحبه.

شعر مسعود وهو يودّع سمير في صالة الانتظار بمطار هوّاري بومدين براحة غامرة، وبأنّه عاد إلى عافيته النّفسيّة المعهودة التي صارت مفتقدة منذ اغتيال أحمد، بل إنّه أحسّ وكأنّ أحمد لا يزال حيّا، إنّه ماثل أمامه الآن في وجه سمير الذي حرص على أن يمسكه بين يديه بعد أن احتضنه مطوّلا، بينما كان يوصيه أن يحتاط جيّدا لأمر البحث ولا يطلع عليه أحدا، حتّى وهو يقوم بتجاربه ودراساته.

تذكّر مسعود وهو يغادر المطار في طريق عودته إلى حيّ الحراش أنّه اجتاز طريق المطار مرّتين وشاهد الطّائرات الرّابضة على مدرجه، وتلك التي كانت تطوف داخله محاولة الإقلاع أو بصدد التّوقّف، رأى طائرات مقلعة وأخرى في طريقها إلى الهبوط، حدث كلّ ذلك دون أن يشعر بالغثيان أو بالقلق، امتنّ كثيرا لسمير الذي يبدو أنّه فعل معه معروفين في وقت واحد، الأول عندما قرّر أن يأخذ بحث أحمد على عاتقه، والآخر كونه السّبب في خلاصه من فوبيا الطّائرات. شعر بأنّ تبنّي سمير للبحث بمثابة خروجه من نفق مظلم، قرّر مسعود عندها أن يسافر إلى إنجلترا للعمل كمحرّر في إذاعة بي بي سي.

على طول الطّريق إلى فنوان التي لم يرها مسعود لأكثر من سنة، تصطفّ المزارع والمنازل الخاوية من أهلها، يبدو منظرها وهي تمتلئ بالأشباح كئيبا، حينما سأل سالم عن مصير كلّ تلك العوائل المغادرة، كان جوابه له مختصرا: رحلوا إلى سعيدة وعين الحجر. ثمّ استطرد قائلا:

- يلاقي الوافدون الجدد من أرياف سعيدة وضواحيها الأمرّين في إيجاد عمل يدرّ عليهم دخلا يعيلون به عوائلهم، أفلس أغلب الميسورين منهم، لم يعد في أيديهم مصروف عشاء ليلة واحدة، واضطرّ بعضهم ممّن كان محظوظا في مزرعته لأن يمتهن في المدينة حرفا تُمتهن فيها كرامته وتمتحن أنفته التي كبر عليها.

تنهّد سالم وأطلق زفرة طويلة، بينما كان يسرد لمسعود قصّة عائلة أحد سكّان فنوان الذين صعدوا إلى الجبل، لم يشأ أن يذكر اسمه، كانت قد استقرّت بحيّ بوخرص، اضطرّ الفقرُ والفاقة زوجتَه إلى أن تواعد الرّجال لقاء بعض المال حتّى تعيل أبناءها، لم تكن لوحدها من فعلت ذلك، عقّب سالم على كلامه، وكشف له أنّ نساءً كُثرا كنّ قد قدِمن من القرى والضّواحي الرّيفية المجاورة لسعيدة، امتهنّ الدّعارة حتى يتمكّنّ من مجابهة متطلّبات حياة لا يملكن أيّ شيء لمواجهة تكاليفها الباهظة، في ظلّ تدهور الأوضاع وعدم تمكّنهنّ من إيجاد عمل وتأمين مصدر للدّخل، وقد طرقن أبوابا موصدة للعمل هي أشبه منها بالأسوار المنيعة، وحتّى زوجات وبنات بعض من صعد إلى الجبل وقُتل من الفنوانيّين سلكن تلك الدّروب الموحشة وأكلن بأثدائهنّ، بعدما تمنّعت اللّقمة عنهنّ.

أخبره عن ابن ڤرطوع المراهق الذي اصطدم بواقع أسرته الأليم وما كان يراه من أمّه وأخته التي تكبره، لاذ بالصّمت وحاول نسيان أمرٍ واقعٍ ومحتّم تفهّم قسوته بعدما أدرك ظروفه القاهرة، حاول تفادي حقيقته المؤلمة، فلم يجد من بدّ لنسيانه غير أن انغمس في المخدّرات والخمر.

تحسّر سالم كثيرا على بعض شباب فنوان من المغادرين، الذين تركوا دراستهم وعملوا نُدُلا في المقاهي والمطاعم وحمّالين في سوق الخضر والفواكه ومتاجر الجملة.

عندما بلغا مقبرة سيدي مبارك، أشار سالم بإصبعه السّبّابة عن شماله إلى قمّة جبل البرّاح، وأخبر مسعود:

- في ذلك المكان قَتل كَرطوع العقيد بوحجر وانفجر به اللّغم بعدها، وأبيدت بعدهما بقليل جماعة فنوان.

ذكر سالم لمسعود أنّ معمر حشمان كان قد استدعيَ إلى المحكمة العسكريّة بوهران كشاهد في قضيّة سرقة بوعصا لعتاد حظيرة ديوان الغابات، وأنّه علم بذلك بعد واقعة غابة البرّاح التي أودت بالعقيد بوحجر بأقلّ من أسبوع، شجّعت الحادثة الرّقيب مشطاوي على أن يبلّغ عنه في قضيّة السّرقة، كونه يملك أدلّة حول تورّطه بشكل أساسيّ في القضيّة. قام عناصر في مكتب المصالح الأمنيّة، على إثر ذلك بنصب كمين لبوعصا واقتادوه إلى المحكمة في النّاحية العسكريّة بوهران.

كان العريف رحّال أوّلُ من اتّهم النّقيب سليم زيداني بتدبير اغتيال العقيد بوحجر، كان ذلك يوم إجازته التي أعقبت الحادثة بأقلّ من أسبوعين، فقد توّجه إلى مقرّ فرقة الدّرك قبل سفره إلى بيته في شلف.

اتّهم رحّال بوعصا بمحاولة قتل العقيد بوحجر، عن طريق لغم انفجر على الإرهابيّ كَرطوع الذي قتل العقيد قبل أن يصل إليه، وأخبر المحقّقين من رجال الدّرك بأنّه لحظة الحادثة وأثناء استراحتهم وأخذهم لوجباتهم الباردة، لاحظ العقيد وهو يتّجه نحو مكان الانفجار، بينما كان النّقيب

زيداني يشغل الضّبّاط الثّلاثة بحديثه معهم، غير أنّ أشجار الصّنوبر منعت رحّال من مشاهدة مقتلهما.

كان كَرطوع قد أطلق الرّصاص على العقيد وانفجر به اللّغم بعد ذلك بأقلّ من نصف دقيقة، حيث أنّ دويّ الانفجار كان هائلا ولا يبعد مكانه عن موقع استراحة مفرزة النّقيب زيداني بأكثر من خمسين مترا. خمّن رحّال أن يكون كَرطوع قد افترق عن جماعته، التي كانت تودّ محاصرتهم، حينما رأوا العقيد يمشي منفردا مبتعدا عن العساكر أثناء استراحتهم، وأنه تكفّل بأمر القضاء عليه، لم يكن يودّ أن ينجو عسكريّ واحد من فخّهم، ورجّح بأن يكون كَرطوع ورفاقه قد خطّطوا لمباغتتهم وافتكاك أسلحتهم وإبادتهم بعدها، بعدما يشفوا غليلهم منهم بالسّخرية والاستهزاء بهم.

تطلّب إدلاء العريف رحّال بشهادته التي ضمّنها اتّهامه لبوعصا توسيعَ التّحقيق الذي طال جميع العساكر، بالإضافة إلى الضّبّاط الثّلاثة، قبل أن ينطق قاضي المحكمة في قضيّة سرقة العتاد، وهو ما جعله يؤجّل ذلك لحين محاكمته في قضيّة مقتل العقيد.

تبيّن بعد تشريح الجثّة أنّ العقيد بوجر أصيب بثلاث طلقات من رشّاش كَرطوع، اخترقت إحداها الشّقّ الأيسر من قفصه الصّدري وكسرت ضلعا واستقرت في كبده بعدما ثقبت حجابه الحاجز، نفذت الثّانية إلى بطنه وانغرست بين فقرات عموده العظميّ، وسكنت الثّالثة في عضلات فخذه الأيمن.

كان من بين العساكر من شاهد انفجار اللّغم وانتثار الغبار وتطاير أشلاء ڤرطوع، وبعضهم شهِد لحظة إطلاق الرّصاص فقط، لكّنه لم يشاهد مصدر الإطلاق ولا وجهته، وحده الرّقيب مشطاوي من تمكّن من رؤية ڤرطوع وهو يطلق النّار على العقيد ويصيبه. كان مشطاوي بعيدا عن تجمّع العساكر حال خروجه من خلف شجرة صنوبر، كان قد قضى حاجته وراءها، بعد أن منعه بوعصا من التّوجّه ناحية اللّغم، أراد مشطاوي إطلاق الرّصاص على ڤرطوع غير أن ظهور رفاقه المسلّحين في تلك اللّحظة، وخوفه من مباغتتهم لزملائه العساكر المنشغلين بغدائهم جعله يسدّد باتجاههم. لم يتمكّن العساكر عند سماعهم دويّ رصاص ڤرطوع من توجيه رشّاشاتهم نحو مصدر الرّصاص، حتّى باغتهم رفاق ڤرطوع بتوجيه أسلحتهم نحوهم، غير أنّ إطلاق مشطاوي الرّصاص عليهم، والذي تزامن مع انفجار اللّغم بڤرطوع أربكهم فلم يتمكّن من إطلاق الرّصاص غير اثنين منهم، ولم تصب تسديداتهما بعض العساكر سوى في أطرافهم نظرا لفقدانهما التّركيز جرّاء الارتباك والخوف الحاصل من الانفجار، الذي لم يكن متوقّعا.

كان العساكر الممسكون بأزندة أسلحتهم لحظة الانفجار قد اغتنموا فرصة ذلك الارتباك، وردّوا على جماعة المسلّحين بإطلاق عكسيّ ومكثّف، زاد في ارتباكهم وشلَّ حركتهم تماما، فسقط جميع المتطرّفين قتلى.

أصرّ النّقيب سليم زيداني على موقفه في براءته من محاولة قتل العقيد باللّغم الذي انفجر على ڤرطوع، بعد أن وجّه له قاضي التّحقيق تهمة

الشّروع في القتل مع توفّر عنصر القصد الجنائيّ، رغم أنّ اللّغم انفجر على إرهابيّ مطارد كان هو من قتل العقيد قبل ذلك.

كان لشهادة العديد من العساكر أثر بالغ في إدانة النّقيب، فقد أقرّ أربعة من بينهم الرّقيب مشطاوي أنّهم حاولوا الذّهاب إلى مكان اللّغم لقضاء حاجتهم، غير أّن بوعصا منعهم من التبرّز في تلك المنطقة واقترح عليهم أماكن أخرى، كما أنّ العريف رحّال ومعه اثنان من العساكر لاحظا ابتسامة عريضة بادية على وجه بوعصا لحظة توجّهَ العقيد بوحجر إلى مكان الانفجار.

كان لشهادة الجميع بكون النّقيب زيداني كان يختبرهم قبل ذلك اليوم وفي مناسبات عديدة، أثناء عمليّات التّمشيط ونصب الكمائن بوضع أشياء مغرية ومثيرة للانتباه تستدعي التقاطها، حيث إنّه كان يختبئ حاملا خيطا مموّها يتّصل بتلك الأشياء، كان ذلك بمثابة عامل مهمّ لحسم القضيّة وسببا كافيا لإدانته، فقد ربط قضاة المحكمة هذه التّدريبات الغريبة التي لا تستدعي كلّ تلك المناورة، بإصرار النّقيب على اغتيال العقيد والتّخطيط لذلك بشكل مسبق، خاصّة أنّ بوعصا كان يعاقب من يفشل في تلك الاختبارات أشدّ العقوبات، وهو أمر فسرّوه على كونه سعى من ورائه إلى إرغام جنوده على الامتناع عن التقاط أيّ شيء، مهما بدا لهم ثمينا ومُهمّا تحت أيّ ظرف كان، حتى ولو كان أثناء تمشيط غابة البرّاح في حضرة العقيد بوحجر وهو يتوجّه نحو نخّه الجذّاب ليقتله هو بالذّات دون غيره، كان ذلك يبدو جانبا من خطّة محكمة أعدّ لها بوعصا باحترافيّة كبيرة.

واجه قاضي التّحقيق بوعصا بدليل آخر، أحاطه بكونه قد تلقّى من القطاع العملياتيّ للولاية برقيّةً تفيد بقدوم وفد عسكريّ رفيع المستوى من النّاحية العسكريّة الثّانية، تعلمه فيها اعتزام الوفد القيام بزيارة تفتيشيّة لفنوان والوقوف عن كثب على العمليّات العسكريّة ضد الإرهابيّين، وأنّ تدريباته الغريبة تلك بدأت، حسب تواتر شهادات العساكر والذين أجمعوا على ذلك، في نفس تاريخ إرسال تلك البرقيّة تقريبا.

لم يستسلم النّقيب زيداني إلى النّائب العسكريّ إذ يتلو عليه لائحة التّهم قبل نطق الحكم، أصرّ على رفضها جميعها وتبرئة نفسه منها، كان رابط الجأش بأعصاب ثلجيّة ودم متجمّد ساعة حكم عليه القاضي بالإعدام شنقا بتهمة محاولة قتل ضابط في الجيش مع سبق الإصرار والتّرصّد، وبتجريده من رتبته العسكريّة، بعدما كان قد أدانه في قضيّة سرقة عتاد حظيرة ديوان الغابات بالسّجن النّافذ لعشر سنوات، وبمصادرة جميع ممتلكاته التي تأتّت من عملية البيع.

قام الرّقيب مشطاوي الذي كان قد شاهد قبّعة بيريه خضراء اللّون تلتصق في مقدّمتها نجمة معدنية، كانت ملقاة على أرض الغابة بعد مقتل العقيد بوجر، بإبرازها أمام هيئة المحكمة وتسليمها لها، يبدو أن الانفجار كان قد ألقى بها ناحيته، حملها ووضعها في جيب معطفه الشّتوي.

كان سالم قد أوقف سيّارته على جانب الطّريق التّرابي إلى مزرعة ستاني لحظة أنهى سرد وقائع مقتل العقيد ومحاكمة بوعصا، غاص الرّجلان في مروج القمح الخضراء التي ترتسم كلوحة زيتيّة تكسوها حمرة ورود شقائق النّعمان وصفرة أزهار الأقحوان وخضرة سنابل القمح التي لم تزل محافظة

عليها مع حلول شهر ماي، بعد موجة من الأمطار المتواصلة شهدتها المنطقة في الشّهر الماضي.

يداعب سالم بأصابعه على طرف حقله سنابلَ تماوج كعُرُف الخيل العادية، يتوقّف فجأة ليلتفت إلى مسعود الذي كان يتبع خطاه حتّى يتفادى تحطيم سيقان السّنابل، فسالم الفلّاح يعرف جيّدا أين يضع رجله كي لا يفسد الزّرع، هكذا خطر ببال مسعود، وقف سالم على طريق ستاني ينتظره، حيث إنّه كان لا يزال داخل الحقل خلفه بخطوات يسيرة، ودون إدراك منهما لوجهة محدّدة، شقّا طريقهما باتجاه مزرعة ستاني وقد استأنفا كلامهما، تاركين ظهريهما للقرية. تنهّد سالم وألقى بكلماته على مسامع مسعود:

- كلّما حل الرّبيع وضحكت الأرض إلا وتذكّرت أخي أحمد، كان طموحا ومتحمّسا لإنجاز مشروعه البحثيّ، كم كان يحبّ الأرض وفلاحتها، كان عطوفا عليها أكثر منّا نحن إخوته الذين نتعب ونكدّ فيها سائر أوقاتنا رغم غيابه عنها.

- إيه أحمد.. ربّي يرحمه، لقد ترك فراغا رهيبا في حياتي عجزت عن أن أملأه على كثرة معارفي وصداقاتي بالعاصمة، كان طيفه يخفق بين ناظريّ وأنت تسرد عليّ ملابسات مقتل العقيد وجماعة فنوان، كانت حادثتا مقتليهما غامضتين وتبعثان على الدّهشة والحيرة معا، كان مقتل العقيد بوحجر غريبا، فمن قتله لم يكن ليحلم بقتل عسكريّ في مثل رتبته، ولم يبق حيّا بعده سوى لثوان معدودات، وكان من خطّط لقتله عسكريّا مثله ولم يكن إرهابيّا كما كنتُ أعتقد جازما وأنا أقرأ خبر حادثة الاغتيال، وكنت

أظنّ مخطئا، كما ورد في الخبر أيضا، أن العقيد قتِل على إثر انفجار لغم، ورغم أنّ بوعصا لم يقتله إلّا أنه لقي جزاء القاتل وعقابه، مفارقات عجيبة ضمّتها هذه الحادثة، كمفارقات مقتل أحمد الذي اعتقد المحقّقون أنّه قُتل من قبل المجموعة المسلّحة التي فجّرت المطار، والتي اتّهِم فيها حسين عبد الرحيم ورفاقه وأعدموا في تازولت بعد عام قضوه في سجن لومبيز. صحيح أنّ هناك غموضا يلفّ العلاقة بين الحادثتين المتزامنتين ومدى التّنسيق بينهما، غير أنّني الآن أكثر إصرارا من أيّ وقت مضى على أن قاتل أحمد لم يكن مع تلك الجماعة التي فجّرت المطار، حتّى وإن كان من أطلق عليه الرّصاص من تلك الجماعة، وأنا متشبّث بكون سبب قتله له مرتبط ببحثه الذي حرص على أن يغتاله معه، غير أنّه أفلت من بين يديّ هاتين.

- لا يوجد ما هو أصعب على أهل القتيل بعد فقدهم له من ألا يتعرّفوا على قاتله.

- صحيح سي سالم، وهذا ما تسبّب في معاناتي منذ حادثة الاغتيال، ربّما باستخدامي للعناوين والأرقام الهاتفيّة في أجندة أحمد أتمكّن من معرفة أمور لها علاقة بالقاتل.

يلتفت مسعود بعينيه الغارقتين في خضرة الحقول والتّائهتين في أفقها البعيد إلى سالم، يتنحنح متأهّبا لكشف سرٍّ ما، ثمّ يذيعه عليه دفعة واحدة:

- سالم، أنا مسافر إلى إنجلترا.

- أووو، تفاجئني أنت أيضا بسفرك إلى إنجلترا كما فعل قبلك أحمد، ولماذا هذا السّفر؟

- لم أعد مستقرّا في عملي بصحيفة السّبق، بسبب ظروف العمل هنا في الجزائر، لا يُسمح لنا بكتابة كلّ شيء، خصوصا حول مواضيع الفساد التي لا أجد نفسي مجديا في غيرها ولا أرتاح في التّطرق إلى سواها، لقد تمكّنت من الحصول على عقد عمل بإذاعة بي بي سي البريطانيّة كمحرّر أخبار.
- هذا جيّد، أنا سعيد من أجلك لأنّك وجدت فرصة كهذه لتفجّر فيها طاقاتك وتصنع لك اسما في بيئة تحترم حرّيّة التّعبير، وتفسح المجال للكفاءات من أمثالك كي تطوّر نفسها، وبقدر سعادتي من أجلك بقدر ما أنا حزين لأنّك ستغادرنا، ستترك فراغا رهيبا، وجودك هنا يخفّف من وطأة وحشتي لأحمد، كلّما نلتقي أشعر وكأنّني معه.
- ربّي يرحمه، أرجو أن أتمكّن خلال سفري هذا من الوصول إلى حقائق بخصوص أسباب وظروف مقتله.
- آمل ذلك سي مسعود، وأتمنّى أن نتعرّف على القاتل حتّى يأخذ جزاءه المستحقّ، لقد تسبّب في إيلامنا جميعا، وبسببه توفيّت أمّي رحمة الله عليها.

***

رفض الحاج بوخاتم الاعتراف برضيع في قماطه، كانت ابنته تحمله بين ذراعيها، على أنّه حفيده من ابنه المغدور، أخبرته بأنّ رقيّة الجالسة في الصّالة، والتي أحضرها أخوها موفّق الذي ينتظرها في الخارج، أسمته حسان على اسم أبيه المقتول. أشاح بوجهه عنه، وصرخ في وجهها:
- وما يدريك أنتِ، لقد لبِثت عندهم سبعة أشهر، إنّها تكذب... قد يكون هذا ابن عاصم أو مرزوق، تريدين منّي أن أضمّ إلى نسبي أبناء الكلاب...

أغربي به عن وجهي، واطرديها من البيت، لا أريد رؤيتهما هنا مرّة أخرى.

بدت منصوريّة زوجة الحاج بوخاتم غير متّفقة مع ظنّ زوجها، صدّقت رقيّة الباكية بدموع هاطلة، بعدما أقسمت لها بأغلظ الأيمان أن لا أحد لمسها عندما كانت في الجبل، وأنّها طوال تواجدها هناك كانت برفقة زوجة عاصم الذي وفّر لها حماية لم يجرؤ معها أحد على الاقتراب منها.

أكّدت منصوريّة لزوجها أنّ رقيّة بقيت في الجبل مدّة سبعة أشهر وهي غير كافية للحمل، انتفض ساخطا في وجهها ودحض كلامها وذكّرها بأخيه الذي وُلد خديجا في شهره السّابع، لم تتقبّل زوجته هذا المبرّر وراحت تصف شكل الرّضيع، مقسمة أنّه يشبه ابنها حسان وأنّ أنفه نسخة طبق الأصل من أنف أبيه، وأنّها غير مستعدّة للتخلّي عن فلذة كبدها ورائحة ابنها بعدما ساقه لها القدر إلى باب الدّار.

يشعر الحاج الطّاهر بالخيبة طوال الوقت، عادت ابنته التي شقّ عليه غيابها المفاجئ وسقوطها في أيدي المتطرّفين، وعدا عن كونه انهار حينما علم بأنّ مرزوق اختطفها، وبزوجها الذي قتل فيما بعد، فإنّ إحساسا غامرا بالقهر وقلّة الحيلة كان يملأ يوميّاته الكئيبة، ولأنّ الحاج بوخاتم صهره صدر منه هذا الموقف غير المتوقّع، كان بمثابة إهانة قاسية له، ووصمه له بالعار الملازم لابنته الأرملة التي ستتقاذف الألسن سمعتها وشرفها، وسيُرتهَن مستقبلها وهي التي لم تتجاوز بعد الثّانية والعشرين من عمرها، فإنّ الألم يتضاعف خصوصا كلّما سمع بكاء حفيده الذي يتفادى رؤيته، حتّى لا يصل قهره

إلى مستوى الكمد والشّعور بالعجز عن فعل أيّ شيء من أجل ابنته وصبيّها، اللّذان صارت حياتهما معلّقة بكلمة من فيّ الحاج بوخاتم.

يدرك موفّق مشاعر أبيه المنهك والمنتهك، بين أشواك مصير ابنته الجارحة ونار الانكسار بين يدي الحاج بوخاتم وإهراق ماء الكرامة عند من كان بالأمس قرينا وصديقا. أيقن موفّق أنّ عليه أن يصنع شيئا ما من أجل أبيه وأخته وابنها، الذي صار من دون لقب يصون شرفه المتأرجح كلّما اهتزّ مهده المهدود، ويضمن مستقبله الغامض الذي يتربّص به ويكشّر عن أنيابه ومخالبه فوق عينيه الآسرتين اللّتين تشبهان عيني أمّه.

حمل رقيّة ذات يوم وذهب بها إلى طبيب النّساء والتّوليد الذي زارته مع حسان صبيحة اختطافهما، وبعد أن حكى له قصّتها المؤلمة قرّر مساعدتها، حتّى أنّه طلب من موفّق ألا ينزعج كثيرا من مسألة بسيطة كهذه، وأنّه في أسوء الأوضاع احتمالا فإنّه سيقف ليشهد أمام وكيل الجمهوريّة أنّه كشف على رقيّة في حضور زوجها، وحرّر لها وصفة طبيّة، كانت لا تزال معها محتفظة بها منذ ذلك اليوم، كتب فيها بعض الأدوية التي تساعد على تثبيت الحمل ونموّ الجنين بشكل أفضل، قال لهما أنّ هذه الشّهادة من شأنها أن تمنح للطّفل اسم أبيه بقوّة القانون، وستجعل رقيّة فوق الشّبهات وظنون الألسن اللاّسعة.

رأى موفّق بأنّ ذلك غير كاف، بعدما شكر الطّبيب بامتنان كبير على موقفه النّبيل، كشف له عن الوضعيّة الصّعبة التي يوجد فيها والده، والتي تتطلّب ردّ اعتبار من الحاج بوخاتم، يجب التّوصّل إلى طريقة ما لإقناعه

بأنّ حسان الصّغير حفيده من صلبه، وليس ابن زنا كما يتوهّم ويظنّ، مجرّد انتزاع لقب له لن يعيد البهجة لوجه أبيه المهترىء.

وعد الطّبيب موفّق بالمساعدة، وطمأنه أنّه مستعدّ في أيّ وقت لملاقاة الحاج بوخاتم هذا، ليؤكّد له أنّه متحقّق ومتيقّن من كون رقيّة كانت حاملا قبل اختطافها من قبل المتطرّفين.

في صالة الحاج بوخاتم في بوقطب، يجلس موفّق والطّبيب وسي ميلود الإمام، الذي لم ينتظر مطوّلا ليرفض أن يشرب كأس الشّاي التي وضعها أمامه قدّور ابن الحاج بوخاتم، أو أن يذوق طعاما حتّى يذعن الحاج بوخاتم إلى الحقيقة المشمسة، بعدما تكلّم الطبيب وأدلى بشهادته وبكلّ ما يعرفه بخصوص حمل رقيّة ومجيئها هي وزوجها عنده، بل إنّه وضع أمامه الوصفة الطّبيّة التي كانت معها وتحمل اسمه وعنوانه وختمه وإمضاءه، وقدّم له نموذجا من وصفة طبيّة فارغة تحمل البيانات ذاتها وأخرج الختم من جيبه وختم عليها وأمضى، ثمّ قدّمها للحاج بوخاتم مع الوصفة التي كانت مع رقيّة، وطلب منه أن يقارن بينهما. قال له بعد أن أخرج مصحفا من جيبه ووضعه على مخدّة أمامه ووضع فوقه يده اليمنى:

- يا الحاج بوخاتم، إنّني أشهد أمام الله أنّ ابنك أخبرني بلسانه أنّ زوجته رقيّة لم يعاودها الطّمث منذ خمسين يوما، وهذا دليل كافٍ على أنّها كانت حاملا منه وقتها.

أمسك سي ميلود بيد الطّبيب وقال له:

- صلاح لك يا دكتور، أنت صادق في شهادتك.

ثمّ التفت إلى قدّور وأمره بأن يحضر حسان الصّغير من عند رقيّة التي كانت في غرفة أخرى مع النّسوة، وما إن أمسكه سي ميلود حتى مرّره إلى الحاج بوخاتم وقال له:

- أمسك ابنك والعن الشّيطان وكفّ عن عنادك.

لم يتمالك الحاج بوخاتم نفسه إذ يرى وجه الرّضيع، كأنّه البدر ليلة تمامه يبتسم ويضع أصابعه الرّقيقة على أنفه، همّ بتقبيله، وانفجر باكيا ووضعه على صدره وانفرجت شفتاه بابتسامة رقراقة.

ترتفع الزّغاريد في الغرفة التي تجلس بداخلها النّسوة، ابتهاجا باعتراف الحاج بوخاتم بحفيده، بكت رقيّة كثيرا، شعرت بأنّها تحرّرت من قيود كبّلتها رغما عنها، انعتاقها من كلام النّاس الجارح لن يكون ذا شأن بإزاء فرحها بامتلاك ابنها، الذي عانت كثيرا حتّى أنجبته، للقبٍ يربطه بعائلة والده، وعودة البسمة إلى شفاه والدها الحزين من جديد.

رفض الحاج بوخاتم بحزم عودة رقيّة إلى سعيدة مع أخيها موفّق، قال له:

- أبلغ سلامي للحاج الطّاهر، وأخبره أنّ رقيّة لن تعود لبيت أبيها حتّى تعتدّ وتكمل عدّتها على زوجها في بيت أهله.

* * *

سوف يتذكّر عاصم القابع في سجنه منذ أربعة أشهر حالما يخرج منه، بعد أن يقضي داخله تسع سنوات، مستفيدا من تدابير سياسة الوئام المدنيّ وينجو من حكم بالمؤبّد، ولن ينسى ما حيي، لحظةَ أخبره حمزة بقرارات مجلس إمارة المنطقة بفصل جماعة فنوان عن العبابسة الذين ضمّتهم إلى جماعة تفاسور، فوضعت بذلك حدّا لصراع كان يخفي تحت رماده جمرات حرب

متّقدة، وبأنّه لم يعد بإمكانه إمارة الفنوانيّين فقد آلت إلى ڤرطوع الذي سار بجماعته شرقا عائدا إلى غابة البرّاح، وفي عمقها بعيدا عن منزل حارس الغابة المدمّر، أسند خلفيّة كازماته الجديدة إلى تلّة منخفضة تغمرها أشجار كثيفة من الصّفصاف السّامق، أتاحت له تمويها جيدا، واستخدم أغصان الأشجار والحجارة والتّراب وبعض العوارض الخشبيّة وصفائح القصدير المضلّع ليكمل بناءها.

يتذكّر عاصم جيّدا كيف أنّه كان عليه أن يقرّر مصيره، قبل السّجن، بعدما أصبح مجرّد عنصر في جماعة تفاسور، استبدّ به ندم حارق على مساره الدّمويّ، ولم يلتفت كثيرا إلى مسألة انتزاع الإمارة منه وتخفيض رتبته عقابا له على سوء إدارته لأنشطة جماعته وعدم امتثاله لأوامر القيادة، فقد ترسّخ في عقله تفكير في عكس هذا الاتجاه تماما، بدأ يتحوّل إلى عزم أكيد بضرورة مغادرة الجماعة المتطرّفة، منذ أن أسرّ له حمزة أن مرزوق استأذن من القيادة، بعد تكليفها لڤرطوع بإمارة جماعة فنوان، في أن يأخذ رقيّة معه ليتزوّج بها، بعدما تلد، غير أنّه لم يجد سبيلا للهرب.

وافقت القيادة على طلب مرزوق إلّا أنّ القاضي الشّرعيّ تحفّظ على مرافقة رقيّة له، وحكم ببقائها في غابة تفاسور حتّى تلد ثمّ يأتي لخطبتها بعدها، كان هذا الإجراء الاحترازيّ بالإضافة إلى كونه سيقطع في نظر القاضي الشّرعي كلّ ذريعة توصل مرزوق للاختلاء برقيّة والوقوع في مخالفة شرعيّة، فإنّه سيحافظ على تركيزه في نشاطه داخل الجماعة بعيدا عن فتنة رقيّة له.

وسيتذكّر عاصم أيضا لحظة أشاح بوجهه بعيدا عن مشهد زوجته صفيّة، إذ تولّد رقيّة التي أرغمهم طلقها على أن يتوقّفوا في منتصف طريق هروبهم، الذي كان محتّما وإلّا فإنّه لن يكون بوسعه تحسّس رقبته مجدّدا، سوف لن تصل رأسه بصلبه في حال بقي هناك إلى الصّباح. كان حمزة قد أبلغ عاصم بحكم إمارة المنطقة فيه، قرّرت قيادتها التّخلص منه على إثر تأكّدها من مزاعمه بعدم المقدرة على حمل السّلاح والقتال في صفوف جماعة تفاسور ضدّ عساكر مفرزتها.

ركب حمزة المجاهدة وحمل إلى جانبه عاصم وأصغر أبنائه الذي وضعه في حجره، وفي الخلف زوجته صفيّة وابناها الاثنان، ورقيّة التي كانت تشكو مغص الولادة وآلاما حادّة في منطقة الحوض، وغادروا المكان في منتصف اللّيل.

كان حمزة قد وافق عاصم في عزمه على تسليم أنفسهم لفرقة الدّرك في تفاسور، دفعته ولادة رقيّة الاضطراريّة إلى أن يركن المجاهدة وسط الغابة في منتصف الطّريق، وجّه أضواءها نحو صفيّة التي ساعدت رقيّة على النّزول منها والاستلقاء على بساط بلاستيكيّ، كان قد أخرجه من صندوق السّيّارة مع قنّينتين كبيرتين من المياه.

وسط هدير محرّك المجاهدة تفترش رقيّة البساط، ترفع ركبتيها الذّاويتين بعسر، تنصب مرفقيها على الأرض مستندة عليهما، ترمق صفيّةَ بينما تزيح عباءتها عن ساقيها الأبيضين النّحيلين، تتزلّج على فخذيها الغضّين وتتكوّم على حجرها. تشتدّ آلام المخاض، تُحكم قبضتي يديها وتضربهما على الأرض، تمسك بالعشب، تشدّه وترخيه، يغصّ حلقها المتصلّب كأرض تشقّقت من

طول انتظار المطر، يتجمّد الهواء فينقبض صدرها اللّاهث، تطلق صرخات مجلجلة، يرتعش فخذاها المنفرجان ويرتجف مرفقاها الرّقيقان، تعضّ على شفتيها، العليا ثمّ السّفلى، تزمّهما بشدّة، تغلق عينيها فيسيل منهما خطّان من الدّموع، تئنّ وتتأوّه، تصرخ كصبيّة حال ثقب أذنيها قبل أن ينسدل على شحمتيهما قرطان جميلان، تسحب العشب من حولها، تجذبه فلا يتقطّع، تنهار أصابعها الدّقيقة المرتعشة، تهزمها الحشائش اليابسة التي تمسّك جذورها بالأرض. تملأ رئتيها الفارغتين هواء، ترتشفه بشفتيها العطشاوين، تشرب منه بنهم، تبتلعه، تزفر وتئنّ، كأنّها تتنفّس من إبرة حقْنٍ تصل الأرض بالسّماء، يتصبّب وجهها وشعرها عرقا، رغم البرد الذي تصفع نسائمُه الثّلجية جلدَها الرّقيق وينهمر جليده على الغابة، تدفع بأنفاسها الواهنة، تخونها عضلات حوضها وبطنها الحائرة. فجأة، يخيّم صمت مطبق يُخرس المجاهدة، ينقطع الضّوء، تسمع صوت صراخ صبيّ تمسكه صفيّة مقلوبا من عرقوبيه، تقرّبه إليها، تشمّه، ترى وجهه المنير في ضوء القمر المكتمل، تبتسم، ينهار مرفقاها ويسقط ظهرها ورأسها على الأرض، ويتمدّد ذراعاها على العشب، إنّه الخلاص.

ابتسامة رقيّة كانت فرحا بولادة ابنها الذي راح يصرخ ويملأ بصوت رغائه المكان ويرجّ سكون الغابة، كان يشوبها خوف سرى في قلبها من أن يلحق بها وبوليدها المسلّحون العابسة، خطر ببالها لحظة اصطدمت في هروبها الأوّل، قبل شهر، بجسد ڤرطوع فسقطت أرضا، كان لا يزال مع الفنوانيّين في غابة تفاسور، كان ڤرطوع يضحك بسخريّة فظّة بينما كان حلقها يغصّ بمرارة فظيعة وهي ترمقه باشمئزاز وتقزّز، بدأ يُصدر صوتا

كعواء الذّئب وهو يحدجها بعينيه البشعتين، كان يعوي باستهزاء، فجأة صمت عن العواء، ثم نبح:

- بكري... بكري... زماااان...زماااان... في الزّمن الذي كانت فيه الذّئاب تتكلّم، دخل ذئب الغابة قبيل الفجر، كانت جميع الحيوانات نائمة، توقّف وتلفّت من حوله، قال بصوت مسموع: يا لها من غابة خالية! صمت قليلا ثم استدرك متذكّرا: لو كانت خالية حقّا لخلت منّي أنا أيضا، ثم مضى في حال سبيله.

تبسّم گرطوع وقال شامتا: إنّك تعيدين قصّة الذّئب يا ابنة الحاج الطّاهر، في الغابة ذئاب كثر غيرك، وأنا واحد منهم.

قال ذلك بينما كان يشير بسبّابته إلى صدره، وانفجر بعدها مقهقها.

كانت تلك آخر مرّة ترى رقيّة فيها گرطوع، سحبها من مرفقها بعنف، ووضعها في السّيارة وأعادها إلى الكازمة في غابة تفاسور، ثمّ رحل مع الفنوانيّين إلى غابة البرّاح في جنح الظّلام.

* * *

يتلمّظ قطّ محمود البقّال في المطبخ ويموء مواء توسليّا ينمّ عن جوعه الشّديد، تحسّر زينب الواقفة أمام منضدة المطبخ بينما كانت تغسل أواني الغداء إذ يتمسّح على ساقيها المختبئتين خلف بدعيّةٍ قطيفةٍ زرقاء، بعدما امتنع عن أكل عظمة فخذ دجاج، كانت قد التقطتها من صحن متّسخ قبل أن تضعه في طست الغسيل، ورمت بها في الحوش علّه يتبعها ويكفّ عن موائه الأشبه برغاء طفل رضيع، غير أنّه ما لبث أن عاد من جديد، فهمت أنّ

العظم كان قاسيا على أضراسه الواهنة، لم تجد ما تعطيه إيّاه فقد مسح آل محمود صحونهم بآخر شدق خبز، ولم يتبق في قدرهم ما يسدّ رمق مينوش.
قرفصت زينب وراحت تمسح بيدٍ حانية على شعر القطّ وتعتذر له عن قلّة حيلتها، إذ لا تجد ما تقدّمه له، وعدته بوجبة شهيّة في المستقبل القريب:
- يا مينوش، لو يعود بشير ابني بخير فسأشتري لك كيلو من السّردين، ولو تطلّب الأمر منّي أن أصطاده لك.
تذكّرت زينب أنّ بائع السّردين لم يأت إلى القرية منذ أن استوطن المتطرّفون غاباتها وجبالها وسدّوا طرقها، فلم يعد أحد يجرؤ على القدوم إلى فنوان، ولم يعد مينوش يرجع من أمام الحمّام برائحة السّمك التي كانت تملأ بيتها بمجرّد دخوله، تنهّدت وتربّعت مفترشة إسمنت المطبخ، احتضنت صحنا كانت قد غسلته في الطّست فبلّل صدر بدعيّتها، وألقت برأسها على الحائط مرتكزة عليه، وانهمرت عيناها بالدّموع باكية، واسترسلت في كلام خافت:
- لقد أوحشتني كثيرا يا بشير يا ولدي، طال فراقك ولم يعد فيّ طاقة على احتماله، ليتك لم تتركني وبقيت هنا أمامي... في حضني.
منذ أن ألزمت إدراة التّجنيد بشير قبل أربعة أشهر بمدّة ستّة أشهر إضافيّة عن فترة خدمته الوطنيّة التي استمرت عاما ونصف، لم تره أمّه زينب، كان قد أنهى قبل ذلك دراسته الجامعيّة وتخرّج مهندسا مدنيّا غير أن واجب الخدمة الوطنيّة حال دون حصوله على وظيفة، لم يتمكّن من دخول مسابقات التّوظيف حتّى يثبت اجتيازه لفترة التّجنيد. أمضى بشير مدّة التّدريب في مدرسة "لالات" في سيدي بلعباس، ثمّ حُوّل بعد ستّة أشهر إلى قرية تلتهمها غابات جبال الونشريس، وتلتهب بنيران الرّصاص بين

الجيش والمتطرّفين. لم ينعم بالرّاحة مذ ذاك، أُسندت له قيادة فصيلة من الجند، وفي إحدى اللّيالي فاجأه هو وجنوده كمين للإرهابيّين.

قُتل بشير قبل أن تحتضن أمّه زينب الصّحن بساعات قليلة، وقُتل جميع العساكر في فصيلته، وبعد يومين عادت جثّته في تابوت مسجّى بالعلم الوطني، كان موضوعا في صندوق شاحنة ماجروس عسكريّة. لم تعد روح بشير معه، ارتفعت إلى السّماء بعدما ضاق بها أهل الأرض ذرعا.

تفوح رائحة الموت من بيوت فنوان بعد أن مات جيلالي هانوي أسابيع عقب حادثة غابة البرّاح، تسبّبت له سقطته ليلة تعارك مع ڤرطوع بكسر في رجله اليمنى، وانحلّت جبيرة رجله التي أصيبت في انفجار بيته بمزرعة ڤاريك، وبعد أشهر من العلاج اكتشف أنّ الغرغرينة غزت ساقه التي جُرحت حديثا، أُجبر على قطعها في أعلى فخذه بعد أن استشرى الدّاء فيها، غير أنّه لم يتحمل مزيدا من الآلام فقد أضحى طريح الفراش لا يقوى على الحراك، أصيب بإحباط شديد وصدمة قاسية ساءت على إثرهما حالته النفسية لفقده حيويته المعهودة، وفي ليلة شاتية شديدة البرد فاضت روحه بين يدي ابنه إبراهيم، كان قابعا عند رأسه يستمع لبعض وصاياه، في الغد دُفن هانوي تحت حراسة مجموعة من العساكر ودون أن يشيّعه سكّان القرية في جنازة تليق بمقام محارب فنوان القديم، خوفا من مباغتة فلول جماعة عاصم أو احتمال نصبهم لألغام في المقبرة التي تبعد قليلا عن القرية، أمر قائد المجموعة فرقته بأن تقف استعدادا وتقدّم السّلاح لجثمان هانوي تحيّة له وتقديرا لجهاده ضد المستعمر ومقاومته للإرهاب، كان المطر لا يزال ينهمر على الوجوه عندما غادر إبراهيم المقبرة برفقة العساكر.

دُفن بشير بجانب قبر هانوي، في مقبرة سيدي مبارك، بعد موته بعشرة أيام. كان الحاج بوخاتم من وقتها قد أجّل التّفكير في ترتيبات عرس ابنه قدّور على رقيّة، مواساةً لعائلة هانوي ثمّ لمحمود البقّال الذي فقد ابنه هو الآخر.

كان الحاج بوخاتم قد قرّر أن يخطب رقيّة لأكبر أبنائه الأحياء، انقضت عدّتها الثّانية التي كانت رمزيّة أراد من خلالها أن يردّ الاعتبار إلى صديقه وصهره الحاج الطّاهر، حملها بنفسه إلى سعيدة كما لو أنّه كان يحرسها ويحميها من أحد يودّ اختطافها ثانية، لم تمرّ دقائق معدودة على استقبال الحاج الطّاهر وابنه موفّق له في صالة بيته، حتّى بادرهما بإعلان نيّته عن خطبة رقيّة لابنه قدّور في أوّل يوم على انقضاء عدّتها، التي كانت أيضا حيلة ماكرة منه ليُبعد الخطّاب عن بيت الحاج الطّاهر. لم يترك فجأتهما التي قلبت قسمات وجهيهما المستغربين تلتهمهما، حتّى راح يسرد عليهما مبرّرات طلبه ذاك، قال إنّه خاف أن يسبقه غيره بخطبة رقيّة قبل أن يبادر هو إليها، كان هذا مبرّره لاستعجاله الأمر، أزاح بكلامه بعض الغرابة عن وجهيهما، غير أنّه كان عليه أن يسوق مبرّرات أكثر إقناعا لملابسة زواج الحموّ من زوجة أخيه السّابقة، أوضح لهما خشيته على مصير حفيده حسان وأنّه لا يرغب في أن يعيش ويكبر عند أناس قد يسيئون معاملة الكنّة وابن الزّوجة، ولا يلتفتون إلى تربيته والاعتناء به، بل ربّما قسوا عليه، زواج رقيّة من عمّه قدّور سيشعره بأنّه لم يفقد أباه حسان، وسيجنّبه حياة اليتم والضّياع عند الأغراب، وسيجعله دائم القرب من جدّيه وأعمامه.

وعد الحاج الطّاهر بينما كان يُخفق في كلّ مرة يحاول فيها إخفاء أساريره المنفرجة، التي سحبت استغرابه من جبهته المسترخية، الحاجَ بوخاتم بأن يفكّر في الموضوع، من الضّروريّ أن يعرف رأي ابنته فيه، ثمّ يخبرهم في وقت لاحق بجوابه على طلبهم يد رقيّة.

كان حدس الحاج بوخاتم في محلّه وصدقت مخاوفه، لم يمرّ أوّل أسبوع على عودة رقيّة إلى بيت أبيها حتّى انهال الخطّاب على بيتهم يحجّون إليه من كل حدب وصوب، كان الحاج الطّاهر يعد الواحد منهم بالتّفكير في الأمر، غير أنّ خشيته من تكاثر الوافدين عليه، وخوفه من أنّ ذلك سيجعله في حرج مع الخطّاب من المعارف والمقرّبين الذين يعزّ عليه رفض خطبتهم، جعله يقرّر الحسم فيه، ولا يطيل في الموضوع أكثر ممّا يحتمل، فأرسل إلى الحاج بوخاتم بأمر موافقته على خطبته ابنتَه لابنِه.

... بعد مرور عام

التقى مسعود بموسى بوزيد أخيرا، هكذا بشكل مفاجئ ومن دون مقدّمات حتّى. بعد عودة مسعود إلى العاصمة من فنوان وقبل سفره إلى إنجلترا بيوم واحد، اتّصل به موسى على هاتف شقّته، كان ذلك قبل مرور العام، كان لقاءً مقتضبا قبيل توجّهه إلى المطار بساعات، لم يكن المقام يحتمل إثارة موضوع غياب موسى، كان أشبه باختفاء، أتاحت لهما عشر دقائق كانت مدّة لقائهما، سلاما حارّا ليس بالقصير، أعقبه مسعود بإبلاغ موسى عن سفره إلى إنجلترا، كان استغراب موسى بقدر مفاجأة مسعود له، تبادلا أرقاما هاتفيّة على عجل ثمّ افترقا على أمل اللّقاء من جديد.

بعد مرور عام ونيّف على ذلك اللّقاء، كان موسى قد وصل إلى لندن، ومن كابينة هاتفيّة حمراء لندنيّة اتصّل بمسعود على رقم عمله في راديو بي بي سي بمبنى بوش هاوس بشارع "كينغزواي"، كان يستعدّ للخروج مع نهاية دوامه على الخامسة مساء، طلب من موسى أن ينتظره عند بوابة المطار الرئيسية حتّى يوافيه عندها، ثمّ يترافقا من هناك إلى شقّته في شارع العرب غير بعيد عن مكان التقائهما.

كان أوّل اتّصال لمسعود بموسى في مكتبه بالجزائر العاصمة، شهرا بعد مجيئه إلى لندن، أجابت السّكرتيرة على طلبه بالحديث معه بأن قالت له أنّ عليه أن ينتظر لبعض الوقت حتى تتأكّد من وجوده بمكتبه. خلال حديثهما الهاتفيّ لم يشأ أن يثير معه مسألة اختفائه، لم يفتح موسى بدوره سيرتها. ومن يومها بدأ التّواصل بينهما، إلى أن قرّر موسى أن يقضي إجازة قصيرة في بريطانيا، "حَجّة وحويجة"، قال موسى لمسعود وهو يُعلمه بأنّه سيُمضي

عطلته قريبا، بالقرب منه، رحّب مسعود بالفكرة وأبلغه أنّه فعل حسنا بذلك، كونه سيحظى من دون شكّ بأوقات ممتعة.
اندهش موسى عندما بلغ بهما مشيهما، من النقطة التي توقف عندها التاكسي إلى جسر ماريلبون، نهايةَ شارع العرب، قال لمسعود أنّه يشعر وكأنّه في بلد عربيّ لما رآه من مقاهي ومطاعم شرقيّة ومحالّ بلافتات كتبت بخطّ عربيّ، لا تبعد شقّة مسعود كثيرا عن ذلك المكان، لم يتطلّب الوصول إليها أكثر من قطع شارعين اثنين.
في المطبخ بالشّقّة التي يستأجرها مسعود، جلسا متقابلين إلى طاولة الطّعام، كان مسعود قد حضّر عشويّة على الطّريقة الفنوانيّة، شاي ومربّى وتوست عوضا عن خبز المطلوع، وبعض البسكويت وقليل من الفول السّودانيّ المحمّص والمملّح، لم يطل الأمر بموسى كثيرا، حتّى أدرك أنّ مسعود ينتظر منه تفسيرا عن اختفائه الغريب، حتّى وإن لم يبح هو بطلبه منه، فلم يعد له من لزوم، وقد أصبح شيئا من الماضي المدفون وسرّا لصاحبه ليس من اللّائق التّطفّل عليه.
انشقّت شفتا موسى اللّتان ظلّتا مغلقتان طوال الوقت، إلّا ما كان من كلام مقتضب حين التقيا أمام بوابة مطار هيثرو، أو لحظة اندهاشه من الطّابع المعماري لشارع العرب، حيث ساد صمت مطبق أغلب وقتهما الذي لم يتجاوز السّاعة، قضى مسعود جزءا كبيرا منه في تحضير ما يضيّف به صديقه. تشكّلت من شفتي موسى ابتسامة رائقة بدت حقيقيّة وغير متكلّفة رغم ما اعتراها من اضطراب طفيف، تنهّد قليلا، مسّد عينيه بأصابع يده اليسرى ومرّرها على وجهه من أعلى إلى أسفل، تزلّج الإبهام

على خدّه الأيسر وانحدرت بقيّة الأصابع على شقّ وجهه الأيمن، التقت جميعها أسفل ذقنه، بدت نبرة صوته مرهقة بعض الشّيء.

قال موسى أنّه كان وقت غيابه في الحجّ، هكذا افتتح الموضوع بلا مقدّمات أو تمهيد، واصل الحديث دون ارتباك، أخبره أنّه سافر إلى مكّة المكرّمة أثناء غيابه الغامض ذاك، وعاد بعد شهر من الاختفاء، لم يشأ مسعود أن يقاطعه رغم دهشته واستغرابه من كون الذّهاب إلى الحجّ لا يتطلّب كلّ تلك المداراة، استرسل موسى في الحديث ولم يتوقّف بينما كان يقرأ علامات حيرة ارتسمت على وجه مسعود، قال له أنّ الحكاية طويلة جدّا غير أنّه يمكنه أن يوجزها له، أخبره أنّه قبل استقراره في العاصمة، قبل ثمانية أشهر تقريبا عن اختفائه الغامض، كان قد بدأ في استيراد شحنات قمح تحت غطاء من جنرال متنفّذ، كان يوفرّ له الحماية خلال جميع مراحل عمليّاته التّجاريّة تلك؛ من الإجراءات الإداريّة مع وزاراتي التّجارة والفلاحة، إلى المعاملات البنكيّة إلى الجمارك. اكتشف يومين فقط قبل قراره الذّهاب إلى الحجّ بعدما استدعته مصالح الجمارك أنّ قمح الشّحنة القادم من روسيا، وليس من فرنسا كما كان مقرّرا له، والذي بقي في الميناء لأيّام كان رديئا، خلال تلك المدّة قامت مصالح الجمارك مستندة إلى قرار مفتشيّة مراقبة الجودة وقمع الغشّ بوقف إجراءات الشّحن من الميناء ريثما يتمّ التّأكّد من حالة الاشتباه.

صُعق موسى حينما علم من تقرير مفتشيّة مراقبة الجودة وقمع الغشّ الموضوع فوق مكتب ضابط الجمارك، بأنّ الشّحنة رديئة، ومن النّوعية التي تقدّم علفا للخنازير في بلد المنشأ، كان تدخّل الجنرال بعد أن بلغته معلومات

بالخصوص من مصادره الخاصّة بمصالح الجمارك سريعا، رفع الحجز عن الشّحنة واستصدر رخصة دخول لها، وحوّلها إلى مخازن الاستقبال دون علم موسى حتّى. ذكر موسى لمسعود أنّها المرّة الأولى التي شعر فيها بضميره يتحرّك على تلك الهيئة، إضافة إلى أنفه المهان، كان يحرّكه بإصبعيه بينما كان شارد الذهن وغارقا بتفكيره فيما حدث، إذ كان يستمع إلى الرّائد مدني يبلغه بالهاتف بما حصل مع شحنة القمح تلك، كانت الثّالثة عشر منذ بدايته مع تجارة الاستيراد، حينها تأكّد له أنّه كان سببا في إدخال آلاف الأطنان من القمح الرّديء إلى البلد.

قال لمسعود أنّه ومنذ أخذ مستحقّاته من شركة الجسور والطّرقات كان، إذ يضع نصب عينيه جمع ثروة طائلة، قد شعر بنفسه وهي تتّخذ قرارا بأنّها ستفعل أيّ شيء من أجل الوصول إليها، ومنذ ذلك الوقت استخدم جميع الأساليب وسلك كلّ الطّرق المؤدّيّة إلى روما الثّروة؛ رشاوي، هدايا، عمولات، تدليس، غشّ، تزوير. قال له والتّحسّر بادٍ على وجهه أنّه كان على وشك أن يصبح قوّادًا للجنرال وأصدقائه، ورغم كلّ ذلك لم ينتبه لما حلّ به من خزي وهوان من أجل المال والثّروة التي أعمت بصره وأصمّت أذنيه.

أطرق موسى برأسه هنيهة، مرّر يديه على شعره ثمّ استأنف كلامه، ذكر لمسعود أنّ أوّل شيء خالجه وفكّر به، وهو يشعر بالمذلّة والهوان والصّغار، حتّى مع ثروته الطّائلة، هو أحمد، اندهش مسعود لذلك وسأله عن السّبب، قال موسى وهو يجيبه، أنّه لم يكن مجرّد تذكّر عاديّ، شعر كما لو أنّه وأحمد وُضعا في ميزان عملاق، كلّ واحد منهما في كفّة، أحسّ بأنّه كرِيشة في

مهبّ عاصفة هوجاء، بينما أحمد كالعملاق راسخ ووازن لا يتزحزح أو يلين، فكّر عندها في هدف كليهما، كان أحمد يحصّل العلم من أجل أن يساهم في بناء وطنه، بينما كان هو يجمع الثّروة بغرض إشباع نهمه المستعر، اغتيل أحمد من أجل تحرير ذلك الوطن وضمان استقلاله الغذائيّ والسّعي جاهدا لاستعادة قمحه وقُوت شعبه، في الوقت الذي كان هو يخرّبه بإدخال علف خنازير كان يطعمه لبني جلدته.

خرج موسى من إدارة الجمارك، ركب سيارته المرسيدس ومضى هائما على وجهه لا يلوي على شيء، قال لمسعود أنّه لم يسبق له أن شعر بوخز الضّمير كما شعر به في ذلك اليوم، كان يختنق وقلبه يحترق، فكّر في كلّ شيء.... خصوصا في الانتحار، ساورته وساوس بأن يلقي بنفسه من أعلى جسر تيليملي، وفي طريقه إليه لمح وكالة سياحيّة، توقّف عندها، رأى على زجاج واجهتها إعلانا عن الحجّ، نزل من سيّارته، اقترب وقرأ مواعيد وآجال الحجز والسّفر، بقي يومان فقط، باشر الإجراءات من فوره، وسافر بعدها بأسبوع.

لم يجد مسعود، الذي ظلّ يستمع إلى موسى بإصغاء شديد دون أن يقاطعه، ما يعلّق به على كلامه، خشي أن تكون أيّ كلمة يتفوّه بها حكما قاسيا على أفعاله، أو تقريعًا شديدا له على ركونه إلى جنرال فاسد دون حساب للعواقب، أو سهام انتقاد يوجّهها نحو ضميره المتعب أصلا، تفادى كلّ ذلك أثناء حديثه له.

كان مسعود إذ يستمع إلى موسى وهو يسرد عليه جشع الجنرال ونهمه غير الطّبيعي الذي أنساه وطنه وشعبه، فلم يعد يفكّر سوى في إرضاء نزواته

وإشباع شهواته، مستغرقا في تفكيره فيما إذا كان ذلك الجنرال على علاقة باغتيال أحمد، ربّما اعترته هواجس بكونه سيصبح حاجزا بينه وبين استمرار تدفّق أموال طائلة كانت تدخل خزائنه الشّرهة والممتلئة بعرق الشّعب، حينما علم بمضمون بحثه، فصار لزاما عليه إزاحته من الطّريق والتّخلّص منه بقتله... "لا يوجد يقين بذلك، تبقى مجرّد شكوك، لكن من يدري؟ قد يكون هذا ما حدث فعلا"، تاه مسعود في خضمّ بحر هواجسه العميق.
بعدما أنهى موسى حديثه، قال له مسعود أنّ الله أنجاه من الانتحار فدلّه على طريقه المستقيم في لحظة فارقة، وصرفه عن مستنقع موحل كان سيبتلعه، ويحوّله إلى إنسان بلا ضمير فيصبح وحشا مثل تلك الوحوش الآدميّة التي على شاكلة الجنرال. اقترح عليه حتّى يخرجا من غمّ تلك الحوادث بأحاديثها المؤلمة والمنكّدة، أن ينطلقا في جولة إلى وسط لندن، ولتكن البداية من ساحة بيكاديللي.
اتّفق الاثنان على تناول العشاء في مكان قال عنه موسى أنّه يجب أن يؤرّخ لذكرى لقائهما في لندن. اقترح مسعود عليه بعد أن سأله عن المكان، أن يكون ذلك بمنطقة مشهورة، أطلق ضحكة بينما قال له أنّ فكرته تلك هي من باب تفادي التّيه في لندن، تفاعل موسى مع دعابة مسعود، الذي أخبره أنّه لا يوجد مكان في بريطانيا كلّها للالتقاء مع غريب عنها، وخاصّة إذا كان قادما من بلد عربيّ، من محلّات هارودز في منطقة "نايتس بردج" جنوب غربيّ لندن الذي يمثّل قلبها النّابض، غير بعيد عن ساحة بيكاديللي، من لم يزرها فلا داعي لأن يروي قصص زيارته للندن حال رجوعه إلى بلده، سوف لن يذكر لهم شيئا عنها، بل إنّه سيدّعي كاذبا أنّه

كان في لندن. قال مسعود أنّ الأمر لن يأخذ منهما أكثر من نصف ساعة مشيا على الأقدام، سيكون ذلك فرصة لاكتشاف ما بينهما من شوارع وأماكن.

مع خروجهما من الصّالة المصرية في الطّابق الأرضي لمحلّات هارودز كانت السّاعة لحظتها التّاسعة والنّصف، إلى جانبها اختار الصّديقان أن يتناولا عشاءهما في صالة الطّعام الرّئيسيّة، الإضاءة خافتة في المكان ومحفّزة على الإصغاء والتهام الطّعام، أشار مسعود بطقطقة صدرت ما بين سبّابته والوسطى إلى النّادل، لم يأخذ منه الوقت أكثر من بضعة ثواني حتّى كان ماثلا أمامهما كمارد مصباح علاء الدّين، لم يكثر موسى الكلام معه بعدما استمع إلى طلب مسعود، فرغبته في الطّعام لا تختلف عنه. غادرهما النّادل بطلبيهما، وفي الأثناء راح مسعود يحدّث موسى عن المكان، وكيف أنّ مالكه رجل الأعمال المصريّ محمد الفايد الذي تدور قصّة عشق بين ابنه دودي وديانا أميرة ويلز هذه الأيّام، قد اشتراه قبل اثني عشر سنة، أخذ يعطيه لمحة عن مساحته وعدد أقسامه وما يحويه من سلع فاخرة في محلّاته الباذخة، بالإضافة إلى أشهر الشّخصيات التي زارته قبل أيّام فقط.

بعد العشاء عزما على التجوّل في المكان، كان كلّ محلّ يتضمّن موضوعا معيّنا، عطور، تحف وهدايا، حقائب نسائيّة، ساعات، ذهب ومجوهرات، إكسسوارات، ثياب وملابس فاخرة، كانت كلّها لماركات عالمية عريقة ونخمة، ديور، شانيل، فيرساتشي، گوتشي وغيرها، ضحك موسى كثيرا حينما رأى أن سعر ساعة تيسوت السّويسية هو ثمانمئة جنيه إسترليني، قال

لمسعود أنّه حينما يكون في محلّه في سعيدة يشعر بنفسه أنّه من أثرى التّجار، تبسّم وأضاف:
- ماذا سيقول صاحب محلّاتٍ مساحتها تسعة هكتارات من السّلع الثّمينة، ويزورها سنويّا خمسة عشر مليون شخص؟!
لم يشعرا بالوقت وهو يذوب بين أيديهما بينما يتجوّلان في تلك المدينة المستيقظة من المحلّات والقاعات والصّالات والمقاهي والمطاعم التي لا تنتهي ولا تكفّ أبوابها عن ابتلاع البشر ولفظهم، توقّف موسى عند قاعة شاي لمح من خلال زجاج واجهتها شاشة تلفزيون، أوقف مسعود، قال إنّه يريد مشاهدة ذلك الفيلم الذي يعرض على الشّاشة، استغرب مسعود الأمر، أخبره موسى أنّه لمح الممثّلْين الفرنسيّين آلان دولون وجون بول بيلموندو، وأنّ الفيلم حتما هو "بورصالينو"، قال إنّه شاهده في سينما بالاس في سعيدة، كان ذلك مع نهاية السّبعينيات أو مطلع الثّمانينيات، لا يتذكّر الأمر جيّدا. على طاولة قريبة من الشّاشة التي لم يتمكّنا من مقابلتها، طلبا شايين ليبتون وأخذا يدردشان لبعض الوقت.
الساعةُ داخل المقهى تشير إلى ربع ساعةٍ قبل الثّانية صباحا من آخر يوم في شهر أغسطس من سنة سبع وتسعين، رفع مسعود ساعده الأيسر ورجّه قليلا، حتّى تأخذ ساعة يده المختبئة تحت كمّ قميصه مكانها المناسب بإزاء عينيه فيتمكّن من معرفة الوقت، فعل ذلك بعد أن لاحظ انقطاع بثّ الفيلم في الشّاشة وهو يرمقها مصادفة، طلب من موسى الانتباه لخبر عاجل، انبثقت صورة ثابتة مكتوب عليها بالإنجليزية: بي بي سي 1 "تقرير إخباري"، صاحَبها صوت أنثويّ يعلن عن الاضطرار لقطع بثّ الفيلم، والتّحوّل إلى

مقدّم النّشرة مارتن لويس في أستوديو الأخبار، يبدو أنّه قد جيء به من فراش نومه على عجل ليذيع الخبر في هذا الوقت المتأخّر جدّا، التفت موسى نحو الشّاشة في الوقت الذي ظهر فيه مارتن، وقد استبدّت به كآبة وغمر وجهه الأبيض المحمرّ حزن عميق، راح يذيع الخبر بصوت جنائزيّ:

"لقد قطعنا بثّ الفيلم لنخبركم بأنّنا تلقّينا تقارير تفيد بأنّ ديانا، أميرة ويلز، قد أصيبت بجروح بليغة في حادث سير في فرنسا، وتقول الإذاعة الفرنسيّة إنّ الحادث وقع غربيّ باريس، عندما اصطدمت السّيارة التي كانت تقلّها بسيّارة أخرى في نفق، ولم تكشف التّقارير الأوليّة ما إذا كانت الأميرة قد أصيبت بجروح خطيرة، ولكنّها زعمت أنّ مرافقها، دودي الفايد، وسائقها قد قُتلا في الحادث، ولا يوجد خبر عن حالتها وحتّى الآن التّقرير غير مؤكّد، كما تمّ الإبلاغ أيضًا عن مقتل أحد ركّاب سيارة الأميرة، ويقول أحد التّقارير عن الشّرطة الفرنسيّة إنّ الأمر يتعلّق بصديقها دودي الفايد، وتمّ الإبلاغ كذلك عن مقتل سائق سيّارة الأميرة... أكرّر أنّ هذه التّقارير غير مؤكّدة. سنوافيكم بمزيد من الأخبار حالما نحصل عليها".

التفت موسى الذي لم يفهم شيئا ممّا قاله مقدّم الأخبار، وظلّ صامتا حتّى يتيح لمسعود سماع الخبر، يلتصق الغموض بعينيه اللّتين راحتا تضيقان فوق وجه بدأ يهتز طالبا بعض التّوضيح:

- هناك أنباءً غير مؤكّدة تقول إنّ الأميرة ديانا قد تعرّضت لحادث سير، وهي الآن في حالة حرجة في مستشفى بباريس، وأنّ صديقها دودي الفايد قد قتل في الحادث.

أجاب مسعود ملامحَ موسى المستفهمة، وأطرق في شرود بدا في عينيه المنفجرتين والمسمّرتين، بينما راح موسى يتابع فيلم "بورصالينو"، رغم كونه يُبثّ بالإنجليزية إلّا أنّ مشاهده جعلته يغوص في تلك الأيّام التي شاهده فيها، عادت به ذاكرته إلى سعيدة وعبق ماضيها بأيّامه الجميلة على الرّغم من بساطتها، فجأة التفت إلى مسعود وهو لا يزال تائها في ذهول عميق، حاول أن يوقظه منه:

- مسعود... أين ذهبت؟

رفع مسعود رأسه نحو موسى، بدا بشفتيه المفتوحتين وزفرته التي أطلقها، وكأنّه يُخرجه من بركة سباحة بعد غطس عميق، ردّ على هزّة موسى الصّوتيّة:

- لا شيء... عدت قليلا إلى الوراء... إلى حادث مقتل أحمد، تذكّرت لحظة نزل قاتله من السّيّارة واتّجه نحونا، وأطلق رصاصة أصابت صدره.

- وما الذي ذكّرك بذلك؟

- لست أدري، ربّما سيّارة ديانا... مقتل الفايد... المستشفى في باريس... الشرطة...

أطرق مسعود قليلا، كان قد أخرج رجليه من تحت الطّاولة والتفت بكلّيته ناحية التّلفاز، أحنى ظهره، ووضع مرفقيه فوق فخذيه، أطبق كفّيه على بعضهما وقرّبهما من وجهه، الإبهامان ملتصقان تحت الشّفة السّفلى، والسّبّابتان تلتقيان بين عينيه، أخذ نفسا عميقا ثمّ زفر بعمق النّفَس، وأردف:

- أو ربّما كان ذلك بسبب... احتمال... احتمال... أن يكون الحادث مفتعلا.
- مفتعل؟! لكن هذا مجرّد حادث سير جدّ عاديّ.
- ظاهريًّا يبدو كذلك، لكن... من يدري؟ بالإمكان العبث بفرامل السّيّارة، بعجلاتها... بأيّ شيء فيها يجعلها تصطدم بسيّارة أخرى تسير في عكس اتجاهها أو بجدار نفق، أو ربّما سيّارةٌ كانت تطاردها جعلتها تصطدم به، أو أحدهم سمّم السّائق أو نوّمه أو أطلق النّار عليه في تلك اللّحظة ففقد السّيطرة على السّيارة.
- ربّما، لكن... ليس إلى هذه الدّرجة، يبقى الأصل فيما وقع أنّه حادث سير عاديّ يحدث في أيّ وقت وفي أيّ مكان.
- لكنّه لا يحدث بهذه البساطة والعاديّة، مع ابن ملياردير عربيّ مهاجر يصرّ على الزّواج من أميرة من العائلة البريطانيّة المالكة التي لم تُخفِ معارضتها لذلك، في ظلّ رفض العديد من الدّوائر والأوساط الدّاخلية وحتّى عالميا لهذا الزّواج، بما في ذلك عائلة الملكة؛ حماتها السّابقة وجدّة ابنيها، أحدهما سيصبح ملكا لبريطانيا العظمى في يوم من الأيّام، هل تعتقد بأنّه من اللّائق أن يكون زوج أمّه وإخوته منه عربًا، حتّى ولو كانوا مليارديرات وأثرياء ويحملون الجنسيّة البريطانيّة؟!
- أوووه، يا لخيالك مسعود! لكن رغم كل ذلك يبقى الحادث هو الأصل ومحاولة التّخلّص من الأميرة وصديقها مجرّد احتمال... ولماذا حتّى يُقتلا في حادث سير؟! كان من الأسهل التّخلّص منهما بإطلاق رصاص.

- الافتعال هو القاعدة، الاستثناء أن يكون الحادث عرضيّا، هكذا تعلّمت من مقتل أحمد، حادث السّير سيتستّر على الجريمة تماما كما غطّى الإرهاب والأزمة الأمنيّة على اغتيال أحمد، إخفاء الجريمة وطمس آثارها سيكون عسيرا على الفاعل في حال استخدم سلاحا، لا يوجد أفضل من التّغطية عليها بحادث سير عاديّ جدّا حتّى لا تلتصق بالجهة المدبّرة له.

تنبّه مسعود إلى الوقت في ساعة يده، الثّانية والرّبع، قام من فوره وذكر لموسى بأنّه من المستحيل أن يلفّا لندن في يوم واحد، ولا حتّى في سنة، وأنّ عليهما العودة إلى الشّقّة، حتّى يستريحا في يوم الأحد ذاك قبل أن يستأنف عمله مع بداية أسبوعٍ سيكون حافلا بالمستجدّات، على وقع حادث سير أميرة ويلز الذي بدا له غامضا وتُخفي ثناياه، ملامح لغزٍ محيّر.

* * *

تمّ

الفهرس

I - فنوان 22

II - سُلالة قابيل 108

III - صاحبة الجلالة والمتاعب 194

IV - شهوة الثّروة 251

V - سلطة الأمر الواقع 291

VI - حُبّ بين السّماء والأرض 323

VII - شواهد الحقيقة 347